البيان والتبيين

لأبى عثمان عمرو بن بحر بن محبوب

الجاحظ

كتب الجاحظ تعلم العقل أولا
والأدب ثانيا
ابن العميد

حققه وشرحه

حسن السندوبى

الجزء الأول

الطبعة الثانية

وهي تمتاز عن سابقتها بدقة التحقيق والضبط والتهذيب وزيادة الشرح

القاهرة فى سنة ١٣٥١ هـ - ١٩٣٢ م

يطلب من المكتبة التجارية الكبرى بأول شارع محمد على بمصر
لصاحبها : مصطفى محمد

المطبعة الرحمانية بمصر
بشارع الخرنفش رقم ٣٥

ابو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ



ابتدع الشارح هذه الصورة وتخيلها لكتابه « أدب الجاحظ »

الجـــــاحظ *

تحليل أدبه وعلمه ونفسيته

١

كان الكُتّابُ ، إلى ما قبل ظهور الجاحظ ، يتمايزون متقاربين ، في ضروب من العلوم ، وصنوف من الآداب ، وألوان من المعارف ؛ فكان كل واحد منهم يصرف همته وَوَكْدَهُ ، ويبذُل قوته وجُهده ، في الاختصاص بالضرب الواحد أو الضربين من أنواع العلوم . أو يقف نفسه على الصنف أو الصنفين من طرائق الآداب ، أو يتجه نحو الشُّعبة وما يماثلها من ألوان المعارف . كأن يعد نفسه لأن يكون كاتباً في ديوان الخراج ، أو مترسلا في ديوان الإنشاء ، أو يقوم بحجابة بعض الأمراء ، أو يكون في أسباب أحد الوزراء . على أن يمازج هذه المؤهلات التي أعد نفسه بها ، شيء مما يدور حول عمله أو يتصل به من المعارف العامة . وكان إذا سمت همة أحدهم به إلى التطلع إلى شيء من العلوم والتوسع في بعض الفهوم ، مما يكون كالشِّيَةِ والحلية إلى جانب صناعته التي اتسم بها ، فلا يكاد يعدو في ذلك حد الشَّدْوِ ، وتناول الأطراف ، دون التعمق والتحقق والنفوذ . اللهم إلا القليل منهم ممن كانوا يتسامون إلى الوزارة ، ويتطلعون إلى الصدارة ، أو مَن يرون الزيادة في العرفان زيادة في القدر والجاه ، وفي استتمام آلة التجمل والتثقف سبباً إلى الكمال . وكانت المادة التي يكوِّنون بها معارفهم ، ويَرُبُّونَ بها معلوماتهم لا تكاد تخرج عن حد الحفظ لكتاب الله الكريم ، وما ثبت لديهم من أحاديث

* لم نر وجها لاعادة ترجمة الجاحظ هنا كما كانت في الطبعة الاولى لأننا أفردنا بذلك كتابا باسم «أدب الجاحظ» فمن أرادها فعليه به . أما هذا الفصل فقد صدرنا به هذه الطبعة وفيه الابانة الكافية عن تحليل الجاحظ وأدبه وعلمه وفلسفته

الرسول ، صلوات الله عليه ، واستظهار الجيد من كلام الخلفاء الراشدين وخطبهم الجامعة ، ولا سيما خطب الإمام على ورسائله البليغة وكلماته البارعة . مضافاً إلى ذلك القطعة الصالحة من الشعر الجاهلى ، وكلام الأعراب فى بواديهم ، والإلمام بفطنهم ومقاولاتهم فى نواديهم . بعد أن يكونوا أحكموا أبواب النحو والصرف ، وعرفوا أساليب اللغة واشتقاق ألفاظها وإجادة التعبير بها . أما إذا أضاف أحـدهم إلى ذلك كله شيئاً من العلوم والآداب التى استُحْدِثَتْ فى المعارف العربية : كالمنطق والفلسفة ، ووقف على حركات الفلك وأصول الهندسة ، وعلم من الطب ووظائف الأعضاء كفايته ، وشدا من الموسيقى وضوابط النغم غايته ، عُد غُرَّة شادخة فى جبين أهل الصناعة ، وصار إماماً يُرجع إليه فى عظائم الأمور ، ويُعتمد عليه فى تصريف جلائل الشؤون . أما الحساب والجبر وما إليهما فكان لابد منهما لـكاتب الخراج وعامل الصدقات ، وصاحب ديوان الضياع والنفقات ، وللقائم على المظالم والمؤامرات

٢

فلما ظهر الجاحظ واستحكمت له مواهبه ، لم تقف به همته عند إحدى تلك الغايات التى بلغ إليها أكابر الـكتاب ممن تقدمه أو عاصره . فلم يشأ أن يتخصص كما تخصصوا ، ولم يُرِد أن يتميز بالأنواع التى بها تميزوا ، بل حمل نفسه على أن يبزهم جميعاً ، وأن يجعلهم يشتدون وراء خطوه إذ يمشى على مهل . فشاء أن يكون صدره دائرة معارف تحيط بأكثر ما عرف من علوم الانسانية وآدابها حتى عهده . وأنت إذا رَدَّدْتَ نظرك فى ثَبَتِ ما خلّف من مصنفات ؛ أخذك الدَّهَشُ ، وتملكك العجب ؟! لأنك تراه لم يكد يترك علماً معروفاً فى زمنه لم يضع فيه مؤلفاً . ولم يدع فناً لم يكتب فيه مصنفاً ، وقد يكون هذا المصنف أو ذاك المؤلف ، رسالة موجزة ، وقد يكون سفراً متعدد المصاحف والأجزاء . على أنك إذا قرأت له كتاباً ، أو تصفحت له رسالة ، فيما أجرى فيه قلمه من شعب العرفان ، حسبت

أنه الواضع لهذا العلم أو ذاك الفن الذى تردد نظرك فيه ، وخرجت منه مملوء النفس قوى اليقين بأنه قد لايحسن سواه . وقديلمزه بعضهم بأنه كان كثير الاستطرادات كبير التهافت على الاستشهادات ، يحشد بها كتبه ، ويفخم بها أسفاره ، ولولا هذا لكانت أقل مما هى عليه . ! وليس الحال كذلك ، ولا الأمر على ما ذهب اليه ذلك اللامز ، ولكن هذا الحال ، إن دل على شىء ، فانما يدل على سعة اطلاع الجاحظ ، وعلى تبحره فى معارفه ، وعلى حفول صدره بشتى المسائل والمعلومات على أن هذا النوع من مؤلفاته الكبار إنما وضعه ليكون مدرسة للطالبين ، ومَعْلَمَةً للدارسين ، وهل كان العالم الاسلامى ، بسائر أقطاره ونواحيه ، إلا جامعة يلقى فيها الجاحظ دروسه وثقافاته على طلابها بواسطة مؤلفاته ! ! ولهذا ما كان يَطْلُعُ له كتابٌ ، على أى بلد فى أى صُقع ، إلا بادر العلماء إلى نَسخِهِ ومُناقلته ، وعقد المجالس لتفهمه ومدارسته . وإلا تقدم الملوك والأمراء إلى تزيين محافلهم بالنظر فيه ، وترديد عباراته ومعانيه ، وتجميل خزائنهم بحفظه وَالتَّحَفِّى به . ولقد حاول كثير من العلماء وأهل الأدب تلخيص بعض كتب الجاحظ وتجريدها مما بها من الاستطرادات ، ومما حوت من الاستشهادات ، فكانت تذهب منها تلك الروح التى يحسها القارىء متلألئة من تحت كل كلمة ، وفى خلال كل فقرة ، وكانت تتلاشى تلك اللطيفة الجاحظية الساحرة التى يستشعرها الناظر المتصفح متجلية متوثبة فى اطراد المعانى وتسلسل الأفكار . فمنهم من كان يعدل عن التلخيص غيرة على هذه اللطيفة ، واستبقاء لتلك الروح . ومنهم من كان يمضى فى تلخيصه ، فيخرج وإذا بالملخص فى يده جثة هامدة

٣

وهل وقفت عبقرية الجاحظ عند حد إتقان المعارف العامة والثقافات الشائعة على تنوعها حتى عهده ؟ كلا ، فما كانت همته تعرف شيئا من الحدود فى العرفان ؟ ! من أجل هذا عَرَضَ لكثير من المسائل التى لم يفكر فيها أحد غيره ، وفتح للناس

أبواباً كثيرة فى أمور شتى لم يكن من تقدمه من العلماء والكتاب وأهل الأدب يحسبونها مما يدخل فى صنوف الآداب . فكان من بين كتاب العربية أول من بحث فى طبائع الأشياء كالحيوان والنبات والمعادن ، وأقام أركان بحثه واستقرائه على المشاهدة والتجربة والاختبار . ورحل فى سبيل تحقيقه العلمى والطبيعى إلى كثير من الأقاليم والأقطار . وهذه الطريقة هى مفخرة علماء أوربا وأمريكا وانجلترا فى هذا العصر . وهو أول من كتب رسالة مِلؤها السخرية والاستخفاف، وحشوها الجد الممزوج بالهزل ، وسداها الافتنان فى الأسئلة المبهتة ، ولحمتها التعجيز فى المحن المسكتة ، كرسالته إلى صديقه أحمد بن عبد الوهاب البجلى التى دعاها « التربيع والتدوير » فهى بكر فى شأنها ، فريدة فى بابها . وقد حذا الكتاب من بعده حذوه فيها ، وترسموا خطاه فى أغراضها ومعانيها : فوضع أبو بكر الخوارزمى الكاتب رسالته إلى أبى الحسن البديهى ، ووضع أبو الحسين أحمد بن فارس على ضوئها أصول فن المقامات ، وعنه أخذه أبو الفضل بديع الزمان الهمذانى ، ثم توسع فيه أبو القاسم الحريرى وذهب فيه كل مذهب ، كما أنشأ ابن زَيدون بعض رسائله على هذا النهج . ودرج الكتاب من بعدهم فى هذا الباب .

٤

وهو أول من شَفَّ له الحجاب فرأى فى مخالقات العامة وعاداتهم ، وفى تقاليدهم ومعاملاتهم ، وفى أحاديثهم وأسمارهم ، فنا يستروح الخاصة به ، ويرى العِلْيَةُ فيه جِماما من كدهم فى جدهم ، كما رأى فيما تصالحوا عليه من التعبير عن خوالج نفوسهم وما تنبض به قلوبهم من الأمانى والآمال ، مايصح تقييده والتفكه به ، والاعتبار بوجوه العبرة فيه ، والاستفادة مما قد يفيد من نواحيه . وهو أول من استباح لنفسه التندر بالأصدقاء والإخوان ، تارة بالتلميح وذكر الصفات ، وأخرى بالتصريح وإبانة السِّمات ، فقيد عليهم أنفاسهم ، وخلد غرائب أطوارهم وعجائب تصرفاتهم ، وشواذ أغراضهم ، وعرض لأخذهم بأغلاطهم وفلتات ألسنتهم ومساوى أعمالهم ، وقد يجابه

من شاء منهم بالنقد واللذع والتجريح ، غير عابىء بعتبهم ، ولا معتد بلائمتهم ، وماذا كان يبلغ منه هذا العتب ، أو يصيبه من هذا اللوم ؟ إن ما أوتيه من قوة الحجة ، وما اختص به من براعة البيان وعزة البرهان وشدة اللسن كفيل برد عادية العادى وسطوة المتهجم . وهو أول من وضع كتابا فى فكرة من الفكر أو فى رأى من الآراء ثم نقضه بكتاب آخر ، توسعا منه فى البلاغة ، وتفننا فى البراعة أو رجوعا إلى مظنة الحقيقة التى قد يكون استبهم عليه سبيلها فى أول الأمر ، وإيثاراً للصواب ، ولم يكن هذا النوع من المؤلفات التى يراجع نفسه فيها ، يعدو صنف الآراء والنحل والأهواء . وهو أول من ألف فى الأمور المتناقضة ، وأقام سوق الجدل بين الأشياء والحالات المتعارضة ، وابتدع من المعانى مالا يُظن أن يَحتمل إلا المعنى الواحد ، فقد قالوا إنه صنع رسالة فى « مفاخرة المسك والرّماد » وأنت تسائل نفسك : ماذا عسى أن يكون فى الرماد من معانى الافتخار حتى يُدل بها على المسك ، وينافره ببيناتها وشواهدها ؟ ! ! وهو أول من وضع الكتب والرسائل فى المعانى والاغراض الغريبة عن متناول أفكار الكتاب . كقوله فى طبائع « البخلاء » وفى « حيل اللصوص » وفى أحوال « المُكدِّينَ » وفى أصحاب العاهات الخَلْقيَّة : كالحُول والعُور ، والعُرجان ، والبُرصان ، وكذلك فى ذوى العاهات الخُلُقيَّة : كالسكيرين ، والزناة ، والطفيليين ، والقحاب ، وفتيان السوء .

٥

وقد عزَبَ الرأى عن بعضهم حينما اطلع للجاحظ على بعض هذه الكتب فغمزه فى دينه ، ورماه فى اعتقاده ويقينه ، وظنه رجلا متساهلا فى حقوق الله قبلَه متسامحا فى أوامر ربه ونواهيه ، وربما أجراه بعض خصومه مُجرى الزنادقة وأهل الإلحاد ، حتى تقولوا عليه أقاويل فيما لم يخطر له ببال ولا ورد منه فى خاطر ، وكيف يصدق فيه قول هؤلاء الخصوم الذين لا يريدون وجه الله فى خصومتهم ، وهو أول

من وضع كتابا أقام فيه الحجة التى لاتدفع ، والبرهان الذى لايرد ، على أن نظم القرآن معجز ؟ حتى صار هو بوضعه هذا الكتاب إماما فى أمر الدين وفى صحة العقيدة ، وحتى قال بعض الأفاضل : إن الدليل على إعجاز القرآن إيمان الجاحظ به . . ! ! والحق الذي لامراء فيه هو أن الجاحظ كان قوى الايمان ، ولكن إيمان الراسخين فى العلم ، الثابتين فى الفهم ، وكان شديد الاعتقاد ، ولكن اعتقاد الخاصة من العارفين . فما كان يرى فى السلف ما يراه غيره من التقديس . ولا يعتقد فيهم ما يعتقده العامة وأشباه العامة من العصمة والتنزيه . فليس عنده ، بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من الصحابة والتابعين ومن تلاهم ، مَن تجب له العصمة من الخطأ والزلل ، أو مَن بَعُدَ به طبعه عن مواطن الخطل ، وماهم فى الحق والواقع إلا من أبناء آدم ، ركب فى طبائعهم ماركب فى طبائع أبناء هذا الشيخ كافة ، من المطامع والشهوات . فجائز عليهم كل ما يجوز على الناس جميعا من نوازع الشر ، وفواعل الخير ، ودوافع الفضل ، وعوامل النقص ، وكل ما تعتلج به النفس البشرية من مطالب هذه الحياة .

٦

ومن أخص مميزات الجاحظ وأقوى سماته ، تلك الشخصية التى تراها بارزة فى كل ما أجرى به قلمه ونضحت به قريحته ؛ فاذا تناولت له أى كتاب أو أية رسالة وأخذت فى القراءة والمذاكرة والتصفح ، لاتلبث أن ترى هذه الشخصية القوية مطلة عليك من خلال السطور ، ومن بين حروف الكلمات . فلا تزال معها فى سمر مطرب ، وحديث معجب ؛ حتى تضع الكتاب من يدك . ومن مزاياه فى أسلوبه الذى تفرد به ، ذلك الطابع الخاص الذى استأثر بكل كلمة من كلماته ، وشاع فى كل جملة من جمله وعباراته ، وذلك أنه يبسط لك العبارة ويرقق من حواشيها حتى لتظن أنه قد أسف بها ، وأنه هبط عن مستوى البلغاء فى تحبيرها ، فاذا تأملتها فضل تأمل ، ثم حاولت احتذاءه فيها ، رأيته منك فى ذؤابة الثريا وفى

مناط العَيُّوق . وهذه ميزة قد اختص بها من بين جميع الكتاب ، حتى إنه صار بها رأس مذهب فى الأدب ، كما هو رأس مذهب فى العقائد ، فيقال فى الأساليب العربية ، إذا كانت قد بلغت أعلى طبقات البلاغة ، وأسمى منازل البيان ، وكانت واضحة المعانى ، سهلة الألفاظ ، نقية الكلمات : هذه عبارة جاحظية . ويقال فى الرسالة جمعت حُر الكلام إلى التبسط فى المعانى ، وكانت كثيرة الافتنان ، آخذة فيها الموضوعات بعضها بذوائب بعض ، ينتقل فيها القارىء من فن إلى فن ، ومن لون إلى لون ، ومن معنى مولد إلى معنى مبتكر : هذا أدب جاحظى . وله فى هذا المذهب أنصار وأتباع ، وتلاميذ وأشياع ، ظهر منهم رجال كانوا فى أعصارهم أئمة البلاغة وزعماء الفصاحة ، وفحول البيان . وكان منهم الأمراء والوزراء ، والسادة والكبراء ، والساسة والرؤساء ، وما من كاتب منذ عهد الجاحظ إلى الآن إلا وللجاحظ فى عنقه مِنّةٌ معقودةٌ ، أو يد مبسوطة ، أو نعمة سابغة . ولقد صدق القاضى الفاضل فى قوله : « ما منا معاشر الكتاب إلا مَن دخل مِن كتب الجاحظ الحاره ، وشن عليها الغاره ، وخرج وعلى كتفه منها كاره »

٧

أما خصائصه النفسية ووجهات نظره فى الحياة ، فقد كان على ماظهر منه ميالا بطبعه إلى التحلل من القيود التى تقف بأمثاله ونظرائه من معاصريه عند مقتضيات التقاليد وموجبات العادات . فهو لم يشأ اتخاذ زوجة تشاركه بأساء الحياة وضرائها ، بل انصرف الى اتخاذ الجوارى والفتيات يتسرى منهن بما تطيب بها نفسه ، ويصبو إليها حسه ، يمسكها ما استقام أمرها معه ثم هو فى حل من أن يتركها فى خدمته وقضاء إربته ، أو إذا شاء دفع بها إلى السوق وجاء بغيرها ، والسوق بهن زاخرة ، والأموال لديه حاضرة . وقد كان عقيما ، فلم يعرف أنه ولد له ولد ، أو أعقب ذرية مدى حياته الطويلة

ولست على رأى القائلين بأن العباقرة من أصحاب الدعوات العامة أو الخاصة

وزعماء الأمم وعظماء الناس من القادة والرؤساء ، والفلاسفة والحكماء ، وأكابر أهل الأدب وفحول العلماء — ممن صرفوا جهودهم الجبارة وتفوقوا على من عداهم فى القيام على ما اختصوا به ووقفوا قواهم ومواهبهم عليه من جلائل الأعمال وعظائم الأمور فى الحياة العاملة أو المفكرة — قلما ولدوا الأولاد أو أعقبوا الذرية . وإن جاء أحد من هؤلاء بأولاد أو أعقب له أخلافا فقلما جاؤوا صالحين للحياة

ويذهب أصحاب هذا الرأى فى تأييد رأيهم إلى ضرب الأمثال والاستشهاد بأسماء بعض هؤلاء العظماء ، حتى ليكادون يجعلون العُقم طِباعاً فى هذا النوع الممتاز من الناس . ولكنى أحسب أن العقم لم تختص به طائفة من الناس دون غيرها رَقَت هذه الطائفة أو دنت ، سمت على سائر الطوائف الانسانية أو حبت معها فى مدارج الحياة . ولا هو طبيعة فى طبقة منهم عارض فى سواها . وما هو إلا أمر شائع فيهم على السواء . وأنت إذا لمسته فى العلية والخاصة ، وجدته ظاهر الأثر فى السِّفلة والعامة ، مقيساً بنسبه ومقاديره . والأصل فى الإنسان أن يكون ولوداً ، ما استوى خلقه وحسن تقويمه وتم تركيبه . وما العُقم إلا عارض يحدثه النقص فى تركيب بعض الأعضاء ، وعدم انتظامها فى تأدية وظائفها .

وقد يكون هذا النقص حاصلا فى الخَلق والتكوين . وقد يأتى حادثاً لسبب من الأسباب الظاهرة أو الباطنة ، والناس فى هذا سواسية لا يمتاز منهم فيه عظيم على حقير ، ولا يختص به كبير دون صغير . والقائلون باختصاص العباقرة به من بين الناس كافة ، حينما رأوا العقم ظاهراً فيهم ، ظنوه وقفاً عليهم وحسبوه من دلائل بطولتهم ، ومن علامات نبوغهم ، ومن آيات ظهور العبقرية فى مواهبهم ، مع أنه لا صلة هناك بين العقم و بين السمو فى معارج الكمال البشرى ، وما الأمر فى واقعه إلا أن العظماء من ذوى المواهب والأخطار فى كل أمة وفى كل جيل ما هم إلا أفراد ظاهرون ، وشرذمة قليلون

وما مثل العظماء فى أممهم وأجيالهم إلا كالمنارة فى وسط المحيط العَظَم تترامى

أشعتها اللامعة إلى الآماد فتجذب إليها أنظار السفار من كل صوب لتكون لهم أماناً من غوائل الأقدار، وما تكاد تقع العيون على أضوائها أو تطلع هى على الحائرين بلألائها حتى تشيع منها فى النفوس شائعة الطمأنينة والأمن والسلام، ولا تلبث أخيلة التفكير أن تتجه نحو عـد خيوط النور المسترسلة من ذوائبها بمختلف الألوان الآخذة بمعاقد الأبصار. فاذا افتقدوها فى ليلة دامسة، وقد أصابها شىء من العطب الذى لا يسلم عليه شىء فى الوجود، دفعهم ما فى صدورهم لها من إعجاب وإجلال، إلى التظنى بأن هذا الضرب من المعاطب قلما أصاب إلا نوع المنار، وأنه من علائم ما فيها من رفعة وهداية وازدهار. ومع هذا فماذا يكون قدر هذه المشكاة إذا هى قيست بما يكتنفها من أمواج كالجبال، وأثباج كالهضاب؟ لا شك أنها فى جانب ذلك كله لا تكاد تعد شيئا مذكورا. على هذا ترى العظيم فى أمته وكل حالة من حالاته الطبيعية أو العارضة تعلن عن نفسها حتى لتوهم بعض ذوى التفكير أنها خاصة به وبكل عظيم مثله، وأنها علامة عظمتهم وامتيازهم على الناس، وذلك بخلاف ما إذا بدت تلك الحالات فى عوام الناس وأغمارهم، فهى على كثرتها فيهم وارتفاع نسبتها بينهم، لا يكاد يُعنى بها، ولا يعمل حساب لشأنها ولا يلتفت إلى ما تحدث فيهم من آثار.

من أجل ذلك لا أرى مانعا من القول بأن الجاحظ لم يلد لنقص كان به كما يعرو هذا النقص العقماء من الناس كافة، وذلك بالرغم مما كان معروفا به من قوة البنية وتماسك الخلق وشدة المنّة، حتى إن الفالج حينما وقع به لم يحل بينه وبين التفكير والكتابة والتأليف . . !! على أننى لم أقف له على رأى فى علة إعراضه عن التزوج واكتفائه بالتسرى. وهل كان يوجب الزواج أو كان يذهب إلى الامتناع عنه! غير أن حالته التى درج عليها طوال أيام حياته تُبِينُ عن أنه كان يؤثر التسرى ويرى فيه متعة كما يُخال أنه كان يرى فى الزواج ربقة.

٨

وكان الجاحظ يرى الاستمتاع بملاذ الحياة وأطايبها ، ويطمع فى أن ينال منها ما يمكن أن تصبو إليه أوسع النفوس البشرية أملا وغاية ، على أن يكون ذلك فى حدود التعقل والاتزان ، مع التحفظ والتستر والابتعاد عن مواطن الشبه ، حتى لا تُهمز المروءة ولا تغمز الكرامة . ولهذا المبرد ولم يُرو أن أحداً من خصومه استطاع أن ينال من سمعته أو يطعن فيه بما يحط من قدره وكرامته . وقد كان خصومه من قوة اللسن وشدة اللدد واضطغان الحفيظة على أقوى جانب وأعظم منعة . فما قيل عنه أنه قارف إثما أو ارتكب جرماً أو اجترح ذنباً . ولقد كان يعجب بأبى نواس ويرى فيه قدوة فى تناول متع العيش ، وفى مباشرة أسباب العبث والمجون ، إلا أنه كان يأخذ فى أسمحها ، ويترك له أسمجها ، ويتقلب من أفضلها فى أعطاف النعم

والحق أن عصر الجاحظ كان عصر الاستمتاع بكل ما تعتلج به النفس الانسانية من أمانى وآمال ، ومن خير وشر ، ومن نقص وفضل ، ومن علم وجهل ، ومن استقامة واستهتار ، ومن نسك وفتك ، ومن تَقِيَّة واسترسال ، ومن إيمان وإلحاد ، ومن خطل وسداد ؛ فكانت بغداد فى ذلك الدهر ، أشبه بلندن وباريس ونيويورك وبرلين وروما مجتمعة فى هذا العصر ، فيها نزعات العقول ، ومراح الأرواح ، ومراد العيون ، وشهوات النفوس ، وخلجات القلوب . غير أن الجاحظ كان يتناول شهوات نفسه ونزعات عقله ، ولذائذ قلبه ، فى تعقل وتلطف واتزان

٩

وكانت بالجاحظ أنانية ، فكان يرى نفسه حقيقا بأن يستأثر بكل ما فى الحياة من مُتع وجاه عريض ، ولا يرى غيره أحق بشىء منها ، فما لجأ إليه ذو حاجة إلا جعل لسانه حائلا دون قضائها ، ولا استعان به مستعين إلا كوى قلبه بجمر الخذلان . حتى لقد هُجى من خاصة أصدقائه على هذه الحالة شر هجاء . ولا أدرى كيف كان كذلك وهو الذى ملأ كتبه بذكر الأجواد والسمحاء ؟ وهلا كانت

له قدوة حسنة بأحمد بن أبي دؤاد ومكارمه التي غمرت كل رائح وغاد ؟ والتي روى هو منها ما يجعله فوق أنداده ممن حضر وباد ؟ ! الظاهر أن تتبعه حركات البخلاء واستطلاعه طبائعهم ، واستقصاءه أعمالهم وأقوالهم قد أثر فيه ذلك الأثر ، والنفوس بفطرتها نزاعة إلى النقائص ، سريعة إلى اكتساب الرذائل .

١٠

وكان على ما يظهر ميالا إلى المصانعة والمداراة ، فكان يرى إرضاء العامة وأشباه العامة بما لا كلفة عليه فيه ؟ وإلا فما هذه الأحاديث التي ملأ بها كتبه ، والتي لا يمكن أن يظن ظان أن مثل عقل الجاحظ في قوة تركيبه وصحة تكوينه يتقبلها على أنها سليمة من الشوائب بعيدة من الأكدار ؟ أنا لا أرى لذلك من تعليل إلا انه ربما كان يرمي بروايتها وحشد كتبه بها إلى مصانعة العامة وترضيتهم عنه . لعله كان يقصد بروايتها إلى جانب أبحاثه الفائقة في العلوم والمذاهب والآداب ، أن تكون وسيلة إلى جذب النفوس إلى هذه الأبحاث والاستفادة منها في ظلها وتحت كنفها . وكلا الرأيين جائز ومقبول حتى يقوم الدليل على صحة أحدهما ونفي الآخر .

هذا ما ارتأينا من خصائص الجاحظ ، وهي بلا شك شذور من مزاياه . أما الالمام بما له من صفات ، أو استيعاب ماله من مناقب وسمات ، فأمر فوق متناول الأيدي والأقلام .

حسن السندوبي

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد النبى الكريم وسلم

عونك اللهم وتيسيرك

اللهم إنّا نعوذ بك من فتنة القول كما نعوذ بك من فتنة العمل (١) ونعوذ بك من التكلُّف لما لا نُحسن كما نعوذُ بك من العُجْب بما نُحسن . ونعوذ بك من السَّلاطة والهَذَر (٢) كما نعوذ بك من العِيِّ والحصر (٣) وقديماً ما تعوَّذوا بالله من شرهما ، وتضرعوا إلى الله فى السلامة منهما . وقد قال النَّمِرُ بن تَوْلَب (٤) :

أعِذْنِى رَبِّ من حَصَرٍ وعِيٍّ ومن نَفْسٍ أُعَالِجُها عِلاجا

(١) يستعيذ من فتنة القول والعمل لأن المرء إذا فتنه شىء من قوله أو عمله جن به جنونا وملك عليه حواسه فيصبح فى حالة لا يستطيع معها أن يميز خبيثه من طيبه ولا خطأه من صوابه

(٢) السلاطة : البذاءة . والهذر : الاكثار من فضول الكلام الذى لا خير فيه

(٣) العى : فقدان الابانة عما يخالج النفس . والحصر : محاولة التعبير وانعقاد اللسان عن المراد

(٤) هو النمر بن تولب العكلى ، شاعر جواد مخضرم نشأ فى الجاهلية وأدرك الاسلام ووفد على النبى صلى الله عليه وسلم وأسلم، وهو من المعدودين فى الصحابة وكان من أجواد العرب المذكورين وفرسانهم المشهورين ، وكان شاعرا فصيحا وشجاعا باسلا . وكان أبو عمرو بن العلاء يلقبه « الكيس » لجودة شعره وسلامة عبارته . وكان حماد الراوية يقول : انه كثير البيت السائر والمتمثل به . عاش حتى خرف وزعموا انه عمر مائتى سنة وكان هجيراه فى خرفه : أصبحوا الضيف ، أغبقوا الضيف ، اعطوا السائل . وهذا البيت الذى تمثل به الجاحظ فى الاصل أحد أبيات هو أولها وبعده

ومن حاجات نفسى فاعصمنى   فان لمضمرات النفس حاجا
فأنت وليها وبرئت منها   إليك فما قضيت فلا خلاجا
وأنت وهبتها كوما جلادا   أرجى النسل منها والنتاجا
ونافرنى ربيعة كل يوم   لاشربها وأقتنى الدجاجا
وما تغنى الدجاج الضيف عنى   وليس بنافعى إلا نضاجا
أأهلكها وقد لاقيت فيها   مرار الطعن والضرب النجاجا
وتذهب باطلا غدوات صحبى   على الاعداء تختلج اختلاجا
جموم الشد شائلة الذنابا   تخال بياض غرتها سراجا
وشد فى الكريهة كل يوم   إذا الاصوات خالطت العجاجا

وقال الهُذَلِيّ : (١)

ولا حَصِرٌ بخطبتهِ إذَا ماعَزَّتِ الخُطَبُ

وقال مكّيُّ بنُ سوادة:

حَصِرٌ مُسْهِبٌ جَرِيءٌ جبانٌ خيرُ عِيِّ الرِّجالِ عِيُّ سُكُوت (٢)

وقال الآخر:

مَلِيءٌ ببُهْرٍ والْتفاتٍ وسُعْلةٍ وَمَسْحَةِ عِثْنُونٍ وفَتْلِ الأصابع (٣)

ومما ذموا به العِيّ قوله :

ومالِيَ من عِيٍّ ولا أنطِقُ الخَنَى إذاجمعَ الأقوامَ فى الخطْبِ مَحْفِلُ (٤)

وقال الراجز وهو يمتح بدلوه (٥)

عَلِقتَ ياحارِثُ عِندَ الوِرْدِ بجابِئٍ لا رَفِلِ التَّرَدِّي (٦)

ولا عَيِيٍّ بابْتناءِ المجد

(١) هو أبو العيال بن أبي عنبر . من سعد هذيل . كان شاعرا مجيدا نشأ فى الجاهلية وادرك الاسلام وأسلم فيمن أسلم من قومه . وكان فارسا غزاء غزا فى خلافة عمر فدخل مصر . ثم غزا الروم فى عهد معاوية وبعث اليه بقصيدة يصف فيها قتالهم مع الروم قال فيها :

أبلغ معاوية بن صخر انه يهوى اليه مع البريد الاعجل

أنا لقينا بعدكم فى غزونا من جانب الابراج يوما يتسل

أمر تضيق به الصدور ودونه مهج النفوس وليس عنه معدل

وهذا البيت الذى استشهد به الجاحظ هو من قصيدة يرثي بها اخاه عبد بن زهرة لامه يقول فيها :

ألا لله درك من فتى قوم اذا رهبوا

وقالوا من فتى للحر ب يرقبنا ويرتقب

فكنت فتاهم فيها اذا يدعى لها يثب

توفى فى اواخر خلافة معاوية

(٢) يعنى ان احسن ما يكون عليه الرجل العيى ان يكثر من صمته وسكونه ففى ذلك سلامته وامنه

(٣) البهر تتابع النفس وهو الربو . والالتفات يراد به الاستنجاد والاستعانة . وهو لما به كثير السعال لا يفتر عن مسح لحيته بيده ولا عن فتل اصابعه

(٤) لاينطق الخنى : لايقول الفحش . الخطب : الامر العظيم والحادث الجلل

(٥) يمتح : يستقى

(٦) الجابئ : القادم المفاجئ . لارفل التردى : غير جاهل بخطر السقوط

وهذا كقول بَشّار الأعمى (١)

وعِىُّ الفِعالِ كَعِىِّ المَقالِ ... وفى الصَّمْتِ عِىٌّ كَعِىِّ الكَلِمْ

وهذا المذهب شبيه بما ذهب اليه شُتَيْم بنُ خُوَيْلد الفزارى فى قوله :

ولا يَشْعَبُون الصَّدْعَ بعد تَفاقُمٍ ... وَفى رِفقِ أَيديكم لِذِى الصَّدْعِ شاعِبُ (٢)

وهذا كقول زَبّانَ بنِ سَيّارٍ (٣)

وَلَسْنا كأَقْوامٍ أَجَدُّوا رِياسَةً ... يُرَى مالُها وَلا يُحَسُّ فِعالُها (٤)

يُرِيغون فى الخِصْبِ الأُمورَ وَنَفْعُهم ... قَليلٌ إِذِ الأَمْوالُ طَال هُزالُها (٥)

وقُلْنا بلا عِيٍّ وسُسْنَا بِطاقَةٍ ... إِذِ النّارُ نارُ الحرب طَال اشْتعالُها

لأنهم يجعلون العجز والعى من الخرق ، كانا فى الجوارح أو فى الألسنة .

وقال ابن أحمر الباهلى (٦)

لوكنتُ ذاعِلْمٍ عَلِمْتُ وكَيْفَ لِى ... بالعِلْمِ بَعْدَ تَدَبُّرِ الأَمْرِ (٧)

وقالوا فى الصمت كقولهم فى النطق . قال أُحَيْحَةُ بنُ الجُلاحِ (٨)

(١) هو بشار بن برد : ومحله فى الشعر وتقدمه فى الابداع اشهر من ان يدل عليه . وهو زعيم الشعراء المحدثين بلا منازع . شاع ذكره وذاع امره فى الدولتين الاموية والعباسية . واخذ سنى الجوائز من خلفائهما . وكان مرهوب الجانب مخشي اللسان . ولد سنة ٧٦ هـ ٦٩٥ م ومات تحت سياط المهدي سنة ١٦٨ هـ ٧٨٤ م

(٢) شعب الصدع . لأمه . وتفاقم الامر : جل الخطر واتسع الخرق على الراقع . يقول : إن اعداءكم لا يصلحون فاسدا أما أنتم ففى أيديكم صلاح كل فاسد ورأب كل متصدع

(٣) هو زبان بن سيار بن عمرو بن جابر أحد بنى مازن بن فزارة وكان نافر عيينة بن حصن

(٤) أجدوا رياسة : استحدثوا لانفسهم مجدا أو رفعتهم الأقدار من الحضيض إلى مقام الآمرين الناهين فهم يدلون على الناس بوفرة أموالهم دون أن يكون لهم في البر والخير واسداء المعروف يد

(٥) يريغون : يطلبون خلسة . الاموال هنا : الابل

(٦) هو عمرو بن احمر بن العمرد الباهلى . قال محمد بن سلام : كان صحيح الكلام كثير الغريب

(٧) بعد تدبر الامر : بعد فواته . يقال : عرف الأمر تدبرا أى بآخرة . قال أكثم بن صيفى لبنيه لا تتدبروا اعجاز امور قد ولت صدورها

(٨) هو ابو عمرو أحيحة بن الجلاح بن الحريش بن جحجبي سيد الأوس وأعز اهل يثرب فى الجاهلية وكان من فرسان العرب وقرومهم واجوادهم . وكان شاعرا مفوها . وله أحداث وخطوب مع تبع ابن حسان ملك اليمن ، ومع الحرث بن ظالم المرى . مما هو معروف مشهور

وَالصَّمْتُ أَحْسَنُ بِالْفَتَى ... مَالَمْ يَكُنْ عِيٌّ يَشِينُه

وَالقولُ ذُو خَطَلٍ إِذَا ... مَالَمْ يَكُنْ لُبٌّ يُعِينُه

وقال مُحْرِزُ بنُ عَلْقَمَةَ :

لَقَدْ وَارَى المَقَابِرُ مِن شَرِيكٍ ... كَثِيرَ تَحَلُّمٍ وَقَلِيلَ عَابِ

صَمُوتًا فِي المَجَالِسِ غَيْرَ عَيٍّ ... جَدِيرًا حِينَ يَنْطِقُ بِالصَّوَابِ

وقال مَكّيُّ بنُ سَوَادَةَ :

تَسَلَّمَ بِالسُّكُوتِ مِنَ العُيُوبِ ... فَكَانَ السَّكْتُ أَجْلَبَ لِلعُيُوبِ

وَيَرْتَجِلُ الكَلَامَ وَلَيْسَ فِيهِ ... سِوَى الهَذَيَانِ مِن حَشْدِ الخَطِيبِ (١)

وقال آخر :

جَمَعْتَ صُنُوفَ العِيِّ مِنْ كُلِّ وِجْهَةٍ ... وَكُنْتَ حَرِيًّا بِالبَلَاغَةِ مِنْ كَثَبْ (٢)

أَبُوكَ مُعِمٌّ فِي الكَلَامِ وَمُخْوِلٌ ... وَخَالُكَ وَثَّابُ الجَرَاثِيمِ فِي الخُطَبْ (٣)

وقال حُمَيْدُ بنُ ثَوْرٍ الهِلَالِيُّ (٤)

أَتَانَا وَلَمْ يَعْدِلْهُ سَحْبَانُ وَائِلٍ ... بَيَانًا وَعِلْمًا بِالَّذِي هُوَ قَائِلُ

فَمَا زَالَ عَنْهُ اللَّقْمُ حَتَّى كَأَنَّهُ ... مِنَ العِيِّ لَمَّا أَنْ تَكَلَّمَ بَاقِلُ (٥)

---

(١) الحشد : الاستعداد، ومعنى البيت ظاهر

(٢) يعنى وقد كنت جديرا بأن تتناول البلاغة من قرب لأنك من صميم أهلها

(٣) ولأنك كريم العم والخال . وثاب : قفاز مساور . الجرائيم . الاصول والاجذام

(٤) هو أبو المثنى حميد بن ثور بن حزن الهلالى شاعر مخضرم فصيح . يعد من شعراء الصحابة . وكان عمر بن الخطاب تقدم إلى الشعراء أن لايشبب رجل بامرأة فقال حميد بن ثور، وكنى عن صاحبته بالسرحة :

أبى الله إلا أن سرحة مالك ... على كل أفنان العضاه تروق

وهل أنا إن علّلت نفسى بسرحة ... من السرح موجود على طريق

والظاهر أنه توفى فى عهد معاوية بن أبى سفيان

(٥) اللقم . تتابع ملء الفم باللقم عند الطعام . قال الجاحظ . سحبان مثل فى البيان . وباقل مثل فى العى ولهما أخبار . قلت : وهو سحبان بن زفر بن إياس . كان من ألسنة العرب فى الجاهلية وخطباء الناس فى الاسلام ، وكان يضرب بفصاحته المثل فيقال : أخطب من سحبان وائل . خطب بين يدى معاوية فى وفود خراسان من صلاة الظهر إلى صلاة العصر ما توقف ولا تنحنح ولا سعل . مات سنة ٥٤ هـ ٦٧٣ م وباقل هو ابن عمرو بن ثعلبة الايادى . قال أبو عبيدة . بلغ من عى باقل أنه

وقال آخر :

مَاذَا رُزِئْنا مِنْكِ أمَّ الأسْوَدِ مِن رَحَبِ الصَّدْرِ وَعَقلٍ مُتلدِ
وَهْىَ صَناعٌ بِاللِّسانِ وَاليَدِ (١)

وقال آخر :

لَوْ صُحِبتَ شَهْرَيْنِ دَأباً لَمْ نُملّ وَجَعَلتَ تُكْثِرُ قولَ : لاَ ، و : بلْ
حُبُّكَ لِلْباطِلِ قِدْماً قدْ شغَلْ كَسْبَكَ عَنْ عِيالِنَا قلتَ : أجَلْ
تضَجُّراً مني وَعِيّاً بالحِيَلْ

قال : وقيل لِبَزَرْجمهر بن البختكان الفارسى (٢) أىّ شىء أستر للعى ؟ قال : عقلٌ يجمّلهُ . قالوا : فان لم يكن له عقل ؟ قال : فمالٌ يستره . قالوا : فان لم يكن له مال ؟ قال: فإخوان يعَبّرونَ عنه . قالوا : فان لم يكن له إخوان يعبرون عنه؟ قال : فيكون ذا صمت . قالوا : فإن لم يكن ذا صمت ؟ قال : فموت وَحِيٌّ (٣) خير له من أن يكون فى دار الحياة

وسأل الله موسى (عليه السلام) حين بعثه إلى فرعون بابلاغ رسالته ، والإبانة عن حجته ، والإفصاح عن أدلته ، فقال حين ذكر العُقْدَةَ التى كانت فى لسانه ، والحُبْسة (٤) التى كانت فى بيانه « واحْلُلْ عُقْدَةً مِن لِسانِي يفْقَهُوا قوْلِي » وأنبأنا

اشترى ظبياباحد عشر درهما فلقيه شخص فقال : بكم اشتريته؟ففتح كفيه وقرن أصابعه وأخرج لسانه. يشيربذلك إلى أحد عشر . فهرب الظبى من يده فضربوا به المثل فى العى

(١) يصف هذه المرأة بالحذق والمهارة فى كثير من الصفات الجيدة

(٢) هو بزرجمهر بن البختكان حكيم الفرس المشهور ووزير الملك العادل فيهم كسرى أنوشروان. كان فيما قيل راجح العقل سديد الرأى قويم الطبع . وقد روى عنه كلام كثير تراه منثورا فى شتى الكتب والأسفار . وأرى أن أكثر مانسب اليه منحول . وقد أخذ المبرد هذه الجملة فمسخهاورواها هكذا وقال بعض الملوك لبعض وزرائه وأراد محنته . ماخير مايرزقه العبد ؟ قال : عقل يعيش به . قال : فان عدمه ؟ قال : فادب يتحلى به . قال : فان عدمه ؟ قال . فمال يستره . قال : فان عدمه ؟ قال : فصاعقة تحرقه فتريح منه العباد والبلاد

(٣) وحى : سريع عاجل

(٤) الحبسة : هى توقف اللسان عن الانطلاق فى الكلام

الله تبارك وتعالى عن تعلق فرعون بكل سبب ، واستراحته إلى كل شغب ، ونبهنا بذلك على مذهب كل جاحد معاند ، وعلى كل مختال مكايد ، حين خبرنا بقوله : « أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هٰذَا الذى هو مَهِينٌ ولا يَكَادُ يُبِينُ » وقال موسى عليه السلام : « وأَخِي هٰرونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فأَرْسِلْهُ مَعِى رِدْءًا يُصَدِّقُنِى » وقال : « وَيَضِيقُ صَدْرِى ولا يَنْطَلِقُ لِسَانِى » رغبة منه فى غاية الافصاح بالحجة ، والمبالغة فى وضوح الدّلالة ، لتكون الاعناق إليه أميل والعقول عنه أفهم والنفوس إليه أسرع ، وان كان قد يأتى من وراء الحاجة ، ويبلغ أفهامهم على بعض المشقة ، ولله عز وجل أن يمتحن عباده بما يشاء من التخفيف والتثقيل ، ويبلو أخبارهم كيف أحب من المكروه والمحبوب ، ولكل زمان ضرب من المصلحة ، ونوع من المحنة وشكل من العبادة . ومن الدليل على أن الله عز وجل حل تلك العقدة ، وأطلق ذلك التعقيد والحبسة ، قوله « رَبِّ اشْرَحْ لى صَدْرِى ويَسِّرْ لى أَمْرِى وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِى يَفْقَهُوا قَوْلِى وَاجْعَلْ لى وَزِيرًا مِنْ أَهْلِى هٰرونَ أَخِى اشْدُدْ بِهِ أَزْرِى وَأَشْرِكْهُ فى أَمْرِى » إلى قوله « قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يامُوسى » فلم تقع الاستجابة على شىء من دعائه دون شىء ، لعموم الخبر .

وسنقول فى شأن موسى عليه السلام ومسألته فى موضعه من هذا الكتاب ان شاء الله تعالى

وذكر الله تعالى جميل بلائه فى تعليمه البيان ، وعظيم نعمته فى تقويم اللسان ، فقال : « الرَّحْمٰنُ عَلَّمَ القُرْآنَ خَلَقَ الإِنْسانَ عَلَّمَهُ البَيَانَ » وقال : « هٰذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ » ومدح القرآن بالبيان والإفصاح ، وبحسن التفصيل والإيضاح ، وبجودة الإفهام ، وحكمة الإبلاغ ، وسماه فرقانا ، وقال : « عَرَبِيٌّ مُبِينٌ » وقال : « وَكَذٰلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا » وقال : « وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شىء » وقال : « وكُلَّ شىءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا »

وذكر الله تعالى لنبيه حال قريش فى بلاغة المنطق ، ورجاحة الأحلام ،

وصحة العقول ، وذكر العرب وما فيها من الدهاء ، والنَّكْرَاء والمكر ، ومن بلاغة الألسنة ، واللَّدَد عند الخصومة ، فقال : « إذا ذَهَبَ الخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ » وقال : « لِتُنْذِرَ به قَوْمًا لُدًّا » وقال : « وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَى ما فِى قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الخِصَامِ » وقال : « أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ » ثم ذكر خلابة ألسنتهم ، واستمالتهم الأسماع بحسن منطقهم فقال : « وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ » ثم قال : « وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِى الحَيَاةِ الدُّنْيَا » مع قوله : « وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِى الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فيها وَيُهْلِكَ الحَرْثَ وَالنَّسْلَ »

وقال الشاعر فى قوم يحسنون فى القول ويسيئون فى العمل ، قال أبو حَفْص أنشدنى الأصمعىُّ لِلمُكَعْبَرِ الضَّبِّىِّ (١) :

كُسَالَى إِذَا لَاقَيْتَهُمْ غَيْرَ مَنْطِقٍ ... يُلَهَّى بِهِ المَحْرُوبُ وَهْوَ عَنَاءُ

وقيل لِدَوْهَانَ : ما تقول فى خُزَاعَةَ ؟ قال : جوعٌ وأحاديثُ . وفى شبيه بهذا المعنى قال أُفْنُونُ بن صُرَيْمٍ التَّغْلِبِىُّ (٢)

---

(١) المكعبر الضبي إسمه حريث بن عفوط . ويروى أن هذا البيت من قصيدة قالها محرز بن المكعبر الضبي وهو جاهلى ، وكان قد نزل ببنى عدى بن جندب فأغار على إبله بنو عمرو بن كلاب فاستغاث ببنى عدى فتباطأوا عنه وأغاثه مخارق ومساحق ابنا شهاب المازنى فردا عليه إبله فقال يهجو بنى عدى ويمدح بنى مازن :

أبلغ عديا حيث شطت بها النوى ... فليس لدهر الطالبين فناء
أخبر من لاقيت أن قد وفيتم ... ولو شئت قال المخبرون أساؤا
لهم ربئة تعلو صريمة أمرهم ... وللأمر يوما راحة فقضاء
كسالى إذا لاقيتهم غير منطق ... يلهى به المحروب وهو عناء
وإنى لأرجوكم على بطء سعيكم ... كما فى بطون الحاملات رجاء
فهلا سعيتم سعى أسرة مازن ... وهل كفلائى فى الوفاء سواء
كأن دنانيرا على قسماتهم ... وإن كان قد شف الوجوه لقاء
لهم أذرع باد نواشر لحمها ... وبعض الرجال فى الحروب غثاء

(٢) أفنون : إسمه صريم بن معشر وهو شاعر جاهلى قديم ، زعموا أنه أتى بعض الكهان فأنذره بأن هلاكه سيكون من لدغة تصيبه ، فكان لاينام إلا على ظهر راحلته ، فبينا هو ذات ليلة على ناقته وهى ترعى تعلقت حية بمشفرها فاضطربت ورمت بها إليه فلدغته فلما أحس الموت قال :

لَوْ أَنَّنِي كُنْتُ مِنْ عَادٍ وِمِنْ إِرَمٍ   غَذِيَّ قَيْلٍ وَلُقْمَانٍ وَذِي جَدَنِ
لَمَا وَقَوْا بِأَخِيهِمْ مِنْ مُهَوَّلَةٍ   أَخَا السُّكُونِ وَلَا حَادُوا عَنِ السَّنَنِ
أَنَّى جَزَوْا عَامِراً سُوءاً بِفِعْلِهِمِ   أَمْ كَيْفَ يَجْزُونَنِي السُّوأَى مِنَ الْحَسَنِ
أَمْ كَيْفَ يَنْفَعُ مَاتُعْطِي الْعَلُوقُ بِهِ   رِئْمَانَ أَنْفٍ إِذَا مَاضُنَّ بِاللَّبَنِ(١)

ولأن العرب تجعل الحديث والبسط والتأنيس والتلقي بالبشر من حقوق القرى ومن تمام الاكرام . وقالوا : تمام الضيافة الطلاقة عند أول وهلة ، وإطالة الحديث عند المؤاكلة . وقال شاعرهم وهو حَاتِمُ الطَّائِيُّ(٢) :

سَلِي الْجَائِعَ الْغَرْثَانَ يَا أُمَّ مُنْذِرٍ   إِذَا مَا أَتَانِي بَيْنَ نَارِي وَمَجْزَرِي

لعمرك مايدرى الفتى كيف يتقى   إذا هو لم يجعل له الله واقيا

ثم خر صريعاً لساعته وذلك حوالي سنة ٥٦٧ م وهذه الأبيات التي استشهد بها الجاحظ هي من كلمة موجزة قالها فى قومه يشكوهم وكانوا قد تبرؤا منه لكثرة جرائره . وهي برواية أخرى:

أبلغ حبيبا وخلل فى سراتهم   أن الفؤاد انطوى منهم على حزن
قد كنت أسبق من جاروا على مهل   من ولد آدم مالم يخلعوا رسنى
قالوا علي ولم أملك فيالتهم   حتى انتحيت على الأرساغ والثنن
لو أنى كنت من عاد ومن إرم   غذى بهم ولقمانا وذا جدن
لما فدوا بأخيهم من مهولة   أخا السكون ولا حازوا على السنن
سألت قومى وقد سدت أباعرهم   مابين رحبة ذات العيص أو عدن
إذ قربوا لابن سرار أباعرهم   لله در عطاء كان ذا غبن
أنى جزوا عامرا سوآى بفعلهم   أم كيف يجزوننى السوآى من الحسن
أم كيف ينفع ماتعطى العلوق به   رئمان أنف إذا ماضن باللبن

(١) قال الجاحظ : ورئمان أصله الرقة والرحمة ، والرؤم أرق من الرؤف ، فقال «رئمان أنف» كأنها تبر ولدها بأنفها وتمنعه اللبن . قلت : والبيت مثل يضرب لمن بعد بالجميل وهو مضمر عدم الوفاء.

(٢) هو حاتم بن عبد الله الطائى الفارس الجواد الشاعر المشهور ، وهو مضرب المثل فى الجود والسخاء . وهذان البيتان اللذان أوردهما الجاحظ ليسا من شعر حاتم ولكنهما بشعر عروة بن الورد أشبه . لأن حاتم لاعلاقة له بأم منذر وأم منذر هى زوج عروة بن الورد . وفيها يقول :

أقلى على اللوم يابنت منذر   ونامي وإن لم تشتهى النوم فاسهري
ذرينى أطوف فى البلاد لعلنى   اخليك او اغنيك عن سوء محضرى
فان فاز سهم للمنية لم اكن   جزوعا وهل عن ذاك من متأخر
وإن فاز سهمى كفكم عن مقاعد   لكم خلف ادبار البيوت ومنظر

هل أبسطُ وجهي؟ إنهُ أولُ القِرَى ... وأبذلُ معروفي له دون مُنكَرِي؟

وقال الآخر (١)

إنكَ يا ابنَ جعفرٍ خيرُ فتى ... وخيرُهم لطارقٍ إذا أتى

ورُبَّ نِضوٍ طَرَقَ الحيَّ سُرَى ... صادفَ زاداً وحديثاً ما اشتهى

إن الحديثَ جانبٌ من القِرى

وقال الآخر (٢)

لِحَافي لِحَافُ الضَّيْفِ والبيتُ بيتهُ ... ولم يُلْهِنى عنهُ غزالٌ مقنَّعُ

أُحدِّثه إن الحديثَ منَ القِرَى ... وتعلم نفسى أنهُ سوفَ يهجعُ

ولذلك قال عَمْرُو بنُ الأَهْتَمِ (٣):

فقلتُ له أهلاً وسهلاً ومرْحباً ... فَهذا مَبِيتٌ صالحٌ وصَدِيق

---

(١) هو الشماخ بن ضرار بقوله فى عبد الله بن جعفر بن ابى طالب وتروى هكذا:

إنك يا ابن جعفر نعم الفتى ... ونعم مأوى طارق إذا أتى

وجار ضيف طرق الحي سرى ... صادف زادا وحديثا ما اشتهى

إن الحديث طرف من القرى

وكان عبد الله بن جعفر من اجود الناس وأسخاهم أنشد يوما قول الشاعر:

إن الصنيعة لاتكون صنيعة ... حتى يصاب بها طريق المصنع

فاذا صنعت صنيعة فاعمد بها ... لله او لذوى القرابة او دع

فقال: هذا رجل بريد ان يبخل الناس؟ امطر المعروف مطرا فان صادف موضعا فهو الذى قصدت له وإلا كنت احق به.

(٢) هو عروة بن الورد العبسى وكان من الاجواد الفرسان الصعالك فى الجاهلية. ويروى: فراشى فراش الضيف.

(٣) هو عمرو بن الأهتم بن سنان المنقرى التميمي. وكان من سادات تميم وخطبائهم وشعرائهم وذوى اللسن والفصاحة وقوة البيان فى الجاهلية والاسلام وهو صاحب الحديث المشهور مع الزبرقان بن بدر بين يدى النبى صلى الله عليه وسلم. وله مواقف مشهورة وكلام مروى مذكور. توفى سنة ٥٧ هـ ٦٧٦ م

وهذا البيت من قصيدة طويلة رواها المفضل الضبى وأولها

ألا طرقت أسماء وهي طروق ... وبانت على أن الخيال يشوق

وفيها يقول:

ومستنبح بعد الهدوء دعوته ... وقد حان من نجم السماء خفوق

يعالج عرنينا من الليل باردا ... تلف رياح ثوبه وبروق

تألق فى عين من المزن وادق ... له هيدب دانى السحاب دفوق

وقال الآخر :

أضاحكُ ضيفِي قبلَ إنزالِ رَحْلِه ويخصبُ عندى والمحلُّ جديبُ
وما الخِصبُ للأضيافِ أن يكثُرَ القِرى ولكِنَّما وجهُ الكريمِ خصيبُ

ثم قال الله تبارك وتعالى فى باب آخر من صفة قريش والعرب « أم تأمُرُهم أحْلامُهُمْ بِهذَا » وقال : « فَاعْتَبِروا يا أُولى الأَلْبَاب » وقال : « أُنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لكَ الأَمْثَالَ » وقال : « وإنْ كانَ مَكْرُهُمْ لِتزُول مِنهُ الجِبالُ » وعلى هذا المذهب قال : « وَإن يَكاد الذين كفروا لَيُزلقونك بأبصارهم » وقد قال الشاعر :

يتقارضُونَ إذَا الْتقَوْا فى مَوْقِفٍ نَظراً يُزِيلُ مَواقعَ الأقدَامِ

وقال تبارك وتعالى « وَمَا أرسلنا من رسولٍ إلا بِلسان قومه لِيُبيِّنَ لهم » لأن مدار الأمر على البيان والتبيين ، وعلى الإفهام والتفهيم . وكلما كان اللسان أبينَ كان أحمدَ ، كما أنه كلما كان القلب أشدّ استبانة كان أحمدَ . والمفهم لك والمتفهِّم عنك شريكان فى الفضل إلا أن المُفَهِّم أفضل من المتفهم ، وكذلك المعلم والمتعلم

هكذا ظاهر هذه القضية ، وجمهور هذه الحكومة ، إلا فى الخاص الذى لا يذكر ، والقليل الذى لا يشهر

وضرب الله مثلا لعيّ اللسان ورداءة البيان حين شبه أهله بالنساء والولدان وقال تعالى « أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فى الحِلْيَةِ وَهُوَ فِى الخِصامِ غَيْرُ مُبِينٍ » ولذلك قال النّمر بن تولب :

أضفت فلم أفحش عليه ولم أقل لأحرمه إن المكان مضيق
فقلت له أهلا وسهلا ومرحبا فهذا صبوح راهن وصديق

هكذا رواية المفضل فى هذا البيت حيث يقول : فهذا صبوح . ورواية الجاحظ فى الأصل أليق وأحكم لاطراد المعنى . راجع القصيدة فى المفضليات بشرحنا

وَكلُّ خَليلٍ عليهِ الرِّعَاثُ والحَبلاتُ ضَعِيفٌ مَلِق(١)

وليس حفظك الله مضرة سلاطة اللسان عند المنازعة ، وسقطات الخطل(٢) يوم إطالة الخطبة ، بأعظم مما يحدث عن العى من اختلال الحجة ، وعن الحصر من فوت درك الحاجة ، والناس لا يعيِّرون الخرس ، ولا يلومون من استولى على بيانه العجز ، وهم يذمون الحَصِر ، ويؤنبون(٣) العَيِيّ . فان تكلفا مقامات الخطباء ، وتعاطيا مناظرة البلغاء تضاعف عليهما الذم ، وترادف عليهما التأنيب . ومماتنة العىّ الحَصِر للبليغ المصقع(٤) فى سبيل مماتنة المنقطع المفحَم(٥) للشاعر المفلق . وأحدهما ألوم من صاحبه ، والألسنة اليه أسرع . وليس اللَّجْلاج والتمْتَام ، والألْثغ والفأْفاء وذا الحبْسة ، والحُكلة ، والرُّتَّة وذو اللَّفف(٦) والعجلة فى سبيل الحصر فى خطبته ، والعى فى مناضلة خصومه ، كما أن سبيل المفحم عند الشعراء ، والبكيء عند الخطباء ، خلاف سبيل المسهب الثرثار ، والخطِل المكثار

ثم اعلم أبقاك الله أن صاحب التَّشْديق والتَّقْعير والتَّقْعيب(٧) من الخطباء والبلغاء مع سماجة التكلف ، وشُنعة التَّزيُّد أعذر من عيّ يتكلف الخطابة ،ومن

(١) هذا البيت من كلمة قالها النمر بن تولب حين فركته زوجه جمرة بنت نوفل وتركته ذاهبة إلى زوجها الأول وبعد هذا البيت يقول :

وقامت إلىّ فأحلفتها بهدى قلائده تختنق
بأن لا أخونك فيما علمت فإن الخيانة شر خلق

والرعاث : الأقراط . والحبلات واحدتها حبلة وهى جنس من الحلى قدر ثمر الطلح

(٢) يعنى الاكثار من الكلام الفاسد .

(٣) التأنيب : اللوم والتعنيف

(٤) المصقع : الجهير الصوت بالخطاب المتدفق بلا تلعثم

(٥) المفحم : هو الذى لا يكاد يندفع في القول حتى يصاب بالبهر والانخام . والمفلق الذي يندفع كالسيل الدافق لايرده شئ

(٦) اللجلاج : الذى يتلجلج فى الكلام . والتمتام الذى يردد لسانه حرفى التاء والميم . والألثغ هو الذى لايستطيع لسانه أن يلفظ حرفى السين والراء وغيرهما . والفأفاء الذى يردد حرف الفاء فى كلامه عيا وحصرا . وكل هذا وما بعده من عيوب المنطق

(٧) التشديق : تكلف البلاغة . والتقعير : تكلف الكلام على مذهب الأعراب : والتقعيب : أن يخرج الكلام وقد جعل فمه كالقعب

حصِر يتعرض لأهل الاعتياد والدُّربة . ومدار اللائمة ومستقر المذمة حيث رأيت بلاغة يخالطها التكلف ، وبيانا يمازجه التزيد ، إلا أن تعاطى الحصر المنقوص مقام الدَّرِب التام ، أقبح من تعاطى البليغ الخطيب ، ومن تشادق الأعرابى القح وانتحال المعروف ببعض الغزارة فى المعانى والألفاظ ، وفى التحبير والارتجال ، انه البحر الذى لا ينزح ، والغَمر الذى لا يسبر ، أيسر من انتحال الحصر المنخوب[١] أنه فى مِسلاخ[٢] التام الموفر ، والجامع المحكك ، وإن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قال : « إيَّاىَ والتَّشادُقَ » وقال : « أبْغَضُكُمْ إلىَّ الثَّرْثارُون المُتَفَيْهِقُونَ » وقال « مَن بدا جَفا » وعاب الفدادين[٣] والمتزيدين فى جهارة الصوت ، وانتحال سَعة الأشداق ، ورَحب الغلاصم ، وهَدَل الشفاه . وأعلمنا أن ذلك فى أهل الوبر أكثر ، وفى أهل المدر أقل . فاذا عاب المدرىَّ بأكثر مما عاب به الوبرى ، فما ظنك بالمولد القروى والمتكلف البلدى ؟ فالحصر المتكلف والعيي المتزيد ، ألوم من البليغ المتكلف لأكثر مما عنده ، وهو أعذر ، لأن الشبهة الداخلة عليه أقوى . فمَن أسوأ حالا — أبقاك الله — ممن يكون ألوم من المتشدقين ومن الثرثارين المتفيهقين ، وممن ذكره النبى صلى الله عليه وسلم نصاً ، وجعل النهى عن مذهبه مفسراً ، وذكر مقته له وبغضه إياه ؟ !

ولما علم واصِلُ بنُ عَطاءٍ[٤] أنه ألثغ فاحش اللَّثغ ، وأن مُخرج ذلك منه

---

(١) المنخوب : الذي يصاب بالرعدة والبهر حين الكلام .

(٢) فى مسلاخ : المسلاخ الجلد . يعنى فى ثياب التام الموفر وفى زيه

(٣) الفدادون : أصحاب الاصوات المزعجة

(٤) هو أبو حذيفة واصل بن عطاء ، ويلقب الغزال لجلوسه فى سوق الغزالين عند رضيع له يعرف بأبى عبد الله الهلالى ، وما كان لزومه لسوق الغزالين إلا ليتصدق على من يغشاه من النساء المتعففات ، وكانت به لثغة فى الراء قبيحة . فكان يتجنب الراء فى كلامه وخطبه ومحاوراته ، وكان احد شيخي المعتزلة . وعلماً من اعلامهم ، مدحه بشار بن برد كثيراً ، ثم هجاه لاختلافهما فى الرأى . وكانت بينه وبين عمرو بن عبيد احد شيخي المعتزلة فى مجلس الحسن البصري مناظرة هامة فى مرتكب الكبيرة ، هل هو كافر او فاسق ؟ اخذ عمرو بقول واصل ، وهو المنزلة بين المنزلتين . ولد سنة ٦٩٩ م وتوفى سنة ١٣١ ﻫ ٧٤٨ م وقد فصلنا مذاهب الاعتزال فى كتاب دعوناه ، شيوخ المعتزلة ومذاهبهم ، ستطبعه قريباً ان شاء الله تعالى

شنيع ، وأنه إذ كان داعية مقالة ، ورئيس نِحلة ، وأنه يريد الاحتجاج على أرباب النِّحل ، وزعماء الملل ، وأنه لا بد من مقارعة الأبطال ، ومن الخطب الطوال ، وأن البيان يحتاج إلى تمييز وسياسة ، وإلى ترتيب ورياضة ، وإلى تمام الآلة وإحكام الصنعة ، وإلى سهولة المخرج وجهارة المنطق ، وتكميل الحروف ، وإقامة الوزن ، وأن حاجة المنطق إلى الطلاوة والحلاوة كحاجته إلى الجلالة والفخامة ، وأن ذلك من أكبر ما تُستمال به القلوب ، وتنثنى إليه الأعناق ، وتزين به المعانى .

وعلم واصلٌ أنه ليس معه ما ينوب عن البيان التام ، واللسان المتمكن ، والقوة المتصرفة ، كنحو ما أعطى الله نبيه موسى صلوات الله عليه من التوفيق والتسديد مع لباس التقوى وطابَع النبوة ، ومع المحبة والاتساع فى المعرفة ، ومع هَدْى النبيين وسَمت المرسلين وما يَغْشَيهمُ الله به من القبول والمهابة ، ولذلك قال بعض شعراء النبى صلى الله عليه وسلم

لَوْ لَمْ تَكُنْ فِيهِ آيَاتٌ مُبَيِّنَةٌ   كَانَتْ بَدَاهَتُهُ تُنْبِيكَ بِالْخَبَرِ

ومع ما أعطى الله موسى عليه السلام من الحجة البالغة ، ومن العلامات الظاهرة والبرهانات الواضحة ، إلى أن حل الله تلك العقدة ، ورفع تلك الحُبسة ، وأسقط تلك المحنة ، ومن أجل الحاجة إلى حسن البيان ، وإعطاء الحروف حقوقها من الفصاحة رام أبو حُذيفة — إسقاط الراء من كلامه ، وإخراجها من حروف منطقه ، فلم يزل يكابد ذلك ويغالبه ، ويناضله ويساجله ، ويتأتى لستره والراحة من هُجنته ، حتى انتظم له ما حاول ، واتسق له ما أمل ، ولولا استفاضة هذا الخبر وظهور هذه الحال حتى صار لغرابته مثلا ، ولطرافته معلما ، لَمَا استجزنا الاقرار به والتأكيد له ، ولست أعنى خطبه المحفوظة ، ورسائله المخلدة ، لأن ذلك يحتمل الصنعة ، وإنما عنيت مُحاجة الخصوم ، ومُناقلة الأكفاء ، ومفاوضة الاخوان

واللثغة بالراء تكون بالغين والذال والياء ، والغين أقلها قبحاً ، وأوجدها فى كبار الناس وبلغائهم وأشرافهم وعلمائهم .

وكانت لثغة محمد بن شبيب المتكلم بالغين ، فاذا حمل على نفسه وقوم لسانه خرج الراء . وقد ذكر فى ذلك أبو الطروق الضبى فقال :

عَلِيمٌ بِإبْدَالِ الْحُرُوفِ وَقَامِعٌ   لِكُلِّ خَطِيبٍ يَغْلِبُ الحقَّ باطله

*وكانَ وَاصلُ بنُ عطاء قبيحَ اللثغة شنيعها ، وكان طويل العنق جدا، وفيه قال بشار الأعمى :

مَالِى أُشَايِعُ غَزَّالاً لَهُ عُنُقٌ   كَنِقْنِقِ الدَّوِّ إن وَلّى وَإنْ مَثَلا (١)

عُنقَ الزَّرافَةِ مَابَالِى وَبَالُكُمُ   أَتُكْفِرُونَ رِجالاً أَكفَرُوا رَجُلاَ ؟

فلما هجا وَاصلا وصوَّب رأى إبليس فى تقديم النار على الطين وقال :

الْأَرْضُ مُظْلِمَةٌ وَالنَّارُ مُشْرِقَةٌ   وَالنَّارُ مَعْبُودَةٌ مُذْ كَانَتِ النَّارُ

وكان واصل بن عطاء غزّالا

---

* هذه الجملة التى وضعتها بين هذين النجمين مضطربة فى الأصل وفيها بعض اللبس . لذلك رأيت أن أرويها هنا نقلا عن الأغانى وقد نقلها صاحب الأغانى عن نسخة من كتاب البيان والتبيين ، قال : قال الجاحظ : وكان بشار يدين بالرجعة ويكفر جميع الأمة ، ويصوب رأي إبليس في تقديم النار على الطين ، وذكر ذلك فى شعره فقال :

الأرض مظلمة والنار مشرقة   والنار معبودة مذ كانت النار

قال : وبلغه عن أبي حذيفة واصل بن عطاء إنكار لقوله وهتف به ، فقال يهجوه :

مالى أشايع غزالا له عنق   كنقنق الدو إن ولى وإن مثلا

عنق الزرافة مابالى وبالكم   تكفرون رجالا كفروا رجلا !

قال : فلما تتابع على واصل منه مايشهد على إلحاده خطب به واصل ، وكان ألثغ على الراء فكان يجتنبها فى كلامه ، فقال : أما لهذا الأعمى الملحد ، أما لهذا المشنف المكنى بأبى معاذ من يقتله ؟ أما والله لولا أن الغيلة سجية من سجايا الغالية لدسست إليه من يبعج بطنه فى جوف منزله اوفى حفله ، ثم كان لايتولى ذلك إلا عقيلى او سدوسى

(١) النقنق : الظليم وهو ذكر النعام . والدو : الفلاة . والرجعة : الاعتقاد بالرجوع إلى الدنيا بعد الموت . وكان فى العرب من يرى ذلك المذهب وهو يماثل مذهب قدماء المصريين . واما البيت الذى قال إن بشارا انشده متمثلا فهو من قصيدة عمرو بن كلثوم التى اولها :

الا هبى بصحنك فاصبحينا   ولا تبقى خمور الأندرينا

ومعنى قوله : وما شر الثلاثة . البيت . اي انه ليس هوشر الثلاثة . ولكن الشاعر المتمثل اراد انه شر الثلاثة .

وزعم ان جميع المسلمين كفروا بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقيل وعلىٌّ أيضا ؟ فأنشد :

وَمَا شَرُّ الثَّلَاثَةِ أُمَّ عَمْرٍو   بِصَاحِبِكِ الَّذِى لَا تَصبحينا

قال وَاصِلُ بنُ عَطاء عند ذلك « أمَا لِهذَا المُلْحِدِ المُشَنَّفِ المكتنى بأبى مَعاذ من يقتله ؟ أما والله لولا أن الغِيْلَةَ سجية من سجايا الغالية لبعثت إليه من يبعج بطنه على مضجعه ، و يقتله فى جوف منزله ، وفى يوم حفله ، ثم كان لايتولى ذلك منه إلا عُقيلى أو سَدوسى » *

قال أبو حفص عمر بن عثمان الشمَّرى : ألا تريان كيف تجنب الراء فى كلامه هذا ؟ وأنتما للذى تريان من سلامته وقلة ظهور التكلف فيه ، لاتظنان به التكلف مع امتناعه من حرف كثير الدوران فى الكلام — ألا تريان أنه حين لم يستطع أن يقول بشار ، وابن برد ، والمرعَّث ، جعل المُشَنَّفَ بدلا من المرعث ، والملحد بدلا من الكافر ؟ ، وقال : إن الغِيْلَةَ سجية من سجايا الغالية ، ولم يذكر المنصورية ولا المغيرية[1] لمكان الراء ؟ وقال لبعثت إليه من يبعج بطنه ، ولم يقل لأرسلت اليه ؟ وقال على مضجعه ولم يقل على فراشه

وكان اذا أراد أن يذكر البُر قال : القمح والحنطة . والحنطة لغة كوفية ، والقمح لغة شامية . هذا وهو يعلم أن لغة من قال بُر أفصح من لغة من قال قمح أو حِنطة

قال المتنخل الهذلى[2]

لادَرَّ دَرِّىَ إنْ أطْعَمْتُ نَازِلَهُمْ   قِرْفَ الحَتِيِّ وَعِنْدِى البُرُّ مَكْنُوزُ[3]

(١) المنصورية : هى فرقة من فرق الضلال منسوبة إلى أبى منصور العجلى ، وقد شبه نفسه بربه وكان يزعم انه صعد إلى السماء وان الله تعالى مسح بده على رأسه وقال له : يابنى بلغ عنى ، ثم أهبطه إلى الأرض على انه الكسف الساقط من السماء . والمغيرية فرقة اخرى منسوبة إلى المغيرة ابن سعيد العجلى . وكان يزعم أن معبوده ذو أعضاء . وان أعضاءه على صور حروف الهجاء

(٢) هو مالك بن عويمر الهذلى ، يكنى أبا أثيلة ويلقب المتنخل . كان من فحول شعراء هذيل وفصحائهم

(٣) قرف الحتى : قشر سويق المقل وهو (الدوم)

وقال أمية بن أبي الصلت [١] في مديح عبد الله بن جُدْعان [٢]

لَهُ دَاعٍ بِمَكَّةَ مُشْمَعِلٌّ وَآخَرُ فَوْقَ دَارَتِهِ يُنَادِي
إلى رُدُحٍ من الشِّيزَى عليها لُبَابُ البُرِّ يُلْبَكُ بِالشِّهَادِ [٣]

وقال بعض القرشيين يذكر قيس بن معد يكرب ومقدمه مكة في كلمة له:

قَيْسٌ أبو الأشعثِ بِطْرِيقُ اليمنْ لايسألُ السائلُ عنه: إبْنُ مَنْ
أشبعَ آلَ اللهِ من بُرِّ عدَنْ

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أترون أني لا أعرف رقيق العيش؟ لُباب البُر بصغار المعزى! وسمع الحسن [٤] رجلا يعيب الفالوذق فقال: لُباب البر بلعاب النحل بخالص السمن؟ ماعاب هذا مسلم! وقالت عائشة رضي الله عنها: ماشبع رسول الله صلى الله عليه وسلم من هذه البُرّة السمراء حتى فارق الدنيا

وأهل الأمصار إنما يتكلمون على لغة النازلة فيهم من العرب. ولذلك تجد

(١) هو أمية بن أبى الصلت الثقفى. كان على عهد بعثة النبى صلى الله عليه وسلم. وكان قد نظر فى كتب الأوائل وتعبد لاله ابرهيم واسماعيل وحرم الخمر وشك فى الأوثان والتمس الدين وطمع فى النبوة. فلما بعث الله رسوله بالهدى حسده وبلغ به الحسد إلى الجحود. وكان شاعراً مفوها قال عنه الرواة: انه أشعر اهل المدر. ولما وقعت وقعة بدر طفق يحرض قريشا ويرثى قتلاها المشركين. وهذان البيتان من قصيدة قالها فى عبد الله بن جدعان وقبلهما:

ومالى لا احييه وعندى مواهب يطلعن على النجاد
لأبيض من بنى تيم بن كعب وهم كالمشرفيات الحداد
لكل قبيلة هاد ورأس وانت الرأس تقدم كل هاد
له بالخيف قد علمت معد وان البيت يرفع بالعماد

له داع، الخ، مات على غير دين سنة ٢ او ٩ هجرية

(٢) هو عبدالله بن جدعان التيمى القرشى، كان من مشاهير الاجواد، وكان يلقب: حاسي الذهب. لأنه كان يشرب فى إناء من الذهب، وكان مبدا امره صعلوكا شريرا فاتكا. فنفاه اهله لكثرة جرائره، فهام فى شعاب مكة فعثر بقبر قديم فيه من الذهب والاحجار الكريمة شىء كثير فنقله الى منزله وصار يبذله فى صالح الاعمال حتى ضرب به المثل فى الجود والسخاء فقيل «اقرى من حاسى الذهب»

(٣) الردح: الجفان الواسعة. الشيزى: نوع من الخشب الأسود تصنع منه الجفان، ولعله النوع الذي تتخذ منه القصاع فى بلادنا. عليها. ويروى بدل: عليها. ملاء. لباب البر: خالصه، وهو الحوارى. يلبك بالشهاد: يخلط بالعسل

(٤) هو الحسن البصرى. وقد كتبنا له ترجمة صالحة ستراها فى كتابنا، شيوخ المعتزلة ومذاهبهم.

وقال : قال أهل مكة لمحمد بن مناذر الشاعر [١] : ليست لكم معاشر أهل البصرة لغة فصيحة ، إنما الفصاحة لنا أهل مكة . فقال ابن المناذر : أما ألفاظنا فأحكى الألفاظ للقرآن ، وأكثرها له موافقة ، فضعوا القرآن بعد هذا حيث شئتم : أنتم تسمون القِدْرَ بُرْمَةً ، وتجمعون البرمة على بِرام ، ونحن نقول: قِدْرٌ ونجمعها على قُدور . وقال الله عز وجل « وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ » وأنتم تسمون البيت عُلِّيَّةً ، وتجمعون هذا الاسم على عَلالى ونحن نسميه غُرْفة ؛ ونجمعها على غُرُفَاتٍ وَغُرَفٍ ، وقال الله تبارك وتعالى « غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ » وقال : « وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ » وأنتم تسمون الطَّلْعَ الكافور ، والإغْريض ، ونحن نسميه الطلع ، وقال الله عز وجل « ونَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ » فعد عشر كلمات لم أحفظ أنا منها إلا هذا

ألا ترى أن أهل المدينة لما نزل فيهم ناس من الفرس فى قديم الدهر عَلِقوا بألفاظ من ألفاظهم ؟ ولذلك يسمون البطيخ الخربز ، ويسمون السَّمِيط [٢] الرودق ويسمون المصوص [٣] المزوز ، ويسمون الشِّطرنج الاشترنج ، الى غير ذلك من الأسماء ؟

وكذا أهل الكوفة فانهم يسمون المِسْحاةَ [٤] : بال ، وبال بالفارسية ولو علق ذلك لغة أهل البصرة — اذا نزلوا بأدنى بلاد فارس وأقصى بلاد العرب كان ذلك أشبه إذ كان أهل الكوفة قد نزلوا بأدنى بلاد النَّبَطِ وأقصى بلا

(١) هو أبو جعفر محمد بن مناذر ، كان من الموالى : وكان شاعراً فصيحاً مقدماً فى العلم باللغة إماما فيها ، أخذ عنه أكابر أهلها ، وكان فى اول امره يتأله ثم عدل عن ذلك فهجا الناس وتهتك وخلع وقذف اعراض اهل البصرة حتى نفى عنها إلى الحجاز فمات هناك فى ايام المأمون

(٢) السميط : هو ان يلقى بالحيوان بعد ذبحه فى الماء الحار ثم ينتف عنه صوفه او ريشه او شعره

(٣) المصوص : طعام يتخذ من اللحم فيطبخ ثم ينقع فى الخل

(٤) المسحاة : المجرفة التى يجرف بها الطين والأوحال

العرب ، ويسمى أهل الكوفة الحوك (١) باذروج ، والباذروج بالفارسية ، والحوك كلمة عربية .

وأهل البصرة إذا التقت أربع طرق يسمونها مَرْبَعَةً ، ويسميها أهل الكوفة الجهارسو ، والجهارسو بالفارسية . ويسمون السوق أو السويقة وازار ، والوازار بالفارسية . ويسمون القِثّاء خياراً ، والخيار فارسية . ويسمون المجزوم ويذى بالفارسية

وقد يستخف الناس ألفاظاً ويستعملونها وغيرها أحق بذلك منها ، ألا ترى أن الله تبارك وتعالى لم يذكر فى القرآن الجوع إلا فى موضع العقاب ، أو فى موضع الفقر المدقع والعجز الظاهر ؟ والناس لايذكرون السغب ، ويذكرون الجوع فى حال القدرة والسلامة ، وكذلك ذكر المطر لأنك لاتجد القرآن يلفظ به إلا فى موضع الانتقام ، والعامة وأكثر الخاصة لايفصلون بين ذكر المطر وذكر الغيث . ولفظ القرآن الذى عليه نزل أنه إذا ذكر الأبصار لم يقل الاسماع ، واذا ذكر سبع سموات لم يقل الأرضين ، ألا تراه لايجمع الأرض أرضين ولا السمع أسماعا ؟ والجارى على أفواه العامة غير ذلك ، لايتفقدون من الألفاظ ما هو أحق بالذكر وأولى بالاستعمال . وقد زعم بعض القراء أنه لم يجد ذكر لفظ النكاح فى القرآن إلا فى موضع التزويج .

والعامة ربما استخفت أقل اللغتين وأضعفهما ، وتستعمل ما هو أقل فى أصل اللغة استعمالا وتدع ماهو أظهر وأكثر . ولذلك صرنا نجد البيت من الشعر قد سار ولم يسر ما هو أجود منه . وكذلك المثل السائر . وقد يبلغ الفارس والجواد الغاية فى الشهرة ولا يرزق ذلك الذكر والتنويه بعض من هو أولى بذلك منه . ألا ترى أن العامة ابنُ القِرِّيَّةِ (٢) أشهر عندها فى الخطابة من سحبان وائل .

(١) الحوك : البقلة الحمقاء (الرجلة)

(٢) ابن القرية هو ايوب بن زيد ، والقرية امه . كان خطيبا لسناً وبينا بليغاً . خرج مع ابن الأشعث وكان يحرض الناس على قتال الحجاج بقوة فصاحته ومتانة بلاغته . ثم اسر وقدم إلى الحجاج فناظره وقتله سنة ٨٤ هـ ٧٠٣ م

وعبيد الله بن الحر (١) أذكر عندهم في الفروسية، من زُهَيْر بن ذُؤَيْبٍ؟ وكذلك مذهبهم في عَنْتَرَة بن شدّادٍ وعُتَيْبَةَ بْنِ الحارِثِ بْن شِهابٍ، وهم يضربون المثل بِعَمْرِو بْنِ مَعْدِ يَكْرِب ولا يعرفون بَسْطام بْنَ قَيْسٍ.

وفي القرآن معان لاتكاد تفترق مثل: الصلاة والزكاة، والجوع والخوف، والجنة والنار، والرغبة والرهبة، والمهاجرين والأنصار، والجن والانس.

قال قُطْرُبٌ: أنشدني ضِرارُ بْنُ عمرٍو قول الشاعر في واصل:

وَيَجْعَلُ البُرَّ قَمْحًا فِي تَصَرُّفِهِ ... وَجَانَبَ الرَّاءَ حَتَّى احْتَالَ لِلشِّعَرِ
وَلَمْ يُطِقْ مَطَرًا وَالقَوْلُ يُعْجِلُهُ ... فَعَاذَ بِالغَيْثِ إِشْفَاقًا مِنَ المَطَرِ

قال: وسألت عُثمانَ البَرِّيّ: كيف كان واصل يصنع في العدد؟ وكيف كان يصنع بعشرة وعشرين وأربعين؟ وكيف كان يصنع بالقمر والبدر ويوم الأربعاء وشهر رمضان؟ وكيف كان يصنع بالمحرم وصفر وربيع الأول وربيع الآخر وجُمادى الآخرة ورجب؟ فقال: مالي فيه قول إلا ما قال صفوانُ:

مُلَقَّنٌ مُلْهَمٌ فِيمَا يُحَاوِلُهُ ... جَمٌّ خَوَاطِرُهُ جَوَّابُ آفاقِ

وأنشد أبو محمد اليزيديُّ:

وَخَلَّةُ اللَّفْظِ فِي اليَاءَاتِ إِنْ فُقِدَتْ ... كَخَلَّةِ اللَّفْظِ فِي اللَّامَاتِ وَالأَلِفِ
وَخَصْلَةُ الرَّاءِ فِيهَا غَيْرُ خَافِيَةٍ ... فَاعْرِفْ مَوَاقِعَهَا فِي القَوْلِ وَالصُّحُفِ

يزعم أن هذه الحروف أكثر ترددا من غيرها، والحاجة إليها أشد. واعتبر ذلك بأن تأخذ عدة رسائل وعدة خطب من جملة خطب الناس ورسائلهم، فإنك متى حصلت جميع حروفها وعددت كل شكل على حدة، علمت أن هذه الحروف الحاجة إليها أشد.

(٦) هو أبو الأبرش عبيد الله بن الحر، كان من اشجع اهل زمانه وكان يضرب به المثل في القوة وشدة الاسر، ومع هذا فربما رمى بالحمق.

ذكر ما جاء فى تلقيب واصل بالغزال ومن نفى ذلك عنه

قال أبو عثمان . فمن ذلك ما أخبرنا به الأصمعى قال : أنشدنى المُعْتَمِرُ بْنُ سُلَيْمانَ لإسحٰقَ بْنِ سُوَيْدٍ العَدَوِىِّ :

بَرِئْتُ مِنَ الْخَوارِجِ لَسْتُ مِنْهُمْ مِنَ الْغَزّالِ مِنْهُمْ وَابْنِ بابِ (١)
وَمِنْ قَوْمٍ إذَا ذَكَرُوا عَلِيًّا يَرُدُّونَ السَّلامَ عَلَى السَّحابِ (٢)
ولٰكِنِّى أُحِبُّ بِكُلِّ قَلْبِي وأَعْلَمُ أَنَّ ذَاكَ مِنَ الصَّوَابِ
رَسُولَ اللهِ وَالصِّدِّيقَ حُبًّا بِهِ أَرْجُو غَدًا حُسْنَ المَآبِ (٣)

وفى ذلك قال بشار :

مَالِى أُشَايِعُ غَزّالاً لهُ عُنُقٌ كَنِقْنِقِ الدَّوِّ إنْ وَلَّى وَإنْ مَثَلا

ومن ذلك قول مَعْدَانَ السُّمَيْطِىِّ :

يَوْمَ تَشْفِى النُّفُوسُ مِنْ يَعْصُرِ اللؤْ مِ وَيُثْنَى بِسامَةَ الرَّحَّالِ
وَعَدِىٍّ وَتَيْمِها وَثَقِيفٍ وَأُمَىٍّ وَتَغْلِبٍ وَهِلالِ
لاَ حَرُورٌ وَلاَ النَّوَائِبُ تَنْجُو لاَ وَلاَ صَحْبُ وَاصِلِ الغَزّالِ

وكان بشار كثير المديح لواصلِ بنِ عطاء قبل أن يدين بالرجعة ويكفر جميع الأمة (٤) وكان قد قال فى تفضيله على خالد بن صفوان وشبيب بن شيبة (٥)

---

(١) إبن باب : هو عمرو بن عبيد بن باب احد شيخي المعتزلة وقد كتبناله ترجمة فى كتابنا شيوخ المعتزلة ومذاهبهم ،

(٢) هؤلاء قوم من الشيعة

(٣) وفى رواية : حسن الثواب

(٤) يعنى ان بشارا هو الذى كان يدين بالرجعة ويكفر جميع الأمة على مايقال

(٥) كان خالد بن صفوان بن عبد الله بن الاهتم خطيبا بليغا ولسنا مبينا حسن السمر جيد المنادمة ، وكان مبخلا مطلاقا . كان يقول : اربعة لايطمع فيهن عندى : القرض والفرض والمرس ، وأن أسعى مع أحد فى حاجة . قيل له : وما يصنع بك بعد هذه ! فقال : الماء البارد وحديث لاينادي وليده . وقيل له : من احب إخوانك إليك ؟ قال : من سد خللى وغفر زلى وقبل عللى . وكان يقول : مامن ليلة احب إلى من ليلة قد طلقت فيها نسائي فأرجع والستور قد قلعت ومتاع البيت قد نقل

والفضل بن عيسى يوم خطبوا عند عبد الله بن عُمر بن عبد العزيز والى العراق :

أَبَا حُذَيفَةَ قَدْ أُوتِيتَ مُعْجِبَةً ... مِنْ خُطْبَةٍ بَدَهَتْ مِنْ غَيْرِ تَقْدِيرِ

وَإِنَّ قَوْلاً يَرُوقُ الْخَالِدَيْنِ مَعاً ... لَمُسْكِتٌ مُخْرِسٌ عَنْ كُلِّ تَحْبِيرِ (١)

لأنه كان مع ارتجاله الخطبة التى نزع منها الراء كانت مع ذلك أطول من خطبهم . وقال بشار :

تَكَلَّفُوا الْقَوْلَ وَالأَقْوَامُ قَدْ حَفَلُوا ... وَحَبَّرُوا خُطَباً نَاهِيكَ مِنْ خُطَبِ

فَقَامَ مُرْتَجِلاً تَغْلِى بَدَاهَتُهُ ... كَمِرْجَلِ الْقَيْنِ لَمَّا حُفَّ بِاللَّهَبِ (٢)

وَجَانَبَ الرَّاءَ لَمْ يَشْعُرْ بِهِ أَحَدٌ ... قَبْلَ التَّصَفُّحِ وَالإِغْرَاقِ فِى الطَّلَبِ

وقال فى كلمة له يعنى تلك الخطبة :

فَهٰذَا بَدِيهٌ لاَ كَتَحْبِيرِ قَائِلٍ ... إِذَا مَا أَرَادَ الْقَوْلَ زَوَّرَهُ شَهْرَا

فلما انقلب عليهم بشار ، ومقاتله لهم بادية ، هجوه ونفوه ، فما زال غائبا حتى مات عَمْرُو بنُ عُبيد . وقال صفوانُ الانصارى :

مَتَى كَانَ غَزَّالٌ لَهُ يَا ابْنَ حَوْشَبٍ ... غُلاَمٌ كَعَمْرٍو أَوْ كَعِيسَى بْنِ حَاضِرِ (٣)

فبعث إلىّ بلبق بسلة فيها طعامى وبعث إلىّ الاخرى بفراش انام عليه . وقال لبعض الولاة: قدمت فأعطيت كلا بقسط من وجهك وكرامتك حتى كأنك لست من احد او حتى كأنك من كل احد . وسأل عبد الملك الحجاج عن عيبه فتلكأ عليه فأبى إلا ان يخبره فقال : أنا حديد حسود حقود لجوج ذو قسوة . فبلغ هذا الكلام خالد بن صفوان فقال : لقد انتحل الشر بحذافيره والمروق من جميع الخير بزوبره ولقد تأنق فى ذم نفسه وتجود فى الدلالة على اؤم طبعه وفى إقامة البرهان على إفراط دعره وشدة المشاكلة لشيطانه الذى اغواه . مات فى عهد السفاح سنة ١٣٣ ﻫ ٧٥٠ م . واما شبيب ابن شيبة فهو ابو معمر البصرى وكان من بابة خالد بن صفوان فى الفصاحة والبلاغة وقوة العارضة وهو من رهطه . والفضل بن عيسى . هو رأس الفضلية . وهم موالى الرقاشيين . واصلهم من بلاد الفرس وكان اجدادهم خطباء الاكاسرة . وكان الفضل بن عيسى بن أبان الرقاشى خطيباً بليغاً ومتكلما حاذقاً وقاصا بارعا ومفسرا ماهرا ، وكان يحضر مجلسه جماعة من العلماء والفقهاء والمتكلمين واهل الرأى ، وكان المعتمر بن سليمان ولد ابنه سوادة بنت الفضل

(١) الخالدان : يريد بهما خالد بن صفوان وشبيب بن شيبه . وقد استعمل التغليب على سنة العرب كما يقولون عن ابى بكر وعمر العمران ، وعلى الشمس والقمر القمران

(٢) المرجل : القدر توقد تحتها النار فيكون لها غليان وفوران . والقين : الحداد

(٣) عمرو بن عبيد وابن حاضر : من المتكلمين المعتزلة

أَمَا كَانَ عُثْمَانُ الطَّوِيلُ بْنُ خَالِدٍ ... أَوِ القَرْمُ حَفْصٌ نُهْبَةً لِلْمَخَاطِرِ (١)

لَهُ خَلْفَ شَعْبِ الصِّينِ فِي كُلِّ ثُغْرَةٍ ... إِلَى سُوسِهَا الأَقْصَى وَخَلْفَ البَرَابِرِ

رِجَالٌ دُعَاةٌ لَا يُفَلُّ عَزِيمُهُمْ ... تَهَكُّمُ جَبَّارٍ وَلَا كَيْدُ مَاكِرِ

إِذَا قَالَ: مُرُّوا فِي الشِّتَاءِ، تَطَاوَعُوا ... وَإِنْ كَانَ صَيْفًا لَمْ يُخَفْ شَهْرُ نَاجِرِ (٢)

بِهِجْرَةِ أَوْطَانٍ وَبَذْلٍ وَكُلْفَةٍ ... وَشِدَّةِ أَخْطَارٍ وَكَدِّ المُسَافِرِ

فَأَنْجَحَ مَسْعَاهُمْ وَأَثْقَبَ زَنْدَهُمْ ... وَأَوْرَى بِفَلْجٍ لِلْمُخَاصِمِ قَاهِرِ (٣)

وَأَوْتَادُ أَرْضِ اللهِ فِي كُلِّ بَلْدَةٍ ... وَمَوْضِعُ فُتْيَاهَا وَعِلْمِ التَّشَاجُرِ

وَمَا كَانَ سَحْبَانُ يَشُقُّ غُبَارَهُمْ ... وَلَا الشُّدْقُ مِنْ حَيَّيْ هِلَالِ بْنِ عَامِرِ (٤)

وَلَا النَّاطِقُ النَّخَّارُ وَالشَّيْخُ دَغْفَلٌ ... إِذَا وَصَلُوا أَيْمَانَهُمْ بِالمَخَاصِرِ (٥)

وَلَا القَالَةُ الأَعْلَوْنَ رَهْطُ مُكَحَّلٍ ... إِذَا نَطَقُوا فِي الصُّلْحِ بَيْنَ العَشَائِرِ (٦)

بِجَمْعٍ مِنَ الجَفَّيْنِ رَاضٍ وَسَاخِطٍ ... وَقَدْ زَحَفَتْ بِرَّاوُهُمْ لِلْمَحَاضِرِ (٧)

تَلَقَّبَ بِالغَزَّالِ وَاحِدُ عَصْرِهِ ... فَمَنْ لِليَتَامَى وَالقَبِيلِ المُكَاثِرِ (٨)

وَمَنْ لِحَرُورِيٍّ وَآخَرَ رَافِضٍ ... وَآخَرَ مُرْجِيٍّ وَآخَرَ حَائِرِ (٩)

وَأَمْرٍ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْكَارِ مُنْكَرٍ ... وَتَحْصِينِ دِينِ اللهِ مِنْ كُلِّ كَافِرِ

---

(١) عثمان الطويل وحفص الفرد : من المتكلمين المعتزلة

(٢) شهر ناجر هو من شهور قلب الصيف عند العرب

(٣) أورى بفلج : اضاء بالظفر والغلب وبلوغ القصد

(٤) الشدق جمع اشدق : يريد بهم فصحاء هذين الحيين وخطباءهم

(٥) النخار بن اوس العذري ودغفل بن حنظلة السدوسي كانا من أشهر نسابي العرب وخطبائهم وكانا اذا قبضا على عصيهما وقاما للخطاب أفحما كل ناطق

(٦) القالة الأعلون : الخطباء فى الشؤون الرفيعة ولا سيما فى الصلح بين العشائر

(٧) قال الجاحظ : الجفان : بكر وتميم . والروقان : بكر وتغلب . والقاران : الأزد وتميم ، قيل ذلك لكل عمارة من الناس ، وهى جمع . والعمائر ايضا : غار . والجف أيضا : قشر الطلعة .

(٨) القبيل المكاثر : يريد به من كاثر بعياله وليس له مال

(٩) الحروري من الحرورية وهم فرقة من الخوارج . والرافض من الشيعة . والمرجيء من المرجئة وهم فرقة من فرق الاسلام

يُصِيبُونَ فَصْلَ القَوْلِ فِي كُلِّ مَنْطِقٍ … كَمَا طَبَّقَتْ فِي العَظْمِ مُدْيَةُ جَازِرِ
تَرَاهُمْ كَأَنَّ الطَّيْرَ فَوْقَ رُؤُسِهِمْ … عَلَى عِمَّةٍ مَعْرُوفَةٍ فِي المَعَاشِرِ
وَسِيمَاهُمُ مَعْرُوفَةٌ فِي وُجُوهِهِمْ … وَفِي المَشْيِ حَجَّاجًا وَفَوْقَ الأَبَاعِرِ
وَفِي رَكْعَةٍ تَأْتِي عَلَى اللَّيْلِ كُلِّهِ … وَظَاهِرِ قَوْلٍ فِي مِثَالِ الضَّمَائِرِ
وَفِي قَصِّ هُدَّابٍ وَإِحْفَاءِ شَارِبٍ … وَكَوْرٍ عَلَى شَيْبٍ يُفِىءُ لِنَاظِرِ
وَعَنْفَقَةٍ مَصْلُومَةٍ وَلِنَعْلِهِ … قِبَالاَنِ فِي رُدْنٍ رَحِيبِ الخَوَاطِرِ
فَتِلْكَ عَلاَمَاتٌ تُحِيطُ بِوَصْفِهِمْ … وَلَيْسَ جَهُولُ القَوْمِ فِي جِرْمِ خَابِرِ

وفي واصل يقول صفوانُ :

فَمَا مَسَّ دِينَاراً وَلاَ صَرَّ دِرْهَماً … وَلاَ عَرَفَ الثَّوْبَ الَّذِي هُوَ قَاطِعُهْ

وفيه يقول إسباطُ بنُ واصل الشيباني :

وَأَشْهَدُ أَنَّ اللهَ سَمَّاكَ وَاصِلاً … وَأَنَّكَ مَيْمُونُ النَّقِيبَةِ وَالشِّيَمْ

ولما قام بشار يعذر إبليس في أن النار خير من الارض ، وذكر واصلا بما ذكره قال صفوان :

زَعَمْتَ بِأَنَّ النَّارَ أَكْرَمُ عُنْصُراً … وَفِي الأَرْضِ تَحْيَا بِالحِجَارَةِ وَالزَّنْدِ (١)
وَيُخْلَقُ فِي أَرْحَامِهَا وَأُرُومِهَا … أَعَاجِيبُ لاَ تُحْصَى بِخَطٍّ وَلاَ عَقْدِ (٢)
وَفِي القَعْرِ مِنْ لُجِّ البِحَارِ مَنَافِعٌ … مِنَ اللُّؤْلُؤِ المَكْنُونِ وَالعَنْبَرِ الوَرْدِ
كَذَلِكَ سِرُّ الأَرْضِ فِي البَحْرِ كُلُّهُ … وَفِي الغَيْضَةِ الغَنَّاءِ وَالجَبَلِ الصَّلْدِ
وَلاَ بُدَّ مِنْ أَرْضٍ لِكُلِّ مُطَيَّرٍ … وَكُلِّ سَبُوحٍ فِي الغَمَائِرِ مِنْ جُدِّ (٣)
كَذَاكَ وَمَا يَنْسَاحُ فِي الأَرْضِ مَاشِياً … عَلَى بَطْنِهِ مَشْيَ المُجَانِبِ لِلقَصْدِ

(١) الزند : العود الذي تقدح به النار
(٢) الأروم : اصول الغابات
(٣) كان في الأصل : لكل مطهر ، وقد وقفت على رواية تقول : لكل مطير ، فآثرتها لاستقامة المعنى عليها واطراد النسق بها . الغمائر : المياه يعلو بعضها بعضا . من جد ، وفي رواية : من خد

وَيَنْزِى عَلَى جِلْدٍ يُفِيمُ حُزُوزَهُ … تَعَمُّجَ ماءِ السيلِ فى صَبَبٍ حَرْدِ (١)
وَفى قُلَلِ الأَجْبالِ خَلْفَ مُقَطَّمٍ … زَبَرْجَدُ أَمْلاكِ الوَرَى ساعةَ الحَشْدِ
وَفى الْحَرَّةِ الرَّجْلاءِ تَلْقَى مَعادِنًا … لَهُنَّ مَغَارَاتٌ تَبَجَّسُ بالنَّقْدِ (٢)
مِنَ الذَّهَبِ الإِبْرِيزِ وَالفِضَّةِ الَّتِى … تَرُوقُ وَتُصْبِى ذَا القَنَاعَةِ وَالزُّهْدِ
وَكُلُّ فِلِزٍّ مِن نُحَاسٍ وَآنُكٍ … وَمِنْ زِئْبَقٍ حَىٍّ وَنُوشَادِرٍ يَسْدِى (٣)
وَفِيها زَرَانِيخٌ وَمَكْرٌ وَمَرْتَكٌ … وَمِن مَرْقَشِيشَا غَيْرَ كَابٍ وَلَا مُكْدِى (٤)
وفِيهَا ضُرُوبُ القَارِ وَالشَّبِّ وَالنُّهَى … وَأَصْنافُ كِبْرِيتٍ مُطَاوِلَةَ الوَقْدِ (٥)
تَرَى العِرْقَ مِنْهَا فى المَقَاطِعِ لائحًا … كما قَدَّتِ الحَسْنَاءُ حاشِيَةَ البُرْدِ (٦)
وَمِنْ إِثْمِدٍ جَوْنٍ وَكِلْسٍ وَفِضَّةٍ … وَمِنْ تُوتِيَاءٍ فى مَعادِنِهِ هِنْدِى (٧)
وَفى كُلِّ أَغْوَارِ البِلادِ مَعادِنٌ … وَفى ظاهِرِ البَيْدَاءِ مِنْ مُسْتَوَى نَجْدِ
وَكُلُّ يَوَاقِيتِ الأَنَامِ وَحَلْيِهَا … مِنَ الأَرْضِ وَالأَحْجارِ فاخِرَةِ المَجْدِ
وَفِيهَا مَقَامُ الخِلِّ والرُّكْنُ وَالصَّفَا … وَمُسْتَلَمُ الحُجَّاجِ مِنْ جَنَّةِ الخُلْدِ
وَفى صَخْرَةِ الخِضْرِ التى عِندَ حُوتِها … وَفى الحَجَرِ المُهْمِى لِموسَى عَلَى عَمْدِ (٨)
وَفى الصَّخْرَةِ الصَّمَّاءِ تَصْدَعُ آيَةً … لِأُمِّ فَصِيلٍ ذِى رُغاءٍ وَذِى وَجْدِ (٩)

(١) تعمج وتمعج : تلوى . حرد : غير مستقيم فى انحداره
(٢) الحرة الرجلاء : الأرض الخشنة ذات الحجارة السود البركانية . تبجس بالنقد : تتفجر بمعدنى النقد وهما الذهب والفضة .
(٣) الفلز : نحاس أبيض تجعل منه القدور ، وقد يطلق على جواهر الأرض كلها . الآنك : الاسرب
(٤) المكر : طين احمر يصبغ به او هو المغرة . المرتك : الحجر المحرق . ويروى : وفيها روانيخ وشب ومرتب ومرمرقشا . وهذا خطأ وتحريف
(٥) القار : الزفت . النهى . الزجاج . ويروى : وفيها ضروب القار والزفت والمها . والمها جمع مهاة ، والمهاة : البلور
(٦) العرق : اي عروق المعادن فى الارض
(٧) الاثمد الجون : الكحل الأسود . والكلس : الجير واخلاطه . وتروى : ومن اثمد جوز . ومن توتيا فى معاربها . وكل هذا خطأ وتحريف
(٨) الحجر المهمى : الصخرة التى ضربها موسى بعصاه فهمت اي تفجرت بالماء
(٩) تصدع آية : اي الصخرة التى خرجت منها ناقة ثمود يتبعها فصيلها فى رغاء وحنين

مَفاخِرُ لِلطِّينِ الذى كانَ أَصْلَنا ... وَنَحْنُ بَنُوهُ غَيْرَ شَكٍّ وَلا جَحْدِ
فَذلِكَ تَدْبيرٌ وَنَفْعٌ وَحِكْمَةٌ ... وَأَوْضَحُ بُرْهَانٍ عَلَى الْوَاحِدِ الْفَرْدِ
أَتَجْعَلُ عَمْرًا وَالنِّطَاسِيَّ وَاصِلاً ... كَأَتْبَاعِ دَيْصَانٍ وَهُمْ قُمُشُ الْمَدِّ (١)
وَتَفْخَرُ بِالْمَيْلاءِ وَالْعِلْجِ عاصِمٍ ... وَتَضْحَكُ مِنْ جِيدِ الرَّئِيسِ أَبى جَعْدِ
وَتَحْكِى لَدَى الأَقْوَامِ شُنْعَةَ رَأْيِهِ ... لِتَصْرِفَ أَهْوَاءَ النُّفُوسِ إِلى الرَّدِّ
وَسَمَّيْتَهُ الْغَزَّالَ فِى الشِّعْرِ مُطْنِبًا ... وَمَوْلاكَ عِنْدَ الظُّلْمِ قِصَّتُهُ مُرْدِى (٢)
فَيا ابْنَ حَلِيفِ الطِّينِ وَاللُّؤْمِ وَالْعَمَى ... وَأَبْعَدَ خَلْقِ اللهِ مِنْ طُرُقِ الرُّشْدِ (٣)
أَتَهْجُو أَبَا بَكْرٍ وَتَخْلَعُ بَعْدَهُ ... عَلِيًّا وَتَعْزُو كُلَّ ذاكَ إِلَى بُرْدِ ؟
كَأَنَّكَ غَضْبَانٌ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ... وَطَالِبُ ذَحْلٍ لاَ يَبِيتُ عَلَى حِقْدِ (٤)
رَجَعْتَ إِلَى الأَمْصَارِ مِنْ بَعْدِ وَاصِلٍ ... وَكُنْتَ شَرِيدًا فِى التَّهَائِمِ وَالنُّجْدِ
أَتَجْعَلُ لَيْلَى النَّاعِطِيَّةَ نَحْلَةً ... وَكُلَّ عَرِيقٍ فى التَّنَاسُخِ وَالرَّدِّ (٥)
عَلَيْكَ بِدَعْدٍ وَالصَّدُوفِ وَفَرْتَنى ... وَحَاضِنَتَىْ كِسْفٍ وَزَامِلَتَىْ هِنْدِ (٦)
نَوائِبُ أَقْمارًا وَأَنْتَ مُشَوَّهٌ ... وَأَقْرَبُ خَلْقِ اللهِ مِنْ شَبَهِ الْقِرْدِ

---

(١) ديصان : كان راس فرقة من المجوس يقولون بأصلين للوجود : النور والظلمة ، وان النور يفعل الخير قصدا واختيارا والظلمة تفعل الشر طبعا واضطرارا . وقد انتحل هذه النحل فئة من الموالى فى الاسلام

(٢) قال الجاحظ : يقول إن مولاك ملاح ، لأن الملاحين إذا تظلموا رفعوا المدارى

(٣) حليف الطين : يقول إن برداً أبا بشار كان طيانا

(٤) الذحل : الثأر

(٥) ليلى الناعطية : امرأة من نساء الغالية كانت على عقل وتدبير وحرص شديد ولها حكايات فى البخل طريفة طالما تندر بها الجاحظ . نحلة : يعنى أتزعم يا بشار أن ليلى تحمل روح نحلة من طريق التناسخ لما عرفت فيها من التدبير والتعقل ؟ والتناسخ انتقال الروح من جسم الى جسم ، وهو مذهب براهمة الهند وقد انتحله طائفة من الموالى فى الاسلام .

(٦) دعد وأخواتها اسماء قيان من أهل الهوى

ولذلك قال فيه حمّادُ عجرد (١) بعد ذلك :

وَيا أقبحَ مِن قِرْدٍ إذا ما عَمِىَ القِرْدُ

ويقال أنه لم يجزع من شيء قط جزعه من هذا البيت .

وذكره الشاعر وذكر أخويه لأمه فقال :

لقدْ وَلَدَتْ أمّ الأُكَيْمِهِ أعرَجًا وآخرَ مقطوعَ القفا ناقِصَ العَضْدِ

وكانوا ثلاثة مختلفى الآباء، والأم واحدة، وكلهم وُلِدَ زَمِناً . ولذلك قال بعض من يهجوه :

إذَا دعَاهُا الخالُ أقعَى وَنَكَصْ وَهُجْنَةُ الإقْرافِ فيه بالحِصَصْ (٢)

وقال الشاعر :

لاتَشْهدَنَّ بخارِجِيّ مُطرِفٍ حتّى ترَى مِنْ نجْلِهِ أفرَاسا (٣)

وقال صفوان الانصارى فى بشار وأخويه ، وكان يخاطب أمهم :

وَلَدْتِ خُلْدًا وَذِيخاً فى تَشَتُّمِهِ وَبعْدَهُ خُزَزاً يشْتدُّ فى العَضْدِ (٤)

ثلاثةٌ مِنْ ثلاثٍ فرّقُوا فِرَقاً فاعرِفْ بذلِكَ عِرْقَ الخالِ مِنْ وَلَدِ

وقال بعد ذلك سليمان الأعمى ، أخو مسلم بن الوليد الانصارى الشاعر ، فى اعتذار بشار لابليس ، وهو يخبر عن كرم خصال الأرض :

لابُدَّ لِلأرْضِ إنْ طابَتْ وَإنْ خَبُثَتْ مِنْ أنْ تُحِيلَ إلَيْها كلّ مَغرُوسِ

وَتُربَةُ الأرْضِ إنْ جِيدَتْ وَإنْ قُحِطَتْ فَحَمْلُها أبدًا فى إثْرِ مَنْفُوسِ (٥)

(١) حماد عجرد : شاعر معروف من أهل العبث والمجون ، له فى بشار وغيره أهاج كثيرة . وكان جيد الشعر حسن التوليد فى الهجو .

(٢) أقعى : قعد على مؤخره كما يقعد الكلب . ونكص : تراجع استخذاء وخجلا لانحطاط أصله من جهة امه . وهجنة الاقراف : انحطاطه من جهة ابيه خصلة ظاهرة فيه ايضا

(٣) الخارجي من الخيل : الغير معروف نسبه . والمطرف : الكريم الاصل

(٤) قال الجاحظ : الخلد ضرب من الجرذان يولد اعمى . والذيخ ذكر الضباع وهو اعرج . والخزز ذكر الأرانب وهو قصير اليدين لايلحقه الكلب فى الصيد .

(٥) جيدت : اصابها الجود وهو الغيث . منفوس : مولود

وَبَطْنُهَا بِفِلِزِّ الأَرْضِ ذُو خَبَرٍ ... بِكُلِّ جَوْهَرَةٍ فِى الأَرْضِ مَرْمُوسِ (١)

وَكُلُّ آنِيَةٍ عَمَّتْ مَرَافِقَهَا ... وَكُلُّ مُنْتَقَدٍ فِيهَا وَمَلْبُوسِ (٢)

وَكُلُّ مَاعُونِهَا كَالْمِلْحِ مِرْفَقَةٌ ... وَكُلُّهَا مُضْحِكٌ مِنْ قَوْلِ إِبْلِيسِ

وقال بعض خلفاء بغداد :

عَجِبْتُ مِنْ إِبْلِيسَ فِى كِبْرِهِ ... وَخُبْثِ مَا أَبْدَاهُ مِنْ نِيَّتِهْ

تَاهَ عَلَى آدَمَ فِى سَجْدَةٍ ... وَصَارَ قَوَّاداً لِذُرِّيَّتِهْ

وذكره بهذا المعنى سليمان أخو مسلم الأنصارى فقال :

يَأْبَى السُّجُودَ لَهُ مِنْ فَرْطِ نَخْوَتِهِ ... وَقَدْ تَحَوَّلَ فِى مِسْلَاخِ قَوَّادِ (٣)

وقال صفوان ، فى شأن واصل و بشار ، وفى شأن النار والطين ، فى كلمة له :

وَفِى جَوْفِهَا لِلْعَبْدِ أَسْتَرُ مَنْزِلٍ ... وَفِى ظَهْرِهَا يَقْضِى فَرَائِضَهُ الْعَبْدُ

تَمُجُّ لُفَاظَ الْمِلْحِ مَجّاً وَتَصْطَفِى ... سَبَائِكَ لَا تَصْدَى وإِنْ قَدُمَ الْعَهْدُ (٤)

وَلَيْسَ بِمُحْصٍ كُنْهَ مَافِى بُطُونِهَا ... حِسَابٌ وَلَا خَطٌّ وإِنْ بَلَغَ الْجُهْدُ

فَسَائِلْ بِعَبْدِ اللهِ فِى يَوْمِ حَفْلِهِ ... وَذَاكَ مُقَامٌ لَا يُشَاهِدُهُ وَغْدُ (٥)

أَقَامَ شَبِيبٌ وَابْنُ صَفْوَانَ قَبْلَهُ ... بِقَوْلِ خَطِيبٍ لَا يُجَانِبُهُ الْقَصْدُ (٦)

وَقَامَ ابْنُ عِيسَى ثُمَّ قَفَّاهُ وَاصِلٌ ... فَأَبْدَعَ قَوْلاً مَالَهُ فِى الْوَرَى نِدُّ (٧)

فَمَا نَقَصَتْهُ الرَّاءُ إِذْ كَانَ قَادِراً ... عَلَى تَرْكِهَا وَاللَّفْظُ مُطَّرِدٌ سَرْدُ

(١) قال الجاحظ : الفلز جوهر الارض من الذهب والفضة والنحاس والآنك وغير ذلك . مرموس : مدفون

(٢) وكل منتقد : كل مال مسكوك من الذهب او الفضة ، وهو النقد

(٣) مسلاخ قواد : زى ربوث

(٤) تمج لفاظ الملح : ترمى به كأنه شىء لاقيمة له . وتصطفى : تختار وتمسك فى جوفها يعنى الأرض . سبائك : قطع الذهب ، والذهب لايعلوه الصدا مهما طال مكثه فى التراب

(٥) هو عبد الله بن عمر بن عبد العزيز وكان قد ولى العراق . مات فى حبس مروان بن محمد . الوغد : الدنىء

(٦) هما شبيب بن شية وخالد بن صفوان . لا يجانبه القصد : يلازم الصواب .

(٧) هو الفضل بن عيسى الرقاشى

فَضَّلَ عَبْدُ اللهِ خُطْبَةَ واصِلٍ   وَضُوعِفَ فى قَسْمِ الصِّلاتِ له الشُّكْدُ(١)
فأَقْنَعَ كلَّ القَوْمِ شُكْرُ حِبائِهِمْ   وَقَلَّلَ ذاكَ الضَّعْفَ فى عَيْنِهِ الزُّهْدُ

***

قد كتبنا احتجاج من زعم أن واصل بن عطاء كان غزالا ، واحتجاج من دفع ذلك عنه . ويزعم هؤلاء أن قول الناس : واصل الغزال ، كما يقال : خالد الحذَّاء (٢) وكما يقولون : هِشامٌ الدَّسْتَوائى (٣) وإنما قيل ذلك لأن الأباضية(٤) كانت تبعث اليه من صدقاتها بثياب دَستوائية ، فكان يكسوها الاعراب الذين يكونون بالحباب ، فأجابوه إلى قول الاباضية ، وكانوا قبل ذلك لا يزوجون الهجناء(٥) فأجابوه إلى التسوية وزوجوا هَجيناً . فقال الهجينُ فى ذلك :

إنَّا وَجَدْنا دَسْتَوائينا   أَلصَّائِمِينَ المُتَعَبِّدِينا
أَفْضَلَ مِنْكُمْ حَسَباً وَدِيناً   أَخْزَى الإلهُ المُتَكَبِّرِينا
أَفِيكُمُ مَنْ يُنْكِحُ الهَجِينا ؟

وإنما قيل ذلك لواصل لكثرة جلوسه فى سوق الغزالين إلى أبى عبد الله مولى قَطَن الهلالى ، وكذلك كانت حال خالد الحذاء الفقيه ، وكما قالوا : أبو مسعود البدرى لأنه كان نازلا على ذلك الماء ، وكما قالوا : أبو مالك السُّدِّىُّ لأنه كان يبيع الخُمُرَ (٦) فى سُدَّةِ المسجد

(١) الشكد : الشكر والعطاء

(٢) هو ابو المبارك خالد بن مهران مولى آل عبد الله بن عامر . ولم يكن حذاء ولكنه كان يجلس الى الحذائين ، وقيل انه إنما لقب الحذاء لانه كان يتكلم ثم يقول احذ على هذا الحديث لانه كان من المحدثين . مات سنة ١٤١ هـ

(٣) هو هشام بن ابى عبد الله سنبر مولى بنى سدوس . كان من افاضل القدرية . مات سنة ١٥٤ هـ

(٤) هم فرقة من الخوارج رأسهم عبد الله بن إباض ، خرج فى أيام مروان بن محمد ، ولهم آراء غريبة فى تكفير مخالفيهم من المسلمين

(٥) الهجناء جمع هجين ، والهجين من أبوه عربى وأمه أمة

(٦) الخمر جمع خمار ، وهو ما تغطى المرأة به رأسها

وهذا الباب مستقصى فى كتاب الاسماء والـكنى . وقد ذكرنا جملة منه فى أبناء السرارى والمهيرات (١)

قال أبو عثمان :

ذكر الحروف التى تدخلها اللثغة وما يحضرلى منها

وهى أربعة أحرف : ألقاف والسين واللام والراء . فأما التى هى على الشين المعجمة فذلك شىء لايصوره الخط ، لأنه ليس من الحروف المعروفة ، وإنما هو مخرج من المخارج ، والمخارج لاتحصى ولا يوقف عليها . وكذلك القول فى حروف كثيرة من حروف لغات العجم ، وليس ذلك فى شىء أكثر منها فى لغة الخُوز . وفى سواحل البحر من أسياف فارس ناس كثير كلامهم شبيه بالصفير ، فمن يستطع أن يصور كثيراً من حروف الزمزمة [وهى] الحروف التى تظهر من فم المجوسى اذا ترك الافصاح عن معانيه ، وأخذ فى باب الـكناية وهو على الطعام ؟

فاللثغة التى تعرض للسين تكون ثاء ، كقوله لأبى يكسوم : أبى يكثوم ، وكما يقولون : بُثرة إذا أرادوا بسرة ، و بإثم الله إذا أرادوا بسم الله

والثانية اللثغة التى تعرض للقاف ، فإن صاحبها يجعل القاف طاء ، فإذا أراد أن يقول: قُلت له ، قال : طُلت له . وأراد أن يقول : قال لى ، قال : طال لى

وأما اللثغة التى تقع فى اللام فإن من أهلها من يجعل اللام ياء فيقول بدل قوله : اعتللت ، اعتييت . و بدل جمل ، جمى . وآخرون يجعلون اللام كافا كالذى عرض لعمر أخى هلال ، فانه كان إذا أراد أن يقول : ما العلة فى هذا ؟ قال ما اكعِكّةُ فى هذا ؟

فاما اللثغة التى تقع فى الراء فإن عددها يضعف على عدد لثغة اللام ، لأن الذى يعرض لها أربعة أحرف : فمنهم من إذا أراد أن يقول : عمرو ، قال : عمى ، فيجعل الراء ياء . ومنهم من إذا أراد أن يقول : عمرو ، قال : عمغ ، فيجعل الراء غينا .

---

(١) المهيرات : الجوارى الحرائر

ومنهم من إذا أراد أن يقول : عمرو ، قال : عمذ . فيجعل الراء ذالا . وإذا أنشد قول الشاعر :

وَاسْتَبَدَّتْ مَرَّةً وَاحِدَةً إِنَّمَا الْعَاجِزُ مَنْ لاَ يَسْتَبِدْ[1]

قال : وَاستبدت مذة واحدة إنما العاجز من لا يستبد

فمن هؤلاء على بن جنيد بن فريدى .

ومنهم من يجعل الراء ظاء معجمة ، فيقول إذا أنشد هذا البيت :

واستبدت مرة واحدة إنما العاجز من لا يستبد

قال : واستبدت مظة واحدة إنما العاجز من لا يستبد

ومنهم من يجعل الراء غينا معجمة ، فإذا أراد أن ينشد هذا البيت :

واستبدت مرة واحدة إنما العاجز من لا يستبد

قال : واستبدت مغة واحدة إنما العاجز من لا يستبد

كما أن الذى لثغته بالياء إذا أراد أن يقول : واستبدت مرة واحدة ، قال : واستبدت مية واحدة .

وأما اللثغة الخامسة التى كانت تعرض لواصل بن عطاء وسليمان بن يزيد العدوى الشاعر ، فليس إلى تصويرها سبيل . وكذلك اللثغة التى تعرض فى الشين كنحو ما كان لمحمد بن الحجاج كاتب داود بن محمد كاتب أم جعفر ، فان تلك أيضا ليس لها صورة فى الخط ترى بالعين ، وإنما يصورها اللسان وتتأدى إلى السمع . وربما اجتمعت فى الواحد لثغتان فى حرفين ، كنحو لثغة شوشى صاحب عبد الله بن خالد

(١) هذا البيت لعمر بن ابى ربيعة من كلمة له اولها :

ليت هندا انجزتنا ما تعد وشفت انفسنا مما تجد

واستبدت البيت ، وبعده :

ولقد قالت لجارات لها ذات يوم وتعرت تبترد

اكما ينعتنى تبصرننى عمركن الله ام لا يقتصد

فتضاحكن وقد قلن لها حسن فى كل عين من تود

حسدا حملنه من اجلها وقديما كان فى الناس الحسد

الأموى ، فانه كان يجعل اللام ياء والراء ياء ، قال مرة مَو يَاىَ وِيِ اَيّْ ، يريد مولاى ولى الرى .

واللثغة فى الراء إذا كانت بالياء فهى أحقرهن وأوضعهن لذى المروءة ، ثم التى على الظاء ، ثم التى على الذال . فأما التى على الغين فهى أيسرهن . ويقال أن صاحبها لو جهد نفسه جهده وأحدّ لسانه وتكلف مخرج الراء على حقها والإفصاح بها ، لم يكن بعيدا من أن تجيبه الطبيعة ويؤثر فيها ذلك التعهد أثرا حسنا . وقد كانت لثغة محمد بن شبيب المتكلم بالغين ، وكان إذا شاء أن يقول : عمر ولعمرى ، وما أشبه ذلك على الصحة قاله ، ولكنه كان يستثقل التكلف والتهيؤ لذلك ، فقلت له : إذا لم يكن المانع إلا هذا العذر فلست أشك أنك لو احتملت هذا التكلف والتتبع شهرا واحداً إن لسانك كان يستقيم .

أما من يعتريه اللثغ فى الضاد ربما اعتراه أيضا فى الصاد والراء ، حتى إذا أراد أن يقول : مضر ، قال مضى . فهذا وأشباهه لاحقون بشوشى .

وزعم ناس من العوام أن موسى صلوات الله وسلامه عليه كان ألثغ ، ولم يقفوا من الحروف التى كانت تعرض له فى شى بعينه . فمنهم من جعل ذلك خلقة ومنهم من زعم أنه إنما اعتراه حين قالت آسية بنت مزاحم امرأة فرعون لفرعون لا تقتل طفلا لا يفرق الجمر من التمر . فلما دعا له فرعون بهما جميعا تناول جمرة فأهوى بها إلى فيه ، فاعتراه من ذلك ما اعتراه .

وأما : اللثغة فى الراء فتكون فى الياء والذال والغين وهى أقلها قبحا وأوجدها فى ذى الشرف وكبار الناس وبلغائهم وأشرافهم وعلمائهم .. وكان الواقدى يروى عن بعض رجاله أن لسان موسى عليه السلام كانت عليه شامة فيها شعرات . وليس يدل القرآن على شىء مما قالوا ، لأنه ليس فى قوله « وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانى » دليل على شيء دون شى .

قال الاصمعى : إذا تتعتع اللسان فى التاء فهو تمتام ، وإذا تتعتع فى الفاء فهو فأفاء ، وأنشد لرؤبة بن العجاج :

يا حَمْد ذاتِ المَنْطِقِ التَّمْتَامِ … كأنَّ وَسْوَاسَكَ فى اللَّمَامِ
حَدِيثُ شَيْطَانِ بَنِى هَمَّامِ

وبعضهم ينشد: يا حمد ذات المنطق النمنام (١). وليس ذلك بشىء، وإنما ذلك كما قاله أبو الزحف:

لَسْتُ بِفَأْفَاءٍ وَلاَ تَمْتَامِ … وَلاَ كَثِيرِ الْهُجْرِ فى المَنَامِ (٢)

وأنشد أيضاً للخولانى فى كلمة له:

إنَّ السَّيَاط تَرَكْنَ لِاسْتِكَ مَنْطِقاً … كمَقَالَةِ التَّمْتَامِ لَيْسَ بِمُعْرِبِ

فجعل الخولانى التمتام غير معرب عن معناه ولا مفصح بحاجته.

وقال أبو عبيدة: إذا أدخل الرجل بعض كلامه فى بعض فهو ألَفُّ، وقيل: بلسانه لَفَفٌ، وأنشدنى لأبى الزحف الراجز:

كأنَّ فِيهِ لَفَفاً إذَا نَطَقْ … مِنْ طُولِ تَحْبِيسٍ وَهَمٍّ وَأَرَقْ

كأنه لما جلس وحده ولم يكن له من يكلمه وطال عليه ذلك أصابه لفف فى لسانه. وكان يزيد بن جابر قاضى الأزارقة (٣) بعد المُقَعْطَل يقال له الصموت، لأنه لما طال صمته ثقل عليه الكلام فكان لسانه يلتوى ولا يكاد يبين. وأخبرنى محمد بن الجهم أن مثل هذا اعتراه أيام محاربة الزُّطّ (٤) من طول التفكر ولزوم الصمت. قال وأنشدنى الأصمعى:

حَدِيثُ بَنِى زُطٍّ إذَا مَا لَقِيتَهُمْ … كنَزْوِ الدَّبَى فى الْعَرْفَجِ الْمُتَقَارِبِ (٥)

قال ذلك حين كان فى كلامهم عجلة. وقال سَلَمَةُ بنُ عَيَّاش:

كأنَّ بَنِى رَالاَنَ إذْ جاءَ جَمْعُهُمْ … فَرَارِيجُ يُلْقَى بَيْنَهُنَّ سَوِيقُ

(١) النمنام: المزخرف المحسن
(٢) الهجر: الهذيان
(٣) الأزارقة: فرقة من الخوارج رأسهم نافع بن الأزرق
(٤) الزط: قوم من الهند خرجوا على الناس فى عهد الدولة العباسية
(٥) النزو: الوثب. الدبى: صغار الجراد. العرفج: شجر سهلى

فقال ذلك لرقة أصواتهم وعجلة كلامهم . وقال اللهبى فى الجلاج :

لَيْسَ خَطِيبُ القَوْمِ بِالجَلاجِ ... وَلَا الَّذِى يَزْحَلُ كَالهِلْبَاجِ (١)

وَرُبَّ بَيْدَاءَ وَلَيْلٍ دَاجِ ... هَتَكْتُهُ بِالنَّصِّ وَالإِدْلَاجِ (٢)

وقال محمد بن سَلَّام الجُمَحِىُّ : كان عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه إذا رأى الرجل يتلجلج فى كلامه قال : خالق هذا وخالق عمرو بن العاص واحد . ويقال فى لسانه حُبْسَةٌ ، إذا كان الكلام يثقل عليه ولم يبلغ حد الفأفاء . ويقال فى لسانه لُكْنَة ، إذا أدخل بعض حروف العجم فى حروف العرب وجذبت لسانه العادة الأولى إلى المخرج الأول . فإذا قالوا فى لسانه حُكْلَةٌ فإنما يذهبون إلى نقصان آلة المنطق وعجز أداة اللفظ حتى لا تعرف معانيه إلا بالاستدلال .

وقال رؤبة بن العجاج (٣) .

لَوْ أَنَّنِى أُوتِيتُ عِلْمَ الحُكْلِ ... عِلْمَ سُلَيْمَانَ كَلَامَ النَّمْلِ

وقال محمد بن ذُؤَيْبٍ (٤) فى مديح عبد الملك بن صالح :

وَيَفْهَمُ قَوْلَ الحُكْلِ لَوْ أَنَّ ذَرَّةً ... تُسَاوِدُ أُخْرَى لَمْ يَفُتْهُ سِوَادُهَا (٥)

وقال التَّيْمِى فى هجائه لبنى تغلب :

وَلَكِنَّ حُكْلًا لَا تُبِينُ وَدِينُهَا ... عِبَادَةُ أَعْلَاجٍ عَلَيْهَا البَرَانِسُ

قال سُحَيْم بن حَفْصٍ فى الخطيب الذى تعرض له النحنحة والسعلة ، وذلك إذا انتفخ سَحره ، وكبا زنده ، ونبا حده ، فقال :

---

(١) يزحل : يزول . الهلباج : الاحمق الفدم الجامع لصنوف الشر

(٢) النص والادلاج : السير الشديد فى اول الليل .

(٣) هو رؤبة بن العجاج التميمى ، كان من رجاز الاسلام وفصحائهم والمقدمين منهم وهو من مخضرمى الدولتين نزل البصرة ومدح بنى امية وبنى العباس . واخذ عنه وجوه اهل اللغة واقتدوا به واحتجوا بشعره وجعلوه إماما . مات في عهد ابى جعفر المنصور سنة ١٤٥

(٤) هو محمد بن ذؤيب العمانى البصرى ، كان شاعراً راجزاً ، وكان لطيفاً داهيا مقبولا ، اوصله عبد الملك بن صالح إلى الرشيد فأفاد منه مالا جزيلا

(٥) الحكل : الذر . تساود : تسارر . والسواد والسرار .

نعوذُ بالله مِنَ الإهْمالِ ... وَمِنْ كَلالِ الغَرْبِ فِى المَقالِ (١)

وَمِنْ خَطِيبٍ دائِمِ السُّعالِ

وأنشدنى الأعرابى :

إنَّ زِيادًا لَيْسَ بِالْبَكِىّ ... وَلا بِهَيَّابٍ كَثِيرِ العِىّ

وأنشدنى بعض أصحابنا :

نادَيْتُ هَيْذانَ وَالأبْوابُ مُغْلَقَةٌ ... وَمِثْلُ هَيْذانَ سَنَّى فَتْحَةَ البابِ (٢)

كالْهِنْدُوانِىِّ لَمْ تَفْلُلْ مَضارِبُهُ ... وَجْهٌ جَمِيلٌ وَقَلْبٌ غَيْرُ وَجّابِ (٣)

وقال الآخر : إذا اللهُ سَنَّى عَقْدَ شَىْءٍ تَيَسَّرا

وقال بِشْرُ بن مُعْتَمِر فى مثل ذلك :

وَمِنَ الْكَبائِرِ مِقْوَلٌ مُتَتَعْتِعٌ ... جَمُّ التَّنَحْنُحِ مُتْعَبٌ مَبْهُورُ (٤)

وذلك أنه شهد رِيسانَ أبا بُجَيْرِ بن رَيْسانَ يخطب ، وقد شهدت أنا هذه الخطابة ولم أر جبانًا قط أجرأ منه ولا جريئًا قط أجبن منه .

وقال الأشَلُّ الأزرقُ — من بعض أخوال عِمْران بن حِطَّانَ الصُّفْرى القَعَدىّ — فى زيدِ بن جُنْدَبٍ الإيادى خطيب الأزارقة ، واجتمعا فى بعض المحافل ، فقال بعد ذلك الأشلُّ البكرىُّ :

نَحْنَحَ زَيْدٌ وَسَعَلْ ... لَمّا رَأى وَقْعَ الأسَلْ (٥)

وَيْلُمِّهِ إذا ارْتَجَلْ ... ثُمَّ أطالَ وَاحْتَفَلْ (٦)

(١) الغرب : الحد

(٢) سنى : يسر وسهل

(٣) الهندوانى : السيف الصقيل . لم تفلل : لم تثلم . غير وجاب : ليس بالجبان

(٤) متتعتع : ثقيل مضطرب . جم : كثير . مبهور : متحير

(٥) الأسل : الرماح

(٦) ويلمه : هى كلمة إعجاب ، يعنى ما أجوده وأدهاه

وقد ذكر الشاعر زيدُ بن جُندب الايادىّ الخطيب الأزرقى فى مرثيته لأبى دُؤادِ بن جَرير الإيادى حيث ذكره بالخطابة وضرب المثل بخطباء إياد فقال :

كقُسِّ إيادٍ أو لَقيطِ بنِ مَعْبَدٍ وَعُذرَةَ والمِنطيقِ زيدِ بنِ جُندبِ

وزيد بن جُندب هو الذى يقول فى الاختلاف الذى وقع بين الأزارقة :

قُلْ لِلمُحِلّينَ قَدْ قَرَّتْ عُيونُكُمُ بِفُرْقَةِ القَوْمِ وَالبَغْضاءِ وَالهَرَبِ (١)

كُنّا أُناساً عَلَى دِينٍ فَفَرَّقَنا قَرْعُ الكَلامِ وَخَلْطُ الجِدِّ بِاللَّعِبِ (٢)

ما كانَ أَغْنَى رِجالاً ضَلَّ سَعْيُهُمُ عَنِ الجِدالِ وَأَغْناهُمْ عَنِ الخُطَبِ

إِنّى لأَهْوَنُكُمْ فِى الأَرْضِ مُضْطَرَباً مالِى سِوَى فَرَسِى وَالرُّمْحِ مِنْ نَشَبِ (٣)

وأما عُذرَةُ المذكور فى البيت الأول فهو عُذرَةُ بن حُجَيرَةَ الخطيب الإيادى ، ويدل على قدره فيهم ، وعلى قدره فى اللَّسَن والخطب ، قول شاعرهم :

وَأَىُّ فَتًى صَبْرٌ عَلَى الأَيْنِ وَالظَّمَا إِذا اعْتَصَرُوا لِلَّوْحِ ماءَ فِظاظِها (٤)

إِذا ضَرَّجُوها ساعَةً بِدِمائِها وَحُلَّ عَنِ الكَوْماءِ عَقْدُ شِظاظِها (٥)

فَإِنَّكَ ضَحّاكٌ إِلَى كُلِّ صاحِبٍ وَأَنْطَقُ مِنْ قُسٍّ غَداةَ عُكاظِها (٦)

إِذا شَعَبَ المَوْلَى مَشاعِبُ مَعْشَرٍ فَعُذْرَةُ فِيها آخِذٌ بِكِظاظِها (٧)

---

(١) المحلون : المنتهكون للحرمات ، وكانوا يلقبون عبد الله بن الزبير وأصحابه المحلين

(٢) كان فى الأصل : فرع . ولعله تحريف قرع ، وهو قرع الكلام بعضه ببعض فى الجدل والخصومات

(٣) النشب : المال

(٤) صبر : جلد صبور . الاين : الاعياء من السير الطويل الشاق . اعتصروا . من العصر ، وهو استخراج الماء . اللوح : العطش . الفظاظ : ماء الكرش يعتصر ويشرب فى المفاوز

(٥) ضرجوها . يعنى إذا أعياهم العطش فى المفازة ذبحوا الناقة الكوماء العظيمة لاعتصار ماء كرشها . الشظاظ : عود رفيع كانوا يضعونه فى أنف الناقة ليمنعها من الاجترار

(٦) هو قس بن ساعدة الايادى خطيب العرب ونذيرها . سمعه النبى وهو صغير يخطب فى عكاظ وروى كلامه ، وكفى بذلك شرفا . طال عمره حتى اختلف الرواة في تحديد مدته فمنهم من جعلها ٣٨٠ ومنهم من جعلها ٧٠٠ وزعم بعضهم أنه أدرك سمعان أحد حوارى المسيح . وعندى ان كل هذا رجم بالغيب . مات سنة ٦٠٠ م . وعكاظ سوق من أسواق العرب مشهورة

(٧) شعب : فرق . آخذ بكظاظها : مالك أمرها قابض على أزمتها

فلم يضرب هذا الشاعر الايادى، المثل لهذا الخطيب الإيادى، إلا برجل من خطباء إياد، وهو قُسُّ بن سَاعِدة. ولم يضرب صاحب مرثية أبى دُؤاد بن جَريرِ الايادى المثل إلا بخطباء إياد فقط، ولم يفتقر إلى غيرهم..

وأول هذه المرثية قوله:

نَعَى ابْنَ جَرِيرٍ جَاهِلٌ بِمُصَابِهِ ... فعَمَّ نِزَارًا بِالْبُكَا وَالتَّحَوُّبِ [1]

نعاهُ لَنا كاللَّيْثِ يَحْمِى عَرِينَهُ ... وَ كالْبَدْرِ يَغْشَى ضَوْءُهُ كلَّ كَوْكَبِ [2]

وَأَصْبَرَ مِنْ عودٍ وَأَهْدَى إذَا سَرَى ... مِنَ النَّجْمِ فى دَاجٍ مِنَ اللَّيْلِ غَيْهَبِ [3]

وَأَضْرَبُ مِنْ حَدِّ السِّنَانِ لِسانُهُ ... وَأَمْضَى مِنَ السَّيْفِ الْحُسَامِ الْمُشَطَّبِ

زَعِيمُ نِزَارٍ كلِّها وَخَطِيبُها ... إذَا قَالَ طَاطَا رَأْسَهُ كلُّ مِشْغَبِ [4]

سَلِيلُ قُرُومٍ سَادَةٍ ثم قَالَةٍ ... يَبُزُّونَ يَوْمَ الْجَمْعِ أَهْلَ الْمُحَصَّبِ [5]

كَقُسِّ إِيَادٍ أَوْ لَقِيطِ بْنِ مَعْبَدٍ ... وَعُذْرَةَ وَالْمِنْطِيقِ زَيْدِ بْنِ جُنْدَبِ [6]

فى كلمة له طويلة..

قال أخبرنى محمدبن عَبَّاد بن كاسب - كاتب زُهير ومولى بجيلة من سبى دابق - وكان شاعراً راوية وطلاَّبة للعلم علامة - قال: سمعت أبا دُؤاد بن جَرير يقول - وقد جرى شىء من ذكر الخطب وتحبير الكلام واقتضابه [7] وصعوبة ذلك المقام وأهواله - فقال «تخليص المعانى رِفق، والاستعانة بالغريب عجز، والتشادق من

---

(١) التحوب: التحزن والتوجع

(٢) العرين: مأوى الليث

(٣) العود: الجمل وهو معروف بشدة الصبر على العطش وطول السير. غيهب: مظلم

(٤) مشغب: كثير الشغب

(٥) القروم: السادة العظماء. قالة: يحسنون القول ويجيدون الكلام. يبزون: يسكتون ويغلبون. المحصب: موضع رمى الجمار فى الحج.

(٦) صاحب الاغانى يسميه لقيط بن معمر. وهو شاعر جاهلى قديم عرف بقصيدته التى أنذر بها قومه غزو الفرس لهم

(٧) اقتضابه: ارتجاله وحذف فضوله

غير أهل البادية بغض ، والنظر فى عيون الناس عِى ، ومس اللحية هُلك ، والخروج مما بُنى عليه أول الكلام إسهاب » وسمعته يقول : رأس الخطابة الطبع وعمودها الدُّربة[١] وجناحاها رواية الكلام ، وحَليها الاعراب[٢] وبهاؤها تخير اللفظ ، والمحبة مقرونة بقلة الاستكراه » وأنشدني بيتاً له فى صفة خطباء إياد وهو قوله :

يَرْمُونَ بالخُطَبِ الطِّوَالِ وتارةً وَحْىَ الملاحِظِ خِيفَةَ الرُّقَباءِ[٣]

فذكر المبسوط فى موضعه ، والمحذوف فى موضعه ، والموجز ، والكناية ، والوحى باللحظ ، ودلالة الاشارة . وأنشدنى له الثقة فى كلمة له معروفة :

أَلْجُودُ أَخْشَنُ مَسّاً يا بَنِى مَطَرٍ مِنْ أَنْ تَبُزَّكُمُوهُ كَفُّ مُسْتَلِبِ[٤]

مَا أَعْلَمَ النَّاسَ أَنَّ الجُودَ مَدْفَعَةٌ لِلذَّمِّ لَكِنَّهُ يَأْتِى عَلَى النَّشَبِ[٥]

قال . ثم لم يحفل بها[٦] فادعاها مسلِمُ بْنُ الوليد الأنصارِى[٧] أو أدعيت له ، وكان أحد من يجيد قريض الشعر وتحبير الكلام .

وفى الخطباء من يكون شاعراً ، ويكون إذا تحدّث أو وصف أو احتج بليغاً مفوّهاً بيّناً ، وربما كان خطيباً فقط ، وشاعراً فقط ، وبيّن اللسان فقط .

ومن الشعراء الخطباء الأبيناءِ[٨] الحكماء : قس بن ساعدة الأيادى .

---

(١) الدربة : الممارسة والاعتياد

(٢) وحليها الاعراب : وزينتها الافصاح

(٣) الوحى : الاشارة بالمعانى الخفية

(٤) بنو مطر من شيبان ، ومنهم معن بن زائدة ويزيد بن مزيد ممدوح مسلم بن الوليد . وكانا مشهورين بالشجاعة والكرم ، فهو يقول لهم إن الجود صعب المنال على غيركم . تبزكموه : تنتزعه منكم

(٥) النشب المال . وهو كقول المتنبي : الجود يفقر والاقدام قتال

(٦) لم يحفل بها ، لم يبل ولم يعن .

(٧) لم ارها فى ديوان مسلم

(٨) الابيناء : هم الذين يحسنون الابانة عما يخالج نفوسهم من الأغراض والمعاني ويجيدون الافصاح عن مستكنات ضمائرهم

والخطباء كثير والشعراء أكثر منهم . ومن يجمع الخطابة والشعر قليل . ومنهم عَمرُو بنُ الأهتَمِ المِنقَرِيُّ ، وهو المُكحَلُ . قالوا : كأنّ شعره فى مجالس الملوك حلل منشرة . قيل لعمر بن الخطاب رضى الله عنه : قيل للأوسية [1] أيُّ منظر أحسن ؟ قالت : قُصورٌ بيضٌ فى حدائق خضر . فأنشد عند ذلك عمر بن الخطاب بيت عَدِيِّ بن زيدٍ العِبادِي [2] .

(١) الأوسية : هي امرأة من الاوس

(٢) هو عدي بن زيد العبادي ، شاعر حضري جاهلي ، وكان كاتب النعمان بن المنذر وله معه خطوب واحداث . مات سنة ٥٨٧ م وهذا البيت من قصيدة له بعث بها الى النعمان ، وهي من غرر قصائده ولذلك اثبتناها هنا وهي :

أرواح مودع ام بكور ... لك فاعمد لاي حال تصير
وسطه كاليراع او سرج المجد ... ل حينا يخبو وحينا ينير
مثل نار الحراض يجلو ذرى المز ... ن لمن شامه إذا يستطير
مرح وبله يسح سيوب الما ... ء سحا كأنه منحور
زجل عجزه يجاوبه دف ... لخوان مأدوبة وزمير

كدمي العاج ، البيت .

زانهن الشفوف ينضحن بالمسـ ... ـك وعيش مفانق وحرير
ويقول العداة اودى عدي ... وعدي بسخط رب اسير
ايها الشامت المعير بالدهـ ... ـر أانت المبرأ الموفور
ام لديك العهد الوثيق من الايـ ... ـام بل انت جاهل مغرور
إن يصبني بعض الهنات فلا وا ... ن ضعيف ولا أكب عثور
كقصير إذ لم يجد غير أن جد ... ع أشرافه لمكر قصير
من رأيت المنون خلدن ام من ... ذا عليه من أن يضام خفير
لا تواتيك إن صحوت وإن أجهـ ... ـد في العارضين منك القتير
يوم لا ينفع الرواغ ولا يقد ... م إلا المشيع النحرير
أين كسرى كسرى الملوك أنو شر ... وان أم أين قبله سابور
وبنو الأصفر الكرام ملوك الرو ... م لم يبق منهم مذكور
وأخو الحضر إذ بناه وإذ دجـ ... ـلة تجبى إليه والخابور
شاده مرمرا وجلله كلسا ... فللطير في ذراه وكور
لم يهبه ريب المنون فباد الـ ... ـملك عنه فبابه مهجور
وتذكر رب الخورنق إذ أشـ ... ـرف يوماً وللهدى تفكير
سره ماله وكثرة ما يمـ ... ـلك والبحر معرضا والسدير
فارعوى قلبه فقال وما غبـ ... ـطة حي الى الممات يصير
ثم بعد الفلاح والملك والأمـ ... ـة وارتهم هناك القبور
ثم صاروا كأنهم ورق جف ... فألوت به الصبا والدبور

كَدُمَى العَاجِ فى المَحَارِيبِ أَوْ كَالْ ... بَيْضِ فِى الرَّوْضِ زَهْرُهُ مُسْتَنِيرُ

قال : فقال قسامةُ بن زهيرٍ : كلام عمرو بن الأهتم آنق ، وشعره أحسن . هذا وقسامةُ أحد أبيناء العرب .

ومن الخطباء الشعراء : أَلبَعِيثُ المُجَاشِعِيُّ ، واسمه خدَّاشُ بْنُ بِشْرِ ابنِ لَبِيدٍ (١)

ومن الخطباء الشعراء : الكُمَيْتُ بْنُ زَيْدٍ الأَسَدِيُّ ، وكنيته أبو المُسْتَهِلّ (٢)

ومن الخطباء الشعراء : ألطِرِمَّاحُ بْنُ حَكِيمٍ الطَّائِيُّ ، وكنيته أبو نَفْرٍ (٣)

قال محمد بن سهل راوية الكميت : أنشدت الكميت قول الطرماح :

إذَا قُبِضَتْ نَفْسُ الطِّرِمَّاحِ أَخْلَقَتْ ... عُرَى المجدِ واسترخى عِنانُ القَصَائِدِ

فقال الكميت : إِيْ وَاللهِ ، وعنان الخطابة والرواية .

قال أبو عثمان : ولم ير الناس أعجب حالا من الكميت والطرِمَّاح . وكان الكميت عدنانياً عصبياً ، وكان الطرماح قحطانياً عصبياً . وكان الكميت شيعياً من الغالية وكان الطرماح خارجياً من الصُّفْرِيَّة . وكان الكميت يتعصب لأهل الكوفة ، وكان الطرماح لأهل الشام . وبينهما مع ذلك من الخاصة والمخالطة مالم يكن بين نفسين قط . ثم لم يجر بينهما صرم ولا جفوة ولا إعراض ولا شيء مما تدعو هذه الخصال إليه (٤) ولم ير الناس مثلهما إلا ما ذكروا من حال عبد الله بن

(١) كان البعيث شاعر : مجيداً من شعراء الدولة الاموية ، هاجى جريرا فغلبه جرير ففر الى الحجاز ، وكان سؤولا ملحا ملحفا طماعا .

(٢) كان الكميت من خيرة شعراء الدولة الأموية ، وكان عالما بلغات العرب وأيامهم . ومن خير شعره وافضله الهاشميات وهى القصائد التى ذكر فيها آل بيت الرسول بالخير . مات سنة ١٢٦ هـ

(٣) كان الطرماح من فحول الشعراء فى الدولة الأموية نشأ بالشام ثم انتقل إلى الكوفة ، ومن هناك عرف رجلا من الشراة ذا سمت وهيئة فكان يجالسه ويسمع كلامه فرسخ فى نفسه واعتنق مذهب الشراة من الخوارج وتعصب له حتى مات عليه

(٤) قيل للكميت : لانى اعجب من صفاء ما بينك وبين الطرماح على تباعد ما يجمعكما من النسب والمذهب والبلاد ، هو شامى قحطانى وانت كوفي نزاري شيعي . فكيف اتفقتما مع تباين المذهب وشدة العصبية ؟ فقال : اتفقنا على بغض العامة .

زيد الأباضى وهِشام بن الحكم الرافضى ، فانهما صارا إلى المشاركة بعد الخلطة والمصاحبة .

وقد كانت الحال بين خالد بن صفوان وشبيب بن شيبة ، ألحال التى تدعو إلى المفارقة بعد المنافسة والمحاسدة ، للذى اجتمع فيهما من اتفاق الصناعة والقرابة والمجاورة ، فكان يقال : لولا أنهما أحلم تميم لتباينا تباين النمر والأسد .

وكذلك كانت حال هِشام بن الحكم الرافضى وعبد الله بن زيد الأباضى إلا أنهما فُضلا على سائر المتضادين بما صارا إليه من الشركة فى جميع تجارتهما .

وذكر خالد بن صفوان شبيب من شيبة فقال : ليس له صديق فى السر ولا عدو فى العلانية . فلم يعارضه شبيب . وتدل كلمة خالد هذه على أنه يحسن أن يسب سب الأشراف .

ومن الخطباء الشعراء : عِمْرَانُ بْنُ حِطَّانَ [1] وكنيته أبو شهاب ، أحد بنى عمرو بن شيبان أخوة سدوس .

فمن بنى عمرو بن شيبان ، مع قلتهم من العلماء والخطباء والشعراء :

عمران بن حِطَّان رئيس القعدة من الصُّفْرِيَّة ، وصاحب فتياهم ، ومفزعهم عند اختلافهم .

ومنهم : دَغْفَلُ بن حنظلة النسابة الخطيب العلامة .

ومنهم القعقَاع بن شوْرٍ [2]

---

(١) كان عمران من اكابر خطباء الخوارج وشعرائهم ومن افاضل فقهائهم واصحاب فتياهم ومن اشد دعاتهم ، وكان راس القعدة منهم ، ادرك صدرا من الصحابة وروى عنهم وروى عنه اصحاب الحديث ، ثم صار من الشراة الخوارج . طلبه الحجاج ففر منه وله فى اختفائه وفراره خطوب واحداث ونوادر ، وكان بليغا مفوها وخطيبا مبينا

(٢) كان القعقاع من اماثل التابعين . وكان مشهورا بالجود والسخاء ، كان إذا جالسه احد وعرف قصده إليه جعل له نصيبا فى ماله واعانه على عدوه وشفع له فى حاجته ثم غدا إليه شاكراً له حق شهر بذلك وفيه يقول الشاعر :

وكنت جليس قعقاع بن شور ولا يشقى بقعقاع جليس
ضحوك السن إن أمروا بخير وعند السوء مطراق عبوس

وسنذكر شأنهم إذا انتهينا إلى موضع ذكرهم إن شاء الله تعالى

ومن الخطباء الشعراء · نَصْرُ بن سَيّار[١] أحد بني ليث بن بكر صاحب خُراسان. وهو يعد في أصحاب الولايات وفي الحروب وفي التدبير وفي العقل وشدة الرأي .

ومن الخطباء الشعراء عَجلان بن سحبان الباهلي . وسحبان هذا هو سحبان وائل ، وهو خطيب العرب .

ومن الخطباء الشعراء العلماء وممن قد تنافر إليه الأشراف : أَعْشَى هَمْدانَ .

ومن الشعراء الخطباء : عِمْران بن عصام العَنَزيّ[٢] وهو الذي أشار على عبد الملك بخلع أخيه عبد العزيز والبيعة للوليد بن عبد الملك ، في خطبته المشهورة. وقصيدته المذكورة ، وهو الذي لما بلغ عبد الملك بن مروان قتل الحجاج له قال: ولم قتله ويله ؟ هلا رعى له قوله فيه :

---

(١) كان نصر بن سيار من أكابر الرجال . ولاه هشام بن عبد الملك خراسان ولم يزل بها واليا حتى قامت حركة أبي مسلم الخراساني وأخذت الدعوة العباسية في الظهور ، وكانت له مع أبي مسلم حروب كثيرة لأنه ظهر في ولايته خراسان . ولما اشتد به الحال كاتب مروان بن محمد في شأنه وأعلمه بتزايد أمر العباسية ثم ختم كتابه بهذه الأبيات :

أرى خلل الرماد وميض جمر ... ويوشك أن يكون له ضرام
فإن النار بالعودين تذكى ... وإن الحرب أولها الكلام
فإن لم تطفئوها تجن حربا ... مشمرة يشيب لها الغلام
أقول من التعجب ليت شعري ... أأيقاظ أمية أم نيام
فإن يك قومنا أضحوا نياما ... فقل قوموا فقد حان القيام
ففري عن رحالك ثم قولي ... على الاسلام والعرب السلام

فلما لم ينجده مروان لانشغاله بالحروب والفتن كتب إلى يزيد بن عمر بن هبيرة عامل مروان على العراق يسأله النجدة على عدو الدولة وضمن كتابه هذه الأبيات :

أبلغ يزيد وخير القول أصدقه ... وقد تبينت أن لا خير في الكذب
بأن أرض خراسان رأيت بها ... بيضا لو افرخ قد حدثت بالعجب
فراخ عامين إلا أنها كبرت ... لما يطرن وقد سربلن بالزغب
فإن يطرن ولم يحتل لهن بها ... يلهبن نيران حرب أيما لهب

فلما لم يجبه أحد خرج من خراسان حتى نزل ساوة من بلاد همذان فمات بها كمدا

(٢) كان عمران بن عصام شاعراً لسنا جلداً شجاعاً . أرسله الحجاج إلى عبد الملك ليحضه على خلع ولاية العهد عن عبد العزيز بن مروان وإعطائها للوليد ابنه . فأدى الرسالة وتم ما أراد الحجاج . ولما كانت فتنة ابن الاشعث خرج معه عمران فلما وقع في يد الحجاج قتله شر قتلة

وَبَعَثْتَ مِنْ وَلَدِ الأَغَرِّ مُعَتِّبٍ ... صَقْرًا يَلُوذُ حَمَامُهُ بِالعَرْفَجِ
فَإِذَا طَبَخْتَ بِنَارِهِ أَنْضَجْتَهَا ... وَإِذَا طَبَخْتَ بِغَيْرِهَا لَمْ يَنْضَجِ
وَهُوَ الهِزَبْرُ إِذَا أَرَادَ فَرِيسَةً ... لَمْ يُنْجِهَا مِنْهُ صِيَاحُ الهَجْهَجِ (١)

ومن خطباء الأمصار وشعرائهم والمولدين منهم: بشار الأعمى. وهو بشار ابن برد وكنيته أبو معاذ. كان من أحد موالي بني عقيل، فإن كان مولى أم ظباء — على ما يقول بنو سدوس وما ذكره حمّادُ عَجْرَدٍ — فهو من موالي بني سدوس ويقال إنه من أهل خراسان نازلا في بني عقيل. وله مديح كثير في فرسان أهل خراسان ورجلاتهم وهو الذي يقول:

مِنْ خُرَاسَانَ وَبَيْتِي فِي الذُّرَى ... وَلَدَى المَسْعَاةِ فَرْعِي قَدْ سَبَقْ
وَإِنِّي لَمِنْ قَوْمٍ خُرَاسَانُ دَارُهُمْ ... كِرَامٍ وَفَرْعِي فِيهِمُ نَاضِرٌ بَسَقْ

وكان شاعراً راجزاً سجاعاً خطيباً صاحب منثور ومزدوج، وله رسائل معروفة.
وأنشد عُقْبَةُ بنُ رُؤْبَةَ عُقْبَةَ بنَ سَلْمٍ رجزاً يمتدحه فيه، وبشار حاضر، فأظهر بشار استحسان الأرجوزة، فقال عُقبة بن رؤبة: هذا طراز يا أبا معاذ لا تحسنه! فقال بشار: أَلِمِثْلي يُقال هذا الكلام؟ أنا والله أرجز منك ومن أبيك ومن جدك! ثم غدا على عُقْبَةَ بْنِ سَلْمٍ بأُرجوزته التي أولها (٢)

(١) الهجهجة: الصياح على الأسد لطرده وزجره.
(٢) هذه الارجوزة من أعجب الاراجيز العربية وأبلغها، ولذلك آثرنا نقلها هنا بأكملها وهاهي:

يا طلل الحي بذات الصمد ... بالله خبر كيف كنت بعدي
أوحشت من دعد وترب دعد ... سقيا لأسماء ابنة الأشد
قامت تراءى إذ رأتني وحدي ... كالشمس تحت الزبرج المنقد
صدت بخد وجلت عن خد ... ثم انثنت كالنفس المرتد
عهدي بها سقياله من عهد ... تخلف وعداً وتفي بوعد
فنحن من جهد الهوى في جهد ... وزاهر من سبط وجعد
أهدى له الدهر ولم يستهد ... أقواف نور الحبر المجد
بلق الضحى ريحانه بسجد ... بدلت من ذلك بكى لا يجدي
وافق حظا من سعى بجد ... ما ضر اهل النوك ضعف الجد
الحر يلحى والعصا للعبد ... وليس للملحف مثل الرد

يا طَلَلَ الحَيِّ بِذاتِ الصَّمدِ ... بِاللهِ خَبِّرْ كَيفَ كُنتَ بَعْدِي

وهى التى يقول فيها:

إسْلَمْ وَحُيِّيتَ أَبا الْمِلَدِّ ... لِلهِ أَيَّامُكَ فى مَعَدِّ

الْحُرُّ يُلْحَى وَالعَصا لِلعَبْدِ ... وَلَيْسَ لِلْمُلْحِفِ مِثْلُ الرَّدِّ

وَصاحِبٍ كَالدُّمَّلِ المُمِدِّ ... حَمَلْتُهُ فِى رُقْعَةٍ مِنْ جِلْدِي

وَمَا دَرَى مَا رَغْبَتِي مِنْ زُهْدِي

أى لم أره زهداً فيه ولا رغبة. ذهب إلى قول الشاعر:

لَقَدْ كُنْتَ فِي قَوْمٍ عَلَيْكَ أَشِحَّةٍ ... بِنَفْسِكَ لَوْلَا أَنَّ مَنْ طَاحَ طَائِحُ

يَوَدُّونَ لَوْ خَاطُوا عَلَيْكَ جُلُودَهُمْ ... وَلا تَدْفَعُ المَوْتَ النفوسُ الشَّحَائِحُ

والمطبوعون على الشعر من المولدين: بَشار العُقَيلى، والسَّيِّدُ الحِمْيَرِيُّ، وأَبُو العَتَاهِيَة، وابنُ أبى عُيَيْنَة. وقد ذكر الناس فى هذا الباب: يَحْيَى بنَ نَوْفَلٍ،

والنصف يكفيك من التعدي ... وصاحب كالدمل الممد

حملته فى رقعة من جلدى ... ارقب منه مثل يوم الورد

حتى مضى غير فقيد الفقد ... وما درى ما رغبتى من زهدى

اسلم وحييت ابا الملد ... مفتاح باب الحدث المنسد

مشترك النيل ورى الزند ... اعز لباس ثياب الحمد

ما كان منى لك غير الود ... ثم ثناء مثل ريح الورد

نسجته فى محكمات السرد ... فالبس طرازي غير مسترد

لله ايامك فى معد ... وفى بنى قحطان غير عد

يوما بذى طخفة عند الحد ... ومثله اودعت ارض الهند

بالمرهفات والحديد السرد ... والمقربات المبعدات الجرد

إذا الحيا اكدى بها لا تكدى ... تلحم امراً واموراً تسدى

وابن حكيم إن اتاك يردى ... اصم لا يسمع صوت الرعد

حبيته بتحفة المعد ... فانهد مثل الجبل المنهد

كل امرىء رهن بما يؤدى ... ورب ذى تاج كريم الجد

كآل كسرى وكآل برد ... انكب جاف عن سبيل القصد

فصلته عن ماله والولد

وَسَلْماً الخاسِرَ ، وخَلَفَ بن خَلِيفَةَ . وَأَبَانُ بْنُ عَبْدِ الحَمِيدِ اللاحِقِيُّ ، أولى بالطبع من هؤلاء ، وبشار أطبعهم كلهم .

ومن الخطباء الشعراء ، وممن يؤلف الكلام الجيد ، ويصنع المناقلات الحسان ويؤلف الشعر والقصائد الشريفة ، مع بيان عجيب ، ورواية كثيرة ، وحسن دل وإشارة : عِيسَى بْنُ يَزِيدَ بن دَأْبٍ ، أحد بنى ليث بن بكر ، وكنيته أبو الوليد

ومن الخطباء الشعراء ، ممن كان يجمع الخطابة والشعر الجيد والرسائل الفاخرة مع البيان الحسن : كُلْثُومُ بْنُ عَمْرٍو العَتَّابِيُّ ، وكنيته أبو عمرو . وعلى ألفاظه وحذوه ومثاله فى البديع يقول جميع من يتكلف مثل ذلك من شعراء المولدين كنحو مَنْصُورٍ النَّمَرِيِّ ، ومُسْلِمِ بْنِ الْوَلِيدِ الأنصارى ، وأشباههما . وكان العَتَّابِيُّ يحتذي حذو بَشَّار فى البديع . ولم يكن فى المولدين أصوب بديعا من بشار وابن هَرْمَة . والعتابى من ولد عمرو بن كلثوم ، ولذلك قال :

إِنِّى امْرُؤٌ هَدَمَ الإِقْتَارُ مأْثُرَتِى ... وَاجْتَاحَ مَابَنَتِ الأَيَّامُ مِنْ خَطَرِى
أَيَّامَ عَمْرِو بْنِ كُلْثُومٍ يُسَوِّدُهُ ... حَيَّا رَبِيعَةَ وَالأَفْنَاءُ مِنْ مُضَرِ
أُرُومَةٌ عَطَّلَتْنِى مِنْ مَكَارِمِهَا ... كالقَوْسِ عَطَّلَهَا الرَّامِى مِنَ الوَتَرِ

ودل فى هذه القصيدة على أنه كان قصيراً قوله :

نَهَى ظِرَافَ الغَوَانِي عَنْ مُوَاصَلَتِي ... ما يَفْجَأُ العينَ مِنْ شَيْبِى وَمِنْ قِصَرِى

ومن الخطباء الشعراء الذين جمعوا الشعر والخطب والرسائل الطوال والقصار ، والكتب الكبار المجلدة والسير الحسان المولدة والأخبار المدونة : سَهْلُ بْنُ هَرُونَ بْنِ رَاهِبُونَ[1] الكاتب صاحب كتاب « ثعْلَةٍ وَعفْرَةٍ » فى معارضة

(١) هو أبو عمرو سهل بن هرون . أصله من دستميسان من بلاد فارس ، انتقل إلى البصرة ولقى علماءها وأفاد منهم علما وأدبا ثم اتصل بالمأمون فحظي عنده وتولى له « خزانة الحكمة » ، وهى دار الكتب . وكان كاتبا بليغا جمع بين الحكمة والأدب . وله شعر جيد . وكان شعوبى المذهب شديد العصبية على العرب . وكان يرمي بالبخل وله فيه حكايات ونوادر . ومن شعره قوله :

كتاب « كليلة ودمنة » وكتاب « الإخوان » وكتاب « المسائل » وكتاب « المخزومى والهذلية » وغير ذلك من الكتب .

ومن الخطباء الشعراء : عَلِىُّ بْنُ إبْرَاهِيمَ بْنُ جَبَلَة بْن مَخْرَمَة ، ولا أعلمه يكنى إلا أبا الحسن .

وسنذكر كلام قُس بن ساعدة وشأن لَقِيط بن مَعبد وهِنْد بنت الخُسِّ وَجُمُعَة بنت حَابِس وخطباء إياد ، إذا صرنا إلى ذكر خطباء القبائل إن شاء الله.

ولإياد وتميم فى الخطب خصلة ليست لأحد من العرب ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذى روى كلام قس بن ساعدة وموقفه على جمله بعكاظ وموعظته، وهو الذى رواه لقريش والعرب ، وهو الذى عجب من حسنه وأظهر من تصويبه . وهذا إسناد تعجز عنه الأمانى ، وتنقطع دونه الآمال. وإنما وفق الله ذلك الكلام لقس بن ساعدة لاحتجاجه للتوحيد ، ولاظهاره معنى الإخلاص ، وإيمانه بالبعث . ولذلك كان خطيب العرب قاطبة .

وكذلك ليس لأحد فى ذلك مثل الذى لبنى تميم ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما سأل عَمْرَو بْنَ الأَهْتَمِ عن الزِّبْرِقان بْن بَدْرٍ (١) قال: مَانِعٌ لحوزته.

تقاضنى همان قد كسفا بالى — وقد تركا قلبى محلة بلبال
هما اذريا دمعى ولم تذر عبرتى — ربيبة خدر ذات قرط وخلخال
ولا قهوة لم يبق منها على المدى — سوى ان تحاكي النور فى رأس ذبال
ولكننى ابكى بعين سخينة — على حدث تبكى له عين امثالى
فراق خليل مثله يبعث الأسى — وخلة خل لايقوم لها مالى
فواسفا حتى متى القلب موجع — بفقد خليل او تعذر إفضال
فما العيش إلا ان تجود بنائل — وإلا لقاء الأخ ذا الخلق العالى

ومن شعره قوله :

إذا امرؤ ضاق عنى لم يضق خلقى — من أن يراني غنيا عنه باليأس
فلا يرانى إذا لم يرع آصرتى — مستمريا دررا منه بابساس
لاأطلب المال كى أغنى بفضلته — ماكان مطلبه فقراً إلى الناس

وله كتب كثيرة ورسائل جيدة وفوائد جمة تدل على فضل كبير وحكمة بالغة . مات فى عهد المأمون

(١) هو الحصين بن بدر التميمي . ولقبه الزبرقان . وكان من سادات قومه واكابرهم ، وكان شاعراً خطيباً بيناً . وكان شاعر وفد تميم بوم الحجرات ثم اسلموا . وله مع الحطيئة وغيره من الشعراء مهاجاة

مطاع فى أذينيه . فقال الزِّبرقانُ : أما إنه قد علم أكثر مما قال ، لكنه حسدنى شرفى . فقال عمرو : أما لئن قال ما قال ، فوالله ما علمته إلا ضيق الصدر ، زمِرَ المروءة ، لئيم الخال ، حديث الغنى . فلما رأى أنه خالف قوله الآخر قوله الأول ، ورأى الانكار فى عين رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : يارسول الله ، رضيتُ فقلتُ أحسنَ ماعلمتُ ، وغضبتُ فقلتُ أقبحَ ماعلمتُ ، وما كذبتُ فى الأولى ولقد صدقت فى الآخرة . فقال النبى صلى الله عليه وسلم عند ذلك : « إنَّ مِنَ البيانِ لسِحْراً » .

فهاتان الخصلتان خصت بهما إياد وتميم دون سائر القبائل .

ودخل الأحنف بن قيس(١) على معاوية بن أبى سفيان فأشار له إلى الوساد فقال له : اجلس . فجلس على الأرض . فقال معاوية : ما منعك يا أحنف من الجلوس على الوساد؟ فقال يا أمير المؤمنين : إن فيما أوصى به قيسُ بن عاصمٍ المنقرى ولده أن قال : لا تغش السلطان حتى يملّك ، ولا تقطعه حتى ينساك ، ولا تجلس له على فراش ولا وساد ، واجعل بينك وبينه مجلس رجل أو رجلين ، فإنه عسى أن يأتى من هو أولى بذلك المجلس منك فتقام له فيكون قيامك زيادة له ونقصاً عليك . حسبى بهذا المجلس يا أمير المؤمنين لعله أن يأتى من هو أولى بذلك المجلس منى . فقال معاوية : لقد أُوتيتْ تميمُ الحكمة مع رقة حواشى الكلام ، وأنشأ يقول :

وشكا الحطيئة إلى عمر بن الخطاب فحبسه ثم اطلقه وكان قد وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم هو وعمرو بن الاهتم وحدثت بينهما مفاخرة ثم منافرة كما هو مذكور فى الاصل

(١) هو الاحنف بن قيس ، يقال ان اسمه : الضحاك ، أو صخر . وكنيته ابو بحر ، وكان يضرب به المثل فى الحلم والسيادة ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث إلى قومه يدعوهم الى الاسلام فلما لم يجيبوا قال لهم الاحنف : إنه يدعوكم إلى الاسلام وإلى مكارم الاخلاق وينهاكم عن ملائمها . فأسلموا وأسلم . ولم يفد فيمن وفد على رسول الله ، ولكنه وفد على عمر فبعثه عمر إلى خراسان فبيتهم العدو ليلا فوثب الأحنف على فرسه وقال :

إن على كل رئيس حقا أن يخضب الصعدة أو تندقا

ثم حمل عليهم فقتل صاحب الطبل وانهزم القوم ، ومضى هو ومن معه فى آثارهم حتى فتحوا مرو الروذ فى خلافة عثمان ، ثم شهد صفين مع على بن أبى طالب ، وساد تميما فى عهد معاوية ، ثم خرج مع مصعب بن الزبير الى الكوفة فمات عن سن عالية سنة ٦٩ هـ ٦٨٨ م

يا أيها السائلُ عمّا مضى ... وَعِلْمِ هذا الزَّمَنِ الغائِبِ
إن كُنْتَ تبغي العِلْمَ أو أَهْلَهُ ... أو شاهداً يُخبِرُ عَنْ غائِبِ
فاعتَبِرِ الأرضَ بِسُكّانِها ... واعْتَبِرِ الصّاحِبَ بالصّاحِبِ

وذهب الشاعر فى مرثية أبي دُؤاد فى قوله :

وأَصْبَرُ مِنْ عَوْدٍ وأهدَى إذا سَرَى ... مِنَ النَّجْمِ مِنْ داجٍ مِنَ اللَّيلِ غَيْهَبُ

هذا شبيه بقول جَبّارِ بن سُليمان بن مالك بن جعفر بن كلاب حين وقف على قبر عامر بن الطُّفَيْل فقال : كان والله لا يَضِلُّ حتى يَضِلَّ النجم ، ولا يعطش حتى يعطش البعير ، ولا يهاب حتى يهاب السيل ، وكان والله خير ما يكون حين لا تظن نفس بنفس خيراً .

وكان زَيْدُ بن جُنْدَب أشغَى أقلَح(١) ولولا ذلك لكان أخطب العرب قاطبة . وقال عُبَيْدَة بن هِلالٍ اليَشْكُرِيُّ فى هجائه له :

أشْغَى عَقَنْباةٌ وَنابٌ ذُو عَصَلْ ... وَقَلَحٌ بادٍ وَسِنٌّ قَدْ نَصَلْ(٢)

وقال عُبيدة أيضاً فيه :

ولِفُوكَ أشْنَعُ حِينَ تَنطِقُ فاغِراً ... مِنْ فِي قَرِيحٍ قدْ أصابَ بَرِيرَا(٣)

وقال الكميت :

تَشَبَّهُ بالهامِ آثارُها ... مَشافِرَ قُرْحاً أكَلْنَ البَرِيرَا

وقال أخو النمر بن تَوْلَب فى شُنعة أشداق الجمل :

كَمْ ضَرْبَةٍ لكَ تَحْكِي فاقَراسِيَةٍ ... مِنَ المَصاعِبِ فى أشداقِهِ شَنَعُ(٤)

(١) اشغى : بارز إحدى الأسنان العليا . اقلح : فى اسنانه قلح وهو صفرة تعلوها فتقبح منظرها
(٢) عقنباة : ذو مخالب حداد . ذو عصل : ذو عوج . نصل : برز من موضعه دون إخوته
(٣) فاغر : فاتح . من فى : من فم . قريح : مصاب بقروح فهو بادى التألم منها . البرير : أول مايبدو من ثمر الأراك فاذا أكلته الابل قرح مشافرها
(٤) فاقراسية : فم جمل ضخم صعب القياد . وقال الجاحظ : القراسية بعير أضجم والضجم إعوجاج فى الفم .

وفى الخطباء من كان أشغى ، ومن كان أروق(١) ، ومن كان أشدق(٢) ومن كان أضجم(٣) ، ومن كان أفقم(٤)

* * *

وروى الهيثم بن عدى عن أبى يعقوب الثقفى عن عبد الملك بن عمير قال: قدم علينا الأحنف الكوفة مع مصعب بن الزبير ، فما رأيت خصلة تذم فى رجل إلا وقد رأيتها فيه . كان أصعل الرأس(٥) أحجن الأنف(٦) أغضف(٧) الأذن ، متراكب الأسنان ، أشدق ، مائل الذقن ، ناتئ الوجنة(٨) باخق العين(٩) خفيف العارضين(١٠) أحنف الرجلين(١١) ولكنه إذا تكلم جلى عن نفسه(١٢)

ولو استطاع الهيثم أن يمنعه البيان أيضاً لمنعه ، ولولا أنه لم يجد بدا من أن يجعل له شيئا على حال لما أقر بأنه إذا تكلم جلى عن نفسه(١٣) .

وقولنا فى كلمته هذه كقول هند بنت عتبة حين أتاها نعى يزيد بن أبى

---

(١) أروق : يعنى أن ثناياه العليا مشرفة على السفلى أى بارزة عليها
(٢) أشدق : واسع الشدق
(٣) أضجم : معوج الفم والأنف
(٤) أفقم : بارز الفك الأسفل عن الاعلى حتى لاتقع الثنايا العليا على السفلى . وقال الجاحظ : والفقم مثله (أى مثل الضجم) ، والروق ركوب السن الشفة ، وفى كل ذلك روينا الشاهد والمثل
(٥) أصعل الرأس : صغير الرأس مع دقة وطول
(٦) أحجن الأنف : معوجه
(٧) أغضف الأذن : مسترخى الآذان
(٨) ناتئ الوجنة : بارز الخد
(٩) باخق العين : قبيح العور كثير الغمص
(١٠) خفيف العارضين : خفيف شعر اللحية من جانبى الوجه
(١١) أحنف الرجلين . يعنى أنه يمشى على ظهر قدميه لاعوجاج فيهما
(١٢) جلى عن نفسه : كشف عن حقيقته وأوضح عن محاسن نفسه
(١٣) بلى الجاحظ تبعة هذا الوصف على الهيثم مع أن الهيثم سمعه من أبي يعقوب الثقفى نقلا عن عبد الملك بن عمير ؟ فهل كان الجاحظ يعرف فى الهيثم انحرافا عن الأحنف فهو يضع عليه امثال هذه الأحاديث ؟

سفيان ، وقال لها بعض المزين : إنا لنرجوا أن يكون فى معاوية خلف من يزيد فقالت هند : « ومثل معاوية لا يكون خلفا من أحد ، فوالله لو جُمعت العرب من أقطارها ثم رُمى به فيها لخرج من أى أعراضها شاء » ولكنا نقول : ألمثل الأحنف يقال : إلا أنه إذا تكلم جلى عن نفسه ؟

ثم رجع بنا القول إلى الكلام الأول فيما يعتري اللسان من ضروب الآفات قال ابن الأعرابيُّ : طلَّق أبو رَمادة امرأته حين وجدها لثغاء وخاف أن تجيئه بولد ألثغ فقال :

لَثغَاءُ تأتِى بِحِيَفْسٍ أَلثغِ ... تَميسُ فى المَوْشِىِّ وَالمُصَبَّغِ (١)

وأنشد ابن الأعرابى كلمة جامعة لكثير من هذه المعانى وهو قول الشاعر :

أُسكُتْ وَلا تَنطِقْ فأنْتَ حَبْحَابْ ... كُلُّكَ ذُو عَيبٍ وَأَنْتَ عَيَّابْ (٢)

إنْ صَدَقَ القَوْمُ ، فأنْتَ كَذَّابْ ... أَوْ نَطَقَ القَوْمُ ، فأَنْتَ هَيَّابْ

أَوْ سَكَتَ القَوْمُ فأَنتَ قَبْقابْ ... أَوْ أَقْدَمُوا يَوْماً فأَنْتَ وَجَّابْ (٣)

وأنشدنى :

وَلَسْتُ بِزُمَّيْجَةٍ فِى الفِراشِ ... وَجَّابَةٍ يَحْتَمِى أَنْ يُجِيبا (٤)

وَلاذِى قَلازِمَ عِنْدَ الحِياضِ ... إذاما الشَّرِيبُ أَرابَ الشَّرِيبا (٥)

وأنشدنى :

رُبَّ غَرِيبٍ ناصِحِ الجَيْبِ ... وَابْنِ أَبٍ مُتَّهَمِ الغَيْبِ (٦)

وَرُبَّ عَيَّابٍ لَهُ مَنْظَرٌ ... مُشْتَمِلِ الثَّوْبِ عَلَى العَيْبِ

وأنشد :

وَأَجْرأُ مَنْ رَأَيْتُ بِظَهْرِ غَيْبٍ ... عَلَى عَيْبِ الرِّجالِ ذَوُوا العُيُوبِ

---

(١) قال الجاحظ : الحيفس : الولد القصير الصغير

(٢) الحبحاب : ألقمىء الدميم السىء الخلق

(٣) القبقاب : كثير الكلام الذي لامعنى له . وجاب : ضعيف القلب جبان

(٤و٥) قال الجاحظ : الزميجة الثقيل الحركة . والقلازم : كثرة الصياح

(٦) ناصح الجيب : نقى القلب والصدر

وقال سهل بن هرون : لوعرف الزنجى فرط حاجته إلى ثناياه فى اقامة الحروف وتكميل جميل البيان لما نزع ثناياه .

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى سُهَيل بن عمرو [١] الخطيب : يارسول الله إنزع ثَنِيتيه السفليين حتى يدلع لسانه فلا يقوم عليك خطيبا أبدا .

وإنما قال ذلك لأن سهيلا كان أعلم من شفته السفلى .

وخطب الجُمَحِيُّ خطبة نكاح أصاب فيها معانى الكلام ، وكان فى كلامه صفير يخرج من موضع ثناياه المنزوعة ، فأجابه زَيْدُ بْنُ عَلِى بنِ الحُسَين بكلام فى جودة كلامه إلا أنه فَضَلَهُ بحسن المخرج والسلامة من الصفير . فذكر عبد الله ابن معاوية بن عبد الله بن جعفر سلامة لفظ زيد بسلامة أسنانه فقال فى كلمة له :

قَلَّتْ قَوَادِحُها وَتمَّ عَدِيدُها ... فَلَهُ بذاكَ مَزِيَّةٌ لاتُنكَرُ [٢]

ويروى : ... صَحَّتْ مَخارِجُها وَتَمَّ حُرُوفُها

وقال يُونُسُ بنُ حَبيب فى تأويل قول الاحنف بن قيس :

أنا ابْنُ الزَّافِرِيَّةِ أرْضَعَتْنِي ... بِثَدْيٍ لا أَجَدُّ وَلا وَخِيمُ [٣]

أتمتْنِي فَلَمْ تَنقُصْ عِظامِي ... ولاصَوْتِي إذَا اصْطَكَّ الخُصُومُ [٤]

قال : إنما عنى بقوله : عظامى ، أسنانه التى فى فمه . وهى التى إذاتمت تمت الحروف .

وقال يُونُس : وكيف يقول مثله : أتمتنى فلم تنقص عظامى ، وهو يريد بالعظام

---

(١) كان سهيل بن عمرو رسول قريش إلى النبي فى صلح الحديبية ، وهو الذى أمضى الصحيفة عن أهل مكة وتم بها الصلح وكان فى هذه الحال من أشد الناس على رسول الله صلى الله عليه وسلم ولذلك قال عمر فيه لرسول الله ماقال . ثم أسلم بعد ذلك فكان من المؤلفة قلوبهم ، وكانت له يوم وفاة رسول الله واضطراب المسلمين وقفة من أجل الوقفات وأفضلها رد بها غرب الجامحين ومرضى القلوب وأقر بها الايمان فى نفوسهم وبذلك حسن إسلامه وحسن بلاؤه فى حروب أعداء الدين

(٢) قال الجاحظ : المزية : الفضيلة

(٣) الزافرية : هى أم الأحنف واسمها حبى وهى من باهلة . لاأجد : ليس باليابس . ولا وخيم : ولا ثقيل .

(٤) اصطك الخصوم : تقارعوا فيما بينهم

عظام اليدين والرجلين وهو أحنف من رجليه جميعاً مع قول الخُتات له : والله إنك لضئيل (١) وإن أمك لورهاء ؟ وكان أعرف بمواقع العيوب وأبصر بدقيقها وجليلها؟ وكيف يقول ذلك وهو نُصب عيون الأعداء والشعراء والأكفاء ، وهو أنفُ مضر الذى تعطس عنه ، وأين العرب والعجم قاطبة ؟

قالوا : ولم يتكلم معاوية على منبر جماعة مذ سقطت ثناياه فى الطَّست .

قال أبو الحسن وغيره : ولما شق على معاوية سقوط مقادم فمه قال له يَزيد ابن مَعن السُّلمى : والله ما بلغ أحد سنك إلا كره بعضه بعضا ، ففوك أهون علينا من سمعك وبصرك . فطابت نفسه . ولما شد عبدُ الملك أسنانه بالذهب قال : لولا المنابر والنساء ما باليت متى سقطت .

قال : وسألت مباركا الزَّنجى الفَاشِكَارَ — ولا أعلم زنجياً بلغ فى الفشكرة مبلغه — فقلت له : لِمَ ينزع الزنجى ثناياه ؟ ولِمَ يُحدد ناس منهم أسنانهم ؟ فقال : أما أصحاب التحديد فللقتال والنهش ، ولأنهم يأكلون لحوم الناس ، ومتى حارب ملك ملكا فأخذه قتيلا أو أسيراً أكله . وكذلك إذا حارب بعضهم بعضاً أكل الغالب منهم المغلوب .

وأما أصحاب القلْع فإنهم قالوا : نظرنا إلى مقادم أفواه الغنم فكرهنا أن تشبه مقادم أفواهنا مقادم أفواه الغنم .

فكم تظنهم حفظك الله فقدوا من المنافع العظام بفقد تلك الثنايا ؟

وفى هذا كلام يقع فى « كتاب الحيوان » . وقال أبو الهِنْدى فى اللثغ :

سَقَيْتُ أبَا المُطَرِّحِ إذْ أتَانِى ... وذُو الرَّعَثاتِ مُنْتَصِبٌ يَصِيحُ (٢)
شَرَابا يَهْرُبُ الذِّبّانُ عَنْهُ ... وَيَلْثَغُ حينَ يَشْرَبُهُ الفَصِيحُ

وقال محمد بن عمرو الرومى مولى أمير المؤمنين : قد صحت التجربة وقامت

(١) كان فى الأصل : والله لانك ضئيل . ووجه الكلام أن يقال : والله إنك لضئيل . فاستبدلت الذى هو أدنى بالذى هو خير

(٢) ذو الرعثات : الديك

العبرة على أن سقوط جميع الأسنان أصلح فى الإبانة عن الحروف منه إذا سقط أكثرها وخالف أحد شطريها الشطر الآخر .

وقد رأينا تصديق ذلك فى أفواه قوم شاهدهم الناس بعد أن سقط جميع أسنانهم وبعد أن بقى منها الثلث أو الربع . فممن سقط جميع أسنانه ، وكان معنى كلامه مفهوما : الوليدُ بنُ هِشَام القحذَمى صاحب الأخبار . ومنهم أبو سُفيان ، والعلاء ابن لَبيد التغلبى ، وكان ذا بيان ولسن . وكان عُبَيْدُ الله بن أبى غسان ظريفا يُصَرِّفُ لسانه كيف أحب . وكان الاحاح على القيس (؟) قد برد أسنانه حتى كان لايرى أحد منها شيئا إلا أن تَطَلَّعَ فى لحم اللثة وفى أصول منابت الأسنان . وكان سُفْيَانُ بْنُ الْأَبْرَد الكلبى [١] كثيرا مايجمع بين القارّ[٢] والحار فتساقطت أسنانه جميعا وكان مع ذلك خطيباً بينا .

وقال أهل التجربة : إذا كان فى اللحم الذى فيه مغارز الأسنان تشمير وقصر سَمْكٍ ، ذهبت الحروف وفسد البيان ، وإذا وجد اللسان من جميع جهاته شيئا يقرعه ويصكه ولم يمر فى هواء واسع المجال وكان لسانه يملأ جَوْبَة فمه لم يضره سقوط أسنانه إلا بالمقدار المغتفَر والجزء المحتمل . ويؤكد ذلك قول صاحب المنطق[٣] فانه زعم فى « كتاب الحيوان » أن الطائر والسَّبُعَ والبهيمة كلما كان لسان الواحد منها أعرض كان أفصح وأبين وأحكى لما يُلقن ولما يَسمع ، كنحو الْبَبَّغَاءِ وَالغُدَافِ[٤] وغُراب البين ، وما أشبه ذلك ، وكالذى يتهيأ من أفواه السنانير ــ إذا تجاوبت ــ من الحروف المقطعة المشاركة لمخارج حروف الناس . فأما الغنم فليس يمكنها أن تقول إلا « ماء » والميم والباء أول ما يتهيأ فى أفواه الأطفال ، كقولهم : ماما ، و: بابا . لأنهما خارجان من عمل اللسان ، وأنهما يظهران بالتقاء الشفتين . وليس شىء من الحروف

(١) كان سفيان بن الابرد من أكابر قواد الدولة الأموية وممن أبلوا فى حروب الخوارج بلاء حسنا ، وكان ذا خبرة ودهاء وتدبير

(٢) القار : البارد

(٣) صاحب المنطق : هو أرسطو

(٤) الغداف : ضرب من الغربان

أدخل فى باب النقص والعجز من فم الأهتم من الفاء والسين إذا كانا فى وسط الكلمة . فأما الصادفليس تخرج إلا من الشدق الأيمن إلا أن يكون المتكلم أعسَرَ يَسَراً (١) مثل عمر بن الخطاب رضى الله عنه فانه كان يخرج الصاد من أى شدقيه شاء . فأما الأيمن والأعسر والأضبط فليس يمكنهم ذلك إلا بالإستكراه الشديد . وكذلك الأنفاس مقسومة على المَنْخِرَيْنِ ، فحالا يكون الاسترواح ودفع البخار من الجوف من الشِّق الأيمن ، وحالا يكون من الشق الأيسر ، ولا يجتمعان على ذلك فى وقت إلا أن يستكره ذلك مُستكره ، أو يتكلفه متكلف . فأما إذا ترك أنفاسه على سجيتها لم يكن إلا كما قالوا .

وقالوا : الدليل على أن من سقط جميع أسنانه أن عِظَمَ اللسان نافع له قول كَعْبِ بنِ جُعَيْلٍ (٢) لِيَزِيدَ بنِ مُعَاوِيَةَ حين أمره بهجاء الأنصار فقال : أرادِّى أنت إلى الكفر بعد الايمان ؟ لا أهجو قوما نصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم وآووه ، ولكنى سأدلك على غلام فى الحى كافر كأن لسانه لسان ثور . يعنى الأخطل . وجاء فى الحديث « أنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَبْغَضُ الرَّجُلَ يَتَخَلَّلُ بِلِسَانِهِ كَمَا تَتَخَلَّلُ البَاقِرَةُ الْخَلَى بلسانها » (٣) قالوا : ويدل على ذلك قول حَسَّان بن ثابت حين قال له النبى صلى الله عليه وسلم : مابقى من لسانك ؟ فأخرج لسانه حتى قرع بطرفه طرف أرنبته ثم قال : والله إنى لو وضعته على صخر لفلقه أوعلى شعر لحلقه وما يسرنى به مِقْوَلٌ من مَعَد . وَأبو السِّمط (٤) مرْوان بن أبى الْجنوب بن مرْوان ابن أبى حَفْصَةَ وأبوه وابنه فى نسق واحد يقرعون بأطراف ألسنتهم أطراف آنفهم

وتقول الهند : لولا أن الفيل مقلوب اللسان لكان أنطق من كل طائر يتهيأ فى لسانه كثير من الحروف المقطعة المعروفة .

---

(١) أعسر يسر : يعمل بكلتا يديه

(٢) هو كعب بن جعيل التغلبى ، كان شاعر تغلب فى الاسلام وبه كانت تعتز . أدرك الدولة الاموية ومات بالبصرة سنة ٢٣١ هـ ٨٤٦ م

(٣) الباقرة : واحدة البقر . الخلى : الرطب من الحشيش

(٤) كان فى الاصل : ابو الصمت . وهو خطأ

وقد ضرب الذين يزعمون أن ذهاب جميع الأسنان أصلح فى الإبانة عن الحروف من ذهاب الشطر أو الثلثين فى ذلك مثلا فقالوا : ألحمام المقصوص جناحاه جميعاً أجدر أن يطير من الذى يكون أحدهما وافراً والآخر مقصوصاً. قالوا : وعلة ذلك التعديل والاستواء ، وإذا لم يكن كذلك ارتفع أحدى شقّيه وانخفض الآخر فلم يجذف ولم يَطر . والقطا من الطير قد يتهيأ من أفواهها أن تقول « قطا قطا » وبذلك سميت . ويتهيأ من أفواه الكلاب العينات والفاآت والواوات ، كنحو قولها « وَوْ وَوْ » وكنحو قولها « عَفْ عَفْ » قال الْهَيْثَم بن عَدِيّ : قيل لصبى : مَن أبوك ؟ قال « وَوْ وَوْ » لأن أباه كان يسمى كلباً .

ولكل لغة حروف تدور فى أكثر كلامها كنحو استعمال الروم للسين . واستعمال الجرامقة للعين . قال الأصْمَعِىُّ : ليس للروم ضاد ولا للفُرس ثاء ولا للسريان دال .

ومن ألفاظ العرب ألفاظٌ تَنافَرُ وإن كانت مجموعة فى بيت شعر لم يَستطع المنشد إنشادها إلا ببعض استكراه . فمن ذلك قول الشاعر :

وَقَبْرُ حَرْبٍ بمكانٍ قَفْرْ ... وَلَيْسَ قُرْبَ قَبْرِ حَرْبٍ قَبْرُ

ولما رأى من لا علم له أن أحدا لا يستطيع أن ينشد هذين البيتين ثلاث مرات فى نسق واحد فلا يتتعتع ولا يتاجاج ، وقيل لهم : إن ذلك إنما اعتراه إذ كان من أشعار الجن ، صدقوا بذلك .

ومن ذلك قول ابن يَسِير فى أحمد بن يوسف حين استبطأه (١)

هَلْ مُعينٌ عَلَى البُكا وَالعَوِيلِ ... أَمْ مُعَزٍّ عَلَى المُصابِ الْجَليلِ
مَيِّتٌ ماتَ وَهْوَ فى وَرَقِ العَيْـ ... ـشِ مُقيمٌ بِهِ وَظِلٍّ ظَليلِ (٢)

(١) هو محمد بن يسير — وكان فى الأصل بشير وهو خطأ — الرياشى . كان شاعراً ظريفا وماجنا هجاء خبيثا ، لم يفارق البصرة ولا وفد على خليفة أو أمير . وكان مبخلا . وكان بينه وبين أحمد بن يوسف كاتب المأمون مغاضبة فتعرض له احمد وزحمه بحماره عبثا به فأخذ محمد بأذن الحمار وقال له : قل لهذا الحمار الراكب فوقك لا يؤذى الناس . فضحك احمد ونزل فعانقه وصالحه

(٢) ورق العيش : رونق الصبا وغضارته

فى عِدادِ المَوْتَى وفى عامِرِ الدُّنْيا أَبُو جَعْفَرٍ أخِى وخَلِيلِى
لَمْ يَمُتْ مِيتَةَ الوَفاةِ ولكِنْ مَاتَ مِنْ كُلِّ صالحٍ وَجَمِيلِ
لا أُذِيلُ الآمالَ بَعْدَكَ إنِّي بَعْدَها بالآمالِ حَقُّ بَخِيلِ (١)
كَمْ لَها مَوْقِفاً بِبابِ صَدِيقٍ رَجَعَتْ مِنْ نَداهُ بالتَّعْطِيلِ

ثم قال: لَمْ يَضِرْهَا والحمدُ للهِ شَىْءٌ وانْثَنَتْ نَحْوَ عَزْفِ نَفْسٍ ذَهُولِ (٢)

فتفقد النصف الأخير من هذا البيت فإنك ستجد بعض ألفاظه يتبرأ من بعض.

وأنشد خَلَفٌ الأحمرُ فى هذا المعنى:

وبعضُ قَرِيضِ القَوْمِ أَوْلادُ عَلَّةٍ يُكِدُّ لِسانَ الناطِقِ المُتَحَفِّظِ (٣)

وأنشد فى ذلك أبو البيداء الرِّياحِىُّ:

وشِعْرٌ كَبَعْرِ الكَبْشِ فَرَّقَ بَيْنَهُ لِسانُ دَعِىٍّ فى القَرِيضِ دَخِيلِ

أما قول خَلَفٍ « وبعض قريض القوم أولاد علة » فانه يقول: إذا كان الشعر مستكرها وكانت ألفاظ البيت من الشعر لا يقع بعضها مماثلا لبعض كان بينها من التنافر ما بين أولاد العَلَّاتِ، وإذا كانت الكلمة ليس موقعها إلى جنب أختها مرضيا موافقاً كان على اللسان عند أنشاد ذلك الشعر مؤنة، وأجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء سهل المخارج، فيعلم لذلك أنه أفرغ إفراغاً واحدا وسُبِكَ سبكا واحداً، فهو يجرى على اللسان كما يجرى الدهان.

وأما قوله « كبعر الكبش » فانما ذهب إلى أن بعر الكبش يقع متفرقا غير مؤتلف ولا متجاور، وكذلك حروف الكلام وأجزاء الشعر من البيت تراها متفقة سلسة (٤) ولينة المعاطف سهلة، وتراها مختلفة متباينة ومتنافرة مستكرهة،

---

(١) لا أذيل: لا أهين
(٢) زهول: مترفعة
(٣) أولاد علة وأبناء العلات: هم الذين من أمهات شتى والاب واحد
(٤) كان فى الاصل: لمسا، ولم أر لها وجها

تشق على اللسان وتكده . والأخرى تراها سهلة لينة ورطبة مواتية سلسة (١) النظام خفيفة على اللسان حتى كأن البيت بأسره كلمة واحدة ، وحتى كأن الكلمة بأسرها حرف واحد .

وقالت بنت الحُطَيئة (٢) للحطيئة : تركت قوما كراما ونزلت فى بنى كليب بعر الكبش ؟ ! فعابتهم بتفرق بيوتهم . فقيل لهم : فأنشدونا بعض مالا تتنافر أجزاؤه ولا تتباين ألفاظه ، فقالوا : قال الثَّقَفِىُّ :

مَنْ كانَ ذَا عَضُدٍ يُدْرِكْ ظُلامَتَهُ ... إنَّ الذَّلِيلَ الذِى لَيْسَتْ لهُ عَضُدُ (٣)
تَنْبُو يَدَاهُ إذَا ما قَلَّ نَاصِرُهُ ... وَيأْنَفُ الضَّيْمَ إنْ أثْرَى لهُ عَدَدُ (٤)

وأنشدوا :

رَمَتْنِى وَسِتْرُ اللهِ بَينِى وَبَيْنَها ... عَشِيَّةَ آرَامِ الكِنَاسِ رَمِيمُ (٥)
رَمِيمُ التى قالتْ لِجاراتِ بَيْتِها ... ضَمِنْتُ لكم أنْ لايَزالَ يَهِيمُ (٦)
ألَا رُبَّ يَوْمٍ لو رَمَتْنِى رَمَيْتُها ... ولكِنَّ عَهْدِى بالنِّضَالِ قَدِيمُ

وأنشدوا :

وَلَسْتُ بِزُمَّيْجَةٍ فى الفِرَاشِ ... وَجَّابَةٍ يَحْتَمِى أنْ يُجِيبَا (٧)
ولا ذِى قَلازِمَ عِنْدَ الحِياضِ ... إذا مَا الشَّرِيبُ أرابَ الشَّرِيبَا (٨)

قال نَوْفَلُ بن سالمٍ لِرُؤْبَةَ بن العَجَّاج : يا أبا الجَحَّاف ، مُتْ متى شئت ؟! قال : وكيف ذلك ؟ قال : رأيت عُقْبَةَ بن رؤبة ينشد رجزا أعجبنى . قال : إنه يقول لو كان لقوله قِرانٌ . وقال الشاعر :

(١) كان فى الاصل : متوانية سليسة . ولا وجه لها
(٢) بنت الحطيئة إسمها مليكة
(٣) عضد : قوة
(٤) يأنف الضيم : لا يقبل الظلم والذل . أثرى : كثر
(٥) الآرام : الظباء . الكناس : مأوى الآرام فى الشجر . رميم . إسم امرأة
(٦) يهيم : يتوله ويتدله
(٧) الزميجة : الثقيل عن الحركة . وجابة : ضعيف القلب جبان
(٨) القلازم : كثرة الصياح

مَهارِبَةٌ مَناجِبَةٌ قِرانٌ مَنادِبَةٌ كأنَّهُمُ الأُسودُ (١)

وأنشد ابن الأعرابيّ :

وَباتَ يَدْرُسُ شِعْراً لاقِرانَ لَهُ قد كانَ ثَقَّفَهُ حَوْلاً فما زادا

وقال بشار :

فَهذا بَدِيهٌ لا كتَحْبيرِ قائلٍ إذاماأرادَ القوْلَ زَوَّرَهُشَهْرا (٢)

فهذا فى افتراق الألفاظ ، فأما افتراق الحروف فإن الجيم لا تقارن الظاء ولا القاف ولا الطاء ، ولا الغين بتقديم ولا تأخير ، والزاى لا تقارن الظاء ولا السين ولا الضاد ولا الذال بتقديم ولا تأخير .

وهـذا باب كثير وقد يُكتفى بذكر القليل حتى يستدل به على الغاية التى اليها يُجرى .

وقد يتكلم المِغْلاَق (٣) الذى نشأ فى سواد الكوفة بالعربية المعروفة ، ويكون لفظه متخيرا فاخرا ، ومعناه شريفا كريما ، ويعلم مع ذلك السامعُ لِكلامه ومخارج حروفه أنه نَبَطِىٌّ . وكذلك إذا تكلم الُخراسانى على هذه الصفة فإنك تعرف مع إعرابه وتخير ألفاظه فى مُخرج كلامه أنه خراسانى . وكذلك إن كان من كتاب الأهْوَاز . ومع هذا إنا نجد الحاكية (٤) من الناس يحكى ألفاظ سكان اليمن مع مخارج كلامهم لايغادرمن ذلك شيئا ، وكذلك تكون حكايته للخرسانى والأهوازى والزنجى والسندى والحبشى (٥) وغير ذلك . نعم حتى تجده كأنه أطبع منهم . فأما إذا حكى كلام الفأفاء فكأنما قد جُمعت كل طرفة فى كل فأفاء فى الأرض فى لسان واحد

(١) مهاربة : مسرعون . مناجبة : أبناؤهم نجباء . قران : سادة متماثلون . منادبة : مجيبون لدعوة المستغيث بهم

(٢) زوره : ردده فى نفسه ثم حسنه وقومه

(٣) المغلاق : الذى لايكاد يبين

(٤) الحاكية : هو الذي يقلد لهجات الناس بفيه على اختلافها

(٥) كان فى الاصل : والأجناس . ولم أر لها وجهاً فى هذا المقام ، ولذلك جاريت السياق ووضعت فى مكانها الحبشى

كما أنك تجده يحكى الأعمى بصور ينشئها لوجهه وعينه وأعضائه لا تكاد تجد من ألف أعمى واحدا يجمع ذلك كله ، فكأنه قد جمع جميع طُرَفِ (١) حركات العُميان فى أعمى واحد .

ولقد كان أبو دَبُّوبَةَ الزَّنجى مولى آل زِياد يقف بباب الكرخ بحضرة المكارين (٢) فينهق فلا يبقى حمار مريض ولا هرم حسير ولا مُتعَب بهير ، إلا نهق . وقبل ذلك تسمع نهيق الحمار على الحقيقة فلا تنبعث لذلك ولا يتحرك منها متحرك حتى كان أبو دبوبة يحركه ، وكأنه قد جمع جميع الصور التى تجمع نهيق الحمار فجعلها فى نهيق واحد ، وكذلك فى نُباح الكلاب . ولذلك زعمت الأوائل أن الانسان إنما قيل له : العالم الصغير سليل العالم الكبير ، لأنه يصور بيده كل صورة ، ويحكى بفمه كل حكاية ، ولأنه يأكل النبات كما تأكل البهائم ، ويأكل الحيوان كما تأكل السباع ، وأن فيه من أخلاق جميع أجناس الحيوان أشكالا . وإنما تهيأ وأمكن الحاكية بجميع مخارج الأمم لما أعطى الله الانسان من الاستطاعة والتمكن ، وحين فضله على جميع الحيوان بالمنطق والعقل والاستطاعة . فبطول استعمال التكلف ذلت لذلك جوارحه ، ومتى ترك شمائله ولسانه على سجيتها كان مقصوراً بعادة المنشأ على الشكل الذي لم يزل فيه .

وهذه القضية مقصورة على هذه الجملة من مخارج الألفاظ وصور الحركات والسكون . فأما حروف الكلام فإن حكمها إذا تمكنت فى الألسنة خلاف هذا الحكم . ألا ترى أن السندىَّ إذا جُلب كبيرا فإنه لا يستطيع إلا أن يجعل الجيم زايا ولو أقام فى عُليا تميم وسُفلى قَيس وبين عَجزُ هوازن (٣) خمسين عاما ؟ وكذلك النَّبَطِىّ القح خلاف المغلاق الذى نشأ فى بلاد النبط ، لأن النبطى القح يجعل الزاى سينا ، فاذا أراد أن يقول : زَورق . قال : سورق . ويجعل العين همزة ، فإذا أراد

(١) كان فى الاصل : طرق . ولم نر لها موقعاً فأبدلنا بها كلمة طرف لاقتضاء المعنى

(٢) المكارين : هم من نسميهم الحمارة

(٣) هذه هى القبائل المشهورة بالفصاحة المعروفة بصحة الاعراب

أن يقول: مُشْمُعَلٌ ، قال: مُشمئل. والنخاس يمتحن لسان الجارية إذا ظن أنها رومية وأهلها يزعمون أنها مولدة بأن تقول: ناعمة ، وتقول: شمس، ثلاث مرات متواليات

والذى يعترى اللسان مما يمنع من البيان أمور : منها اللثغة التى تعترى الصبيان إلى أن ينشؤا ، وهو خلاف ما يعترى الشيخ الهرم المَاجّ (١) المسترخى الحنك المرتفع اللثة ، وخلاف ما يعترى أصحاب اللُّكَن من العجم ومن نشأ من العرب مع العجم.

فمن اللُّكن، ممن كان خطيباً أو شاعراً أو كاتباً داهياً : زِيادُ بْنُ سليمان أبو أمامة ، وهو زِيادُ الأعجم (٢) قال أبو عُبَيْدَةَ : كان يُنشد قوله :

فَتى زَادَهُ السُّلطانُ فى الوُدّ رِفعةً إذا غيَّرَ السُّلْطانُ كلَّ خليلِ (٣)

قال : كان يجعل السين شينا ، والطاء تاء ، فيقول :

فتى زادَهُ الشُّلْتانُ فى الود رفعة

ومنهم سُحَيْم (٤) عبد بنى الحَسْحَاسِ ، قال له عُمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه وأنشده قصيدته التى أولها :

---

(١) الماج : السائل اللعاب من الكبر والهرم

(٢) هو زياد بن سليمان — وفى الاصل : ابن سلمى ، وقد أصلحناه عن الاغانى — كان مولى عبد القيس ، وكان ينزل اصطخر فغلبت العجمة على لسانه . وكان شاعراً جزل الشعر فصيح العبارة . وله قصيدة فى رثاء المغيرة بن المهلب هى آية من آيات البلاغة . وهذا البيت الذى روى فى الأصل هو بيت مفرد قاله فى المهلب واستجازه عليه مالا كثيراً فأجازه

(٣) فى رواية : فى الخير رغبة ، بدل فى الود رفعة

(٤) كان سحيم عبداً أسود شديد السواد وهو من الشعراء المخضرمين أدرك الجاهلية والاسلام . وكان شاعراً جيد الشعر . وهذا البيت من قصيدة طويلة هو مطلعها وفيها يقول :

جنونا بها فيما اعتشرنا علالة علاقة حب مستسراً وباديا
ليالى تصطاد القلوب بفاحم تراه اثيثا ناعم النبت عافيا
وجيد كجيد الرئم ليس بعاطل من الدر والياقوت والشذرحاليا
كأن الثريا علقت فوق نحرها وجمر غضا هبت له الريح ذاكيا
فما بيضة بات الظليم يحفها ويرفع عنها جؤجؤا متجافيا
ويجعلها بين الجناح وزفه ويفرشها وحفا من الزف واقيا
بأحسن منها يوم قالت أراحل مع الركب أو ثاو لدينا لياليا

عُمَيْرَةَ وَدِّعْ إِنْ تَجَهَّزْتَ غَادِيَا ... كَفَى الشَّيْبُ وَالإِسْلَامُ لِلْمَرْءِ نَاهِيَا

لو كان شعرك كله مثل هذا لَأَجَزْتُكَ[1] قال: ما سعرت. يريد ما شعرت فجعل الشين المعجمة سيناً غير معجمة.

ومنهم عُبَيْدُ اللهِ بْنُ زِيَادٍ والى العراق، قال لِهَانِىءِ بْنِ قَبِيصَةَ: أَهَرُورِىٌّ سائر اليوم؟ يريد: أَحَرُورِىٌّ[2]

ومنهم صُهَيْبُ بْنُ سِنَانٍ النَّمَرِىُّ صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، كان يقول: إنك لهائن. يريد: إنك لخائن. وصهيب بن سنان يرتضخ لُكنة رومية[3] وعبيد الله بن زياد يرتضخ لُكنة فارسية. وقد اجتمعا على جعل الحاء هاء. وَأَزْدَا نَقَاذَارَ لُكنته نبطية، وكان مثلهما فى جعل الحاء هاء. وبعضهم يروى أنه أملى على كاتب له فقال: أكتب: ألهاصل ألف كُرٍّ.[4] فكتبها الكاتب بالهاء كما لفظ بها، فأعاد عليه الكلام، فأعاد عليه الكاتب. فلما فطن لاجتماعهما على الجهل قال: أنت لا تُهْسِن أن تكتب. وأنا لا أُهْسِنِ أن أُمْلِى، فاكتب: ألجاصل ألف كر. فكتبها بالجيم معجمة.

ومنهم أبُو مُسْلِمٍ[5] صاحب الدعوة، كان جيد الألفاظ جيد المعاني، وكان

(١) كان فى الاصل بعد هذه الجملة هذه العبارة المعترضة وهى (هكذا وقع فى جميع نسخ الكتاب والحكاية مروية عن عمر رضى الله تعالى عنه فى غير هذا الموضع كما وقعت داخل الكتاب: لوقدمت الاسلام على الشيب لأجزتك) ولا شك فى ان هذه العبارة ليست من الكتاب ولعلها حاشية علقها بعض قدماء المطلعين فادخلها النساخ جهلا منهم فى صلب الكتاب، ولذلك انتزعتها من الأصل

(٢) كان سبب لكنة عبيد الله بن زياد ان امه مرجانة بعد ان ولدته واخاه تزوجها شيرويه فاخذت معها عبيد الله فنشأ بين الأساورة فعرته لكنة فارسية

(٣) وكان سبب لكنة صهيب أن الروم أسرته صغيرا ونشأ فيهم فعرته هذه اللكنة

(٤) الكر: كيل يكال به الطعام، والكر ستون قفيزا والقفيز ثمانية مكاكيك والمكوك صاع ونصف. قال الأزهرى: فالكر على هذا الحساب اثنا عشر وسقا

(٥) هو أبو مسلم الخراسانى القائم بالدعوة العباسية، كان اسمه عبد الرحمن وفى أصله خلاف. كان شجاعا حازما وقائداً ماهراً ذا دهاء وتدبير. وهو الذى اقعد الدولة الأموية وأقام على أنقاضها الدولة العباسية. نشأ عند إدريس بن عيسى العجلى ثم اتصل بابراهيم الامام وكان أمينه على أسراره وعن ابراهيم اتصل بالسفاح رأس الدولة فرأى فيه من النجابة والرجولة وبعد الهمة ماجعله يعهد إليه فى القيام بأمر الدعوة. فلما استتب الأمر لأبى جعفر المنصور رأى بعين الحزم أنه لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا، فغدر به ليستقل هو بالأمر دونه فقتله سنة ١٣٧ هـ

إذا أراد أن يقول : قلت له ، قال : كُلت له . فشارك فى تحويل القاف كافا عُبَيْدَ اللهِ بْنَ زِيادٍ . كذلك خبرنا أبو عبيدة . وإنما أُتى عُبيد الله بن زياد فى ذلك أنه نشأ فى الأساورة عند شِيرَوَيْهِ الأسوارى زوج أمه مَرْجَانَةَ . وقد كان فى آل زياد غير واحد يسمى شِيرَوَيْهِ . قال : وفى دار شيرويه عاد عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبَ رضى الله تعالى عنه زياداً فى علة كانت به .

فهذا ما حضرنا من لُكنة البلغاء والشعراء والرؤساء ، فأما لُكنة العامة ومن لم يكن له حظ فى المنطق فمثل فِيلِ مَوْلَى زِيادٍ ، فإنه مرة قال لزياد : أهدوا إلينا همار وهش . يريد : حمار وحش . قال زياد : أى شىء تقول ويلك ؟ قال : أهدوا إلينا أيراً . يريد : عيراً . فقال زياد : الأول أهون . وقالت أم ولد لجرير بن الخطفى لبعض ولدها : وقع الجُرذان فى عِجان أمكم ؟ أبدلت الذال دالا من الجِرذان وضمت الجيم وجعلت العجين عجانا . قال بعض الشعراء فى أم ولد له يذكر لكنتها:

أَكْثَرُ ما أَسْمَعُ منها فى السَّمَرْ ... تَذْكِيرَهَا الأُنْثَى وتأْنِيثَ الذَّكَر (١)
والسَّوْأَةُ السَّوْآءُ فى ذِكْرِ القَمَرْ . (٢)

لأنها كانت إذا أرادت أن تقول : القمر . قالت : الكمر . وقال ابنُ عَبادٍ : ركبت عجوز سندية جملا فلما مشى تحتها متخلعا اعتراها كهيئة حركة الجماع فقالت . هذا الذمل يذكرنا بالسّر . تريد أنه يذكرها بالوطء ، فجعلت الشين سينا والجيم ذالا . وهذا كثير .

وباب آخر من اللكنة كما قيل للنبطى (٣) : لم ابتعت هذه الأتان ؟ قال : أركبها وتلد لى . فقد جاء بالمعنى بعينه ولم يبدل الحروف بغيرها ولا زاد فيها ولا نقص ، ولكنه فتح المكسور حين قال : تلَدلى ، ولم يقل : تلِد لى . والصَّقلى (٤) يجعل الذال المعجمة دالا فى الحروف

(١) كان فى الأصل : فى السحر . فأبدلت بها : السمر . ليستقيم المعنى
(٢) السوأة السوآء : الخصلة القبيحة
(٣) النبطى : نسبة الى النبط وهم سكان سواد العراق (الفلاحون)
(٤) الصقلى هو من كان من صقلية بإيطاليا

باب البيان

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله

قال بعض جهابذة الألفاظ ونقاد المعانى: ألمعانى القائمة فى صدور العباد المتصورة فى أذهانهم، والمتخلجة فى نفوسهم، والمتصلة بخواطرهم، والحادثة عن فكرهم؛ مستورة خفية، وبعيدة وحشية، ومحجوبة مكنونة، وموجودة فى معنى معدومة، لايعرف الانسان ضمير صاحبه ولاحاجة أخيه وخليطه، ولامعنى شريكه والمعاون له على أموره وعلى مالا يبلغه من حاجات نفسه إلا بغيره. وإنما تحيا تلك المعانى فى ذكرهم لها وإخبارهم عنها واستعمالهم إياها. وهذه الخصال هى التى تقربها من الفهم وتجليها للعقل وتجعل الخفى منها ظاهراً والغائب شاهداً، والبعيد قريبا. وهى التى تخلص (١) الملتبس وتحل المنعقد وتجعل المهمل مقيداً والمقيد مطلقا والمجهول معروفا والوحشى مألوفا والغُفل (٢) موسوما والموسوم معلوما، وعلى قدر وضوح الدلالة وصواب الاشارة وحسن الاختصار ودقة المدخل، يكون إظهار المعنى. وكلما كانت الدلالة أوضح وأفصح، وكانت الاشارة أبين وأنور، كان أنفع وأنجع. والدلالة الظاهرة على المعنى الخفى هو البيان الذى سمعت الله تبارك وتعالى يمدحه ويدعو إليه ويحث عليه. وبذلك نطق القرآن، وبذلك تفاخرت العرب وتفاضلت أصناف الاعجام.

والبيان إسم جامع لكل شيء كشف لك قِناع المعنى وهتك الحجب دون الضمير حتى يُفضى السامع إلى حقيقته ويهجُم على محصوله كائنا ما كان ذلك البيان

---

(١) كان فى الاصل : تلخص . ولا معنى لها هنا ولذلك أبدلنا بها : تخلص

(٢) الغفل : هو ماليس له شيء يميزه

ومن أى جنس كان ذلك الدليل . لأن مدار الأمر والغاية التى إليها يجرى القائل والسامع إنما هو الفهم والإفهام فبأى شىء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان فى ذلك الموضع .

ثم اعلم حفظك الله أن حكم المعانى خلاف حكم الألفاظ ، لأن المعانى مبسوطة إلى غير غاية وممتدة إلى غير نهاية ، وأسماء المعانى مقصورة معدودة ومحصلة محدودة . وجميع أصناف الدلالات على المعانى من لفظ ومن غير لفظ خمسة أشياء ، لا تنقص ولا تزيد ، أولها : ألفظ ، ثم الإشارة ، ثم العَقْدُ ، ثم الخط ، ثم الحال ، وتسمى : « نِصْبَةٌ » . والنصبة هى الحال الدالة التى تقوم مقام تلك الأصناف ولا تقصر عن تلك الدلالات .

ولكل واحد من هذه الخمسة صورة بائنة من صورة صاحبتها وحلية مخالفة لحلية أختها ، وهى التى تكشف لك عن أعيان المعانى فى الجملة ، ثم عن حقائقها فى التفسير ، وعن أجناسها وأقدارها ، وعن خاصها وعامها ، وعن طبقاتها فى السَّارّ والضَّارّ ، وعما يكون منها لغواً بَهرجا [1] وساقطاً مُطَّرَحا .

***

قال أبو عثمان : وكان فى الحق أن يكون هذا الباب فى أول الكتاب ، ولكنا أخرناه لبعض التدبير .

***

وقالوا : ألبيان بصر ، والعى عَمى ، كما أن العلم بصر ، والجهل عمى . والبيان من نتاج العلم ، والعى من نتاج الجهل . وقال سهلُ بن هارون : ألعقل رائد الروح والعلم رائد العقل ، والبيان تَرجُمان العلم . وقال صاحب المنطق : حد الانسان : ألحى الناطق المبين . وقالوا : حياة المُروءة الصدق ، وحياة الروح العفاف ، وحياة الحلم العلم ، وحياة العلم البيان . وقال يونس بن حَبيب : ليس لِعى مُروءة ، ولا لمنقوص البيان بهاء، ولو حك بيافوخه أعنان السماء [2] . وقالوا : شعر الرجل قطعة

(١) لغواً : لاخير فيه . وبهرجا : زائفاً
(٢) أعنان السماء . كان فى الأصل : عنان السماء . وهو خطأ لأنه من تعبير العامة

من كلامه ، وظنه قطعة من علمه ، واختياره قطعة من عقله ، وقال ابنُ التوأم : الروح عماد البدن والعلم عماد الروح والبيان عماد العلم .

***

قد قلنا فى الدلالة باللفظ ، فأما الإشارة : فباليد و بالرأس و بالعين والحاجب والمَنكِبِ ، إذا تباعد الشخصان ، و بالثوب وبالسيف . وقد يتهدد رافع السوط والسيف فيكون ذلك زاجراً رادعاً ، ويكون وعيداً وتحذيراً .

والإشارة واللفظ شريكان ونعم العون هى له ونعم الترجمان هى عنه ، وما أكثر ما تنوب عن اللفظ وما تغنى عن الخط ؟

و بعد ، فهل تعدو الإشارة أن تكون ذات صورة معروفة وحِلية موصوفة على اختلاف فى طبقاتها ودلالتها ؟ وفى الإشارة بالطرف والحاجب وغير ذلك من الجوارح مِرفق كبير ، ومعونة حاضرة فى أمور يُسرها (١) الناس من بعض ، ويخفونها من الجليس وغير الجليس . ولولا الإشارة لم يتفاهم الناس معنى خاص الخاص ، ولجهلوا هذا الباب البتة . ولولا أن تفسير هذه الكلمة يدخل فى باب صناعة الكلام لفسرتها لكم . وقد قال الشاعر فى دلالات الإشارة :

أَشَارَتْ بطَرْفِ العَيْنِ خِيْفَةَ أَهْلِها ... إشارَةَ مَذْعُورٍ ولَمْ تَتَكلَّمِ (٢)
فأيقنتُ أنَّ الطَرْفَ قد قالَ مَرحَباً ... وَأَهْلاً وسَهْلاً بالحَبِيْبِ المُتَيَّمِ

وقال الآخر :

وللقَلْبِ على القَلْـ ... ـبِ دَلِيلٌ حينَ يَلْقَاهُ
وفى الناسِ مِنَ النا ... سِ مَقايِيسُ وَأَشْبَاهُ
وفى العينِ غِنًى لِلمَرْ ... ءِ أَنْ تَنطِقَ أفوَاهُ

وقال الآخر :

وَمَعْشَرٍ صِيدٍ ذَوِى تَجِلَّهْ ... تَرَى عَلَيْهِم لِلنَّدَى أَدِلَّهْ (٣)

(١) يسرها : فى بعض النسخ : يسترها . وليست بذاك
(٢) مذعور : خائف مترقب
(٣) صيد : سادة عظماء لايلتفتون يمينا ولا شمالا زهوا وكبرا

وقال الآخر :

تَرَى عينُها عَيْنِي فتعرِفُ وَحْيَها ... وتَعرِفُ عَيْنِي مابهِ الوَحْيُ يَرْجِعُ (١)

وقال الآخر :

وَعَيْنُ الفتى تُبْدِي الذى فى ضميرِهِ ... وتَعرِفُ بالنَّجْوَى الحديثَ المُغَمَّسَا (٢)

وقال الآخر :

أَلْعَيْنُ تُبْدِي الذى فى نفسِ صاحِبها ... مِنَ المَحَبَّةِ أَوْ بُغْضٍ إذَا كانا

والعَيْنُ تَنطِقُ والأَفْوَاهُ صامِتَةٌ ... حَتَى تَرَى مِن ضَمِيرِ القَلْبِ تِبْيانا

هذا ، ومبلغ الإشارة أبعد من مبلغ الصوت . فهذا أيضا باب تتقدم فيه الإشارةُ الصوتَ. والصوتُ هو آلة اللفظ ، وهو الجوهر الذى يقوم به التقطيع وبه يوجد التأليف . ولن تكون حركات اللسان لفظاً ولا كلاما موزوناً ولا منثوراً إلا بظهور الصوت . ولا تكون الحروف كلاما إلا بالتقطيع والتأليف . وحسن الإشارة باليد والرأس من تمام حسن البيان باللسان ، مع الذى يكون مع الإشارة من الدَّلّ والشَّكل (٣) والتَّفتل والتثنى واستدعاء الشهوة ، وغير ذلك من الأمور .

قد قلنا فى الدلاله بالإشارة ، فأما الخط ، فما ذكر الله تبارك وتعالى فى كتابه من فضيلة الخط والإنعام بمنافع الكتاب قوله لنبيه صلى الله عليه وسلم « إقرأْ وَرَبُّكَ الأكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الإنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ » وأقسم به فى كتابه المنزل على نبيه المرسل صلى الله عليه وسلم حيث قال « نُ والقَلَمِ وما يَسْطُرُونَ » ولذلك قالوا : القلم أحدُ اللسانين . كما قالوا : قلة العيال أحد اليسارين . وقالوا : ألقلم أبقى أثراً ، واللسان أكثر هَذَراً . وقال عبد الرحمن بن كيسان : إستعمال القلم أجدر أن يحض الذهن على تصحيح الكتاب من استعمال اللسان على تصحيح الكلام

(١) الوحى : الاشارة بأى صورة

(٢) المغمس : الخفى

(٣) الشكل : الدلال والغنج

وقالوا اللسان مقصور على القريب الحاضر ؛ والقلم مطلق فى الشاهد والغائب ، وهو للغابر الكائن مثله للقائم الراهن . والكتاب يقرأ بكل مكان ، ويدرس فى كل زمان ، واللسان لايعدو سامعه ولايتجاوزه إلى غيره .

وأما القول فى العَقد ، وهو الحساب ، دون اللفظ والخط : فالدليل على فضيلته وعظم قدر الانتفاع به قول الله عز وجل « فالِقُ الإصباحِ وَجاعلُ اللَّيلَ سكَناً والشَّمْسَ والقمرَ حُسْبَاناً ذَلِكَ تَقدِيرُ العَزِيزِ العَلِيمِ » وقال جل وتقدس « الرَّحْمنَ عَلَّمَ القرآن خَلَقَ الإنْسَانَ عَلَّمَهُ البَيَانَ ، الشَّمْسُ والقَمَرُ بِحُسْبَانٍ » وقال تبارك وتعالى « هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعلَمُوا عددَ السِّنِينَ وَالحِسَابَ ، مَا خَلَقَ اللهُ ذَلِكَ إلاَّ بِالحَقِّ » وقال تبارك وتعالى « وجَعَلْنا الليلَ والنهارَ آيتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالحِسَابَ » والحساب يشتمل على معان كثيرة ومنافع جليلة ، ولولا معرفة العباد بمعنى الحساب فى الدنيا لما فهموا عن الله عز وجل ذكره معنى الحساب فى الآخرة .

وفى عدم اللفظ وفساد الخط والجهل بالعقد فسادُ جُل النعم وفقدان جمهور المنافع واختلال كل ما جعله الله عز وجل لنا قِواماً ومصلحة ونظاماً .

وأما النصبة فهى الحال الناطقة بغير اللفظ والمشيرة بغير اليد . وذلك ظاهر فى خلق السموات والارض ، وفى كل صامت وناطق وجامد ونام ومقيم وظاعن وزائد وناقص . فالدلالة التى فى المَوَاتِ الجامد كالدلالة التى فى الحيوان الناطق فالصامت ناطق من جهة الدلالة ، والعجماء مُعربة من جهة البرهان . ولذلك قال الأول : سل الأرض فقل : مَن شق أنهارك ، وغرس أشجارك ، وجنى ثمارك ؟ فإن لم تجبك حِواراً ، أجابتك اعتبارا . وقال بعض الخطباء : أشهد أن السموات والأرض آيات دالات وشواهد قائمات ، كل يؤدى عنك الحجة ، ويعرب عنك بالربوبية ، موسومة بآثار قدرتك ومعالم تدبيرك التى تجليت بها لخلقك فأوصلت إلى القلوب من معرفتك ما آنسها من وحشة الفكر ورجم الظنون . فهى على

اعترافها لك وذلها إليك ، شاهدة بأنك لاتحيط بك الصفات ولا تحدك الأوهام ، وأن حظ المفكر فيك الإعتراف لك . وقال خطيب من الخطباء حين قام على سرير الاسكندر وهو ميت : ألاسكندر كان أمس أنطق منه اليوم ، وهو اليوم أوعظ منه أمس (١) . ومتى دل الشيء على معنى فقد أخبر عنه و إن كان صامتا ، وأشار إليه و إن كان ساكتا .

وهذا القول شائع فى جميع اللغات ، ومتفق عليه مع إفراط الاختلافات .

وأنشد أبُو الرُّدَيْنيّ العُكْلِيُّ فى تنسم الذئب للريح واستنشاقه واسترواحه :

يَسْتَخْبِرُ الرِّيحَ إذَا لَمْ يَسْمَعِ بِمِثْلِ مِقْرَاعِ الصَّفَا المُوَقَّعِ (٢)

وقال عَنْتَرَةَ بنُ شدّادٍ العبسيُّ ، وجعل نعيب الغراب خبرا للزاجر :

حَرِقُ الْجَنَاحِ كَأَنَّ لَحْيَيْ رَأْسِهِ جَلَمَانِ بالأَخْبَارِ هَشٌّ مُولَعُ (٣)

وقال الرّاعِيُّ :

إنَّ السَّماءَ وَإنَّ الريحَ شاهِدَةٌ والأَرْضُ تَشهَدُ وَالأيامُ وَالبلَدُ
لَقَدْ جَزَيْتَ بنِى بَدْرٍ بِبَغْيِهِمُ يَوْمَ الهَبَاءَةِ يَوماً ما له قَوَدُ (٤)

---

(١) لما مات الاسكندر وقف أصحابه على تابوته يؤبنونه فقال أحدهم : كان الملك أمس أهيب منه اليوم وهو اليوم أوعظ منه أمس . وقال آخر : سكنت حركة الملك فى لذاته وقد حركنا اليوم فى سكونه جزعا لفقده . وقال آخر : قد كان سيفك لايجف وكانت مراقيك لاترام وكانت نقماتك لاتؤمن وكانت عطاياك يفرح بها وكان ضياؤك لاينكسف فأصبح ضوءك قد خمد واصبحت نقماتك لاتخشى وعطاياك لاترجى ومراقيك لا تمنع وسيفك لايقطع . وقال آخر : انظروا إلى حلم المنام كيف انجلى وإلى ظل الغمام كيف انسرى . وقال آخر : ما كان احوجه إلى هذا الحلم وإلى هذا الصبر والسكون ايام حياته . وقال آخر : القدرة العظيمة التى ملأت الدنيا العريضة الطويلة طويت فى ذراعين . وقال آخر : اصبح آسر الاسراء اسيراً وقاهر الملوك مقهوراً ، كان بالامس مالكا فصار اليوم هالكا

(٢) قال الجاحظ : المقراع : الفاس التى يكسر بها الصخر . والموقع : المحدد ، يقال وقعت الحديدة إذا حددتها

(٣) قال الجاحظ : الحرق : الاسود ، شبه لحييه بالجلمين لان الغراب يخبر بالفرقة والغربة ويقطع كما يقطع الجلمان

(٤) يوم الهباءة : يوم من ايام العرب كان لبنى عبس على بنى فزارة . القود : الاقتصاص من القاتل

وقال نُصَيْبٌ فى هذا المعنى يمدح سليمانَ بن عبد الملك :

أقولُ لِركْبٍ صادرِينَ لقيتُهم　　قفاذاتِ أوْشالٍ ومَوْلاكَ قارِبُ (١)

قِفُوا خبِّرونا عن سُليمانَ إننى　　لِمَعْرُوفِه مِن آلِ وَدَّانَ طالِبُ (٢)

فعاجُوا فأثنَوْا بالذى أنتَ أهلُهُ　　ولو سكتوا أثنَتْ عليكَ الحقائِبُ (٣)

وهذا كثير جداً .

بسم الله الرحمن الرحيم

قال عَلِىُّ بنُ أبى طالبَ رضىَ الله تعالى عنه : قيمةُ كل إنسان ما يُحسن . فلو لم نقف من هذا الكتاب إلا على هذه الكلمة لوجدناها كافية شافية، ومُجزِية مُغنية ، بل لوجدناها فاضلةً على الكفاية وغير مقصرة عن الغاية .

وأحسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره ، ومعناه فى ظاهر لفظه ، وكان الله عز وجل قد ألبسه من الجلالة وغشّاه من نور الحكمة على حسب نية صاحبه وتقوى قائله ، فاذا كان المعنى شريفا واللفظ بليغا ، وكان صحيح الطبع بعيداً من الاستكراه ومنزهاً عن الاختلال مصونا عن التكلف ، صنع فى القلب صنيع الغيث فى التربة الكريمة ، ومتى فصلتِ الكلمة على هذه الشريطة ونفذت من قائلها على هذه الصفة ، أصحبها الله من التوفيق ومنحها من التأييد ما لا يمتنع من تعظيمها به صدور الجبابرة ، ولا يذهل عن فهمها عقول الجهلة .

وقد قال عامرُ بنُ عبدِ القيْس (٤) الكلمة إذا خرجت من القلب وقعت فى القلب ، وإذا خرجت من اللسان لم تجاوز الآذان .

(١) ذات أوشال : بقعة ذات مياه تسيل من اعراض الجبال . ومولاك : بنى نفسه . قارب : طالب ماء

(٢) ودان : قرية قريبة من الجحفة

(٣) فعاجوا : عطفوا . والحقائب : اوعية الزاد تحمل خلف الرحل

(٤) هو عامر بن عبد الله بن عبد القيس العنبرى ، وكان من أفاضل الناس وخيارهم ، وكان

قال الحسن (١) رضى الله تعالى عنه — وسمع متكلما يعظ فلم تقع موعظته بموضع من قلبه ولم يرق عندها — : ياهذا إن بقلبك لشرا أو بقلبى ! وقال على ابنُ الحسين بن على رضى الله عنهم : لو كان الناس يعرفون جملة الحال فى فضل الاستبانة، وجملة الحال فى صواب التبيين، لأعربوا عن كل ما تخلّج فى صدورهم ولوجدوا من بَرد اليقين ما يغنيهم عن المنازعة إلى كل حال سوى حالهم، وعلى أن دَرَك ذلك كان لايعدمهم فى الأيام القليلة العدة، والفكرة القصيرة المدة، ولكنهم من بين مغمور بالجهل ومفتون بالعجب، ومعدول بالهوى عن باب التثبت، ومصروف بسوء العادة عن تفضيل التعلم. وقد جمع محمد بنُ علىّ بن الحسين صلاح شأن الدنيا بحذافيرها فى كلمتين فقال : صلاح شأن جميع التعايش والتعاشر مِلءُ مِكيال : ثلثاه فطنة، وثلثه تغافل . فلم يجعل لغير الفطنة نصيبا من الخير ولا حظا فى الصلاح، لأن الانسان لايتغافل إلا عن شىء قد فَطِن له وعرفه .

وذكر هذه الثلاثة الأخبار إبراهيمُ بنُ داحة، عن محمد بنِ عُمَيْرٍ . وذكرها صالح بنُ علىّ الأفقمُ عن محمد بن عمير، وهؤلاء جميعا من مشايخ الشيع، وكان ابن عمير أغلاهم .

وقيل لعبدِ الله بن عباس : أنّى لك هذا العلم ؟ قال : قلبٌ عَقول، ولسان سؤولٌ . وقد رووا هذا الكلام عن دَغْفَلِ بن حَنظَلَةَ العلامة . وعبدُ الله أولى به منه . والدليل على ذلك قول الحسن : إن أولَ مَن عُرِف بالبصرة ابنُ

فصيحا مبينا، سيره (نفاه) عبد الله بن عامر الى الشام بامر عثمان بن عفان، وكان سبب ذلك ان حمران بن ابان كتب فيه : إنه لا ياكل اللحم ولا يغشى النساء ولا يقبل الاعمال (يعرض بانه خارجي) فكتب عثمان إلى ابن عامر باستدعائه وسؤاله عن هذه الخصال فاذا كانت فيه فسيره . فلما ساله عبد الله قال : اما اللحم فانى مررت بقصاب يذبح ولا يذكر اسم الله، فاذا اشتهيت اللحم اشتريت شاة فذبحتها، وأما النساء فان لى عنهن شغلا، واما الاعمال فما اكثر من تجدونه سواى . فقال له حمران : لا اكثر الله فينا امثالك . فقال له، بل اكثر الله فينا امثالك كساحين وحجامين . مات عامر بالشام

(١) هو الحسن البصرى

عباس ، صعد المنبر فقرأ سورة البقرة ففسرها حرفا حرفا ، وكان مِثَجًّا يسيل غَرباً (١)

وقيل للحسن: يا أبا سعيدٍ ، إن قوما زعموا أنك تذم ابنَ عباس ! ؟ قالوا : فبكى حتى اخضلَّتْ (٢) لحيته ، ثم قال : إن ابن عباس كان من الاسلام بمكان ، إن ابن عباس كان من العلم بمكان ، وكان والله له لسان سؤول ، وقلب عَقول ، وكان والله مِثَجاً يسيل غَربا .

قالوا : وقال عَليُّ بنُ عبدِ الله بن عباس: مَن لم يجد مَسّ نقص الجهل فى عقله وذُلَّ المعصية فى قلبه ولم يَستبِن موضع الخَلة فى لسانه عند كَلال حدّه عن حد خصمه ، فليس ممن يَفزع عن ريبة ولا يرغب عن حال مَعجزة ولا يكترث لفضل ما بين حُجة وشبهة . قالوا : وذكر محمد بن على بن عبد الله بن عباس بلاغة بعض أهله فقال : إنى لأكره أن يكون مقدار لسانه فاضلا عن مقدار علمه ، كما أكره أن يكون مقدار علمه فاضلا على مقدار عقله .

وهذا كلام شريف نافع ، فاحفظوا لفظه وتدبروا معناه .

ثم اعلموا أن المعنى الحقير الفاسد والدنىء الساقط ، يُعشش فى القلب ثم يبيض ثم يُفرخ ، فإذا ضرب بجِرانه ومكن لعروقه ، استفحل الفساد وبَزَلَ (٣) وتمكن الجهل وقَرَحَ (٤) فعند ذلك يقوى داؤه ، ويمتنع دواؤه ، ولأن اللفظ الهجين الردى والمستكره الغبى أعلق باللسان وآلف للسمع وأشد التحاما بالقلب ، من اللفظ النبيه الشريف والمعنى الرفيع الكريم . ولو جالستَ الجهال والنَّوْكى (٥) والسخفاء والحَمْقى شهراً فقط لم تَنْقَ (٦) من أوضار كلامهم وخبال معانيهم بمجالسة أهل البيان والعقل دهراً ، لأن الفساد أسرع إلى الناس وأشد التحاما بالطبائع . والانسان

(١) قال الجاحظ : المثج : السائل الكثير وهو من الثجاج ، والغرب ههنا الدوام .
(٢) اخضلت : ابتلت
(٣) بزل : استحكمت قوته
(٤) قرح : بلغ أشده . وكان فى الأصل : فرخ ، ولم أر لها وجها والصواب ماأثبت
(٥) النوكى : الحمقى
(٦) تنق : تطهر وتنظف .

بالتعلم والتكلف و بطول الاختلاف إلى العلماء ومدارسة كتب الحكماء يجود لفظه ويحسن أدبه ، وهو لايحتاج فى الجهل إلى أكثر من ترك التعلم ، وفى فساد البيان إلى أكثر من ترك التخير .

ومما يؤكد قول محمد بن على بن عبد الله بن عباس قول بعض الحكماء حين قيل له : متى يكون الأدب شرا من عدمه ؟ قال : إذا كثر الأدب ونقصت القريحة . وقد قال بعض الأولين : من لم يكن عقله أغلب خصال الخير عليه ، كان حتفه فى أغلب خصال الخير عليه . وهذا كله قريب بعضه من بعض .

وذكر المُغِيرَةُ بنُ شُعْبة (١) عُمَرَ بنَ الخطَّاب رضى الله عنه فقال : كان والله أفضل من أن يَخدع ، وأعقل من أن يُخدع . وقال محمد بن على بن عبد الله ابن عباس : كفاك من علم الدين أن تعلم مالا يسع جهله ، وكفاك من علم الأدب أن تروى الشاهد والمثل . وكان الإمام إبراهيم بن محمد يقول : يكفى من حظ البلاغة أن لا يُؤتى السامع من سوء إفهام الناطق ، ولا يؤتى الناطق من سوء فهم السامع .

قال أبو عثمان : وأما أنا فأستحسن هذا القول جداً .

---

(١) هو الامير المغيرة بن شعبة الثقفى . كان فى ايام الجاهلية كثير التردد على مصر للتجارة فلما جاء الله بالاسلام صحب قوما من المشركين إلى مصر فاغتالهم ثم لحق بالنبى واسلم وشهد بيعة الرضوان كما شهد حروب اليمامة وفتوح الشام واليرموك والقادسية . وكان من الصحابة الأجلاء والأمراء النبلاء والقادة البسلاء والساسة الدهاة . ولاه عمر بن الخطاب البصرة ففتح ميسان ومنها جاء بالسبى الذى كان فيه والدا الحسن البصرى ومحمد بن سيرين . وافتتح دست ميسان وابرقباذ وسوق الاهواز وهمذان وشهد نهاوند وكان على ميسرة النعمان بن مقرن . وهو أول من وضع ديوان البصرة وأول من سلم عليه بالامرة واول من رشا فى الاسلام فقد رشا حاجب عمر ليسهل له الاذن عليه . وذهبت عينه فى إحدى الوقائع . ولما حضرته الوفاة قال : اللهم هذه يمنى بايعت بها نبيك وجاهدت بها فى سبيلك . مات وهو أمير على الكوفة بالطاعون سنة ٥٠ هـ ٦٧٠ م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ولا حول ولا قوة إلا بالله. وصلى الله على سيدنا محمد خاصة وعلى الأنبياء عامة

قيل للفارسى ما البلاغة ؟ قال : معرفة الفصل من الوَصل . وقيل لليونانى : ما البلاغة ؟ قال : تصحيح الأقسام واختيار الكلام . وقيل للرومى : ما البلاغة ؟ قال : حسن الاقتضاب عند البداهة ، والغزارة يوم الاطالة . وقيل للهندى : ما البلاغة قال وضوح الدلالة وانتهاز الفرصة وحسن الاشارة . وقال بعض أهل الهند : جِماع البلاغة البَصَرُ بالحجة والمعرفة بمواضع الفرصة : ثم قال : ومن البصر بالحجة والمعرفة بمواضع الفرصة أن تدع الافصاح بها إلى الكناية عنها إذا كان الافصاح أوعر طريقة ، وربما كان الاضراب عنها صفحاً أبلغ فى الدرك وأحق بالنظر . وقال مرة : جِماع البلاغة التماس حسن الموقع والمعرفة بساعات القول وقلة الحرف بما التبس من المعانى أو غمض وبما شرد عليك من اللفظ أو تعذر . ثم قال : وزين ذلك كله وبهاؤه وحلاوته وسناؤه ، أن تكون الشمائل موزونة ، والألفاظ معدلة ، واللهجة نقية ، فإن جامع[١] ذلك السنُّ والسَّمت[٢] والجمال وطولُ الصمت ، فقد تم كل التمام وكمل كل الكمال .

وخالف عليه سَهْلُ بنُ هٰرون — وكان سهل فى نفسه عتيق الوجه حسن الاشارة بعيداً من الفَدَامة[٣] معتدل القامة مقبول الصورة ، يُقضى له بالحكمة قبل الخبرة وبرقة الذهن قبل المخاطبة وبدقة المذهب قبل الامتحان وبالنبل قبل التكشف . فلم يمنعه ذلك أن يقول ما هو الحق عنده ، وإن أدخل ذلك على حاله النقص — قال سهل بن هٰرون : لو أن رجلين خطبا أو تحدثا أو احتجا أو وصفا وكان أحدهما جميلا جليلا بهياً ذا لباس[٤] نبيلا وذا حسب شريفاً ، وكان الآخر

(١) جامع : وافق . وفى بعض النسخ : جاء مع . وليست بذاك

(٢) السمت : جمال الهيئة .

(٣) الفدامة : الغباوة وثقل الروح

(٤) فى الأصول : ولباساً

قليلا قميئاً وَباذَّ الهيئة دَميما[1] وخامل الذكر مجهولا ، ثم كان كلاهما فى مقدار واحد من البلاغة وفى وزن واحد من الصواب ، لَتصدع[2] عنهما الجمع وعامتهم تقضى للقليل الدميم على النبيل الجسيم ، وللباذّ الهيئة على ذى الهيئة ، ولشغلهم التعجب منه عن مساواة صاحبه ، ولصار التعجب منه سبباً للعجب به ، ولكان الاكثار فى شأنه علةً للاكثار فى مدحه ، لأن النفوس كانت له أحقر ومن بيانه أيئس ومن حسده أبعد ، فإذا هجموا منه على ما لم يحتسبوه وظهر منه خلاف ماقدروه تضاعف حسن كلامه فى صدورهم وكبر فى عيونهم ، لأن الشىء من غير معدنه أغرب ، وكلما كان أغرب كان أبعد فى الوهم ، وكلما كان أبعد فى الوهم كان أطرف ، وكلما كان أطرف كان أعجب ، وكلما كان أعجب كان أبدع ، وإنما ذلك كنوادر كلام الصبيان ومُلح المجانين ، فإن ضحك السامعين من ذلك أشد وتعجبهم به أكثر . والناس موكلون بتعظيم الغريب واستطراف البديع ، وليس لهم فى الموجود الراهن المقيم وفيما تحت قدرتهم من الرأى والهوى مثل الذى معهم فى الغريب القليل وفى النادر الشاذ وكل ما كان فى ملك غيرهم ، وعلى ذلك زهد الجيران فى عالمهم والأصحاب فى الفائدة من صاحبهم ، وعلى هذه السبيل يستطرفون القادم عليهم ويرحلون إلى النازح عنهم ، ويتركون من هو أعم نفعاً وأكثر فى وجوه العلم تصرفا وأخف مؤنة وأكثر فائدة .

ولذلك قدّم بعض الناس الخارجى على العريق ، والطارف على التليد ، وكانوا يقولون : إذا كان الخليفة بليغاً والسيد خطيبا فإنك تجد جمهور الناس وأكثر الخاصة فيهما على أمرين ، إما رجل يعطى كلامهما من التعظيم والتفضيل والاكبار والتبجيل على قدر حالهما فى نفسه ، وموقعهما من قلبه . وإما رجل تعرض له التُّهَمَة لنفسه فيهما والخوف من أن يعطى تعظيمه لهما يوهمه من صواب قولهما وبلاغة كلامهما ما ليس عندهما حتى يفرط فى الإشفاق ويسرف فى التهمة ، فالأول يزيد

(١) قميئاً : ضئيلا حقيرا . وباذ الهيئة رث الثياب . ودميما : مشوه الخلق

(٢) لتصدع : لتفرق

فى حقه للذى له فى نفسه ، والآخر ينقصه من حقه لتهمته لنفسه ولإشفاقه من أن يكون مخدوعا فى أمره . فاذا كان الحب يعمى عن المساوى ، فالبغض يعمى عن الحقائق والمحاسن ، وليس يعرف حقائق مقادير المعانى ومحصول حدود لطائف الأمور إلا عالم حكيم ، أو معتدل الأخلاط[١] عليم ، و إلا القوى المُنَّة الوثيق العقدة ، والذى لا يميل مع ما يستميل الجمهور الأعظم والسواد الأكثر .

وكان سهل بن هرون شديد الإطناب فى وصف المأمون فى البلاغة والجهارة وبالحلاوة والفخامة ، وجودة اللهجة والطلاوة .

وإذا صرنا إلى ذكر ما يحضرنا من تسمية خطباء بنى هاشم وبلغاء رجال القبائل ، قلنا فى وصفها على حسب حالها والفرق الذى بينها ، ولأننا عسى أن نذكر جملة أسماء خطباء الجاهليين والاسلاميين والبدويين والحضريين ، وبعض ما يحضرنا من صفاتهم وأقدارهم ومقاماتهم وبالله التوفيق .

ثم رجع بنا القول إلى ذكر الإشارة . وروى أبو شِمْر عن معمر أبي الأشعث خلاف القول الأول فى الإشارة والحركة عند الخطبة وعند منازعة الرجال ومناقلة الأكفاء .

وكان أبو شِمْرٍ إذا نازع لم يحرك يديه ولا مَنكِبيه ، ولم يقلب عينيه ، ولم يحرك رأسه ، حتى كأن كلامه إنما يخرج من صدع[٢] صخرة ، وكان يقضى على صاحب الإشارة بالافتقار إلى ذلك والعجز عن بلوغ إرادته ، وكان يقول : ليس من المنطق أن تستعين عليه بغيره ، حتى كلمه إِبْرَاهِيمُ بْنُ سَيَّارٍ النَّظَّامُ[٣] عند

---

(١) معتدل الأخلاط : معتدل المزاج

(٢) الصدع : الشق

(٣) هو أبو إسحق ابراهيم بن سيار النظام أحد شيوخ المعتزلة وأستاذ الجاحظ فى علم الكلام وفى انتحال الاعتزال . وكان من أئمة البلاغة وفحول البيان . قرأ كثيراً من كتب الأوائل واستوعب ما تعلق منها بالطبيعيات والالهيات واستنبط منها مسائل مزجها بكلام المعتزلة وتفرد بها عنهم وصار رأس الفرقة النظامية . وكان جيد المنطق حاد الذهن سريع الخاطر غواصا على المعانى دقيق الاستنباط ذكي الفؤاد . وقد أداه ذلك إلى ماذهب إليه من الآراء والأفكار . ومن قوله :

أيوب بن جعفر فاضطره بالحجة وبالزيادة فى المسألة حتى حرك يديه ، وحلّ حَبْوَتَهُ (١) وحبا إليه حتى أخذ بيديه . ففى ذلك اليوم انتقل أيوب من قول أبى شِمر إلى قول إبراهيم .

وكان الذى غرّ أبا شِمر وموّه له هذا الرأى أن أصحابه كانوا يستمعون منه ويسلمون له ويميلون إليه ويقبلون كل ما يورده عليهم ويثبته عندهم ، فلما طال عليه توقيرهم له وترك مجاذبتهم إياه وخفت مؤنة الكلام عليه نسى حال منازعة الأكفاء، ومجاذبة الخصوم . وكان شيخا وقوراً وزميتاً ركيناً ، وكان ذا تصرف فى العلم ، ومذكوراً بالفهم والحلم .

قال مَعْمَر أبو الأشعث : قلت لِبَهْلَةَ الهندى — أيام اجتلب يحيى بن خالد أطباء الهند مثل « مَنْكَهَ » و « بازيكر » و « قلبرقل » و « سندباذ » وفلان وفلان — : ما البلاغة عند أهل الهند ؟ قال بَهْلَة :عندنا فى ذلك صحيفة مكتوبة لا أُحسن ترجمتها لك ، ولم أعالج هذه الصناعة فأثق من نفسى بالقيام بخصائصها

= إن الجوهر مؤلف من اعراض اجتمعت ، وهذا القول يقرب مما يقوله علماء الطبيعة فى هذا العصر من انه لايوجد جوهر فرد غير قابل للتجزئة . وكان من صغره يتوقد ذكاء ويتدفق فصاحة ويفيض بلاغة . دفعه ابوه إلى الخليل بن احمد ليعلمه فقال له الخليل ممتحنا وفى يده قدح زجاج : يابنى ، صف لى هذه الزجاجة ؟ فقال : أبمدح أم بذم ؟ فقال : بمدح . قال : نعم ، تريك القذى وتقيك الأذى ولا تستر ماورى . قال : فذمها ؟ فقال: سريع كسرها بطىء جبرها . قال : فصف هذه النخلة ، وأومأ إلى نخلة فى داره . فقال : أبمدح أم بذم ؟ قال : بمدح . فقال : حلو مجتناها باسق منتهاها ناضر اعلاها . قال : فذمها ؟ فقال : صعبة المرتقى بعيدة المجتنى محفوفة بالأذى . فقال الخليل: يابنى نحن إلى التعلم منك أحوج . ثم اشتغل على ابى الهذيل العلاف بمذهب الكلام إلى ان برع وظهر بمذهبه فى ايام المعتصم وتبعه خلق كثير . وناظر شيخه أبا الهذيل وظهر عليه مرارا . ووصف يوماً عبد الوهاب الثقفى فقال : هو أحلى من أمن بعد خوف وبرء بعد سقم وخصب بعد جدب وغنى بعد فقر ، ومن طاعة المحبوب وفرج المكروب ومن الوصل الدائم مع الشباب الناعم . ومن كلامه : العلم شىء لايعطيك بعضه حتى تعطيه كلك فاذا اعطيته كلك فأنت من إعطائه لك البعض على خطر . وقال : مما يدل على لؤم الذهب والفضة صيرورتهما عند اللئام . فالشىء يصير إلى شبهه والجنسية علة الضم . وقال : إذا كان فى جيرانك جنازة وليس فى بيتك دقيق فلا تحضر الجنازة فان المصيبة عندك اكثر منها عند القوم وبيتك اولى بالمأتم . وكان كثير التطير وله فيه احداث . وله كلام رشيق وشعر رقيق . ولد بالبصرة سنة ١٨٥ وتوفى بها سنة ٢٢١ هـ

(١) حل حبوته : كناية عن انه اخرجه عن حدود تزمته ووقاره

وتخليص لطائف معانيها . قال أبو الأشعث : فلقيت بتلك الصحيفة التراجمة فإذا فيها .

أول البلاغة اجتماع آلة البلاغة . وذلك أن يكون الخطيب رابط الجأش ، ساكن الجوارح ، قليل اللحظ ، متخير اللفظ ، لا يكلم سيد الأمة بكلام الأمة ، ولا الملوك بكلام السوقة ، ويكون فى قواه فضل للتصرف فى كل طبقة . ولا يدقق المعانى كل التدقيق ولا ينقح الألفاظ كل التنقيح ولا يصفيها كل التصفية ولا يهذبها غاية التهذيب ، ولا يفعل ذلك حتى يصادف حكيما أوفيلسوفا عليما ومن قد تعود حذف فضول الكلام وإسقاط مشتركات الألفاظ ، وقد نظر فى صناعة المنطق على جهة الصناعة والمبالغة لا على جهة الاعتراض والتصفح وعلى جهة الاستطراف والتظرف »

وقال مَن علم : حَقُّ المعنى أن يكون الاسم له طبقا وتلك الحال له وفقا ، ويكون الاسم له لا فاضلا ولا مفضولا ولا مقصرا ولا مشتركا ولا مضمنا ، ويكون مع ذلك ذاكراً لما عقد عليه أول كلامه ، ويكون تصفحه لمصادره فى وزن تصفحه لموارده ، ويكون لفظه مؤنقاً ، ولهول تلك المقامات معاوداً . ومدار الأمر على إفهام كل قوم بقدر طاقتهم ، والحمل عليهم على أقدار منازلهم ، وأن تواتيه آلته وتتصرف معه أداته ، ويكون فى التهمة لنفسة معتدلا وفى حسن الظن بها مقتصدا فانه إن تجاوز مقدار الحق فى التهمة لنفسه ظلمهافأودعها ذلة المظلومين ، وإن تجاوز الحق فى مقدار حسن الظن بها أمنها فأودعها تهاون الآمنين ؛ ولكل ذلك مقدار من الشغل ، ولكل شغل مقدار من الوهن ، ولكل وهن مقدار من الجهل .

وقال إبْرَاهِيمُ بْنُ هَانِىء — وكان ماجناً خليعاً ، كثير العبث متمرداً — ولولا أن كلامه هذا الذى أراد به الهزل يدخل فى باب الجد لما جعلته صلة الكلام الماضى ، وليس فى الأرض لفظ يسقط البتة ولا معنى يبور حتى لا يصلح لمكان من

الأماكن — قال إبراهيم بنُ هَانیء : من تمام آلة القصص أن يكون القاص أعمى ويكون شيخاً بعيد مدى الصوت . ومن تمام آلة الزمر أن تكون الزامرة سوداء . ومن تمام آلة المغنى أن يكون فاره (١) البرذَون براق الثنايا عظيم الكبر سيء الخلق . ومن تمام آلة الخمار أن يكون ذِمياً ، ويكون اسمه أذين ، أو مازيار ، أو أزدانقاذار أو ميشا ، أو شلوما ، ويكون أرقط الثياب مختوم العنق . ومن تمام آلة الشعر أن يكون الشاعر أعرابياً . ويكون الداعى إلى الله صوفياً . ومن تمام آلة السؤدد أن يكون السيد ثقيل السمع عظيم الرأس .

ولذلك قال ابن سنان الجديدى لراشد بن سلمة الهُذَلى : ما أنت بعظيم الرأس ولا ثقيل السمع فتكونَ سيداً ، ولا بأرسح (٢) فتكون فارسا . وقال شبيب بن شَيبة الخطيب لبعض فتيان بنى مِنقر : والله مامطلت مطل الفرسان ، ولا فتقت فتق السادة .

قال الشاعر :

فَقُبِّحَ رَأْساً لم يَكُنْ رَأْسَ سيِّدٍ ... وكَفّاً كَكَفِّ الضَّبِّ أَوْهِيَ أَحْقَرُ

فعاب صغر رأسه وصغر كفه ، كما عاب الشاعر كف عبد الله بن مُطيع العَدَوى . حين وجدها غليظة جافية فقال :

دَعا ابْنُ مُطيعٍ لِلبِيَاعِ فَجِئْتُهُ ... إلى بَيْعَةٍ قَلْبِي لها غيرُ آلِفِ

فناوَلَنى خَشْنَاءَ لما لَمَسْتُها ... بكَفِّى لَيْسَتْ مِنْ أَكُفِّ الخَلائِفِ

وهذا باب يقع فى « كتاب الجوارح » مع ذكر البُرص والعُرج والعُسر والأُدر والفُلج والحُدب والقُرع وغير ذلك من علل الجوارح . وهو وارد عليكم بعد هذا الكتاب إن شاء الله تعالى .

وقال إبراهيم بن هانیء : ومن تمام آلة الشيعى أن يكون وافر الُجمَّة صاحب بازبكند . ومن تمام آلة الحارس أن يكون زميتاً قطوباً أبيض اللحية أقنى أجنى وصاحب تكلم بالفارسية .

---

(١) فاره : جيد السير

(٢) ارسح : قليل لحم العجز والفخذين لكثرة الركوب

وأخبرني إبراهيم بن السندي قال : دخل العُماني الراجز على الرشيد لينشده شعرا وعليه قلنسوة طويلة وخف ساذج ، فقال : إياك أن تنشدني إلا وعليك عمامة عظيمة الكور وخفان دمالقان . قال ابراهيم قال أبو نصر : فبكر عليه من الغد وقد تزيا بزي الأعراب فأنشده ثم دنا منه فقبل يده وقال: يا أمير المؤمنين قد والله أنشدت مروان ورأيت وجهه وقبلت يده وأخذت جائزته ، وأنشدت يزيد بن الوليد وابراهيم ابن الوليد ورأيت وجوههما وقبلت أيديهما وأخذت جوائزهما ، وأنشدت السفّاح ورأيت وجهه وقبلت يده وأخذت جائزته ، وأنشدت المنصور ورأيت وجهه وقبلت يده وأخذت جائزته ، وأنشدت المهدي ورأيت وجهه وقبلت يده وأخذت جائزته ، وأنشدت الهادي ورأيت وجهه وقبلت يده وأخذت جائزته ، هذا إلى كثير من أشباه الخلفاء وكبار الأمراء والسادة الرؤساء ، ولا والله أن رأيت فيهم أبهى منظرا ولا أحسن وجهاً ولا أنعم كفاً ولا أندى راحة ، منك يا أمير المؤمنين! ووالله لو ألقى في رُوعي أني أتحدث عنك ما قلت لك ما قلت . فأعظم له الجائزة على شعره وأضعف له على كلامه وأقبل عليه فبسطه حتى تمنى والله جميع من حضر أنهم قاموا ذلك المقام .

ثم رجع بنا القول إلى الكلام الأول . قال ابنُ الأعرابيّ ،(١) قال مُعاوِيةُ ابنُ أبي سُفْيانَ لِصُحارِ بْنِ عَيَّاشٍ العَبْدِيّ :(٢) ما هذه البلاغة التي فيكم ؟ قال: شيء تجيش به صدورنا فتقذفه على ألسنتنا. فقال له رجل من عرض القوم : يا أمير المؤمنين [هم] بالبُسر والرُّطب أبصر منهم بالخطب . فقال له صُحارٌ : أجل ، والله

(١) هو ابو عبد الله محمد بن زياد — ابن الأعرابي الكوفي . كان ابوه عبداً سنديا ، وكان مولى لبني هاشم . كان نحويا راوية ناسبا لغويا ثقة . وكان رأساً في غريب اللغة ، ناقش العلماء واستدرك عليهم وخطأ كثيراً من نقلة اللغة . وكان يزعم ان ابا عبيدة والاصمعي لا يحسنان شيئاً . قال ابو العباس ثعلب : شهدت مجلسه بضع عشرة سنة وكان يحضره زهاء مائة إنسان وكان يسئل ويقرأ عليه فيجيب من غير كتاب ولم أر بيده كتابا قط ولقد املى على الناس ما يحمل على اجمال ولم ير احد في علم الشعر اغزر منه . وله تصانيف عدة . كان مولده في سنة ١٥٠ وتوفي سنة ٢٣١ هـ ٨٤٥ م

(٢) هو صحار بن عياش العبدي ، من عبد القيس . كان راوية نسابة وخطيبا بليغا ولسنا مبينا . قوي الحجة حاضر البديهة

إنا لنعلم أن الريح لتنفخه ، وأن البرد ليعقده ، وأن القمر ليصبغه ، وأن الحر لينضجه. فقال له معاوية : ما تعدون البلاغة فيكم ؟ قال : الإيجاز . قال له معاوية : وما الايجاز ؟ قال له صُحار : أن تجيب فلا تُبطىء ، وأن تقول فلا تخطىء . فقال معاوية : أوَ كذلك تقول؟ قال صُحار : أقلني يا أمير المؤمنين ، لا تبطىء ولا تخطىء .

وشأن عَبْدِ القَيْسِ عجيب ، وذلك أنهم بعد محاربة إيادٍ تفرقوا فرقتين : ففرقة وقعت بِعُمَان وشق عمان ، وفيهم خطباء العرب ؛ وفرقة وقعت الى البحرين وشق البحرين ، وهم من أشعر قبيلة فى العرب . ولم يكونوا كذلك حين كانوا فى سُرة البادية ، وفى معدن الفصاحة ، وهذا عجب . ومن خطبائهم المشهورين صَعْصَعَةُ بنُ صُوحَان . وَزَيْدُ بن صُوحَان ، وَشَيْخَانُ بن صُوحَان[1] . ومنهم صُحَارُ ابْنُ عَيَّاشٍ . وصُحَارٌ من شيعة عثمان ، وبنو صُوحان من شيعة على . ومنهم مَصْقَلَةُ بْنُ رَقَبَة ، وَرَقَبَةُ بن مَصْقَلَةَ ، وكرِب بن رَقَبَةَ .

وإذا صرنا إلى ذكر الخطباء والنسابين ذكرنا من كلام كل واحد منهم بقدر ما يحضرنا وبالله التوفيق .

قال المفضل بن محمد الضبى[2] قلت لأعرابى منا : ما البلاغة ؟ قال : الايجاز فى غير عجز ، والاطناب فى غير خطل . قال ابن الأعرابى فقلت للمفضل : ما الايجاز عندك ؟ قال : حذف الفضول ، وتقريب البعيد . قال ابن الأعرابى : قيل لعبد الله بن عمر : لو دعوت الله لنا بدعوات ؟ فقال : أللهم ارحمنا وعافنا وارزقنا . فقال رجل : لو زدتنا يا أبا عبد الرحمن ؟ فقال : نعوذ بالله من الاسهاب .

(١) وبعضهم يسميه : سيحان

(٢) انظر ترجمة المفضل بقلمنا فى شرحنا على المفضليات المطبوع فى سنة ١٣٤٥ هـ ١٩٢٦ م

باب ذكر ناس من البلغاء والخطباء والأبيناء والفقهاء والأمراء ممن لا يكاد يسكت مع قلة الخطأ والزلل

منهم زَيد بن صوحان. ومنهم أبو وَاثِلة إياس بن معاوية المُزَنِيّ(١) القاضي القائف وصاحب الزَّكَن والمعروف بجودة الفِراسة. ولكثرة كلامه قال له عبد الله بن شُبرمة(٢) أنا وأنت لا نتفق، أنت لا تشتهي أن تسكت، وأنا لا أشتهي أن أسمع. وأتى(٣) حَلْقة من حلق قريش في مسجد دمشق فاستولى على المجلس ورأوه أحمر دميما باذّ الهيئة قشيفاً فاستهانوا به فلما عرفوه اعتذروا إليه وقالوا: الذنب مقسوم بيننا وبينك، أتيتنا في زي مِسكين تكلمنا بكلام الملوك. ورأيت ناسا يستحسنون جواب إياس حين قيل له: ما فيك عيب غير أنك معجَب بقولك. قال: أفأعجبكم قولي؟ قالوا: نعم. قال: فأنا أحق بأن أُعجب بما أقول وبما يكون مني منكم

والناس حفظك الله لم يضعوا ذكر العُجب في هذا الموضع، والمعيب عند الناس ليس هو الذي يعرف ما يكون من الحسن، والمعرفة لا تدخل في باب التسمية بالعجب، والعجب مذموم، وقد جاء في الحديث «إنّ المُؤْمِنَ مَنْ ساءَتْهُ سَيِّئتُهُ وَسَرَّتْهُ حَسَنَتُهُ» وقيل لِعمرَ: فلان لا يعرف الشر. قال: ذلك أجدر أن يقع فيه. وإنما العجب إسراف الرجل في السرور بما يكون منه والافراط في استحسانه حتى يظهر ذلك منه في لفظه وفي شمائله، وهو كالذي وصف به صَعصعةُ بن صُوحان المُنْذِرَ بن الجَارُودِ عند علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه فقال: أما والله إنه مع ذلك لنظّارٌ في عِطفيه تفّال في شراكيه تعجبه حمرة برديه.

(١) هو من مزينة مضر. كان صادق الظن قوي الحدس لطيفا في الأمور. ولاه عمر بن عبد العزيز قضاء البصرة. مات سنة ١٢٢ هـ

(٢) هو عبد الله بن شبرمة الضبي. ولاه ابو جعفر المنصور قضاء سواد الكوفة. وكان شاعرا حسن الخلق جوادا

(٣) يعني إياساً

قال أبو الحَسَن (١) : قيل لاياس : ما فيك عيب إلا كثرة الكلام . قال : فتسمعون صوابا أم خطأ ؟ قالوا : بل صوابا ؟ قال : فالزيادة من الخير خير . وليس كما قال ، للكلام غاية ولنشاط السامعين نهاية ، وما فضل عن مقدار الاحتمال ودعا إلى الاستثقال والملال فذلك الفاضل هو الهذر وهو الخطل ، وهو الاسهاب الذى سمعت الحكماء يعيبونه . وذكر الأصمعى أن عُمَرَ بن هُبَيْرَةَ (٢) لما أراده (٣) على القضاء قال : إني لا أصلح له : قال : وكيف ذاك ؟ قال ، لأنى عيى ، ولأنى دميم ولأنى حديد . قال ابن هُبَيْرَة : أما الحدة فإن السوط يقوّمك ، وأما الدمامة فإني لا أريد أن أحاسن بك أحداً ، وأما العى فقد عبرت عما تريد . فان كان إياس عند نفسه عيياً ، فذاك أجدر أن يهجر الإكثار . و بعد هذا فما نعلم أحداً رمى إياساً بالعى و إنما عابوه بالإكثار . وعن عتبة بن عمر بن عبد الرحمن بن الحارث قال : مارأيت عقول الناس إلا قريباً بعضها من بعض ، إلا ما كان من عقل الحجاج بن يوسف (٤) وإياس بن معاوية ، فإن عقولهما كانت ترجح على عقول الناس كثيرا . وقال قائل لإياس : لم تعجل بالقضاء ؟ فقال له إياس : كم لكفك من إصبع ؟ قال : خمس . قال : عجلت . قال : لم يعجل من قال بعد ما قتل الشيء علما و يقينا . قال إياس : فهذا

(١) هو ابو الحسن على بن محمد المدائنى . كان راوية إخباريا

(٢) هو ابو المثنى عمر بن هبيرة الفزازى . كان واليا على العراقين ليزيد بن عبد الملك ست سنين، وكان عظيما جليلا . مات بالشام

(٣) يعنى إياساً

(٤) هو الأمير الكبير ابو محمد الحجاج بن يوسف الثقفى . التحق هو وابوه بخدمة الدولة الأموية فكان هو فى شرطة روح بن زنباع الجذامى فأظهر همة وبراعة وحزما وعزما فعهد إليه فى ولاية تباله فرآها دون همته فلم يرضها ثم ولى شرطة أبان بن مروان . فلما ظهر أمر عبد الله بن الزبير بعثه عبد الملك لقتاله فنهد له وقاتله أشد قتال وأحرجه وما زال به حتى حصره فى الكعبة ثم خرج عبد الله فقاتل حتى قتل وصلبه الحجاج سنة ٧٣ ثم ولاه عبدالملك الحجاز ثلاث سنين فكان يحج بالناس ونقض بنيان الكعبة التى كان بناه ابن الزبير وبناها على الأساس الأول . ثم تولى العراقين عشرين سنة ، وكان له فيها احداث وخطوب مع الاهلين ، كما كانت له مع الخوارج مواقف ومشاهد ووقائع ما كان لغيره انى كان شأنه أن يقوى على الاضطلاع بأعبائها ، لما اختص به من بعد الهمة ومضاء العزيمة وتمام الشجاعة ونافذ التدبير وبارع السياسة ، مع الفصاحة والبلاغة وقوة البيان وشدة العارضة . وفى الحق انه لولا الحجاج لذهب ملك بنى امية من الوجود ، او لما قامت له قائمة بعد معاوية وبنيه . وبنى الحجاج واسطا سنة ٨٣ وبها مات سنة ٩٥ هـ ٧١٣ م

هو جوابي لك . وكان كثيراً ما ينشد قول النابغة الجعدي (١)

أبى لي البلاء وأني امرؤٌ إذا ما تبيَّنْتُ لم أرتَبِ

قال : ومدح سلمة بن عيَّاش سوَّار بن عبد الله (٢) بمثل ما وصف به إياسٌ نفسه حين قال :

وأوقف عند الأمر مالم يبنْ له وأمضى إذا ماشكَّ ما كان ماضياً

وكتب عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى إلى عديّ بن أرطاة : إنّ قِبلك رجلين من مُزَينة فولِّ أحدهما قضاء البصرة . يعني بكر بن عبد الله المزني (٣) وإياس بن معاوية . فقال بكرٌ : والله ما أحسن القضاء ، فان كنت صادقا فما يحل لك أن توليني ، وإن كنتُ كاذبا إنها لأحراهما . وكانوا إذا ذكروا البصرة قالوا شيخها الحسن (٤) وفتاها بكر . وقال إياس بن معاوية : لست بخبّ والخب (٥) لايخدعني ، ولا يخدع ابن سيرين ، وهو يخدع أبي ويخدع الحسن . ودخل الشام وهو غلام فتقدم خصما له — وكان الخصم شيخا كبيراً — إلى بعض قضاة عبد الملك بن مروان ، فقال له القاضي : أتتقدم شيخا كبيرا ! ؟ قال الحق أكبر منه . قال : اسكتْ . قال : فمن ينطق بحجتي ؟ قال : لا أظنك تقول حقا حتى تقوم ؟ قال : لا إله إلا الله ، أحقا هذا أم باطلا ؟ ! فقام القاضي فدخل على عبد الملك من ساعته فخبره بالخبر ، فقال عبد الملك : إقض حاجته الساعة وأخرجه من الشام لايفسد عليّ الناس . فإذا كان من إياس وهو غلام يُخاف على جماعة أهل الشام فما ظنك به وقد كبرت سنه ، وعض ناجذه (٦)

(١) هو ابو ليلى حسان بن قيس الجعدى . وكان اسن من النابغة الذبيانى . وهو من الشعراء المخضرمين وعمر عمراً طويلا قيل انه عاش مائتين وعشرين سنة ومات بأصبهان

(٢) هو سوار بن عبد الله العنبري احد قضاة الدولة العباسية فى بغداد . مات سنة ١٥٦ ﻫ

(٣) هو بكر بن عبد الله المزنى . من مزينة مضر . كان زوج امه ذا مال كثير فكان هو ينفق عن سعة ، وكان حسن اللباس كثير الانفاق عليه وكان من أفاضل التابعين صالحا تقيا . مات سنة ١٠٨ ﻫ

(٤) يعنى الحسن البصرى

(٥) الخب : المخادع

(٦) عض ناجذه : استحكمت سنه وكمل عقله

وجملة القول فى إياس أنه كان من مفاخر مضر ، ومن مقدمى القضاة ، وكان فقيه البدن دقيق المسلك فى الفطن ، وكان صادق الحدس نقابا ، وعجيب الفراسة مُلهما ، وكان عفيف الطعم كريم المدخل والشيم وجيها عند الخلفاء مقدماً عند الأكفاء . وفى مُزينة خير كثير .

ثم رجعنا إلى القول الأول : ومنهم رَبيعةُ الرَّأى (١) وكان لا يكاد يسكت . قالوا: وتكلم يوماً فأكثر وأعجب بالذى كان منه ، فالتفت إلى أعرابى كان عنده فقال : يا أعرابى ، ما تعدون العى فيكم ؟ قال : ما كنت فيه منذ اليوم . وكان يقول : الساكت بين النائم والأخرس .

ومنهم عُبَيدُ الله بن محمد بن حفص التيمى ، ومحمد بن حفص هو ابن عائشة ، ثم قيل لعبيد الله : ابن أبى عائشة ، وكان كثير العلم والسماع متصرفا فى الخبر والأثر ، وكان من أجواد قريش ، وكان لا يكاد يسكت ، وهو فى ذلك كثير الفوائد ، وكان أبوه محمد بن حفص عظيم الشان كثير العلم ، بعث إليه ميخاب خليفته فى بعض الأمر فأتاه فى حلقته فى المسجد فقال له فى بعض كلامه : أبو مَن أصلحك الله ؟ فقال له : هلا عرفت ذلك قبل مجيئك ؟ وإن كان لا بد لك من هذا فاعترض مَن شئت فاسأله ؟ فقال له : إنى أريد أن تخلينى ، قال : أفى حاجة لك أم فى حاجة لى ؟ قال: فى حاجة لى ، قال : فالقنى فى المنزل ، قال : فان الحاجة لك . قال : ما دون إخوانى ستر .

ومنهم محمد بن مِسعَرٍ العُقَيْلِىُّ ، وكان كريما كريم المجالسة يذهب مذهب النساك ، وكان جواداً . مر صديق له من بنى هاشم بقصر له و بستان نفيس فبلغه أنه استحسنه فوهبه له .

ومنهم أحمدُ بنُ المعذَّل بن غيلان ، كان يذهب مذهب مالك ، وكان ذا بيان وتبحر فى المعانى وتصرف فى الالفاظ .

---

(١) هو ابو عثمان ربيعة بن فروخ أبى عبد الرحمن من موالى التيميين . طلبه ابو العباس السفاح لبلى قضاء الهاشمية فمات بالانبار سنة ١٣٦ ه

ومِمن كان يكثر الـكلام جداً ألفضلُ بنُ سهلٍ ، ثم الحسن بنُ سهل فى أيامه . جلس الحسن بن سهل فى مُصلى الجماعة لنُعَيْم بن حازم فأقبل نعيم حافيا حاسرا وهو يقول : ذنبى أعظم من السماء ، ذنبى أعظم من الهواء ، ذنبى أعظم من الماء ! فقال الحسن بن سهل : على رِسْلِكَ ، تقدمتْ منك طاعةٌ وكان آخر أمرك إلى توبة ، وليس للذنب بينهما مكان ، وليس ذنبك فى الذنوب بأعظم من عفو أمير المؤمنين فى العفو .

ومن هؤلاء عَلِيُّ بْنُ هِشَامٍ ، وكان لايسكت ، ولا أدرى كيف كان كلامه . وكان مُطَرِّفُ بْنُ عَبْدِ اللهِ (١) يقول : لا تطعم طعامك من لا يشتهيه . يقول : لا تقبل بحديثك على من لا يقبل عليك بوجهه. وقال عبدُ الله بن مسعود : حَدِّثِ الناس ما حَدجوك بأسماعهم ولحظوك بأبصارهم. فاذا رأيت منهم فترة فأمسك . قال : وجعل ابن السَّمَّاك يوما يتكلم، وجارية له حيث تسمع كلامه ، فلما انصرف إليها قال لها : كيف سمعت كلامى ؟ قالت : ما أحسنه لولا أنك تكثر ترداده ! فقال : أردده حتى يفهمه من لم يفهمه . قالت : إلى أن يفهمه من لم يفهمه قد ملَّه من فهمه . وعن قَتَادَةَ (٢) قال: مكتوب فى التوراة : لا يعاد الحديث مرتين . وعن الزُّهْرِىِّ (٣) قال : إعادة الحديث أشد من نقل الصخر . وقال بعض الحكماء : من لم ينشط لحديثك فارفع عنه مؤنة الاستماع منك .

وجملة القول فى الترداد أنه ليس فيه حد ينتهى إليه ولا يؤتى إلى وصفه، وإنما

---

(١) هو أبو عبد الله مطرف بن عبد الله بن الشخير الحريشى . كان من أفاضل التابعين . مات سنة ٨٨ هـ

(٢) هو أبو الخطاب قتادة بن دعامة السدوسى البصرى الأكمه . كان من أفاضل التابعين ، مقصود الجناب بحمل علمه إلى الآفاق . وكان قدريا على مذهب المعتزلة ، قيل انه هو الذى سماهم بهذا الاسم . تصدر فى مجلس الحسن البصرى بعد وفاته وانتهج منهجه ، وكان على عماه يدور البصرة أعلاها وأسفلها بغير قائد . مات بواسط سنة ١١٧ هـ

(٣) هو محمد بن مسلم الزهرى القرشى . كان من أعلام التابعين ، رأى عشرة من الصحابة وسمع منهم ، وأخذ عنه جماعة من الأئمة منهم مالك بن أنس وسفيان الثورى ، وكان إذا جلس فى بيته وضع كتبه حوله مشتغلا بها عن كل احد فقالت له زوجته : والله لهذه الكتب اشد على من ثلاث ضرائر . مات سنة ١٢٤ هـ

ذلك على قدر المستمعين له ومن يحضره من العوام والخواص . وقد رأينا الله عز وجل ردد ذكر قصة موسى وهود وهرون وشعيب وابرهيم ولوط وعاد وثمود ، وكذلك ذكر الجنة والنار وأمور كثيرة . لأنه خاطب جميع الامم من العرب واصناف العجم وأكثرهم غبي غافل ، أو معاند مشغول الفكر ساهي القلب . وأما حديث القصص والرقة فاني لم أر أحداً يعيب ذلك ، وما سمعنا باحد من الخطباء كان يرى إعادة بعض الالفاظ وترداد المعاني عِياً إلا ما كان من النَّخَّارِ بْنِ أَوْسٍ العُذْرِيِّ فانه كان إذا تكلم في الِحمالات وفي الصفح والاحتمال وصلاح ذات البين وتخويف الفريقين من التفاني والبوار ، كان ربما ردد الكلام على طريق التهويل والتخويف ، وربما حمي فنخر .

قال ثمامةُ بنُ أشرس (١) كان جعفر بن يحيي أنطق الناس ، قد جمع الهدوء والتمهل والجزالة والحلاوة ، وإفهاماً يغنيه عن الاعادة ، ولو كان في الارض ناطق يستغني بمنطقه عن الإشارة لاستغنى جعفرٌ عن الإشارة كما استغنى عن الإعادة . وقال مرة : ما رأيت أحداً كان لَا يَتَحَبَّسُ ولا يتلجلج ولا يتنحنح ولا يرتقب لفظاً قد استدعاه من بُعْدٍ ولا يلتمس التخلص إلى معنى قد تعصَّى عليه طلبه ، أشد اقتداراً ولا أقل تكلفاً من جعفر بن يحيي . وقال ثمامة : قلت لجعفر بن يحيي : ما البيان ؟ قال : أن يكون الاسم يحيط بمعناك ويُجلّي عن مغزاك وتخرجه من الشركة ولا تستعين عليه بالفكرة ، والذي لابد منه أن يكون سليما من التكلف بعيداً من الصنعة بريئا من التعقيد غنياً عن التأويل .

وهذا هو تأويل قول الأَصْمَعِي : البليغ من طبق المفصل وأغناك عن المفسر خبرني جعفر بن سعيد رضيع أيوب بن جعفر وحاجبه قال : ذكرت لِعَمْرِو

(١) هو ثمامة بن اشرس النميري مولاهم . كان من زعماء المعتزلة ورؤسائهم . وكان قوي العارضة حاضر البديهة ذا لسن وبيان ، وهو راس فرقة من فرق المعتزلة تسمى « الثمامية » قتله الخزاعيون في طريق مكة سنة ٢١٣ هـ.

ابن مَسْعَدَة[١] توقيعات جعفر بن يحيى ، قال : قد قرأت لأم جعفر توقيعات فى حواشى الكتب وأسافلها فوجدتها أجود اختصاراً وأجمع للمعانى . قال : ووصف أعرابى أعرابياً بالإيجاز والإصابة فقال : كان والله يضع الْهِنَاء مواضع النُّقَب[٢] يظنون أنه نقل قول دُرَيْدِ بْنِ الصِّمَّةِ[٣] فى الخنساء بنت عمرو بن الشَّريد إلى ذلك الموضع ، وكان دُرَيْدٌ قال فيها :

مَا إِنْ رَأَيْتُ وَلا سَمِعْتُ بِهِ   فِى النَّاسِ طَالِى أَيْنُقٍ جُرْبِ
مُتَبَذِّلاً تَبْدُو مَحَاسِنُهُ   يَضَعُ الْهِنَاءَ مَوَاضِعَ النُّقْبِ

ويقولون فى إصابة عين المعنى بالكلام الموجز : فلان يفل الحزَّ ويصيب الْمَفْصِل . وأخذوا ذلك من صفة الجزار الحاذق فجعلوه مثلا للمصيب الموجز . وأنشدني أبو قَطَن الغَنَوِىُّ . وهو الذى يقال له شهيد الكرم ، وكان أبين من رأيته من أهل البدو والحضر .

فَلَوْ كُنْتُ مَوْلَى قَيْسِ عَيْلَانَ لَمْ تَجِدْ   عَلَىَّ لِمَخْلُوقٍ مِنَ النَّاسِ دِرْهَمَا
وَلَكِنَّنِى مَوْلَى قُضَاعَةَ كُلِّهَا   فَلَسْتُ أُبَالِى أَنْ أَدِينَ وَتَغْرَمَا
أُولَئِكَ قَوْمٌ بَارَكَ اللهُ فِيهِمُ   عَلَى كُلِّ حَالٍ مَا أَعَفَّ وَأَكْرَمَا

---

(١) هو عمرو بن مسعدة احد كتاب الدولة العباسية فى عهد المأمون ، وكان من اكابر البلغاء واحاسن الفصحاء . مات سنة ٢١٧ هـ

(٢) الهناء : القطران . النقب : الجرب

(٣) هو دريد بن الصمة الجشمى . كان من فرسان الجاهلية وشجعانهم ، وكان شاعرا فحلا ، وكان اطول الفرسان الشعراء غزوا وابعدهم اثرا واكثرهم ظفرا وايمنهم نقيبة . قيل إنه غزا نحو مائة غزاة ما اخفق فى واحدة منها . وأدرك الاسلام ولم يسلم . وخرج مع قومه يوم حنين مظاهرا للمشركين وفي هذه الوقعة قتل على شركه . وهذان بيتان هما من كلمة له اولها :

حيوا تماضر واربعوا صحبى   وقفوا فان وقوفكم حسبى
أخناس قد هام الفؤاد بكم   واعتاده تبل من الحب
ما إن رأيت ولا سمعت به   كاليوم طالى أينق جرب
متبذلا تبدو محاسنه   يضع الهناء مواضع النقب
متحسرا نضح الهناء به   نضح العبير بريطة العصب
فسليهم عنى خناس إذا   عض الجميع هناك ماخطبى

جُفاةُ المحزّ لَا يُصيبُونَ مَفْصِلاً   وَلَا يأْكُلونَ اللّحْمَ إلاّ تَخَذُّمَا (١)

يقول : هم ملوك وأشباه ملوك ، ولهم كفاة فهم لا يحسنون إصابة المفصل .

وأنشد أبو عُبيدة فى مثل ذلك :

وَصُلْعُ الرُّؤُسِ عِظَامُ البُطُونِ   جُفاةُ المَحزِّ غِلاظُ القَصَرْ (٢)

وكذلك (٣)

لَيْسَ بِرَاعِى إبِلٍ وَلا غَنَمْ   وَلا بِجَزَّارٍ عَلَى ظَهْرِ وَضَمْ (٤)

وقال الآخر وهو ابنُ الزِّبعْرَى (٥)

وَفِتْيَانِ صِدْقٍ حِسَانِ الوُجُوهِ   لا يَجِدُونَ لِشَىْءٍ أَلَمْ
مِنَ آلِ المُغيرَةِ لا يَشْهَدُونَ   عِنْدَ المَجَازِرِ لَحْمَ الوَضَمْ

---

(١) التخذم : التكلف

(٢) القصر : الأعناق

(٣) قائل هذا البيت هو رشيد بن رميض « كلاهما بضم الرأى للتصغير » العنزى، وهو من أرجوزة قالها فى شريح بن ضبيعة المعروف بالحطم . وكان شريح غزا اليمن في جموع من ربيعة فغنم وأسر وسبى، وكان من أسراه فرعان بن مهدى بن معد يكرب عم الأشعث بن قيس الكندى ، فمر فى عودته بمفازة ضل فيها الدليل ومات فرعان فى أيديهم عطشا مع خلق كثير ، وجعل شريح يسوق بأصحابه سوقا عنيفا حتى أدركوا الماء فقال رشيد عند ذلك :

هذا أوان الشد فاشتدى زيم   نام الحداة وابن هند لم ينم
بات يقاسيها غلام كالزلم   خدلج الساقين خفاق القدم
قد لفها الليل بسواق حطم   ليس براعى إبل ولا غنم
ولا بجزار على ظهر وضم

فلقب شريح من يومئذ « بالحطم » لقول رشيد فيه . أدرك الحطم الاسلام وأسلم ولما مات النبي ارتد

(٤) الوضم والوضمة : خشبة الجزار التى يقطع عليها اللحم (الأزمة)

(٥) هو عبد الله بن الزبعري السهمى . كان من شعراء قريش المنافحين عنهم بقوة اللسان ومتانة البيان، وكان ممن هجا النبي ثم اسلم وحسن إسلامه . وله مع حسان بن ثابت حوادث واهاج تروى . ويعجبنى من شعره قوله :

ياغراب البين أسمعت فقل   إنما تنطق شيئا قد فعل
إن للخير وللشر مدى   وكلا ذلك وجه وقبل
كل بؤس ونعيم زائل   وبنات الدهر يلعبن بكل
والعطيات خساس بينهم   وسواء قبر مثر ومقل

وقال الرَّاعى (١) فى المعنى الأول :

فَطَبَّقْنَ عَرْضَ القُفِّ حَتَّى لَقِينَهُ ... كما طَبَّقَتْ فى العَظْمِ مُدْيَةُ جَازِرِ

وأنشد الأصمعىُّ :

وَكَفُّ فَتًى لم يَعْرِفِ السَّلْخَ قَبْلَهَا ... تَجُورُ يَدَاهُ فى الأَدِيمِ وَتَجْرَحُ

وأنشد الأصمعى :

لا يُمْسِكُ العُرْفَ إلا رَيْثَ يُرْسِلُهُ ... وَلَا يُلاطِمُ عِنْدَ اللَّحْمِ فى السُّوقِ

وقد فسر ذلك لَبِيدُ بن رَبِيعَةَ (٢) وبيَّنه وضرب المثل به حيث قال فى الحُكم بين عامر بن الطفيل وعَلقمة بن عَلَاثَة :

يا هَرِمَ بْنَ الأكْرَمِينَ مَنْصِبَا ... إنَّكَ قَدْ أُوتِيتَ حُكْماً مُعْجِبَا

فَطَبِّقِ المَفْصِلَ وَاغْنَمْ طَيِّبَا

يقول : أحكم بين عامر بن الطفيل وعَلقمة بن عَلَاثَة بكلمة فصل وبأمر قاطع فتفصل بها بين الحق والباطل كما يفصل الجزار الحاذق مفصل العظمين . وقد قال الشاعر فى هَرِمٍ :

قضَى هَرِمٌ يَوْمَ المُرَيْرَةِ بَيْنَهُمْ ... قَضَاءَ امْرِئٍ بالأَوَّلِيَّةِ عَالِمِ

قضَى ثُمَّ وَلَّى الحُكْمَ مَنْ كانَ أَهْلَهُ ... وَلَيْسَ ذُنَابَى الرِّيشِ مِثْلَ القَوَادِمِ

ويقال فى الفحل إذا لم يحسن الضراب : جمل عياياء ، وجمل طَباقاء . وقالت امرأة فى الجاهلية تشكو زوجها : زوجى عياياء طباقاء ، وكل داء له دواء . حتى جعلوا ذلك مثلا لِلعَيِّ الفَدْم الذى لا يتجه للحُجة . وقال الشاعر :

طَبَاقَاءُ لَمْ يَشْهَدْ خُصُوماً وَلَمْ يَقُدْ ... رِكَاباً إِلَى أَكْوَارِهَا حِينَ تَعْكِفُ

---

(١) هو عبيد بن حصين النميرى ، والراعى لقب غلب عليه لكثرة وصفه للابل . كان شاعرا فحلا ومازال مقدما مفضلا حتى اعترض بين جرير والفرزدق فاستكفه جرير فأبى ان يكف فهجاه بقصيدة بائية ففضحه

(٢) هو لبيد بن ربيعة العامرى . كان من شعراء الجاهلية وفرسانهم . وفد قومه على النبي فأسلم وحسن اسلامه . وكان قليل الشعر فى الاسلام . مات بالكوفة فى خلافة عثمان عن سبع وخمسين ومائة سنة .

وذكر زهيرُ بن أبى سُلمى (١) الخطَل فعابه فقال :

وَذِي خَطَلٍ فى القَوْلِ يَحْسَبُ أَنَّهُ ... مُصِيبٌ فَما يُلْمِمْ بِهِ فَهْوَ قَائِلُهْ (٢)
عَبأْتَ لهُ حِلماً وَأَكْرَمْتَ غَيْرَهُ ... وَأَعْرَضْتَ عَنْهُ وَهْوَ بَادٍ مَقَاتِلُهْ (٣)

وقال الشاعر

شُمُسٌ إذا خَطِلَ الحَدِيثُ أَوَانِسٌ ... يَرْقُبْنَ كُلَّ مُجَذَّرٍ تِنْبَالِ (٤)

وقال أبو الأسود الدُّؤلى (٥) — واسم أبى الأسود ظالم بن عمرو — وكان من المقدمين فى العلم :

وَشَاعِرِ سوءٍ يَهْضِبُ القَوْلَ ظَالِماً ... كَمَا اقْتَمَّ أَعْشَى مُظْلِمُ اللَّيْلِ حَاطِبُ (٦)

وأنشد :

أَعُوذُ بِاللهِ الأَعَزِّ الأَكْرَمِ ... مِنْ قَوْلِيَ الشَّىءَ الذى لمْ أَعْلَمِ
تَخَبُّطَ الأَعْمَى الضَّرِيرِ الأَيْهَمِ (٧)

---

(١) هو زهير بن ابى سلمى المزنى ، كان من شعراء الجاهلية الفحول . وهذان البيتان من قصيدة يمدح بها حصن بن حذيفة الفزارى واولها :

صحا القلب عن سلمى واقصر باطله ... وعرى افراس الصبا ورواحله

(٢) الخطل : كثرة الكلام بلا طائل . فما يلمم به : ما يحضره فى الكلام وإن كان خطلا فهو قائله

(٣) عبأت : جمعت

(٤) قال الجاحظ : الشمس ماخوذة من الخيل وهى الخيل المرحة الضاربة باذنابها من النشاط . المجذر : القصير . والتنبال : القصير الدنىء .

(٥) هو ظالم بن عمرو ابو الاسود الدؤلى . كان شاعرا مجيدا وعاقلا حازما ، وهو اول من وضع علم العربية وهو النحو بامر على بن ابي طالب . شهد صفين مع على وولاه ابن عباس البصرة وبها فلج وقد اسن . وكان مبخلا ، كان يقول لولده : لا تجاودوا الله فانه اجود وامجد ولو شاء ان يوسع على الناس كلهم حتى لا يكون محتاج لفعل ولا تجهدوا أنفسكم في التوسعة فتهلكوا هزالا . وسمع رجلا يقول : من يعشي الجائع ؟ فعشاه ثم ذهب القائل ليخرج فقال له : هيهات على أن لا تؤذى المسلمين الليلة ووضع رجله فى الادهم . مات بالبصرة سنة ٦٩ هـ

(٦) يهضب القول : يزيد فى الكلام زيادة تخرجه إلي الخطا والخطل . اقتم : تقمم . يعنى كما يجمع ضعيف البصر القمامات والكناسات من الارض فى الليلة الظلماء فربما جمع إلي حطبه حشرات الارض فيكون فى لمسها هلاكه

(٨) الايهم : من لا يعقل ولا يفهم

وقال إبْرَاهِيمُ بْنُ هَرْمَةَ (١) فى تطبيق المَفْصِلِ ، وتلحق هذه بمعانى أخواتها قبل:

وَعَمِيمَةٍ قَدْ سُقْتُ فِيهَا عَائِراً   غُفْلاً وَفِيهَا عَائِرٌ مَوْسُومُ (٢)

طَبَّقْتُ مَفْصِلَهَا بِغَيْرِ حَدِيدَةٍ   فَرَأَى الْعَدُوُّ غَنَاىَ حَيْثُ أَقُومُ

وهذه الصفات التى ذكرها ثُمامَةُ بْنُ أَشْرَسٍ فوصف بها جَعْفَرَ بْنَ يَحْيَ كان ثُمامة بن أشرس قد انتظمها لنفسه واستولى عليها دون جميع أهل عصره ، وما علمت أنه كان فى زمانه قَرَوِىٌّ ولا بلدى كان بلغ من حُسن الإفهام مع قِلة عدد الحروف ولا من سهولة المخرج مع السلامة من التكلف ما كان بلغه . وكان لفظه فى وزن إشارته ، ومعناه فى طبقة لفظه . ولم يكن لفظه إلى سمعك بأسرع من معناه إلى قلبك . قال بعض الكتاب : معانى ثُمامة الظاهرة فى ألفاظه الواضحة فى مخارج كلامه كما وصف الخُرَيْمِىُّ (٣) شعرَ نفسه فى مديح أبى دُلَفٍ حيث يقول

لهُ كَلِمٌ فِيكَ مَعْقُولَةٌ   إزاءَ القُلُوبِ كَرَكْبٍ وُقُوفْ

وأول هذه القصيدة :

أَبَا دُلَفٍ دَلَفَتْ حاجَتِي   إِلَيكَ ومَاخِلْتُهَا بالدَّلُوفْ

---

(١) هو ابراهيم بن على بن هرمة المذلى القرشى . كان شاعرا مجيدا . مات فى عهد الرشيد سنة ١٥٢ ﻫ

(٢) وعميمة : ورب ناقة طويلة . العائر : يريد به نصلا . الغفل : الذى لا ريش له . والموسوم : ذو الريش .

(٣) هو أبو يعقوب اسحق بن حسان السغدى الخريمى الاعور . أصله من فارس وانتمى إلى ابن خريم الناعم فنسب اليه . كان شاعرا حسن الديباج جيد المعانى . وكان متصلا بمحمد بن منصور بن زياد كاتب البرامكة وله فيه مدائح جياد ثم رثاه بعد موته باجود مما مدحه به . وكان قد عمى فقال .

إذا ما مات بعضك فابك بعضا   فان البعض من بعض قريب
يمنينى الطبيب شفاء عينى   وهل غير الاله لها طبيب

وله فى معنى الغيرة والصيانة وهو كلام جيد .

ما أحسن الغيرة فى وقتها   وأقبح الغيرة فى كل حين
من لم يزل متهما عرسه   مناصبا فيها لريب الظنون
أوشك أن يغريها بالذى   يخاف أن يبرزها للعيون
حسبك من تحصينها وضعها   منك إلى عرض صحيح ودين
لا تطلع منك على ريبة   فيتبع المقرون حبل القرين

ويظنون أن الخرَيمى إنما احتذى فى هذا البيت على أيُوب بن القِرِيَّةِ حين قال له بعض السلاطين(١) ما أعددت لهذا الموقف ؟ قال : ثلاثة حروف ، كأنهن ركب وقوف ، دنيا وآخرة ومعروف .

وقال شَبِيبُ بنُ شَيْبَةَ : الناسُ موكلون بتفضيل جَودة الابتداء وبمدح صاحبه ، وأنا موكل بتفضيل جودة القطع وبمدح صاحبه . وحظ جودة القافية وإن كانت كلمة واحدة أرفع من حظ سائر البيت . ثم قال شبيب : فان ابتُليتَ بمقام لابدَّ لك فيه من الإطالة فقدم إحكام البلوغ فى طلب السلامة من الخطل قبل التقدم فى إحكام البلوغ فى شرف التجويد ، وإياك أن تعدل بالسلامة شيئاً فان قليلا كافياً خير من كثير غير شاف .

ويقال أنهم لم يروا قط خطيباً بلديا إلا وهو فى أول تكلفه لتلك المقامات كان مُستثقلا مستصلفاً أيام رياضته كلها إلى أن يتوقح وتستجيب له المعانى ويتمكن من الألفاظ ، إلا شَبيب بن شيبة فانه ابتدأ بحلاوة ورشاقة وسهولة وعذوبة فلم يزل يزداد منها حتى صار فى كل موقف يبلغ بقليل الكلام مالا يبلغه الخطباء المصاقع بكثيره . قالوا : ولما مات شَبيب بن شيبة أتاهم صَالحُ المرىُّ(٢) أو بعض من أتاهم للتعزية فقال : رحمة الله على أديب الملوك وجليس الفقراء وأخى المساكين.

وقال الراجز :

إذَا غدَتْ سَعْدٌ عَلَى شَبِيبِهَا عَلَى فتاهَا وَعَلَى خَطِيبِهَا(٣)
مِنْ مَطْلَعِ الشَّمْسِ إلى مَغِيبِهَا عَجِبْتُ مِنْ كَثْرَتِهَا وَطِيبِهَا(٤)

حدثني صديق لى قال : قلت للعتَّابى : ما البلاغة ؟ قال : كل من أفهمك

(١) بعض السلاطين : يريد به الحجاج بن يوسف وله مع ابن القرية حديث

(٢) هو أبوبشر صالح المري مولى مرة من عبد القيس . كان من أهل الخير والصلاح وكان يرى رأى أهل القدر . مات بالبصرة

(٣) سعد : قبيلة شبيب بن شيبة

(٤) كثرتها وطيبها : يعنى عجبت من طول خطبته وسلامتها من العيوب

حاجته من غير إعادة ولا حُبسة ولا استعانة فهو بليغ . فاذا أردت اللسان الذى يروق الألسنة ويفوق كل خطيب باظهار ما غمض من الحق وتصوير الباطل فى صورة الحق (١) . قال : فقلت له : قد عرفت الاعادة والُحبسة فما الاستعانة ؟ قال : أما تراه إذا تحدث قال عند مقاطع كلامه : يا هناه ، ويا هذا ، ويا هيه ، واسمع منى ، واستمع إلىّ ، وافهم عنى ، أولست تفهم ؟ أو لست تعقل ؟ فهذا كله وما أشبهه عىٌ وفساد .

وعن عمر الشمرى قال: قيل لِعَمْرِو بْنِ عُبَيْدٍ : ما البلاغة ؟ قال: ما بلغ بك الجنة وعدل بك عن النار ، وما بصرك مواقع رشدك وعواقب غيك . قال السائل : ليس هذا أريد ؟ قال : من لم يحسن أن يسكت لم يحسن أن يستمع ، ومن لم يحسن الاستماع لم يحسن القول. قال : ليس هذا أريد ؟ قال : قال النبى صلى الله عليه وسلم « إِنَّا مَعْشَرَ الْأَنْبِيَاءِ بِكَاء » (٢) قال السائل : ليس هـذا أريد ؟ قال : كانوا يخافون من فتنة القول ومن سقطات الكلام مالا يخافون من فتنة السكوت ومن سقطات الصمت . قال السائل : ليس هذا أريد؟ قال عمرو : فكأنك إنما تريد تخير اللفظ فى حسن الإفهام ؟ قال : نعم . قال: إنك إن أردت تقرير حجة الله فى عقول المتكلمين وتخفيف المؤنة على المستمعين وتزيين تلك المعانى فى قلوب المريدين بالألفاظ المستحسنة فى الآذان المقبولة عند الأذهان ، رغبة فى سرعة استجابتهم ونفى الشواغل عن قلوبهم ، بالموعظة الحسنة على الكتاب والسنة ، كنت قد أوتيت فصل الخطاب واستوجبت على الله جزيل الثواب .

قلت لعبد الكريم : من هذا الذى صبر له عمرو هذا الصبر ؟ قال: قد سألت

---

(١) جواب الشرط غير حاصل .

(٢) قال الجاحظ : أى قليلو الكلام ، ومنه قيل رجل بكى وكانوا يكرهون أن يزيد منطق الرجل على عقله »

عن ذلك أبا حفص [١] فقال : ومن كان يجترئ عليه هذه الجراءة إلا حفص ابن سالم ؟ !

وقال عُمر الشمرى : كان عمرو بنُ عبيد لا يكاد يتكلم ، فان تكلم لم يكد يطيل . وكان يقول : لا خير فى المتكلم إذا كان كلامه لمن شهده دون نفسه ، وإذا طال الكلام عرضت للمتكلم أسباب التكلف ، ولا خير فى شىء يأتيك به التكلف .

وقال بعضهم — وهو من أحسن ما اجتبيناه ودوّناه — لا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه ولفظه معناه ، فلا يكون لفظه إلى سمعك أسبق من معناه إلى قلبك .

وكان مويس بن عمران يقول : لم أر أنطق من أيوب بن جعفر ويحيى بن خالد . وكان ثُمامة يقول : لم أر أنطق من جعفر بن يحيى بن خالد . وكان سهل بن هٰرون يقول : لم أر أنطق من المأمون أمير المؤمنين . وقال ثمامة : سمعت جعفر بن يحيى يقول لكتابه : إن استطعتم أن يكون كلامكم كله مثل التوقيع فافعلوا . وسمعت أبا العَتَاهِيَة يقول : لو شئت أن يكون حديثى كله شعراً موزونا لكان . وقال إسحق ابْن حَسَّان بن فوهَة : لم يفسر البلاغة تفسير ابن المقفَّع [٢] أحد قط ، سئل : ما البلاغة ؟

(١) يعنى عمر الشمري

(٢) هو عبد الله بن داذويه المقفع الكاتب البليغ الذي لم يتعلق بمنزلته فى الفصاحة والبلاغة وقوة البيان متملق . كان ابوه من خوزستان وينتحل نحلة المجوس وكان يتولى خراج فارس للحجاج . فنشأ ولده روزبة (عبد الله) على مانشأ عليه أبناء أهل اليسار ، وربي تربية إسلامية وأولع بالعلوم والآداب فما بلغ العشرين حتى كان آية من الآيات فى الفطنة والذكاء ، وكان على ميعة شبابه لايشق له غبار في حسن البيان ومتانة التبيان . كتب لداود بن يوسف بن عمر بن هبيرة احد ولاة الدولة الأمويه ، وكتب لعيسى بن على عم السفاح وعلى يديه أسلم ، وسمى نفسه عبد الله وتكنى بأبى عمرو ، ثم كان في خدمة أخيه سليمان بن على مذ كان واليا على البصرة . وكان يصوغ الكتب التى يأمر ابو جعفر بنقلها عن الفهلوية والفارسية واليونانية والسريانية في القالب العربى المبين ، فضلا عما كان ينقله هو إلى العربية من الأسفار البديعة والكتب النافعة مثل كتاب « كليلة ودمنة » و « التاج » و « الأدب الكبير » و « الأدب الصغير » و « اليتيمة » ويقال إن كتاب كليله ودمنة من وضعه لامن نقله . وكان يرى ان العرب أعقل الأمم . قال شبيب بن شية : كنا وقوفا بالمربد وكان المربد مآلف الاشراف إذ أقبل ابن المقفع فبشبشنا به وبدأناه بالسلام فرد علينا ثم قال : لو ملتم إلى نيروز وظلها الظليل ..

قال : ألبلاغة إسم جامع لمعان تجرى فى وجوه كثيرة ، فمنها ما يكون فى السكوت، ومنها ما يكون فى الاستماع ، ومنها ما يكون فى الاشارة ، ومنها ما يكون فى الحديث، ومنها ما يكون فى الاحتجاج ، ومنها ما يكون جوابا ، ومنها ما يكون ابتداء ، ومنها ما يكون شعراً ، ومنها ما يكون سجعاً وخطباً ، ومنها ما يكون رسائل. فعامة ما يكون من هذه الأبواب ألوحى فيها والاشارة إلى المعنى ، والإيجاز هو البلاغة. فأما الخطب بين السماطين وفى إصلاح ذات البين فالاكثار فى غير خطل، والاطالة فى غير إملال ، وليكن فى صدر كلامك دليل على حاجتك ، كما أن خير أبيات الشعر البيت الذى إذا سمعت صدره عرفت قافيته .

كأنه يقول : فرّق بين صدر خطبة النكاح و بين صدر خطبة العيد وخطبة الصلح وخطبة المواهب ، حتى يكون لكل فن من ذلك صدر يدل على عجزه ، فإنه لا خير فى كلام لا يدل على معناك ولا يشير إلى مغزاك ، وإلى العمود الذي إليه قصدت والغرض الذى إليه نزعت .

وسورها المديد ونسيمها العجيب فعودتم ابدانكم تمهيد الأرض وارحتم دوابكم من جهد الثقل ، فان الذى تطلبونه لم تفلتوة ومهما قضى الله لكم من شىء تنالوه ؟ فقبلنا وملنا فلما استقر بنا المكان قال لنا : اي الأمم اعقل ؟ فنظر بعضنا إلى بعض فقلنا لعله اراد اصله من فارس ، فقلنا : فارس . فقال: ليسو بذلك ، إنهم ملكوا كثيرا من الأرض ووجدوا عظيما من الملك وغلبوا على كثير من الخلق ولبث فيهم عقد الأمر فما استنبطوا شيئاً بعقولهم ولا ابتدعوا باقى حكم فى نفوسهم . فقلنا : الروم ، قال : اصحاب صنعة . قلنا : فالصين ، قال : اصحاب طرفة . قلنا : فالهند ، قال : اصحاب فلسفة . قلنا : فالسودان ، قال : شر خلق الله . قلنا : فالترك ، قال : كلاب مختلسة . قلنا : فالخزر ، قال : بقر سائمة . قلنا : فقل ؟ قال : العرب . فضحكنا ! فقال : اما إنى ماأردت موافقتكم ولكن إذ فاتنى حظى من النسبة فلا يفوتنى حظى من المعرفة ، إن العرب حكمت على غير مثال مثل لها ولا آثار اثرت ، اصحاب إبل وغنم وسكان شعر وادم ، يجود احدهم بقوته ويتفضل بمجهوده ويشارك فى ميسوره ومعسوره ، ويصف الشىء بعقله فيكون قدوة ويفعله فيصير حجة ويحسن ماشاء فيحسن ، ويقبح ماشاء فيقبح ، ادبتهم انفسهم ورفعتهم هممهم وأعلتهم قلوبهم وألسنتهم ، فلم يزل حباء الله فيهم وحباؤهم فى انفسهم حتى رفع لهم الفخر وبلغ بهم اشرف الذكر وختم لهم بملكهم الدنيا على الدهر وافتتح دينه وخلافته بهم إلى الحشر ، الخير فيهم ولهم . قال سبحانه « إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين » فمن وضع حقهم خسر ومن انكر فضلهم خصم ، ودفع الحق باللسان اكبت للجنان . والظاهر انه تخرج فى البلاغة علي خطب الامام على ولذلك كان يقول : شربت من الخطب ريا ولم اضبط لها رويا ، ففاضت ثم فاضت فلا هى نظاما وليس غيرها كلاما . وقد رماه خصز لومه باندقة لضغائن معروفة فقتل سنة ١٤٢ هـ

قال : فقيل له : فان مل المستمع الاطالة التى ذكرت أنها حق ذلك الموقف ؟ قال : إذا أعطيت كل مقام حقه وقمت بالذى يجب من سياسة ذلك المقام وأرضيت من يعرف حقوق الكلام فلا تهتم لما فاتك من رضا الحاسد والعدو ، فإنه لا يرضيهما شيء ، وأما الجاهل فلست منه وليس منك ، ورضا جميع الناس شيء لا تناله ، وقد كان يقال : رضا الناس شيء لا ينال .

قال : والسُّنة فى خطبة النكاح أن يطيل الخاطب ويقصر المجيب . ألا ترى إلى قَيْسِ بْنِ خَارِجَةَ بْنِ سِنَانٍ لما ضرب بصفيحة سيفه مؤخرة راحلتى الحاملين فى شأن حِمالة دَاحِس والغبراء[1] وقال : مالى فيهما أيها العَشَمتان ؟[2] قالا : بل ما عندك ؟ قال : عندى قِرى كل نازل ، ورضا كل ساخط ، وخطبة من لدن تطلع الشمس إلى أن تغرب ، آمر فيها بالتواصل وأنهى فيها عن التقاطع .

قالوا : فخطب يوماً إلى الليل فما أعاد فيها كلمة ولا معنى .

فقيل لأبى يعقوب:[3] هلا اكتفى بالأمر بالتواصل عن النهى عن التقاطع ؟ أو ليس الأمر بالصلة هو النهى عن القطيعة ؟ ! قال : أو ما علمت أن الكناية والتعريض لا يعملان فى العقول عمل الافصاح والتكشف ؟

قال : وسئل ابن المقفع عن قول عمر بن الخطاب رضى الله عنه : مايتصعدنى كلام كما تصعدنى خطبة النكاح ؟ قال : ما أعرفه إلا أن يكون أراد قرب الوجوه من الوجوه ، ونظر الحداق من قرب فى أجواف الحداق . ولأنه إذا كان جالساً معهم كانوا كأنهم نظراء وأكفاء ، وإذا علا المنبر صاروا سوقة ورعية . وقد ذهب

---

(١) داحس والغبراء : فرسان كانتا لقيس بن زهير العبسى راهن بهما مع حذيفة بن بدر الفزاري على فرسيه الخطار والحنفاء وحملا الخطر على عشرين بعيرا ايهما سبقت خيله اخذها من صاحبه . وجعلا الغاية مائة غلوة والضمار اربعين ليلة والمجري من ذات الاصاد ، وهى مائة ، فلما اطلقت الخيل وضع بنو فزارة كمينا على الطريق ، فلما اقبلت الغبراء سابقة لطموها وردوها ، فقال قيس : سبقت الغبراء ، فدفعوه عن ذلك فوقع الشر بينهما وقتل بسبب ذلك عوف بن بدر ومالك بن زهير فحمل الديات عنهم الحارث بن عوف المري ، فى خبر طويل ، وكان ذلك من ايام العرب فى الجاهلية

(٢) العشمتان : الرجلان الفانيان

(٣) يعنى الخريمى

ذاهبون إلى أن تأويل قول عمر يرجع إلى أن الخطيب لا يجد بدا من تزكية(١) الخاطب ، فلعله كره أن يمدحه بما ليس فيه فيكون قد قال زوراً وغر القوم من صاحبه. ولعمرى إن هذا التأويل ليجوز إذا كان الخطيب موقوفا على الخطابة ، فأما عمر ابن الخطاب رضى الله عنه وأشباهه من الأئمة الراشدين رضوان الله تعالى عليهم أجمعين فلم يكونوا ليتكلفوا ذلك إلا فيمن يستحق المدح :

وعن الحارث الأعور قال : والله لقد رأيت علياً وإنه ليخطب قاعداً كقائم ومحارباً كمسالم . يريد بقوله قاعدا ، خطبة النكاح .

وقال الهيثم بن عدى : لم تكن الخطباء تخطب قعودا إلا فى خطبة النكاح . وكانوا يستحسنون أن يكون فى الخطب يوم الحفل ، وفى الكلام يوم الجمع آي من القرآن . فان ذلك مما يورث الكلام البهاء ، والوقار والرقة وحسن الموقع .

قال الهيثم : قال عِمْرانُ بن حِطَّان : إن أول خطبة خطبتها عند زياد — أو قال عند ابن زياد — فأعجب بها زياد وشهدها عمى وأبى ، ثم أنى مررت ببعض المجالس فسمعت رجلا يقول لبعضهم : هذا الفتى أخطب العرب لو كان فى خطبته شيء من القرآن .

وأكثر الخطباء لا يتمثلون فى خطبهم الطوال بشيء من الشعر ، ولا يكرهونه فى الرسائل إلا أن تكون إلى الخلفاء . وسمعت مؤمل بن خاقان — وذكر فى خطبته تميم بن مر — فقال إن تميما لها الشرف القديم السؤدد ، والعز الأقعس ، والعدد الهيضل(٢) وهى فى الجاهلية القدّام(٣) والذورة والسنام ، وقد قال الشاعر :

فَقُلْتُ له وأَنْكَرَ بَعْضَ شَأنِى أَلَمْ تَعْرِفْ رِقَابَ بَنِى تَمِيمِ ؟

وكان المؤمل وأهله يخالفون جمهور بنى سعد فى المقالة ، فلشدة تحدبه(٤) على

(١) تزكيته : مدحه

(٢) الاقعس : الثابت الظاهر . الكثير .

(٣) القدام : المتقدمون على الناس

(٤) تحدبه : تعطفه

سعد وشفقته عليهم كان يناضل عند السلطان كل من سعى على أهل مقالاتهم وإن كان قوله خلاف قولهم ، حدَباً عليهم.

وكان صالح المُرِّيُّ القاص العابد البليغ كثيراً ما ينشد فى قصصه وفى مواعظه هذا البيت .

فَبَاتَ يُرَوِّى أُصُولَ الْفَسِيلِ ... فَعَاشَ الْفَسِيلُ وَمَاتَ الرَّجُلْ (١)

وينشد الحسن فى مجلسه وفى قصصه وفى مواعظه :

لَيْسَ مَنْ مَاتَ فاسْتَراحَ بِمَيْتٍ ... إِنَّمَا الْمَيْتُ مَيِّتُ الأَحْيَاءِ (٢)

وأنشد عَبْدُ الصمدِ بْنُ الْفَضْلِ بْنِ عِيْسَى بْنِ أَبَانَ الرَّقاشىُّ الخطيب القاص السجّاع إما فى قصصه ، وإما فى خطبة من خطبه ، رحمه الله سبحانه وتعالى :

أَرْضٌ تَخَيَّرَهَا لِطِيبِ مَقِيلِهَا ... كَعْبُ بْنُ مَامَةَ وَابْنُ أُمِّ دُوَادِ

جَرَتِ الرِّيَاحُ عَلَى مَحَلِّ دِيَارِهِمْ ... فَكَأَنَّهُمْ كَانُوا عَلَى مِيعَادِ

فَأَرَى النَّعِيمَ وَكُلَّ مَا يُلْهَى بِهِ ... يَوْمًا يَصِيرُ إِلَى بِلًى وَنَفَادِ

وخطب عبد الله بن الحسن على مِنبر البصرة فى العيد فأنشد فى خطبته :

أَيْنَ الْمُلُوكُ الَّتِى عَنْ حَظِّهَا غَفَلَتْ ... حَتَّى سَقَاهَا بِكَأْسِ الْمَوْتِ سَاقِيهَا

تِلْكَ الْمَدَائِنُ بِالآفَاقِ خَالِيَةٌ ... أَمْسَتْ خَلَاءً وَذَاقَ الْمَوْتَ بَانِيهَا

وكان مالك بن دينار (٣) يقول فى قصصه : ما أشد فطام الكبير ؟ وهو كما قال القائل :

(١) الفسيل : صغار النخل

(٢) هذا البيت الذي كان يتمثل به الحسن البصرى من كلمة لعدى بن رعلاء الغساني وهى :

ربما ضربة بسيف صقيل ... دون بصرى وطعنة نجلاء

وغموس تضل فيها يد الآ ... سى ويعيا طبيبها بالدواء

رفعوا راية الضراب والو ... ليذودون سامر الملحاء

فصبرنا النفوس للطعن حتى ... جرت الخيل بيننا فى الدماء

ليس من مات فاستراح بميت ... إنما الميت ميت الأحياء

إنما الميت من يعيش ذليلا ... سيئا باله قليل الرجاء

(٣) هو ابو يحيى مالك بن دينار ، عالم فاضل ، وزاهد ناسك ، مشهور بالصلاح والتقوى والورع ، كان يكتب المصاحف ويعيش منها ، مات سنة ١٣١ هـ

وَتَرُوضُ عِرسَكَ بَعْدَ مَاهَرِمَتْ   وَمِنَ العَنَاءِ رِيَاضَةُ الهَرِمِ

ومثله أيضاً قول صالح بن عبد القدوس (١)

وَالشيخُ لا يَتْرُكُ أخلاقَهُ   حَتَّى يُوارَى فِي ثَرَى رَمْسِهِ
إذا ارْعَوَى عَادَ إلى جَهْلِهِ   كَذِى الضَّنَى عادَ إلى نُكْسِهِ (٢)

قال كُلْثُومُ بنُ عَمْرو العتّابىُّ (٣)

وَكُنْتَ امْرَأً لوشِئْتَ أنْ تبلغَ المَدَى   بَلَغْتَ بأدْنَى نِعْمَةٍ تَسْتَدِيمُها
وَلٰكِنْ فِطَامَ النَّفْسِ أثقَلُ مَحْمَلا   مِنَ الصَّخْرَةِ الصَّمَّاءِ حِينَ تَرُومُها

وكانوا يمدحون الجهير الصوت ويذمون الضئيل الصوت . ولذلك تشادقوا في الكلام ومدحوا سعة الفم وذموا صغر الفم. قيل لأعرابي: ما الجمال؟ قال : طول القامة ، وضخم الهامة ، ورحب الشدق ، و بعد الصوت . وسأل جعفر بن سليمان أبا المخش عن ابنه المخش — وكان جزع عليه جزعاً شديداً — قال : صف لى المخش ؟ فقال كان [والله] أشدق خُرْطُمانيا (٤) سائلا لعابه كأنما ينظر من قلتين (٥)

---

(١) هو صالح بن عبد القدوس الشاعر المتكلم البليغ . كان يذهب فى شعره مذهب الحكمة ، والظاهر أنه قرأ كتب الأوائل ومازجت نفسه مافيها من الفكر والآراء الفلسفية فكانت تظهر على كلامه . ولذلك رماه خصومه بالزندقة وبأنه كان يقول بمذهب الثنوية القائلين بمبدأ النور والظلمة. جرت بينه وبين أبي الهذيل العلاف مناظرات خذل فيها . وزعموا أنه رؤى يصلى صلاة تامة الأركان فقيل له : ماهذا ! ومذهبك معروف ؟ فقال : سنة البلد وعادة الجسد وسلامة الأهل والولد . وشي به إلى الرشيد فقتله ظلما على أنه زنديق ، والصحيح أنه كان مستقيم الطريقة ومات على توبة

(٢) ارعوى : نزع وكف عن جهالاته

(٣) هو كلثوم بن عمرو العتابى التغلبى ، كان يقول إنه من سلالة عمرو بن كلثوم . وكان من شعراء الدولة العباسية المطبوعين ومن متقدميهم ، وكان كاتبا بليغا وخطيبا مصقعا . وكان فى أول امره منقطعاً إلى البرامكة ثم وصلوه بالرشيد فبلغ عنده كل مبلغ . قيل انه جاء إلى بشار وهو حدث فأنشده :

انصدف عن أمامة ام تقيم   وعهدك بالصبا عهد قديم
اقول لمستطار القلب عنى   على عزماته السير العديم
أما يكفيك ان دموع عينى   شآبيب يفيض بها الهموم
أشيم فلا أرد الطرف إلا   على أرجائه ماء سجوم

فمد بشار إليه يده ثم قال له : أنت بصير ؟ قال : نعم . قال : عجبا لبصير أن يقول هذا الشعر ؟

(٤) أشدق : واسع الشدق . خرطمانيا : واسع الخرطوم وهو ماضممت عليه الحنكين

(٥) قلتين : نقرتين فى صخرة . يعنى واسع العينين

وكأن ترقوته بوانٌ أو خالفة (١) وكأن [مُشاش] منكبه كِرْكِرة (٢) جمل ثقال ، ففقأ الله عيني إن كنت رأيت قبله أو بعده مثله . وقيل لأعرابي : ما الجمال ؟ قال : غؤور العينين ، وإشراف الحاجبين ، ورحب الشدقين .

قال دغفل بن حنظلة النسابة والخطيب العلامة حين سأله معاوية عن قبائل قريش فلما انتهى إلى بني مخزوم قال : معزى مطيره ، عليها قشعريره ، إلا بني المغيره ، فان فيهم تشادق الكلام ، ومصاهرة الكرام . وقال الشاعر في عمرو ابن سعيد الأشدق :

تَشَادَقَ حتى مَالَ بالقَوْلِ شِدْقُهُ ... وَكلُّ خَطِيبٍ لا أبالَكَ أشْدَقُ

وأنشد أبو عبيدة :

وَصُلْعُ الرُّؤسِ عِظَامُ البُطُونِ ... رِحَابُ الشِّدَاقِ طِوَالُ القَصَر . (٣)

وتكلم يوما عند معاوية الخطباء فأحسنوا فقال : والله لأرمينهم بالخطيب الأشدق ، قم يا يزيد فتكلم ؟

وهذا القول وغيره من الاخبار والاشعار حجة لمن زعم أن عمرو بن سعيد لم يسم الأشدق للفقم ولا للقوة (٤) وقال يحيى بن نوفل (٥) في خالد بن عبد الله القسري (٦)

بَلَّ السَّرَاوِيلَ مِنْ خَوْفٍ وَمِنْ وَهَلٍ ... وَاستَطْعَمَ الماءَ لمّا جَدَّ في الهَرَبِ (٧)

(١) بوان أو خالفة : عمود البيت الذي يعتمد عليه

(٢) المشاش : ماأشرف من عظم المنكب . الكركرة : ماناتأ في صدر البعير يعتمد عليه إذا برك

(٣) القصر : الأعناق

(٤) الفقم : بروز الثنايا العليا عن الفك الأسفل . واللقوة : نوع من الشلل يصيب الوجه فيعوج له الشدق وتجحظ العينان

(٥) هو يحيى بن نوفل . شاعر هجاء من شعراء بني أمية ، كان يعد نفسه من ثقيف ثم اعتزى إلى حمير . وكان من خبثاء الشعراء وفي ومهم

(٦) هو خالد بن عبد الله بن يزيد بن أسد (القسري) كان من ولاة بني أمية وكان يرمى بالظلم والغشم . وكان خطيبا مفوها على لحن كان فيه

(٧) لما خرج المغيرة بن سعيد رأس المغيرية بالكوفة جزع خالد وهو على المنبر وزهل فقال . أطعموني ماء ، فعير بذلك وزاد الشاعر فقال إنه بال على السرير

وَأَلْحَنُ النَّاسِ كلَّ النَّاسِ قاطِبَةً   وَكانَ يُولَعُ بِالتَّشْدِيقِ فى الْخُطَبِ

ويدلك على تفضيلهم سعة الاشداق وهجائهم ضيق الأفواه قول الشاعر :

لَحَا اللهُ أَفْوَاهَ الدَّبَى مِنْ قَبِيلَةٍ   إذا ذُكِرَتْ فى النَّائِبَاتِ أُمُورُهَا (١)

وقال الآخر :

وَأَفْوَاهُ الدَّبَى حَامُوا قَلِيلاً   وَلَيْسَ أَخُو الحِمَايَةِ كَالضَّجُورِ

وإنما شبه أفواههم بأفواه الدبى لصغر أفواههم وضيقها .

وعلى ذلك المعنى هجا عَبْدَةَ بْنُ الطَّبِيبِ (٢) حَيَّ بن هزالٍ وابنيه فقال :

تَدْعُوا بُنَيْكَ عَبَّاداً وَجَرْثَمَةً   فا فَأْرَةٍ شَجَّهَا فى الجُحْرِ مِحْفَارُ (٣)

وقد كان العَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ جهيراً (٤) جهير الصوت ، وقد مُدح بذلك ، وقد نفع الله المسلمين بجهارة صوته يوم حنين حين ذهب الناس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فنادى العباس . يأصحاب سورة البقرة ، هذا رسول الله ؟ فتراجع القوم وأنزل الله عز وجل النصرة وأتى بالفتح .

وعن ابْنِ عبَّاسٍ قال : كان قَيْسُ بْنُ مَخْرَمَةَ بْنِ الْمُطَّلِبِ بْنِ عَبْدِمَنَافٍ يمكو حول البيت فيُسمع ذلك من حِراء . قال الله تعالى « وَمَا كَانَ صَلاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكَاءً وَتَصْدِيَةً » فالتَّصدية : التصفيق ، والمُكاء : التصفير ، أو شبيه بالصفير . ولذلك قال عنترة :

وَحَلِيلِ غَانِيَةٍ تَرَكْتُ مُجَدَّلاً   تَمْكُو فَرِيصَتُهُ كَشِدْقِ الأَعْلَمِ (٥)

---

(١) أفواه الدبى : شبه أفواههم بأفواه الدبى وهو صغار الجراد لضيقها وصغرها

(٢) هو عبدة بن يزيد بن عمرو (الطبيب) كان شاعراً مجيداً مقلا أدرك الاسلام واسلم وكان في جيش النعمان بن مقرن فى حرب الفرس . وكان يترفع عن الهجاء ويراه ضعة ويرى تركه مروءة وشرفا . وله قصيدة فى رثاء قيس بن عاصم تعد من مفاخر الشعر . وله مفضليتان من احكم ماقيل

(٣) فاأرة : يعنى وهما فى صغر افواهما وضيقها كفي الفأرة أي كفمها

(٤) جهيرا : جميل المنظر حسن الهيئة .

(٥) فريصته : مكان الطعنة من جسمه . الاعلم : الجمل مشقوق الشفة العليا

وقال العُجَيْرُ السَّلُولِيُّ (١) فى شدة الصوت :

وَمِنْهُنَّ قَرْعِى كُلَّ بابٍ كأنَّما ... بِهِ القَوْمُ يَرْجُونَ الأَذِينَ نُسُورُ
فَجِئْتُ وَخَصْمِى يَصْرِفُونَ نُيُوبَهُمْ ... كَمَا قُصِبَتْ بَيْنَ الشِّفارِ جَزُورُ
لَدَى كُلِّ مَوْثُوقٍ بِهِ عِنْدَ مِثْلِها ... لَهُ قَدَمٌ فى النَّاطِقِينَ خَطِيرُ
جَهِيرٌ وَمُمْتَدُّ العِنانِ مُنَاقِلٌ ... بَصِيرٌ بِعَوْرَاتِ الكَلامِ خَبِيرُ
فَظَلَّ رِدَاءُ العَصْبِ مُلْقًى كَأَنَّهُ ... سَلَى فَرَسٍ تَحْتَ الرِّجالِ عَقِيرُ
لَوَ انَّ الصُّخُورَ الصُّمَّ يَسْمَعْنَ صَلْقَنا ... لَرُحْنَ وَفى أَعْرَاضِهِنَّ فُطُورُ (٢)

وقال مُهَلْهِلٌ :

وَلَوْلا الرِّيحُ أُسْمِعَ أَهْلُ نَجْدٍ ... صَلِيلُ البِيضِ تُقْرَعُ بالذُّكُورِ (٣)

وفى شدة الصوت يقول الأعْشَى فى وصفه الخطيب بذلك :

فِيهِمُ الخِصْبُ والسَّمَاحَةُ وَالنَّجْـ ... ـدَةُ جَمْعاً وَالخاطِبُ الصَّلاَّقُ (٤)

---

(١) هو العجير بن عبد الله السلولى ، شاعر مقل من شعراء الدولة الأموية ، وكان جوادا متلافا . وهذه الأبيات من قصيدة انشدها بين يدى عبد الملك بن مروان وقد رواها الجاحظ مضطربة غير مستقيمة وانا اروبها على الترتيب والصحة :

ألا تلك ام الهبرزي تبينت ... عظامي ومنها ناصل وكسير
وقالت تضاءلت الغداة ومن يكن ... فتى قبل علم الماء فهو كبير
فقلت لها إن العجير تقلبت ... به ابطن ابلينه وظهور
فمنهن إدلاجي على كل كوكب ... له من عمانى النجوم نظير
ومنهن قرعى باب ملك كأنما ... به القوم يرجون الأذين نسور
ويوم تبارى ألسن القوم فيهم ... وللموت ارحاء بهن تدور
لو ان الجبال الصم يسمعن وقعها ... لعدن وقد بانت بهن فطور
فرحت جوادا والجواد مثابر ... على جريه ذو علة وبسير
وجئت وخصمى يصرفون نيوبهم ... كما قصبت بين الشفار جزور
لدى كل موثوق به عند مثلها ... له قدم فى الناطقين خطير
جهير وممتد العنان مناقل ... بصير بعورات الكلام خبير
فظل رداء العصب ملقى كأنه ... سلى فرس تحت الرحال عقير

(٢) قال الجاحظ : الصريف : صوت احتكاك الأنياب ، والصلق : شدة الصوت ، وفطور : شقوق
(٣) قال الجاحظ : الصليل : صوت الحديد ههنا
(٤) الصلاق : الشديد الصوت

وقال بَشار بن بُرد فى ذلك ويهجو بعض الخطباء :

وَمِنْ أَعْجَبِ الأَيَّامِ أَنْ قُمْتَ ناطِقاً وَأَنْتَ ضَئيلُ الصَّوْتِ مُنْتَفِخُ السَّحْرِ (١)

ووقع بين فتى من النصارى و بين ابْنِ فَهْرِيزَ كلام، فقال له الفتى : ما ينبغى أن يكون فى الأرض رجلٌ واحدٌ أجهل منك؟! وكان ابْنُ فِهْرِيزَ فى نفسه أكثر الناس علماً وأدباً وكان حريصاً على الْجَثْلَقَةِ فقال للفتى : وكيف حلت عندك هذا المحل ؟! قال: لأنك تعلم أنا لا نتخذ الْجَاثَلِيقَ (٢) إلا مديد القامة ، وأنت قصيرُ القامة ، ولا نتخذه إلا جهيرَ الصوت جيدَ الحلق ، وأنت دقيقُ الصوت رديء الحلق ، ولا نتخذه إلا وهو وافرُ اللحية عظيمُها ، وأنت خفيفُ اللحية صغيرُها ، وأنت تعلم أنا لانختار للجثلقة إلا رجلاً زاهداً فى الرياسة ، وأنت أشدُّ الناس عليها كَلَباً وأظهرهم لها طلباً ؛ فكيف لا تكون أجهل الناس وخصالك هذه كلها تمنع من الجثلقة ؟ وأنت قد شغلت فى طلبها بالك وأسهرت فيها ليلك ؟!

وقال أَبُو مِحْجَنٍ (٣) فى شدة الصوت :

إِنِّى إِذَا مَا زَبَّبَ الأَشْدَاقُ وَالْتَجَّ حَوْلِى النَّقْعُ وَاللَّقْلاَقُ (٤)
ثَبْتُ الجَنَانِ مِرْجَمٌ وَدَّاقُ (٥)

وجاء فى الحديث « مَنْ وُقِىَ شَرَّ لَقْلَقِهِ وقَبْقَبِهِ وَذَبْذَبِهِ وُقِىَ الشَّرَّ » يعنى لسانه و بطنه وفرجه . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى بواكى خَالِدِ

(١) السحر : الرئة

(٢) الجاثليق : رئيس النصارى ببلاد الاسلام

(٣) أبو محجن : كان بالاصل : ابوالحجناء . وهو خطأ . والصواب ما اثبتناه . لأن كنية نصيب الأكبر مولى عبدالعزيز بن مروان هى : ابو محجن ، وهو المراد هنا . واما ابوالحجناء فهى كنية نصيب الأصغر مولى المهدي العباسى . ولعل هذا من خلط النساخين وسوء تصرفهم ، أو من تساهل الجاحظ نفسه

(٤) زبب الأشداق : كثر ريقها وخرج منها كالزبد . والتج : زاد واختلط . والنقع : ارتفاع الصوت . واللقلاق : كثرة الكلام والجلبة

(٥) قال الجاحظ : المرجم : الحاذق بالمراجمة بالحجارة ، والوداق : الذى يسيل الحجارة كالودق من المطر .

ابنِ الوَليدِ بنِ المُغيرَة : وما عليهن أن يُرقن من دموعهن على أبي سُليمان مالم يكن نقعٌ أو لقلقةٌ ؟! وجاء في الأثر: «لَيْسَ منّا مَن حَلقَ أو صَلقَ أو سَلقَ أو شَق» (١)

ومما مدح به العُمانيُّ هرون الرشيد بالقصيد دون الرجز قوله :

جَهيرُ العُطَاسِ شَديدُ النِّياطِ   جَهيرُ الرُّوَاءِ جَهيرُ النَّغَمْ (٢)

وَيَخْطُو عَلى الأيْنِ خَطْوَ الظَّليمِ   وَيَعْلُو الرِّجالَ بِجِسْمٍ عَمَمْ (٣)

وكان الرشيد إذا طاف بالبيت جعل لإزاره ذنبين عن يمين وشمال ثم طاف بأوسع من خطو الظليم وأسرع من رجع يد الأرنب . وقد أخبرني إبراهيمُ بنُ السِّندِي بمحصول ذرع ذلك الخطو، إلا أني أحسبه فراسخ فيما رأيته يذهب إليه. قال إبراهيم — ونظر إليه أعرابي في تلك الحال والهيئة — فقال : « خَطْوَ الظَّليمِ رِيعَ مُمْسَى فَانْشَمرْ » (٤)

وحدثني إبراهيم بن السندي قال لما أتى عَبْدَ الْمَلِكِ بْنَ صَالِحٍ وفدُ الروم، وهو في البلاد أقام على رأسه رجالا في السماطين لهم قَصَرٌ وَهامٌ (٥) وَمَناكِبُ وأجسامٌ وشوارب وشعور . فبيناهم قيام يكلمونه ، ومنهم رجل وجهه في قفا البِطريق إذ عطس عطسة ضئيلة فلحظه عبدُ الملك فلم يدر أيَّ شيء أنكر منه ! فلما مضى الوفد قال له : ويلك ! هلا إذ كنت ضيق المَنْخرِ كَزَّ الخيشوم (٦) أتبعتها بصيحة تخلع بها قلب العِلج . . ؟!

وفي تفضيل الجهارة في الخطب يقول شبة بن عَقَّالٍ بعقب خطبته عند سُليمان ابن علي بن عبد الله بن عباس :

---

(١) يعني من يفعل ذلك حزنا على الميت

(٢) جهير العطاس : لسعة منخريه . وشديد النياط : قوى القلب . والرواء : المنظر الجميل

(٣) قال الجاحظ : النياط معاليق القلب ، الأين الاعياء ، الظليم ذكر النعام ، عمم : حسن ، ومنه قيل نبت عميم أي حسن كثير ، ويقال إن جسمه لعمم وإنه لعم الجسم إذا كان تاما .

(٤) قال الجاحظ : ريع : فزع ، ممسى : حين المساء ، إنشمر : جد في الهرب .

(٥) قصر وهام : أعناق ضخمة ورؤس عظيمة

(٦) كز الخيشوم : ضيق المنخر

أَلاَ لَيْتَ أُمَّ الْجَهْمِ وَاللهُ سَامِعٌ ... تَرَى حَيْثُ كَانَتْ بِالعِرَاقِ مَقَامِى
عَشِيَّةَ بَذَّ النَّاسَ جَهْرِى وَمَنْطِقِى ... وَبَذَّ كَلاَمَ النَّاطِقِينَ كَلاَمِى (١)

وقال طَحْلاء يمدح معاوية بالجهارة وبجودة الخطبة (٢)

رَكُوبُ المنابِرِ وَثَّابُها ... مِعَنٌّ بِخُطْبَتِهِ مِجْهَر
تَرِيغ إليهِ هَوَادِى الْكَلامِ ... إذا ضَلَّ خُطْبَتَهُ المِهْذَرُ

وزعموا أن أبَا عَطِيَّةَ عُفيفاً النَّصْرِىَّ فى الحرب التى كانت بين ثقيف وبين بنى نصر لما رأى الخيل بِعقْوَتِه يومئذ وأيس ، نادى : ياصباحاه ، أُتيتم يابنى نصر..! فألقت الْحَبالى أولادها من شدة صوته . قالوا : فقال رَبيعَةُ بْنُ مَسْعُودٍ يصف تلك الحرب وصوت عُفَيْفٍ :

عُقاماً ضَرُوساً بَيْنَ عَوْفٍ وَمالِكٍ ... شديداً لَظاهَا تَتْرُكُ الطِّفْلَ أَشْيَبا (٣)
وَكَانَتْ جُعَيْلٌ يَوْمَ عَمْرِو أَرَاكَةٍ ... أُسُودَ الْغَضَا غَادَرْنَ لَحْماً مُتَرَّبا (٤)
وَيَوْمَ بِعُكْرُوثاءَ شَدَّتْ مُعَتِّبٌ ... بِغارَاتِها قَدْ كانَ يَوْماً عَصَبْصَبا (٥)
فَأَسْقَطَ أَحْبالَ النِّسَاءِ بِصَوْتِهِ ... عُفَيْفٌ وَقَدْ نادى بِنَصْرٍ فَطَرَّبا (٦)

وكان أبو عُرْوَة — الذى يقال له أبو عُرْوَة السِّباع — يصيح بالسَّبُع وقد احتمل الشاة فيخليها ويذهب هاربا على وجهه . فضرب به الشاعر المثل ، وهو النَّابغة الْجعدى فقال :

وَأَزْجُرُ الكاشِحَ العَدُوَّ إذا اغْتَا ... بَكَ عِنْدِى زَجْراً عَلَى أَضَمِ (٧)

---

(١) بذ : غلب وفاق
(٢) قال الجاحظ : معن: تعرض له الخطبة فيخطبها مقتضبا لها ، تريغ إليه ترجع إليه ، هوادى الكلام : أوائله . فأراد أن معاوية يخطب فى الوقت الذى يذهب فيه كلام المهذر والمهذر المكثار ،
(٣) عقاما ضروسا : شديدة مهلكة
(٤) عمرو أركة : اسم مكان ، مترب : عليه تراب
(٥) مكروثاء : اسم مكان ، ومعتب : إسم قبيلة . وعصبصب : شديد
(٦) فطرب : فرجع بصوته
(٧) على أضم : على حقد وغضب

زَجْرَ أَبي عُرْوَةَ السِّبَاعَ إِذَا أَشْفَقَ أَنْ يَلْتَبِسْنَ بِالْغَنَمِ (١)

ولرجل من الخوارج يصف صيحة شَبِيبِ بْنِ يَزِيدِ بْنِ نُعَيْمٍ (٢) وكان شبيب يصيح فى جنبات الجيش إذا أتاه فلا يلوى أحدٌ على أحدٍ . وقال الشاعر فيه :

إِنْ صاحَ يَوْماً حَسِبْتَ الصَّخْرَ مُنْحَدِراً وَالرِّيحَ عاصِفَةً وَالْمَوْجَ يَلْتَطِمُ

وأنشد خلفُ الأحمر (٣) مولى الأشعريين فى عيب التشادق :

---

(١) يلتبسن ، وفى رواية يختلطن ، وكلاهما واحد

(٢) هو أبو الضحاك وأبو الصحاري شبيب بن يزيد بن نعيم الشيباني الخارجى ، أمير الخوارج فى عصره ومزلزل أركان الدولة الاموية أيام عبد الملك بن مروان ، صاحب الوقائع الهائلة والاحداث العظيمة والمواقف المشهورة مع شيخ العتاة وأسد الولاة الحجاج بن يوسف ، وقاتل قواده ومبيد أجناده . كان في الشجاعة وقوة الاسر والفروسية ومضاء العزيمة فى الغاية التيماوراءها غاية . كان مع صالح بن مسرح راس الصفرية من الخوارج فلما ادركه الموت عهد إلى شبيب . فخرج شبيب بالموصل فى شرذمة من الرجال لا يبلغون المائتين فهم امره الحجاج فبعث اليه خمسة قواد بجيوشهم يتلو بعضهم بعضا فكان يقتلهم ويفتك بجنودهم ويشتت شملهم واحدا إثر واحد . وما من هؤلاء القواد إلا وهو شجاع بطل وقائد مدبر وفارس مغوار . ثم تجهز الحجاج للخروج إليه بجنود الدولة فلما بلغ شبيب خروجه اقبل يريد الكوفة على امل ان يلقاه قبل دخولها فغير ان الحجاج اقحم خيله الكوفة فدخل قبله ، ومر شبيب بعتاب بن ورقاء وكان على احد جيوش الحجاج فقتله وفرق جنده ، ومر بعبد الرحمن ابن محمد بن الاشعث فهرب منه وتفرق جيشه . وقدم الكوفة ودخلها وهي غاصة بجند الدولة حاشدة بأبطال السلطان وعلى راسهم الحجاج ، لينيل زوجته غزالة وفاء نذرها من الصلاة في مسجدها الجامع فأدت الصلاة واطالت ماشاءت ثم خرج يخترق بها صفوف اعدائه ولم يصب بأذى ولم ينلها مكروه . ولما دخل المسجد كانت عليه جبة طيالسية عليها نقط من أثر مطر فكان المسجد يرتج له . وكان طويلا أشمط جعد آدم . وكانت زوجته غزالة من أشجع الناس وأفرسهم وكانت تباشر الحروب بنفسها وتخوض المعامع بسيفها وتصرع الأبطال بقوة أسرها ، وهى التى نكص الحجاج عن منازلتها وقد طلبته فى إحدى الوقائع فعيره عمران بن حطان بقوله :

أسد علي وفى الحروب نعامه فتخاء تنفر من صفير الصافر
هلا برزت إلي غزالة في الوغى بل كان قلبك في جناحي طائر
صدعت غزالة قلبه بفوارس تركت مدابره كأمس الدابر

ثم خرج شبيب يريد الأهواز فغرق فى نهر دجيل سنة ٧٧ هـ وكان مولده سنة ٣٥ هـ

(٣) هو أبو محرز خلف بن حيان الأحمر . كان مولى بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الاشعرى وكان راوية علامة وشاعرا بليغا يصنع الشعر وينسبه إلى العرب فيشبه كلامه كلامهم . وكان هو والاصمعى على منهج واحد فى رواية المأثور عن السلف وهما اللذان فتقا المعاني وأوضحا المسالك وبينا المعالم ولم يكن لهما فى علم الشعر نظير . وعليه قرأ أهل الكوفة أشعارهم وكانوا يقصدونه بعد حماد ولكنه فاق حمادا ثم نسك فى أواخر أيامه وترك الشعر والكلام . ولما نسك خرج إلى أهل الكوفة فعرفهم الاشعار التى أدخلها فى اشعار الناس فقالوا له : انت كنت عندنا فى ذلك الوقت اوثق منك الساعة . مات سنة ١٨٠ هـ

لهُ حَنْجَرٌ رَحْبٌ وَقَوْلٌ مُنَقَّحٌ ... وَفَصْلُ خِطابٍ لَيْسَ فيهِ تَشادُقُ
إذا كانَ صَوْتُ المَرْءِ خَلْفَ لَهاتِهِ ... وَأَنْحى بأَشْداقٍ لَهُنَّ شَقاشِقُ (١)
وَقَبْقَبَ يَحْكِي مُقْرَماً في هِبابِهِ ... فَلَيْسَ بِمَسْبوقٍ ولاهُوَ سابِقُ (٢)

وقال الفرزدق : « شقاشق بين أشداق وهام »

وأنشد خلفٌ :

وَما في يَدَيْهِ غَيْرَ شِدْقٍ يُمِيلُهُ ... وَشَقْشِقَةٍ خَرْساءَ لَيْسَ لها ثَعْبُ (٣)
مَتَى رامَ قَوْلاً خالَفَتْهُ سَجِيَّةٌ ... وَضِرْسٌ كَقَعْبِ القَيْنِ ثَلَّمَهُ الشَّعْبُ (٤)

وأنشد أبو عمرو بن العلاء (٥)

وَجاءَتْ قُرَيْشٌ قُرَيْشُ البِطاحِ ... هِيَ العُصَبُ الأُوَلُ الدّاخِلَهْ
يَقُودُهُمُ الفِيلُ وَالزَّنْدَبِيلُ ... وَذُو الضِّرْسِ وَالشَّفَةِ المائِلَهْ

والفيل والزنديل : أَبانُ وَالحَكَمُ ابْنا عَبْدِ المَلِكِ بْنِ بِشْرِ بْنِ مَرْوانَ . وذو الضرس وذو الشفة المائلة: هو خالِدُ بْنُ سَلَمَةَ المَخْزُومِيُّ الخطيب ـ يعنى دخولهم على ابْنِ هُبَيْرَةَ ـ والزنديل : الأنثى من الفِيَلَةِ فيما ذكر أبو اليَقْظانِ سُحَيْمُ بنُ حَفْصٍ . وقال غيره : هو الذكر . فلم يقفوا من ذلك على شيء .

وقال الشاعر فى خالد بن سلمة المخزومى الخطيب :

فما كانَ قائِلُهُمْ دَغْفَلٌ ... وَلا الحَيْقُطانُ وَلا ذو الشَّفَهْ (٦)

---

(١) لهاته : اقصى فمه

(٢) وقبقب : هدر بالكلام . المقرم : الجمل المتخذ للفحلة : هبابه : نشاطه .

(٣) الثعب : البروز والظهور

(٤) قعب القين : قدح الحداد الذى يشرب فيه . ثلمه : فلل حده . والشعب : الصدع والشق

(٥) هو ابو عمرو بن العلاء إمام اهل البصرة فى النحو واللغة والقراءات . اخذ عن جماعة من التابعين وكان ثقة حجة صدوقا . قال ابوعبيدة : ابو عمرو اعلم الناس بالقراءات والعربية وايام العرب والشعر . ووثقه يحيى بن معين . وكان من سادات العرب ووجوههم . وعليه اخذ الأدب ابوعبيدة والاصمعى وغيرهما . مات سنة ١٥٩ ﻫ

(٦) قال الجاحظ : يريد دغفل بن يزيد بن حنظلة الخطيب الناسب . والحيقطان : عبد اسود وكان خطيبا لا يجارى .

وأنشد أصحابنا :

وَقافيةٍ لجْلَجتُها فرَدَدْتُها لذي الضِّرْسِ لوْأَرْسَلتُهاقَطَرَتْ دَما (١)

وقال الفرزدق : أنا عند الناس أشعر العرب ، ولربما كان نزع ضرس أيسر على من أن أقول بيت شعر . وأنشدنا منيع (٢)

فجِئْتُ وَوَهْبٌ كالخلاةِ تَضمُّها إلى الشِّدْقِ أنْيابٌ لَهُنَّ صَرِيفُ (٣)

فَقَعْقَعْتُ لَحْيَيْ خَالدٍ واهتضَمْتُهُ بِحُجَّةِ خَصْمٍ بالخُصومِ عَنِيفُ (٤)

وعن عَبدِ المَلِكِ بن عُمَيْرٍ قال : سُئل الحارث بن أبي رَبيعةَ (٥) عن على ابن أبي طالب رضى الله تعالى عنه ؟ فقال : كم كان له ما شئت من ضرس قاطع فى العلم بكتاب الله والفقه بالسنة والهجرة إلى الله ورسوله والبسطة فى العشيرة والنجدة فى الحرب والبذل للماعون .. !! قال الآخر :

وَلَمْ تُلْفِنِى فَهًّا وَلَمْ تُلْفِ حُجَّتى مُلجْلَجةً أبْغى لها مَنْ يُقِيمُها (٦)

وَلا بِتُّ أُزْجِيها قَضِيباً وَتَلْتوِى أُراوِغُها طوْراً وَطوْراً أُضِيمُها (٧)

وأنشدنى أبو الرُّدَيْنِي العُكْلِيُّ :

---

(١) لجلجتها : رددتها فى فمى

(٢) الظاهر انه منيع البقل وكان جارا لمحمد بن يسير الرقاشى ، وكانت له شاة فدخلت بيت محمد فأكلت قراطيسه التى كتب فيها آدابه واشعاره ، ولعله كان له حظ فى الادب والرواية

(٣) الخلاة : عود الحشيش . لهن صريف : لهن تصويت من شدة المضغ

(٤) فقعقعت : حركت حركة ذات صوت . اهتضمته : يريد أنه غلبه بالحجة القوية

(٥) هو الحارث بن أبي ربيعة المخزومى ، كانت امه سودا حبشية وكانت نصرانية . وكان هو من سادات قريش وأشرافهم مع الكرم والدين والتقوى . قال عنه عبد الملك بن مروان : ماولدت أمة خيرا مما ولدت أمه . ولاه عبد الله بن الزبير البصرة فأتوه بمكيال لهم فقال : إن مكيالكم هذا لقباع ؟ فسمى ، القباع ، وقال فيه أبو الأسود الدؤلى :

أمير المؤمنين جزيت خيرا أرحنا من قباع بنى المغيره

بلوناه ولمناه فأعيا علينا ما يمر لنا مريره

على ان الفتى نكح اكول وولاج مذاهبه كثيره

(٦) فها : عيا عاجزا عن الكلام . ملجلجة : مضطربة غير مستقيمة

(٧) ازجيها قضيبا : اسوقها غير مهذبة . اراوغها : احايلها . اضيمها : آخذها قسرا

فَتًى كَانَ يَعْلُو مَفْرِقَ الْحَقِّ قَوْلُهُ ... إِذَا الخُطَبَاءُ الصِّيدُ أَعْضَلَ قِيلُهَا (١)

وقال الخُرَيمِيُّ في تشادق علىّ بن الهيثم (٢)

يَا عَلِيَّ بْنَ هَيْثَمٍ يَا سُمَاقَا ... قَدْ مَلَأْتَ الدُّنْيَا عَلَيْنَا بُقَاقَا (٣)

خَلِّ لَحْيَيْكَ يَسْكُنَانِ وَلَا تَضْـ ... ـرِبْ عَلَى تَغْلِبٍ بِلَحْيَيْكَ طَاقَا

لَا تَشَادَقْ إِذَا تَكَلَّمْتَ وَاعْلَمْ ... أَنَّ لِلنَّاسِ كُلِّهِمْ أَشْدَاقَا

وكان على بن الهيثم جواداً بليغ اللسان والقلم .

قال لى أبو يعقوب الخريمىُّ : ما رأيت كثلاثة رجال يأكلون الناس أكلاً، حتى إذا رأوا ثلاثة رجال ذابوا كما يذوب الملح فى الماء أو الرَّصاص عند النار : كان هِشامُ بْنُ الكَلْبى (٤) علامة نسابة وراوية للمثالب عيابة، فإذا رأى الهيثم ابن عَدى ذاب كما يذوب الرَّصاص عند النار . وكان الهيثم بن عدى مُقَعِّعاً (٥) نيأ صاحب تقعيع وتقعير ويستولى على كلام أهل المجلس لا يحفل بشاعر ولا بخطيب ، فإذا رأى موسى الضبى ذاب كما يذوب الرصاص عند النار . وكان عَلُّوَيه (٦) المغنى أحد الناس فى الرواية وفى الحكاية وفى صنعة الغناء وجودة الضرب وفى الإطراب وحسن الحلق ، فإذا رأى مُخارِقاً (٧) ذاب كما يذوب الرصاص عند النار

***

ثم رجع بنا القول إلى ذكر التشديق وبعد الصوت . قال أبو عبيدة : كان

---

(١) اعضل : صعب

(٢) هو على بن الهيثم الكاتب الانبارى ، كان يلقب ، جونقا ، وكان اديبا بارعا وكاتبا بليغا وخطيبا مقعقعا ، صاحب تشادق وتقعير كثير الاستعمال لغريب اللغة . كتب فى ديوان المأمون وغيره من الخلفاء العباسيين وكان المأمون يتحفظ في كلامه إذا كان حاضراً .

(٣) السماق : الخالص . البقاق : كثرة الكلام المفخم

(٤) هو هشام بن محمد بن السائب الكلبي الراوية النسابة الشهير صاحب كتاب الاصنام وغيره من الكتب الجيدة وكان كثير الرواية لشعر جرير

(٥) المقعع : الكثير الكلام

(٦) هو ابو الحسن على بن عبد الله بن سيف ، علوية ، الاعسر ، كان من افاضل المغنين ، وله مع اسحق الموصلى احاديث واخبار

(٧) هو ابو المهنا مخارق ، كان من اكابر المغنين وله مع ابراهيم الموصلى احاديث واخبار .

عُرْوَةُ بن عُتبة بن جَعفرِ بن كِلابٍ رديفا(١) للملوك ورحالا إليهم ، وكان يقال له عُرْوَة الرَّحَّال فكان يوم أقبل مع ابن الجَوْن يريد بنى عامر ، فلما انتهى إلى وارِدَاتٍ مع الصبح(٢) قال له عروة : إنك قد عرفت طول صحبتى لك ونصيحتى إياك فأذن لى أهتف بقومى هَتفَةً . قال : نعم ، وثلاثا . فقام فنادى « يا صباحاه » ثلاث مرات . قال : فسمعنا شيوخنا يزعمون أنه أسمع أهل الشِّعب فتلببوا(٣) للحرب وعَسَبوا الرَّبايا(٤) ينظرون من أين يأتى القوم ؟!

قالوا : وتقول الروم : لولا ضِجة أهل رُومية وأصواتهم لسمع الناس جميعا صوت وجوب القُرص فى المغرب .

وأعيب عندهم من دقة الصوت وضيق مخرجه ، وضعف قوته ، أن يعترض الخطيب البُهْرُ والارتعاش والرِّعدة والعرَق . قال سفيان بن عُيَيْنة : تكلم صعصعة عند معاوية فعرق ، فقال معاوية : بَهرَكَ القول ؟ فقال صعصعة : إن الجياد نضَّاحة بالماء .

والفَرَس إذا كان سريع العرق وكان هشا كان ذلك عيبا ، وكذلك هو فى الكثرة . وإذا أبطأ ذلك وكان قليلا قيل : قد كبا ، وهو فرس كاب ، وذلك عيب أيضا .

ولأبي مِسْمارٍ العُكْلى فى شبيه بذلك قوله :

لِلّهِ دَرُّ عامِرٍ إذا نطَقْ ... فِى حَفْلِ إمْلاكٍ وَفِى تِلْكَ الحِلَقْ(٥)
لَيْسَ كَقَوْمٍ يُعْرَفُونَ بالشَّدَقْ ... مِنْ خُطَبِ النَّاسِ وَمِمَّا فى الْوَرَقْ

(١) رديفا : جليسا ونديما للملوك
(٢) واردات : ماءة من مياه العرب
(٣) تلببوا : تشمروا وتهيأوا
(٤) عسبوا الربايا : بثوا العيون والرقباء ونشروا الديدبانات
(٥) الاملاك : التزويج

يُلفِّقُونَ القَوْلَ تَلفِيقَ الخَلَقْ مِنْ كلِّ نَضَّاحِ الذَّفَارَى بالعَرَقْ[١]
إذَا رَمَتْهُ الخُطَبَاءُ بِالحَدَقْ

وإنما ذكر خطب الإملاك لأنهم يذكرون أنه يعرض للخطيب فيها من الحصر أكثر مما يعرض لصاحب المنبر ، ولذلك قال عمر رضى الله عنه : مايتصعدنى كلام كما تتصعدنى خطبة النكاح . وقال العُمانىُّ :

لاَ ذَفِرٌ هَشٌّ وَلاَ بِكَابِ وَلاَ بِأَجْلاَجٍ وَلاَهَيَّابِ[٢]

وقال الكُمَيْت بن زيد ، وكان خطيبا : إن للخطبة صُعداء ، وهى على ذى اللب أرمى[٣] . ولم أر الكميت أفصح عن هذا المعنى ولا تخلص إلى خاصته ، وإنما يجترئ على الخطبة الغُمر الجاهل الماضى الذى لا يثنيه شىء ، أو المطبوع الحاذق الواثق بغزارته واقتداره ، فالثقة تنفى عن قلبه كل خاطر يورث اللجلجة والنحنحة والانقطاع والبهر والعرق .

قال عُبيدُالله بن زياد ، وكان خطيبا ، على لُكنة فيه : نعم الشىء الإمارة لولا قعقعة البُرُد ، والتشدق للخطب . وقيل لعبدِ الملك بن مروان : عجّل عليك الشيب يا أمير المؤمنين ؟ قال : وكيف لا يعجل على وأنا أعرض عقلى على الناس فى كل جمعة مرة أو مرتين ؟

يعنى خطبة الجمعة وبعض ما يعرض من الأمور . قال بعض الكلابيين :

وَإذَا خَطَبْتَ عَلَى الرِّجَالِ فَلاَ تَكُنْ خَطِلَ الكَلاَمِ تَقُولُهُ مُخْتَالاَ
وَاعْلَمْ بِأَنَّ مِنَ السُّكُوتِ إبَانَةً وَمِنَ التَّكَلُّمِ مَا يَكُونُ خَبَالاَ

---

(١) الخلق : الثوب البالى ، وقال الجاحظ : والذفارى هنا يعنى بدن الخطيب ، والذفريان للبعير وهما اللحمتان فى قفاه .

(٢) قال الجاحظ : الهش الذي يجود بعرقة سريعا ، وذلك عيب ، والذفر الكثير العرق ، والكابى الذي لايكاد يعرق كالزند الكابي الذى لايكاد يورى ، فجعل له العمانى حالا بين حالين إذا خطب وخبر انه رابط الجأش معاود لتلك المقامات .

(٣) قال الجاحظ : وقولهم ارمى وارب سواء يقال فلان قد ارمى على المائة وارب .

كلام بشر بن المعتمر

حين مر بإبْرَاهِيمَ بْنِ جَبلَةَ بْنِ مَخْرَمَةَ السَّكُونِيّ الخطيب وهو يعلم فتيانهم الخطابة . فوقف بشرٌ ، فظن إبراهيم أنه إنما وقف ليستفيد أو ليكون رجلا من النَّظارة(١). فقال بشر(٢) : أضربوا عما قال صفحا ، واطووا عنه كشحا ؟!

ثم دفع إليهم صحيفة من تحبيره وتنميقه ، وكان أول ذلك الكلام :

خذ من نفسك ساعة نشاطك وفَراغ بالك وإجابتها إياك ، فان قليل تلك الساعة أكرم جوهراً ، وأشرف حسباً ، وأحسن في الأسماع ، وأحلى في الصدور وأسلم من فاحش الخطأ ، وأجلب لكل عين وغُرَّة(٣) من لفظ شريف ومعنى بديع . واعلم أن ذلك أجدى عليك مما يعطيك يومُك الأطول بالكد والمطاولة والمجاهدة ، وبالتكلف والمعاودة . ومهما أخطأك لم يخطئك أن يكون مقبولا قصداً ،

---

(١) النظارة : الوقوف المشاهدون

(٢) هو ابو سهل بشر بن المعتمر البغدادي الابرص ، كان من وجوه المتكلمين ومن افاضل علماء المعتزلة ، وكان من اكابر بلغاء الدهر وخطبائه وكتابه وابينائه . وكان جميع معتزلة بغداد من اتباعه ومستجيبيه . وكان مولعا بأبي الهذيل العلاف كثير الوقوع فيه ورميه بالنفاق . ومن ابلغ واظرف ماقاله فيه قوله : لان يكون ابو الهذيل لايعلم وهو عند الناس يعلم احب اليه من ان يعلم وهو عند الناس لا يعلم . ولان يكون من السفلة وهو عند الناس من العلية احب اليه من ان يكون من العلية وهو عند الناس من السفلة . ولان يكون نبيل المنظر سخيف المخبر احب إليه من ان يكون نبيل المخبر سخيف المنظر . وهو بالنفاق اشد عجبا منه بالاخلاص ، والباطل مقبول احب إليه من حق مدفوع . وبشر راس فرقة «البشرية» من المعتزلة . ولها آراء ومسائل اخذتها عنه وانفردت بها . وله اشعار كثيرة يحتج فيها على اصحاب المقالات . قال الجاحظ : لم ار احدا اقوى على المخمس والمزدوج مما قوي عليه بشر ، وانه كان في ذلك اكثر واقدر من ابان اللاحق . ومن شعره :

إن كنت تعلم ما اقو ل وما تقول فأنت عالم
او كنت تجهل ذا وذا ك فكن لأهل العلم لازم
اهل الرياسة من ينـازعهم رياستهم فظالم
سهرت عيونهم وانت من الذي قاسوه حالم
لاتطلبن رياسة بالجهل انت لها مخاصم
لولا مقامهم رايت الدين مضطرب الدعائم

(٣) عين الشيء وغرته : يريد به المختار المستحسن منه

وخفيفاً على اللسان سهلا، وكما خرج من ينبوعه ونجم من معدنه . وإياك والتوعُّرَ، فان التوعر يُسلمك إلى التعقيدِ والتعقيدُ هو الذي يَستهلك معانيك ويَشين ألفاظك. ومن أراغ [١] معنى كريما فليلتمس له لفظاً كريما ، فان حق المعنى الشريف اللفظ الشريف ، ومن حقهما أن تصونهما عما يفسدهما ويهجنهما [٢] وعما تعود من أجله إلى أن تكون أسوأ حالا منك قبل أن تلتمس إظهارهما وترتهن نفسك بملابستهما وقضاء حقهما . وكن فى ثلاث منازل ، فان أولىَ الثلاث . أن يكون لفظك رشيقاً عذباً وفخما سهلا ، ويكون معناك ظاهراً مكشوفا وقريبا معروفا ، إما عند الخاصة إن كنت للخاصة قصدت ، وإما عند العامة إن كنت للعامة أردت . والمعنى ليس يَشْرُفُ بأن يكون من معانى الخاصة ، وكذلك ليس يَتَّضِعُ بأن يكون من معانى العامة ، وإنما مدار الشرف على الصواب ، وإحراز المنفعة مع موافقة الحال وما يجب لكل مقام من المقال . وكذلك اللفظ العامى والخاصى فان أمكنك أن تبلغ من بيان لسانك وبلاغة قلمك ولطف مداخلك واقتدارك على نفسك أن تُفهم العامةَ معانى الخاصة وتكسوها الالفاظ الواسطة التى لا تلطف عن الدهماء ولا تجفو عن الاكفاء فأنت البليغ التامُّ .

فان كانت المنزلة الأولى لا تواتيك ولا تعتريك [٣] ولا تسنح لك عند أول نظرك وفى أول تكلفك ، وتجد اللفظةَ لم تقع موقعها ولم تصر إلى قرارها وإلى حقها من أماكنها المقسومة لها ، والقافيةَ لم تحُل فى مركزها وفى نصابها ولم تتصل بشكلها ، وكانت قلقةً فى مكانها نافرةً من موضعها ، فلا تكرهها على اغتصاب الأماكن والنزول فى غير أوطانها . فانك إذا لم تتعاط قرض الشعر الموزون ، ولم تتكلف اختيار الكلام المنثور ، لم يعبك بترك ذلك أحد . وإن أنت تكلفتها ولم تكن حاذقا مطبوعاً ولا محكما لسانك بصيراً بما عليك أو مالك

---

(١) اراغ : طلب والتمس . وفى نسخة : أراد

(٢) يهجنهما : يجعلهما مستهجنين

(٣) تعتريك : تلم بك

عابك من أنت أقل عيباً منه ورأى من هو دونك أنه فوقك . فان ابتُليت بأن تتكلف القول وتتعاطى الصنعة ، ولم تسمح لك الطباع فى أول وهلة وتعَصَّى عليك بعدَ إجالة الفكرة ، فلا تَعْجل ولا تضجر ، ودعه بياض يومك أو سواد ليلك ، وعاوده عند نشاطك وفراغ بالك فانك لا تعدم الاجابة والمواتاة ، إن كانت هناك طبيعة أو جَريت من الصناعة على عِرْقٍ . فان تمنع عليك بعد ذلك من غير حادث شُغل عَرَض ومن غير طول اهمال فالمنزلة الثالثة أن تتحول من هذه الصناعة إلى أشهى الصناعات إليك وأخفها عليك ، فانك لم تشتهه ولم تنازع اليه إلا و بينكما نسب ، والشيء لا يحن إلا إلى ما يشا كله ، وإن كانت المشا كلة قد تكون فى طبقات ، لأن النفوس لا تجود بمكنونها مع الرغبة ولا تسمح بمخزونها مع الرهبة ، كما تجود به مع المحبة والشهوة ، فهكذا هذا »

قال بشرٌ : فلما قرئت على ابراهيم قال لى : أنا أحوج إلى هذا من هؤلاء الفتيان .

قال أبو عثمان : أما أنا فلم أر قوماً قط أمثل طريقة فى البلاغة من الكتاب فانهم قد التمسوا من الالفاظ مالم يكن متوعراً وحشياً ولا ساقطاً سوقياً . وإذا سمعتمونى أذ كر العوام فانى لست أعنى الفلاحين والحشوة ، والصناع والباعة ، ولست أعنى الا كراد فى الجبال ، وسكان الجزائر فى البحار ، ولست أعنى من الأمم مثل الببر والطيلسان ، ومثل موقان وجيلان ، ومثل الزنج وأمثال الزنج ؟ وإنما الامم المذ كورون من جميع الناس أربع : العرب ، والفرس ، والهند ، والروم. والباقون همج وأشباه الهمج . وأما العوام من أهل ملتنا ودعوتنا ولغتنا وأدبنا وأخلاقنا فالطبقة التى عقولها وأخلاقها فوق تلك الأمم ولم يبلغوا منزلة الخاصة منا ، على أن الخاصة تتفاضل فى الطبقات أيضاً .

وقال: ينبغى للمتكلم أن يعرف أقدارَ المعانى و يوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات ، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاماً ، ولكل حالة من ذلك

مقاما ، حتى يقسم أقدارَ الكلام على أقدار المعانى ، ويقسم أقدار المعانى على أقدار المقامات ، وأقدارَ المستمعين على أقدارِ تلك الحالات ، فان كان الخطيب مُتكلما تجنب ألفاظ المتكلمين كما أنه إن عبر عن شيء من صناعة الكلام واصفاً أو مجيباً أو سائلا ، كان أولى الألفاظ به ألفاظَ المتكلمين ، إذ كانوا لتلك العبارات أفهم وإلى تلك الألفاظ أميل وإليها أحن وبها أشغف ، ولأن كبار المتكلمين ورؤساء النظارين كانوا فوق أكثر الخطباء ، وأبلغ من كثير من البلغاء وهم تخيروا تلك الألفاظ لتلك المعانى ، وهم اشتقوا لها من كلام العرب تلك الأسماء ، وهم اصطلحوا على تسمية مالم يكن له فى لغة العرب إسم ، فصاروا فى ذلك سلفاً لكل خلف وقدوة لكل تابع ، ولذلك قالوا : ألْعَرَضُ والجوهر ، وأيْسَ ، ولَيْسَ ؛ وفرقوا بين البطلان والتلاشى ، وذكروا الهَذِيَّةَ والهُوِيَّةَ والماهية ، وأشباه ذلك . وكما وضع الخَلِيلُ بن أحمد لأوزان القصيد وقصار الأرجاز ألقابا لم تكن العرب تتعارف تلك الأعاريض بتلك الألقاب ، وتلك الأوزان بتلك الأسماء ، وكما ذكر الطويل والبسيط والمديد والوافر والكامل ، وأشباه ذلك ، وكما ذكر الأوتاد والأسباب والخرم والزِّحَاف . وقد ذكرت العرب فى أشعارها السِّناد والإقواء والاكفاء ، ولم أسمع الايطاء . وقالوا فى القصيد والرجز والسجع والخطب ، وذكروا حروف الرَّوِىِّ والقوافى ، وقالوا : هذا بيت وهذا مصراعٌ . وقد قال جندَلٌ الطُّهوىُّ حين مدح شعره : « لَمْ أُقْوِ فِيهِنَّ وَلَمْ أُسَانِدِ » وقال ذو الرُّمَّة (١)

وَشِعْرٍ قَدْ أَرِقْتُ لَهُ غَرِيبٍ أُجَانِبُهُ المُسَانِدَ وَالمُحَالَا (٢)

(١) هو أبو الحارث غيلان بن عقبة بن مسعود العدوى . كان من فحول الشعراء بدويا قحا وكان يأتى الحضر فيقيم بالكوفة والبصرة . قالوا : وكان ذو الرمة مدور الوجه حسن الشعر جعده أقنى أنزع خفيف العارضين أكحل حسن الضحك مفوها إذا كلمك كلمك أبلغ الناس يضع لسانه حيث يشاء . ومع ذلك فقد كان يرمى بالتطفيل . وكان كثير التشبيب بمية بنت عاصم . وبخرقاء . وكان حماد الراوية يقول : امرؤ القيس أحسن الجاهلية تشبيهاً وذو الرمة أحسن الاسلام تشبيهاً . مات فى عهد بنى أمية عن أربعين سنة

(٢) ارقت : سهرت . المساند والمحال ، من عيوب القافية

وقال أبو حزام العكلي :

بُيُوتاً نَصَبْنَا لِتَقْوِيمِهَا جُذُولَ الرَّبِيئِينَ فِي الْمَرْبَأَه(١)
بُيُوتاً عَلَى الْهَالِهَا سَجْحَةً بِغَيْرِ السِّنَادِ وَلاَ الْمُكْفَأَه(٢)

وكما سمى النحويون فذكروا : الحال والظرف ، وما أشبه ذلك ، لأنهم لو لم يضعوا هذه العلامات لم يستطيعوا تعريف القرويين وأبناء البلديين علم العروض والنحو ، وكذلك أصحاب الحساب قد اجتلبوا أسماء وجعلوها علامات للتفاهم .

قالوا : وقبيح بالخطيب أن يقوم بخطبة العيد ، أو يوم السماطين ، أو على منبر جماعة ، أو فى سدّة دار الخلافة ، أو فى يوم جمع وحفل ، إما فى إصلاح بين العشائر واحتمال دماء القبائل واستلال تلك الضغائن والسخائم ، فيقول كما قال بعض من خطب على منبر ضخم الشأن رفيع المكان : ثم إن الله عز وجل بعد أن أنشأ الخلق وسواهم ومكن لهم لاشاهم فتلاشوا . ولولا أن المتكلم افتقر إلى أن يلفظ بالتلاشى لكان ينبغى أن يؤخذ فوق يده . وخطب آخر فى وسط دار الخلافة فقال فى خطبته : وأخرجه الله من باب اللَّيْسِيَّةِ فأدخله فى باب الأَيْسِيَّةِ(٣) . وقال مرة أخرى فى خطبة له : هذا فرق ما بين السارّ والضّار والدّفاع والنفاع . وقال مرة أخرى : فدل سائره على غامره ، ودل غامره على مُنْحَلِّه . فكاد إبراهيم ابن السندى(٤) يطير شفقا(٥) ويتقد غيظا . هذا وإبراهيم من المتكلمين ، والخطيب لم يكن من المتكلمين .

وإنما جازت هذه الألفاظ فى صناعة الكلام حين عجزت الأسماء عن اتساع

(١) جذول جمع جذل : فرع الشجرة . الربيئين : المراقبين . المربأة : مكان الاستطلاع وهو المرقب

(٢) السجحة : التماثل . السناد والاكفاء من عيوب القافية

(٣) الليسية فى تعبير المتكلمين يراد بها النفي . والأيسية عندهم يراد بها الاثبات

(٤) هو ابراهيم بن السندى بن شاهك مولى بنى العباس ، قال الجاحظ : كان عالما بالدولة شديد الحب لأبناء الدعوة . وكان يحوط مواليه ويحفظ أيامهم ويدعو الناس إلى طاعتهم ويدرسهم مناقبهم ، وكان فخم المعانى فخم الألفاظ ، لو قلت إن لسانه كان أرد على هذا الملك من عشرة آلاف سيف شهير وسنان طرير لكان ذلك قولا ومذهبا .

(٥) شفقا : حنقا

المعانى . وقد تحسن أيضا ألفاظ المتكلمين فى مثل شعر أبى نُواس ، وفى كل ماقالوه على جهة التَّظَرُّف والتَّملُّح . كقول أبى نواس :

وَذَاتِ خَدٍّ مُوَرَّدْ ... قُوهِيَّةِ المُتَجَرَّدْ(١)

تَأَمَّلُ العَيْنُ مِنْهَا ... مَحَاسِناً لَيْسَ تَنْفَدْ

فَبَعْضُهَا قَدْ «تنَاهى» ... وبَعْضُهَا «يتَوَلَّدْ»(٢)

والحُسْنُ فى كلِّ عُضْوٍ ... مِنْهَا مُعَادٌ مُرَدَّدْ

وكقوله :

يَا عَاقِدَ القَلْبِ مِنِّى ... هَلَّا تَذَكَّرْتَ حَلاَّ

تَرَكْتَ قلبى قليلاً ... مِنَ القَلِيلِ أقلاَّ

يَكَادُ «لاَيتَجزَّا» ... أَقَلُّ فى اللَّفْظِ مِنْ : لَا

وقد يتملَّح الأعرابى بأن يدخل فى شعره شيئاً من كلام الفارسية كقول العُمانى للرشيد فى أُرجوزته التى مدحه فيها :

مَنْ يَلْقَهُ مِنْ بَطَلٍ مُسْرَنْدِ ... فِى زَغْفَةٍ مُحْكَمَةٍ بالسَّرْدِ(٣)

يَجُولُ بَيْنَ رَأْسِهِ و «الكَرْدِ»(٤)

ويقول فيه أيضا :

لَمَّا هَوَى بَيْنَ غِيَاضِ الأُسْدِ ... وَصَارَ فى كَفِّ الهِزَبْرِ الوَرْدِ

آلَى يَذُوقُ الدَّهْرَ «آبَ سَرْدِ»(٥)

---

(١) قوهية المتجرد : بيضاء الجسم بضته يشبهها بالمقانع القوهية . وهذه الأبيات قالها فى وصف جنان ، وفيها خلاف عما فى الديوان

(٢) تناهى : يعنى تمت محاسنه . يتولد : لاتزال محاسنه فى تجدد

(٣) الزغفة : الدرع الجيدة النسج .

(٤) قال الجاحظ : (الكرد) يعنى العنق .

(٥) آب سرد : يظهر أنه الماء البارد

وكقول الآخر :

وَوَلَّهَنِي وَقْعُ الأَسِنَّةِ وَالقَنَا … وَ«كافِر كُوبَاتٍ» لهَا عجرٌ قُفْدُ(١)

بأيْدِي رِجَالٍ مَا كَلَامِي كَلَامُهُمْ … يَسُومُونَنِي «مُرْدَا» وَمَا أنَا وَالمُرْدُ(٢)

ومثل هذا موجود فى شعر العُذَافر الكندى وغيره . ويجوز أيضا أن يكون الشعر مثل شعر الحَرَوْشاذ ، وأسوَد بن أبى كَرِيمَةَ ، كما قال يَزِيدُ بن ربيعة ابن مُفَرِّغ(٣)

آبَ اسْتُ نَبِيذَ اسْتُ … عُصَارَاتِ زَبِيبَ اسْتُ

سُمَيَّةُ رُوسَبِيذَ اسْتُ(٤)

وقال أسْوَدُ بْنُ أبى كَرِيمَةَ :

لَزِمَ الغُرَّامُ ثَوْبِي … بُكْرَةً فِي يَوْمِ سَبْتِ

فَتَمَايَلْتُ عَلَيْهِمْ … مَيْلَ زَنْجِيٍّ بِمَسْتِ

قَدْ حَسَا الدَّاذِيَّ صِرْفًا … أَوْ عُقَارًا بَايُخْسْتِ

ثُمَّ كَفْتُمْ دُو زِيَادٍ … وَيْحَكُمْ إِنْ خَرَّ كَفْتِ

إِنَّ جِلْدِي دَبَغَتْهُ … أَهْلُ صَنْعَاءَ بِجَفْتِ

وَأَبُو عَمْرَةَ عِنْدِي … إِنَّ كُورِ يَدْ نَمَسْتِ

جَالِسٌ أَنْدَرْ مَكْنَادٌ … أَيَا عَمْدِ بِنُهِسْتِ

وكما لا ينبغى أن يكون اللفظ عاميا ساقطا سوقيا ، فكذلك لا ينبغى أن

(١) الكافركوبات : آلة من آلات الحرب

(٢) مردا : موتا

(٣) كان شاعرا مجيدا حسن الغزل قوى الهجاء له اشعار كثيرة فى هجاء يزيد بن معاوية وفى آل زياد. وكان سبب هذا الهجو أن عباد بن زياد لما ولى خراسان صحبه معه ثم شغل عنه بحروبه فغضب ابن مفرغ وذمه أقبح ذم وهجاه أوجع هجاء وسلقه بلسانه فحبسه ونكل به وكان له معه ومع أخيه عبيد الله بن زياد خطوب . وله فى سعيد بن عثمان وغيره ممن واساه فى نكبته مدائح جياد

(٤) سمية : هى ام زياد

يكون غريبا وحشيا ، إلا أن يكون المتكلم بدويا أعرابيا ؛ فإن الوحشى من الكلام يفهمه الوحشىُّ من الناس كما يفهم السوقى رَطانة السوقى .

وكلام الناس فى طبقات ، كما أن الناس أنفسهم فى طبقات . فمن الكلام : الجزْل والسخيف والمليح والحسنُ والقبيح والسمج والخفيف والثقيل ، وكله عربى وبكل قد تكلموا وبكل قد تمادحوا وتعايبوا . فان زعم زاعم أنه لم يكن فى كلامهم تفاضل ولا بينهم فى ذلك تفاوت ، فلم ذكروا العيَّ والبكِيَّ والحَصِرَ والمُفْحَم والخَطِل والمسهِب والمتشدق والمتفيهق والمهماز والثرثار والمكثار والهماز ؟ ولم ذكروا الهُجْر والهَذر والهذيان والتخليط ؟ وقالوا : رجل تِلِقّاعة وتِلِهّاعة[1] وفلان يتلهيَعُ فى خطبته . وقالوا : فلان يخطئُ فى جوابه ويحيل فى كلامه ويناقض فى خبره . ولولا أن هذه الأمور قد كانت تكون فى بعضهم دون بعض لما سمى ذلك البعض والبعض الآخر بهذه الأسماء .

وأنا أقول : إنه ليس فى الأرض كلام هو أمتع ولا أنفع ولا آنق ولا ألذ فى الاسماع ولا أشدّ اتصالا بالعقول السليمة ولا أفتق للسان ولا أجود تقويما للبيان ، من طول استماع حديث الأعراب الفُصحاء العقلاء ، والعلماء البلغاء . وقد أصاب القوم فى عامة ما وصفوا ، إلا أنى أزعم أن سخيف الألفاظ مشاكل لسخيف المعانى وقد يُحتاج إلى السخيف فى بعض المواضع وربما أمتع بأكثر من إمتاع الجزل الفخم ومن الألفاظ الشريفة الكريمة المعانى ، كما أن النادرة الباردة جدًّا قد تكون أطيب من النادرة الحارة جداً ، وإنما الكرب الذى يخيم[2] على القلوب ويأخذ بالأنفاس : النادرةُ الفاترة التى لاهى حارةٌ ولا هى باردة ، وكذلك الشعر الوسط والغناء الوسط . وإنما الشأن فى الحارّ جدًّا والبارد جدًّا .

وكان محمد بن عَباد بن كاسب يقول : والله لفلان أثقل من مُغنٍّ وسط ، وأبغض من ظريف وسط .

---

(١) تلقاعة : كثير الكلام . وتلهاعة : متشدق

(٢) يخيم : يكبس

ومتى سمعت حفظك الله بنادرة من كلام الأعراب فإياك وأن تحكيها إلا مع إعرابها ومخارج ألفاظها؟ فإنك إن غيرتها بأن تلحن فى إعرابها وأخرجتها مُخرج كلام المولدين والبلديين خرجتَ من تلك الحكاية وعليك فضلٌ كبير [(١)] وكذلك إذا سمعت بنادرة من نوادر العوام ومُلحة من مُلح الحشوة والطَّغام فإياك وأن تستعمل فيها الإعراب أو أن تتخير لها لفظا حسنا أو تجعل لها من فيك مخرجا سَرِيًّا [(٢)] فان ذلك يفسد الإمتاع بها ويخرجها من صورتها ومن الذى أريدت له ويُذهب استطابتهم إياها واستملاحهم لها.

ثم اعلم أن أقبح اللحن لحن أصحاب التقعير والتقعيب والتشديق والتمطيط والجهورة والتفخيم، وأقبح من ذلك لحن الأعاريب النازلين على طرق السابلة وبقرب مجامع الأسواق. ولأهل المدينة ألسنة ذَلِقةٌ وألفاظ حسنة وعبارة جيدة واللحن فى عوامهم فاش وعلى من لم ينظر فى النحو منهم غالب.

واللحن من الجوارى الظراف ومن الكواعب النواهد ومن الشوَّابِّ الملاح ومن ذوات الخدور الغرائر، أيسر [(٣)] وربما استملح الرجل ذلك منهن مالم تكن الجارية صاحبة تكلف، ولكن إذا كان اللحن على سجية سكان البلد. وكما يستملحون اللثغاء إذا كانت حديثة السن ومقدودة مجدولة، فإذا أسنت واكتهلت تغير ذلك الاستملاح، وربما كان اسم الجارية غُلَيِّمٌ وصُبية، وما أشبه ذلك، فإذا صارت كهلة جزلة وعجوزاً شهلة وحملت اللحم وتراكم عليها الشحم، وصار بنوها رجالا وبناتها نساء، فما أقبح حينئذ أن يقال لها: ياغُليم كيف أصبحت؟ ويا صُبية كيف أمسيت؟ ولأمر ما كنّت العرب البنات فقالوا: فعلت أم الفضل وقالت أم عمرو، وذهبت أم حكيم، نعم حتى دعاهم ذلك إلى التقدم [(٤)] فى تلك الكُنَى.

(١) يعنى أنك تخرج من هذه الحكاية خائبا غير بالغ قصدك منها

(٢) سريا: فخما شريفا

(٣) راجع ما حكيناه فى هذا الموضوع من مؤاخذة الجاحظ عليه ومن الدفاع عنه فى كتابنا «أدب الجاحظ»

(٤) التقدم معناه هنا: الاكثار من هذه الكنى حتى كادت تعمهن

وقد فسرنا ذلك كله فى «كتاب الاسماء والكنى والألقاب والأنباز»

وقد قال مالكُ بن أسماء (١) فى استملاح اللحن من بعض نسائه :

أَمُغَطًى مِنِّى عَلَى بَصَرِى لِلْـ حُبِّ، أمْ أنتِ أكْمَلُ النَّاسِ حُسْنا
وَحَدِيثٍ أَلَذُّهُ هُوَ مِما يَنْعَتُ النَّاعِتُونَ يُوزَنُ وَزْنا
مَنْطِقٌ صَائِبٌ وَتَلْحَنُ أحْيا نًا وأحْلَى الحَدِيثِ مَا كَانَ لَحْنا (٢)

وهم يمدحون الحذق والرفق والتخلص إلى حبات القلوب و إلى إصابة عيون المعانى ، ويقولون : أصاب الهدف ، إذا أصاب الحق فى الجملة . ويقولون : قَرْطس فلان ، وأصاب القرطاس ، إذا كان أجود إصابة من الأول ، فاذا قالوا : رمى فأصاب الغرة وأصاب عين القرطاس ! فهو الذى ليس فوقه أحد . ومن ذلك قولهم : فلان يَفُلُّ المَحَزَّ ويُصيب المفصِلَ ويضع الهناء مواضع النقب (٣) وقال زُرارةُ ابن جَزء حين أتى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فتكلم عنده ورفع حاجته إليه :

أَتَيْتُ أَبَا حَفْصٍ وَلا يَسْتَطِيعُهُ مِنَ النَّاسِ إلَّا كالسِّنَانِ طَرِيرُ
فَوَفَّقَنِى الرَّحْمنُ لَمَّا لَقِيتُهُ وَلِلْبَابِ مِنْ دُونِ الخُصُومِ صَرِيرُ
قُرُومٌ غُيَارَى عِنْدَ بَابٍ مُمَنَّعٍ تُنَازِعُ مُلْكاً يَهْتَدِى وَيَجُورُ
فَقُلْتُ لَهُ قَوْلاً أَصَابَ فُؤَادَهُ وَبَعْضُ كَلامِ القَائِلِينَ غُرُورُ

وفى شبيه ذلك يقول عبد الرحمن بنُ حسَّان :

رِجَالٌ أصِحَّاءُ الجُلُودِ مِنَ الخَنَا وَألْسِنَةٌ مَعْرُوفَةٌ أيْنَ تَذْهَبُ (٤)

وفى إصابة فص الشىء وعينه ، يقول ذو الرُّمة فى مديح بِلالِ بنِ أبى بُرْدَةَ الأشْعَرِى :

(١) هو مالك بن أسماء بن خارجة بن حصن الفزارى . كانت أسرته من أمجد أسر العرب ، وكان مالك من أنبلها ولاه الحجاج أصبهان وتزوج أخته هند بنت أسماء . وكان أميرا سريا وشجاعا كريما وشاعرا بليغا إلا انه كان مولعا بالشراب . وله مع الحجاج خطوب وأحداث

(٢) المراد باللحن هنا الوحى والتورية . وقد قال ابوسعيد السيرافى : ما عرفت حقيقة معنى النحو إلا من معنى اللحن الذى هو ضده ، فان اللحن عدول عن طريق الصواب والنحو قصد الى الصواب

(٣) الهناء : القطران . النقب : قروح الجرب

(٤) أصحاء الجلود ، يعنى أنهم أطهار لم يمسهم ما يشينهم

تُنَاخِي عِنْدَ خَيْرِ فَتًى يَمَانٍ ... إِذَا النَّكْبَاءُ عَارَضَتِ الشَّمَالَا (١)
وَخَيْرِهِمِ مَآثِرَ أَهْلِ بَيْتٍ ... وَأَكْرَمِهِمْ وَإِنْ كَرُمُوا فِعَالَا
وَأَبْعَدِهِمْ مَسَافَةَ غَوْرِ عَقْلٍ ... إِذَا مَا الأَمْرُ فِي الشُّبُهَاتِ عَالَا (٢)
وَلَبْسٍ بَيْنَ أَقْوَامٍ فَكُلٌّ ... أَعَدَّ لَهُ الشَّغَازِبَ وَالمِحَالَا (٣)
وَكُلُّهُمُ أَلَدُّ لَهُ كِظَاظٌ ... أَعَدَّ لِكُلِّ حَالِ القَوْمِ حَالَا (٤)
فَصَلْتَ بِحِكْمَةٍ فَأَصَبْتَ مِنْهَا ... فُصُوصَ الحَقِّ فَانْفَصَلَ انْفِصَالَا

وكان أبو سعيد الرَّأْيِ ، وهو شَرْشِيرُ المدنيُّ ، يَعيب أبا حنيفة (٥)، فقال الشاعر :

عِنْدِي مَسَائِلُ لَا شَرْشِيرُ يُحْسِنُهَا ... عِنْدَ السُّؤَالِ وَلَا أَصْحَابُ شَرْشِيرِ
وَلَا يُصِيبُ فُصُوصَ الحَقِّ تَعْلَمُهُ ... إِلَّا حَنِيفِيَّةٌ كُوفِيَّةُ الدُّورِ (٦)

ومما قالوا فى الايجاز و بلوغ المعانى بالألفاظ اليسيرة ، قال ثابتُ قُطْنَة (٧)

(١) تناخى : يقول لناقته صيدح إنك ستحطين رحالك عند بلال وهو خير فتيان اليمن ، لأن الاشعريين من اليمن . النكباء والشمال من أسماء الرياح

(٢) عال : اشتد وتفاقم

(٣) لبس : خلط . الشغازب : حركات المصارعة وتسمى الشغزبية وهي أن يعقل المصارع رجله برجل خصمه فيصرعه . والمحال : الاحتيال

(٤) له كظاظ : صاحب تجارب ومراس فى الحروب

(٥) هو الامام الاعظم ابو حنيفة النعمان بن ثابت صاحب المذهب . وهو اشهر من أن يعرف . توفى سنة ١٥٠ هـ ٧٦٧ م

(٦) فصوص الحق : يريد بها عين الصواب وصميم الحقيقة

(٧) هو ابو العلاء ثابت بن كعب . كان شاعرا كاتبا فارسا شجاعا وكان فى صحابة يزيد بن المهلب فكان يوليه أعمالا من اعمال الثغور فيحمد فيها مكانه لكتابته وشجاعته . ومما يحسن ذكره له انه ولى بعض اعمال خراسان فلما صعد المنبر يوم الجمعة رام الكلام فتعذر عليه وحصر فقال : سيجعل الله بعد عسر يسرا وبعد عي بيانا وانتم إلي امير فعال احوج منكم إلى امير قوال :

وإلا اكن فيكم خطيبا فانني ... بسيفي إذا جد الوغى لخطيب

فبلغت كلماته خالد بن صفوان فقال : والله ما علا ذلك المنبر اخطب منه فى كلماته هذه ، ولو ان كلاما استخفنى فأخرجنى من بلادى إلى قائله لستحسانا له لاخرجتنى هذه الكلمات إلى قائلها، وهذه الابيات التى رواها الجاحظ فى الاصل هى من كلمة قالها يرثى بها المفضل بن المهلب ويعزى بها هند بنت المهلب حين دخل عليها والناس حولها جلوس يعزونها ، وانى اورها لاختلاف الرواية فيها قال :

مَازِلْتُ بَعْدَكَ فِى هَمٍّ يَجِيشُ بِهِ   صَدْرِى وَفِى نَصَبٍ قَدْ كَادَ يُبْلِينِى
إِنِّى تَذَكَّرْتُ قَتْلَى لَوْ شَهِدْتُهُمُ   فِى غَمْرَةِ الْمَوْتِ لَمْ يَصْلَوْا بِهَا دُونِى
لَأَكْثَرُ الْقَوْلَ فِيمَا يَهْضِبُونَ بِهِ   مِنَ الْكَلَامِ قَلِيلٌ مِنْهُ يَكْفِينِى (١)

وقال رجل من طى، ومدح كلام رجل فقال : هذا يُكتفى بأولاه، ويُشتفى بأخراه، وقال أبو وجزة السعدى؛ من سعد بن بكر، يصف كلام رجل :

يَكْفِى قَلِيلُ كَلَامِهِ وَكَثِيرُهُ   ثَبْتٌ إِذَا طَالَ النِّضَالُ مُصِيبُ

ومن كلامهم الموجز فى أشعارهم قول العُكْلِىّ فى صفة قوس :

فِى كَفِّهِ مُعْطِيَةٌ مَنُوعُ   مُوثَقَةٌ صَابِرَةٌ جَزُوعُ

وقال الآخر، ووصف سهم رامٍ أصاب حِمارا، فقال: «حتى نجا من جَوْفِهِ وما نجا»

وقال الآخر وهو يصف ذئبا :

أَطْلَسُ يُخْفِى شَخْصَهُ غُبَارُهُ   فِى شِدْقِهِ شَفْرَتُهُ وَنَارُهُ
وَهْوَ الْخَبِيثُ عَيْنُهُ فُرَارُهُ   بَهْمُ بَنِى مُحَارِبٍ مَزْدَارُهُ (٢)

ووصف الآخر ناقة فقال : « خَرْقَاءُ إلا أنها صَنَاعُ »

يا هند كيف بنصب بات يبكينى   وعائر فى سواد الليل يؤذينى
كأن ليلى والأصداء هاجدة   ليـل السليم وأعيا من يداوينى
لما حنى الدهر من قوسى وعذرنى   قاسيت منـه امر الغلظ واللين
إذا ذكرت ابا غسان ارقنى   هم إذا عرس الساوون يشجينى
كان المفضل عزا فى ذوى يمن   وعصمة وثـمالا للمساكين
ما زلت بعدك فى هم تجاش به   نفسى وفى نصب قد كاد يبلينى
إنى تذكرت قتلى لو شهدتهم   فى حومة الموت لم يصلوا بها دونى
لا خير فى العيش إن لم اجن بعدهم   حربا نبىء بهم قتلى فيشفونى

فقالت له هند : اجلس يا ثابت فقد قضيت الحق وما من المرزئة بد . وكم من ميتة ميت اشرف من حياة حي ، وليست المصيبة فى قتل من أستشهد ذابا عن دينه مطيعاً لربه ، وإنما المصيبة فيمن قلت بصيرته وخمل بعد موته ، وارجو ان لا يكون المفضل عنـد الله خاملا . وهذا كلام كاللؤلؤ المنثور وهو افضل كلام عزى به

(١) يهضبون : يسحون به سحا

(٢) عينه فراره : اي علامات الخبث ظاهرة فيه فلا تحتاج إلى استبانة

وقال الآخر ووصف سهما صارداً (١)

أَلْقَى عَلَى مَفْطُوحِهَا مَفْطُوحَا ... غَادَرَ دَاءً وَنَجَا صَحِيحَا (٢)

وقال الآخر :

إِنَّكَ يَا ابْنَ جَعْفَرٍ لا تُفْلِحُ ... اللَّيْلُ أَخْفَى وَالنَّهَارُ أَفْضَحُ

وقالوا فى المثل : أَللّيل أَخفَى للويل .

وقال رؤبة يصف حمارا :

حَشْرَجَ فِي الْجَوْفِ سَحِيلاً أَوْشَهَقْ ... حَتَّى يُقَالَ نَاهِقٌ وَمَا نَهَقْ (٣)

وقال بعض وُلْدِ العَبَّاسِ بْنِ مِرْدَاسٍ السُّلَمِيِّ فى فرس أبى الأعْوَرِ السُّلَمِيِّ :

جَاءَ كَلَمْحِ الْبَرْقِ جَاشَ نَاظِرُهْ ... يَسْبَحُ أَوْلاهُ وَيَطْفُو آخِرُهْ (٤)

فَمَا يَمَسُّ الأَرْضَ مِنْهُ حَافِرُهْ

وقال الآخر : إِنْ سَرَّكَ الأَهْوَنُ فابْدَأْ بِالأَشَدّ

وقال العَجَّاجُ :

يُمْكِنُ السَّيْفَ إِذَا الرُّمْحُ انْأَطَرْ ... مِنْ هَامَةِ اللَّيْثِ إِذَا اللَّيْثُ هَتَرْ (٥)

كَجَمَلِ الْبَحْرِ إِذَا خَاضَ جَسَرْ ... غَوَارِبَ الْيَمِّ إِذَا الْيَمُّ هَدَرْ

حَتَّى يُقَالَ جَاسِرٌ وَمَا جَسَرْ (٦)

---

(١) صاردا : نافذا

(٢) قال الجاحظ : المفطوح الأول : القوس وهو العريض وهو ههنا موضع مقبض القوس ، والمفطوح الثانى : السهم العريض ، يعنى انه القى على مقبض القوس سهما عريضاً ،

(٣) قال الجاحظ : الحشرجة صوت الصدر والسحيل صوت الحمار إذا مده والشهيق ان يقطع الصوت ، قلت : والسحيل صوت كالبحة

(٤) قال الجاحظ : جاش ناظره : اي جاش بمائه . وناظر البرق سحابه . ويسبح : يعنى يمد ضبعيه فاذا مدهما علا كفله .

(٥) إنأطر : انثنى والتوى فى يده

(٦) قال الجاحظ : اليم معظم الماء وغوارب اليم معظمه ، جسر : قطع ، ومنه قيل للجسر جسرا لأن الناس يقطعون عليه ، وقوله : حتى يقال جاسر وما جسر اى قطع الأمر وهو بعد فيه لما يرون من مضائه فيه وقدرته عليه

وقال الآخر :

يَا دَارُ قَدْ غَيَّرَهَا بِلاهَا كَأَنَّمَا بِقَلَمٍ مَحَاهَا
أَخْرَبَها عُمْرَانُ مَنْ بَنَاهَا وَكَرُّ مُمْسَاهَا عَلَى مَغْنَاهَا (١)
وَطَفِقَتْ سَحَابَةٌ تَغْشَاهَا تَبكى عَلَى عِرَاصِهَا عَيْنَاهَا (٢)

وقال غيره :

يَا عَجَّلَ الرَّحْمنُ بِالعَذَابِ لِعَامِرَاتِ البَيْتِ بِالخَرَابِ (٣)

يقول : هذا عمرانها ، كما يقول الرجل : ما نرى من خيرك ورفدك إلا ما يبلغنا من خطبك علينا وفَتِّكَ فى أعضادنا (٤) ؟ وقال الله عز وجل « هذا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ » والعذاب لا يكون نُزُلاً (٥) ولكنه لما أقام العذاب لهم فى موضع النعيم لغيرهم سمى باسمه .

وقال الآخر :

فَقُلْتُ أَطْعِمْنِى عُمَيْرُ تَمْرًا فَكَانَ تَمْرِى كَهْرَةً وَزَبْرًا (٦)

والتمر لا يكون كهرة وزبرا ، ولكنه على ذا . وقال الله عز وجل « ولَهُمْ رِزْقُهُمْ فيها بُكْرَةً وَعَشِيًّا » وليس فى الجنة بُكرة ولا عشى ، ولكن على مقدار البُكر والعشيات . وعلى هذا قول الله عز وجل « وقالَ الذِينَ فى النَّارِ لِخَزَنَةِ

(١) قال الجاحظ : أخربها عمران من بناها ، يقول : عمرها بالخراب ، وأصل العمران مأخوذ من العمر وهو البقاء فاذا بقي الرجل فى داره فقد عمرها ، فيقول إن مدة بقائه فيها أبلت منها لأن الأيام مؤثرة فى الأشياء بالنقص والبلى فلما بقي الخراب بها وقام العمران فى غيرها سمى بالعمران . قال : ممساها يعنى مساءها ، ومغناها موضعها الذى أقيم فيه ، والمغانى المنازل التى كان بها أهلوها

(٢) قال الجاحظ : وطفقت يعنى ظلت ، تبكي على عراصها عيناها : يقال لكل جوبة منفتقة ليس فيها بناء ، عرصة ، عيناها ههنا السحاب ، وجعل المطر بكاء من السحاب على طريق الاستعارة وتسمية الشيء باسم غيره إذا قام مقامه ،

(٣) عامرات البيت بالخراب ، قال الجاحظ : يعنى الفأر

(٤) فت في عضده : أضعفه وخذله

(٥) النزل : ما يقدم للنازلين من الطعام والشراب

(٦) الكهر : الاستهانة بالانسان واستقبالك إياه بوجه عابس . والزبر : الانتهار والمنع والرمى بما فى اليد من حجر ونحوه

جَهَنَّمَ » والخَزَنَةُ الحَفَظَةُ ، وجهنم لايضيع منها شيء فيحفظ ، ولا يختار دخولها إنسان فيمنع منها ؛ ولكن لما قامت الملائكة مقام الحافظ الخازن سميت به .

وقال أبو عمرو بن العلاء : اجتمع ثلاثة من الرواة فقال لهم قائل : أيُّ نصف بيت شعر أحكم وأوجز ؟ فقال أحدهم : قول حُمَيْدِ بن ثَوْرٍ الهلالىّ :

وَحَسْبُكَ دَاءً أَنْ تَصِحَّ وَتَسْلَما

ولعل حُمَيْداً أخذه عن النَّمْرِ بن تَوْلَبٍ ، قال النَّمْرُ :

يُحِبُّ الفتى طُولَ السَّلامَةِ وَالغِنَى ‏ ‏ ‏ فَكَيْفَ تَرَى طُولَ السَّلامَةِ يَفْعَلُ

وقال أبو العتاهية : « أسرَعَ فى نَقْضِ امرىءٍ تمامُهُ »

ذهب إلى كلام الأول : كلُّ ما أقام شَخَصَ ، وكلُّ ما ازداد نقص ، ولو كان الناس يُميتهم الداء إذاً لأعاشهم الدواء .

وقال الثانى من الرواة الثلاثة : بل قول أبى خِراشٍ الهُذَلِىِّ : (١)

نُوَكِّلُ بالأَدْنى وَإِنْ جَلَّ مَا يَمْضِى

وقال الثالث : بل قول أبى ذُؤَيْبٍ الهُذَلِىِّ : « وإذا تُرَدُّ إلى قليلٍ تقنعُ »

فقال قائل : هذا من مفاخر هُذَيل أن يكون ثلاثة من الرواة لم يصيبوا فى جميع أشعار العرب إلا ثلاثة أنصاف ، إثنان منها لِهُذَيل وحدها ، فقيل لهذا القائل : إنما كان الشرط أن يأتوا بثلاثة أنصاف مستغنيات بأنفسها ، والنصف الذى لأبى ذُؤَيْبٍ لايستغنى بنفسه ولا يفهم السامع معنى هذا النصف حتى يكون موصولا بالنصف الأول ، لأنك إذا أنشدت رجلا لم يسمع بالنصف الأول وسمع

(١) هو أبو خراش خويلد بن مرة . من شعراء هذيل المذكورين وفصحائهم المعروفين . نشأ فى الجاهلية وأدرك الاسلام وأسلم . وكان من العدائين الذين يسبقون الخيل عدواً على أرجلهم . نهشته أفعى فمات وذلك فى خلافة عمر بن الخطاب . وهذا الشعر من كلمة يرثى بها أخاه عروة ويذكر نجاة ولده خراش . وهى :

حمدت إلهى بعد عروة إذ نجا ‏ ‏ ‏ خراش وبعض الشر أهون من بعض
فوالله لا أنسى قتيلا رزئته ‏ ‏ ‏ بجانب قوسى ما حييت على الارض
بلى إنها تعفو الكلوم وإنما ‏ ‏ ‏ نوكل بالأدنى وإن جل ما يمضى
ولم أدر من ألقى عليه رداءه ‏ ‏ ‏ ولكنه قد سل عن ماجد محض

«وإذا تُرَدُّ إلى قليلٍ تقنعُ» قال : ومَن هذه التى تُرد إلى قليل فتقنع ؟ وليس المضمن كالمطلق . وليس هذا النصف مما رواه هذا العالم ، وإنما الرواية قوله :

« وَالدَّهْرُ لَيْسَ بِمُعْتِبٍ مَنْ يَجْزَعُ »

ومما مدحوا به الإيجاز والكلام الذى كالوحى والاشارة ، قولُ أبى دُؤَاد ابن جَرِيرٍ الإياديِّ :

يَرْمُونَ بالخُطَبِ الطِّوَالِ وتَارَةً ... وَحْيَ المَلَاحِظِ خِيفَةَ الرُّقَبَاء

فمدح كما ترى الإطالة فى موضعها ، والحذف فى موضعه.

ومما يدل على شغفهم وكلفهم وشدة حبهم للفهم والإفهام قول الأسدى فى صفة كلام رجل نعت له موضعا من تلك السباسب التى لا أمارة فيها بأقل اللفظ وأوجزه ، فوصف إيجاز الناعت وسرعة فهم المنعوت له فقال :

بِضَرْبَةِ نَعْتٍ لَمْ تُعَدْ غَيْرَ أَنَّنِى ... عَقُولٌ لِأَوْصَافِ الرِّجَالِ ذَكُورُهَا

وهو كقولهم لِابْنِ عباس : أنى لك هذا العلم ؟ قال : قلب عقول ، ولسان سؤول . وقد قال الراجز :

وَمَهْمَهَيْنِ قَذَفَيْنِ مَرْتَيْنِ ... جُبْتُهُمَا بِالنَّعْتِ لَا بِالنَّعْتَيْنِ

وقال فى التحذير من مِيْسم الشعر (١) ومن شدة وقع اللسان ومن بقاء أثره على الممدوح والمهجو . قال امرُؤُ القيسِ بنُ حُجْر :

وَلَوْ عَنْ نَثَا غَيْرِهِ جَاءَنى ... وَجُرْحُ اللِّسَانِ كَجُرْحِ الْيَدِ (٢)

وقال طَرَفةُ (٣)

(١) الميسم : العلامة التى يتركها الكي بالنار

(٢) النثا : الخبر عن الغير

(٣) هو طرفة بن العبد البكرى ، كان من مشاهير الشعراء فى الجاهلية . مات حدثا سنة ٥٦٤ م وهذا البيت الذي استشهد به الجاحظ فى الاصل من كلمة قالها يمدح بها قتادة بن سلمة الحنفى وكان اغاث قومه فى سنة شديدة . وهي :

إن امرأ سرف الفؤاد يرى ... عسلا بماء سحابة شتمى

وانا امرؤ اكوى من القصر البادي ... واغشى الدهر بالدهم

واصيب شاكلة الرمية ... إذ صدت بصفحتها عن السهم

بحُسَامِ سَيفِكَ أَوْ لِسَانِكَ والْكَلِمُ الأَصِيلُ كأَرْغَبِ الْكَلْمِ (١)

قال وأنشدنى محمد بنُ زِياد [ابن الاعرابى]

لَحَوْتُ شَمَّاساً كما تُلْحَى العِصِىّ   سبًّا لَوَ انّ السَّبَّ يُدْمِى لَدَمِى (٢)

مِنْ نَفَرٍ كُلُّهُمْ نِكْسٌ دَنِى   مَحَامِدُ الرَّذْلِ مَشَاتِيمِ السَّرِى (٣)

مَخَابِطُ العِكْمِ مَوَادِيعُ المَطِىّ   مَتَارِكُ الرَّفِيقِ بالخَرْقِ النَّطِى (٤)

وأنشد محمد بن زياد [ابن الاعرابى]

تَمَنَّى أبو العَفَّاقِ عِنْدِى هَجْمَةً   تُسَهِّلُ مَأْوَى لَيْلِهَا بالْكَلاَكِلِ

وَلا عَقْلَ عِنْدِى غَيْرُ طَعْنٍ نَوَافِذٍ   وَضَرْبٍ كأَشْدَاقِ الفِصَالِ الهَوَادِلِ

وَسَبٍّ يَوَدُّ المَرْءُ لَوْ مَاتَ قَبْلَهُ   كَصَدْعِ الصَّفَا فَلَّقْتَهُ بالمَعَاوِلِ (٥)

وقال طرفة :

رَأَيْتُ القَوَافِى يَتَّلِجْنَ مَوَالِجًا   تَضَايَقُ عَنْهَا أَنْ تَوَلَّجَهَا الإِبَرْ (٦)

وقال الأخطل (٧)

حَتَّى أَقَرُّوا وَهُمْ مِنِّى عَلَى مَضَضٍ   وَالقَوْلُ يَنْفُذُ مَا لاَ تَنْفُذُ الإِبَرُ

واحر ذا الكفل القناة على أنسائه   فيظل يستدمى

وتصد عنك مخيلة الرجل العريض موضحة عن العظم

بحسام سيفك . البيت . الخ

(١) كارغب الكلم : يعنى ان من الكلام كلام يجرح جرحا هو اوسع من جرح السيف او السنان.

(٢) لحوته : قشرته ، يعنى أبنه وعنفته حتى كشفت المستور منه بسبي له

(٣) نكس : نذل لا خير فيه . وهو موضع حمد الأراذل ومهبط لعنات السراة الاماثل .

(٤) مخابط العكم : ضرابوا الأعدال . مواديع المطى : ضعاف الركايب . الخرق النطى : المفازة البعيدة . يعنى أنهم عديموا الوفاء ولا امان لهم .

(٥) قال الجاحظ : الهجمة القطعة من النوق فيها فحل ، والكلكل الصدر ، والفصال جمع فصيل والفصيل ولد الناقة إذا فصل عنها . والهوادل العظام المشافر ، والعقل ههنا الدية والعاقلة اهل القاتل الأدنون والأبعدون . والصفا جمع صفاة وهى الصخرة .

(٦) يعنى أن قوافى الشعر تنفذ فى مداخل الأشياء التى تضيق عن ان تنفذ فيها الابر . وقبل هذا البيت :

اعمرو بن هند ماترى راى صرمة   لها سبب ترعى به الماء والشجر

(٧) هو ابو مالك غياث بن غوث ، الأخطل التغلبي . شاعر فحل من شعراء الدولة الأموية نازع جريراً والفرزدق التقدم والتفوق . وقد فضله كثير من العلماء بالشعر عليهما . وكان نصرانيا مات.

وقال العُمانيُّ :

إذْهُنَّ فى الرَّيْطِ وَفِى المَوَادِعِ   تَرْمِى إليهِنَّ كَبَذْرِ الزَّارِعِ (١)

وقالوا : الحرب أولها شكوى وأوسطها نجوى وآخرها بلوى . وكتب نصر ابن سيار إلى ابن هُبَيْرَة أيام تحرك أمر السواد بخراسان (٢)

أرَى خَلَلَ الرَّمادِ وَمِيضَ جَمْرٍ   فيُوشِكُ أنْ يَكُونَ لهُ اضْطِرَامُ

فإنَّ النَّارَ بالعُودَيْنِ تُذْكى   وَإنَّ الحَرْبَ أوَّلُها كَلامُ (٣)

فَقُلْتُ مِنَ التَّعَجُّبِ: لَيْتَ شِعْرِى   أأيْقاظٌ أُمَيَّةُ أمْ نِيامُ

فإنْ كانُوا لِحَينِهِمِ نِيامًا   فَقُلْ قُومُوا فقدْ حَانَ القِيامُ (٤)

وقال بعض المولدين :

إذَا نِلْتُ العَطِيَّةَ بَعْدَ مَطْلٍ   فلاَ كانَتْ ، وَإنْ كانَتْ جَزِيلَهْ

وَسَقْيًا لِلْعَطِيَّةِ ثُمَّ سَقْيًا   إذا سَهُلَتْ، وَإنْ كانَتْ قَلِيلَهْ (٥)

وَلِلشُّعَرَاءِ ألْسِنَةٌ حِدَادٌ   عَلَى العَوْرَاتِ مُوفِيَةٌ دَلِيلَهْ

وَمِنْ عَقْلِ الكَرِيمِ إذَا اتَّقاهُمْ   وَدَارَاهُمْ مُدَارَاةً جَمِيلَهْ

إذَا وَضَعُوا مَكاذِبَهُمْ عَلَيْهِ   وَإنْ كَذَبُوا فَلَيْسَ لَهُنَّ حِيلَهْ (٦)

وقالوا : مُذاكرة الرجال تلقيح لألبابها . ومما قالوا فى صفة اللسان قول الأسدى أنشدنيها ابنُ الأعرابى :

سنة ٩٢ هـ وهذا البيت من قصيدته المشهورة التى مدح بها عبد الملك وبنى امية وهجا بها قبائل قيس ، وهى من اجود شعره . واولها :

خف القطين فراحوا عنك أوبكروا   وازعجتهم نوى فى صرفها غير

(١) قال الجاحظ : الريط الثياب واحدها ريطة ، والريطة كل ملاءة لم تكن لفقين ، والحلة لاتكون إلا ثوبين ، والموادع الثياب التى تصون غيرها ، واحدتها ، ميدعة ،

(٢) كان فى الاصل : امير ، وليس هنا مكانها لمن يعرف مقامات الكلام

(٣) تذكى : تتقد

(٤) لحينهم : لهلاكهم

(٥) سقيا لها : يعنى حبذا هى

(٦) مكاذب جمع مكذبة وهى الفرية والأكذوبة

وَأَصْبَحْتُ أَعْدَدْتُ لِلنَّائِبَاتِ ... عِرْضاً بَرِيئاً وَعَضْباً صَقِيلاً (١)

وَوَقْعَ لِسَانٍ كَحَدِّ السِّنَانِ ... وَرُمْحاً طَوِيلَ القَنَاةِ عَسُولاً

وقال الأعشى :

أُدَافِعُ عَنْ أَعْرَاضِكُمْ وَأُعِيرُكُمْ ... لِسَاناً كَمِقْرَاضِ الخَفَاجِيِّ مِلْحَبَا (٢)

وقال ابنُ هَرْمَةَ (٣)

قُلْ لِلَّذِي ظَلَّ ذَا لَوْنَيْنِ يَأْكُلُنِي ... لَقَدْ خَلَوْتَ بِلَحْمٍ عَارِمِ الْبَشَمِ

إِيَّاكَ لَا أُلْزِمَنْ لَحْيَيْكَ مِنْ لُجُمِي ... نِكْلاً يُنَكِّلُ قَرَّاصاً مِنَ اللُّجُمِ

إِنِّي امْرُؤٌ لَا أَصُوغُ الحَلْيَ تَعْمَلُهُ ... كَفَّايَ لَكِنْ لِسَانِي صَائِغُ الْكَلِمِ

وقال الراجز :

إِنِّي بَغَيْتُ الشِّعْرَ وَابْتَغَانِي ... حَتَّى وَجَدْتُ الشِّعْرَ فِي مَكَانِي

فِي عَيْبَةٍ مِفْتَاحُهَا لِسَانِي (٤)

وأنشد :

إِنِّي وَإِنْ كَانَ إِزَارِي خَلَقاً ... وَبَرْنَكَانِي سَمَلاً قَدْ أَخْلَقَا (٥)

قَدْ جَعَلَ اللهُ لِسَانِي مُطْلَقاً

---

(١) العضب الصقيل : السيف البراق

(٢) القراض : المقص . الخفاجي نسبة الى خفاجة وهو حي من بنى عامر ، ولعله يقصد واحداً منهم كان حجاما . قال الجاحظ : الملحب القاطع

(٣) سبقت ترجمته فى صفحة ١٠٥ . وهذه الأبيات من كلمة قالها وقد بلغه ان المسور بن عبدالملك المخزومي يعيب شعره . وقد رويت هكذا :

إياك لا ألزمن لحييك من لجمى ... نكلا ينكل قراصا من اللجم

بدق لحييك أو تنقاد متبعاً ... مشى المقيد ذى القردان والحلم

إني إذا ما أمرؤ خفت نعامته ... إلى واستحصدت منه قوي الوذم

عقدت فى ملتقى اوداج لبته ... طوق الحمامة لا يبلى على القدم

إنى امرؤ لا أصوغ الحلى تعمله ... كفاي لكن لسانى صائغ الكلم

إن الاديم الذي أمسيت تقرظه ... جهلا لذو نغل باد وذو حلم

ولا يئط بأيدي الخالقين ولا ... أيدى الخوالق إلا جيد الأدم

(٤) العيبة : زبيل من أدم اى جلد (شنطة)

(٥) وبرنكانى : هذه كلمة معربة معناها الكساء ، وهى ايضا تطلق على الثوب قد نسج من الحرير الخشن

بسم الله الرحمن الرحيم

قال أبو عثمان : والعَتَّابِيُّ حين زعم أن كل من أفهمك حاجته فهو بليغ ، لم يَعنِ أن كل من أفهمنا من معاشر المولدين والبلديين قصدَه ومعناه بالكلام الملحون والمعدول عن جهته والمصروف من حقه ، أنه محكوم له بالبلاغة كيف كان بعد أن نكون قد فهمنا عنه معنى كلام النبطى الذى قيل له : لم اشتريت هذه الأتان؟ قال : أركبها وتَلَدُ لى ، وقد علمنا أن معناه كان صحيحاً . وقد فهمنا قول الشيخ الفارسى حين قال لأهل مجلسه : ما من شر من دَيْن . وأنه قال حين قيل له : ولم ذاك يا أبا فلان ؟ قال : من جرَّى يتعلقون[1] . وما نشك أنه قد ذهب مذهباً . وأنه كما قال معنى قول أبى الْجُهَيْرِ الْخُرَاسانى النخاس حين قال له الْحَجَّاج : أتبيع الدواب المعيبة من جند السلطان ؟ قال . شريكاتنا فى هوازها وشريكاتنا فى مداينها وكما تجىء تكون! قال الحجاج : ماتقول ويلك ؟ فقال بعض من قد كان اعتاد سماع الخطأ وكلام الْعُلُوج بالعربية حتى صار يفهم مثل ذلك : يقول شركاؤنا بالأهواز والمدائن يبعثون إلينا بهذه الدواب فنحن نبيعها على وجوهها . وقلت لخادم لى : فى أى صناعة أُسْلِمُ هذا الغلام ؟ قال أصحاب سِنْد نِعال ! يريد فى أصحاب النعال السندية[2] وكذلك قول الكاتب المغلاق للكاتب الذى دونه : أكتب لى قل حطى وريحى منه !

فمن زعم أن البلاغة أن يكون السامع يفهم معنى القائل جعل الفصاحة واللُّكْنَةَ والخطأ والصواب والاغلاق والابانة والملحون والمعرب كله سواء وكله بياناً . وكيف يكون ذلك كله بياناً ولولا طول مخالطة السامع للعجم وسماعه للفاسد من الكلام لما عرفه ؟ ونحن لم نفهم عنه إلا للنقص الذى فينا . وأهل هذه اللغة وأرباب هـذا البيان لايستدلون على معانى هؤلاء بكلامهم كما لايعرفون رطانة

(١) يريد من أصحاب الديون لأنهم يتعلقون بغرمهم مطالبين بدينهم

(٢) خادم الجاحظ اسمه نفيس وكان الجاحظ كثير التندر به

الرومي والصقلبي ، وإن كان هذا الاسم إنما يستحقونه بأنا نفهم عنهم كثيراً من حوائجهم، فنحن قد نفهم من حمحة الفرس كثيراً من حاجاته، ونفهم بِضُغَاءِ السِّنَّوْرِ كثيراً من إراداته ، وكذلك الكلب والحمار والصبي الرضيع !؟ وإنما عنى العَتَّابي إفهامك العرب حاجتك على مجرى كلام الفصحاء ، وأصحاب هذه اللغة لايفقهون قول القائل منا « مُكْرَهٌ أخاك لا بَطَلْ » و « إذا عَزَّ أخاكَ فَهُنْ »

ومن لم يفهم هذا لم يفهم قولهم : ذهبت إلى أبو زيد ، ورأيت أبي عمرو . ومتى وجد النحويون أعرابياً يفهم هذا وأشباهه بَهْرَجُوهُ[١]، ولم يسمعوا منه ، لأن ذلك يدل على طول إقامته في الدار التي تُفسد اللغة وتنقص البيان ، لأن تلك اللغة إنما انقادت واستوت واطردت وتكاملت بالخصال التي اجتمعت لها في تلك الجزيرة وفي تلك الجيرة ، ولفقد الخطأ من جميع الأمم . ولقد كان بين يزيد ابن كَثْوَةَ[٢] يوم قدم علينا البصرة وبينه يوم مات بون بعيد ، على أنه قد كان وضع منزله في آخر موضع الفصاحة وأول موضع العُجمة ، وكان لا ينفك من رواة ومذاكرين .

وزعم أصحابنا البَصْريُّونَ عن أبي عَمْرِو بْنِ العلاء ، أنه قال : لم أر قَرَوِيَّيْنِ أفصح من الحسن[٣] والحجاج . وكان مازعموا لا يبرئهما من اللحن . وزعم أبو العاصي أنه لم ير قروياً قط لايلحن في حديثه وفيما يجرى بينه وبين الناس إلا ماتفقده من أبي زَيْدٍ النحوي[٤] ومن أبي سعيد المعلم.

وقد روي أصحابنا أن رجلا من البلديين قال لأعرابي . كيف أهلِكَ؟ قالها

(١) بهرجوه : زيفوه

(٢) يزيد بن كثوة : أعرابي كانت تؤخذ عنه اللغة

(٣) هو أبو سعيد الحسن البصري . وقد كتبنا له ترجمة وافية وبحثا مستفيضا في كتابنا « شيوخ المعتزلة ومذاهبهم » وسنطبعه قريبا إن شاء الله

(٤) هو أبو زيد سعيد بن أوس الأنصاري ، كان إماما حجة في النحو والأدب واللغة والنوادر والغريب . أخذ عن المفضل الضبي . قال أبو عثمان المازني : رأيت الأصمعي جاء إلى حلقة أبي زيد فقبل رأسه وجلس بين يديه وقال : أنت سيدنا ورئيسنا منذ خمسين سنه . وله تصانيف كثيرة . ولد في ١٢٢ وتوفي سنة ١٢٥ هـ

بكسر اللام ، قال : صَلَبًا ! لأنه أجابه على فهمه ، ولم يعلم أنه أراد المسألة عن أهله وعياله . وسمعت ابنَ يسيرٍ - وقال له المفضل العنبرى : إنى عثرت البارحة بكتاب وقد التقطته وهو عندى ، وقد ذكروا أن فيه شعراً ، فان أردته وهبته لك - قال ابن يسير (١) : أريده إن كان مقيداً ! قال : والله ما أدرى أكان مقيداً أو مغلولا ! ولو عرف التقييد لم يلتفت إلى روايته . وحكى الكسائى (٢) أنه قال لغلام بالبادية : من خلقْك ؟ وجزم القاف - فلم يدر ما قال ولم يجبه . فرد عليه السؤال . فقال الغلام : لعلك تريد من خَلَقَكَ ..؟ وكان بعض الأعراب إذا سمع رجلا يقول : نعم . فى الجواب . قال : نَعَمُ وشاء . لأن لغته « نعِم » وقيل لعُمَرِ بن لجأ (٣) : قل : « إنا مِنَ المجْرمُونَ مُنتَقمين » ؟ قال : « إنَّا مِنَ المجْرِمين مُنْتَقِمون » وأنشد الكسائى كلاماً دار بينه و بين بعض فتيان البادية فقال :

عَجَبًا مَا عَجَبٌ أعْجَبَنِى ... مِنْ غُلَامٍ حَكَمِيٍّ أُصُلَا
قُلْتُ : هَلْ أحْسَسْتَ رَكْبًا نَزَلُوا ... حِضْنًا مادُونَهُ ؟ قالَ : هَلَا (٤)
قُلْتُ : بيِّنْ ما هَلَا ، هَلْ نَزَلُوا ؟ ... قالَ : حُوبًا . ثم وَلَّى عَجِلَا (٥)
لَسْتُ أدْرى عِنْدَهَا ما قالَ لِى ... أنَعَمْ ما قالَ لِى ؟ أمْ قالَ : لَا
تِلْكَ مِنْهُ لُغَةٌ تُعْجِبُنِى ... زَادَتِ القَلْبَ خَبَالًا خَبَلَا

قال مولى زياد لزياد : أهدوا لنا هِمار وهش . قال : أى شىء تقول و يلك ؟ قال : أهدوا لنا أيْرًا ، يريد أهدوا لنا عَيرًا . قال زياد : ويلك الأول خير . وقال الشاعر يذكر جارية له لَكْنَاء :

(١) كان فى الاصل : ابن بشير ، وهو تصحيف والصواب ما أثبتناه

(٢) هو على بن حمزة الكسائى إمام الكوفيين في النحو واللغة والأدب وأحد القراء السبعة المشهورين . قال ابن الأعرابى : كان الكسائى أعلم الناس بالفقه ضابطا عالما بالعربية قارئا صدوقا إلا انه كان يديم شرب النبيذ وغيره . مات بالري سنة ١٩٢ هـ

(٣) هو عمر بن لجأ الشاعر الفحل الذي وقف يهاجى جرير . وهو من شعراء الدولة الاموية الفصحاء البلغاء

(٤) الحضن : ماذون الابط إلى الكشح . وهلا : كلمة زجر

(٥) حوبا : إثما وعيباً

أَوَّلُ مَا أَسْمَعُ مِنْهَا فِى السَّمَرْ تَذْكِيرُهَا الأُنْثَى وَتَأْنِيثُ الذَّكَرْ
وَالسَّوْأَةُ السَّوْآءُ فِى ذِكْرِ القَمَرْ

فزياد قد فهم عن مولاه ، وصاحب الجارية قد فهم عن جاريته . ولكنهما لم يفهما عنها من إفهامهما لهما ، ولكنهما لما طال مقامهما فى الموضع الذى يكثر فيه سماعهما لهذا الضرب صارا يفهمان هذا الضرب من الكلام .

ذكر ما قالوا فى مديح اللسان بالشعر الموزون واللفظ المنثور

مما جاء فى الأثر وصح به الخبر

قال الشاعر :

أَرَى النَّاسَ فِى الأَخْلَاقِ أَهْلَ تَخَلُّقٍ وَأَخْبَارُهُمْ شَتَّى فَعُرْفٌ وَمُنْكَرُ (١)
قَرِيبًا تَدَانِيهِمْ إِذَا مَا رَأَيْتَهُمْ وَمُخْتَلِفًا مَا بَيْنَهُمْ حِينَ تَخْبُرُ (٢)
فَلَا تَحْمَدَنَّ الدَّهْرَ ظَاهِرَ صَفْحَةٍ مِنَ المَرْءِ مَا لَمْ تَبْلُ مَا لَيْسَ يَظْهَرُ (٣)
فَمَا المَرْءُ إِلَّا الأَصْغَرَانِ لِسَانُهُ وَمَعْقُولُهُ وَالجِسْمُ خَلْقٌ مُصَوَّرُ
وَمَا الزَّيْنُ فِى ثَوْبٍ تَرَاهُ وَإِنَّمَا يَزِينُ الفَتَى مَخْبُورُهُ حِينَ يُخْبَرُ
فَإِنْ طُرَّةٌ رَاقَتْكَ مِنْهُمْ فَرُبَّمَا أَمَرَّ مَذَاقُ العُودِ وَالعُودُ أَخْضَرُ (٤)

وقال سُوَيْدُ بنُ أبى كاهل (٥) فى ذلك :

وَدَعَتْنِى بِرُقَاهَا أَنَّهَا تُنْزِلُ الأَعْصَمَ مِنْ رَأْسِ اليَفَعْ (٦)

---

(١) أهل تخلق : يقلد بعضهم بعضا فى الاخلاق وليسو على طبع واحد
(٢) حين تخبر : حين تنكشف أحوالهم وحقائق أمورهم
(٣) ظاهر صفحة : حسن الوجه وجمال الهيئة . تبل : تخبر وتكشف
(٤) طرة : ليس بريد الطرة بعينها وهي شعر الجمة وإنما المراد اى حالة ظاهرة خادعة يبهرجها
(٥) هو سويد بن أبى كاهل اليشكرى ، شاعر مخضرم من مقدمي الشعراء فى الجاهلية والاسلام . وهذه الابيات من قصيدته البارعة التى قال فيها الاصمعى : كانت العرب تفضلها وتعدها من حكمها وكانت تسميها فى الجاهلية « اليتيمة » وهي مثبتة بكاملها بالمفضليات ومشروحة بقلمنا
(٦) الأعصم : الوعل . اليفع : أعلى مكان فى الجبل

تُسْمِعُ الْحُدَّاثَ قَوْلاً حَسَناً ... لَوْ أَرَادُوا غَيْرَهُ لَمْ يُسْتَطَعْ (١)

وَلِسَاناً صَيْرَفِيًّا صَارِمًا ... كَحُسَامِ السَّيْفِ مَا مَسَّ قَطَعْ (٢)

وقال جَرِيرٌ (٣)

وَلَيْسَ لِسَيْفِي فِي الْعِظَامِ بَقِيَّةٌ ... وَلَلسَّيْفُ أَشْوَى وَقْعَةً مِنْ لِسَانِيَا (٤)

وقال الآخر :

وَجُرْحُ السَّيْفِ تَدْمُلُهُ فَيَبْرَى ... وَيَبْقَى الدَّهْرَ مَا جَرَحَ اللِّسَانُ

وقال الآخر :

أَبَا صُبَيْعَةَ لا تَعجَلْ بِسَيِّئَةٍ ... أَنَا ابْنُ عَمِّكَ وَاذْكُرْهُ بِإِحْسَانِ

إِمَّا تَرَانِي وَأَثْوَابِي مُقَارِبَةٌ ... لَيْسَتْ بِخَزٍّ وَلاَ مِنْ نَسْجِ كَتَّانِ

فَإِنَّ فِي المجْدِ هِمَّاتِي وَفِي لُغَتِي ... عُلْوِيَّةٌ وَلِسَانِي غَيْرُ لَحَّانِ

وفيما مدحوا به الأعرابي إذا كان أديباً ، أنشدني ابنُ أبي كريمة ، واسمه أسود :

أَلاَ زَعَمَتْ عَفْرَاءُ بِالشَّامِ أَنَّنِي ... غُلَامُ جَوَارٍ لَا غُلَامُ حُرُوبِ

وَإِنِّي لَأَهْذِي بِالأَوَانِسِ كَالدُّمَى ... وَإِنِّي بِأَطْرَافِ القَنَا لَلَعُوبُ

وَإِنِّي عَلَى مَا كَانَ مِنْ عُنْجُهِيَّتِي ... وَلُوثَةِ أَعْرَابِيَّتِي لَأَدِيبُ (٥)

وقال ابنُ هَرْمَة :

(١) يعنى أنها مطبوعة على القول الحسن فلا تستطيع العدول عنه بحال

(٢) اللسان الصيرفي : الذي ينقد الكلام ويتخير أحسنه وامضاه

(٣) هو جرير بن عطية الخطفى اليربوعى . كان هو والفرزدق والأخطل المقدمين على شعراء الاسلام ، وكان جرير اكثرهم فنون شعر واسلسهم ألفاظا واقلهم تكلفا وارقهم نسيبا واسيرهم شعرا . مع عفة ودين . قال الاصمعي : كان ينهش جريرا ثلاثة واربعون شاعرا فينبذهم وراء ظهره ويرمي بهم واحدا واحدا ، ومنهم من كان ينفحه فيرمى به وثبت له الفرزدق والاخطل . كانت ولادته سنة ٢٩ وتوفي باليمامة سنة ١١١ ﻫ بعد وفاة الفرزدق بسنة

(٤) يعنى مع ان سيفه لايترك بقية فى العظم لشدة مضائه فان لسانه اشد مضاء من سيفه هذا

(٥) اللوثة : ضرب من الجنون او هى نوع من الرعونة

لِلّهِ دَرُّكَ مِنْ فَتًى فَجِعَتْ بِهِ ... يَوْمَ الْبَقِيعِ حَوَادِثُ الأَيَّامِ
هَشٌّ إِذَا نَزَلَ الْوُفُودُ بِبَابِهِ ... سَهْلُ الْحِجَابِ مُؤَدَّبُ الْخُدَّامِ
فَإِذَا رَأَيْتَ شَقِيقَهُ وَصَدِيقَهُ ... لَمْ تَدْرِ أَيُّهُمَا أَخُو الأَرْحَامِ

وقال كعبُ بنُ سعدٍ الغنويُّ (١)

حَبِيبٌ إِلَى الزُّوَّارِ غِشْيَانُ بَيْتِهِ ... جَمِيلُ الْمُحَيَّا شَبَّ وَهْوَ أَدِيبُ
إِذَا مَا تَرَاآهُ الرِّجَالُ تَحَفَّظُوا ... فَلَمْ تَنْطِقِ الْعَوْرَاءَ وَهْوَ قَرِيبُ (٢)

وقال الحارثى :

وَتَعْلَمُ أَنِّى مَاجِدٌ وَتَرُوعُهَا ... بَقِيَّةُ أَعْرَابِيَّةٍ فِى مُهَاجِرِ (٣)

وقال الآخر :

وَإِنَّ امْرَأً فِى النَّاسِ يُعْطَى ظُلَامَةً ... وَيُمْنَعُ نِصْفَ الْحَقِّ مِنْهُ لَرَاضِعُ (٤)
أَلْمَوْتَ يَخْشَى أَثْكَلَ اللّهُ أُمَّهُ ... أَمِ الْعَيْشَ يَرْجُو نَفْعَهُ وَهْوَ ضَائِعُ
وَيَطْعَمُ مَالَمْ يَنْدَفِعْ فِى مَرِيئِهِ ... وَيَمْسَحُ أَعْلَى بَطْنِهِ وَهْوَ جَائِعُ (٥)
وَإِنَّ الْعُقُولَ فَاعْلَمَنَّ أَسِنَّةٌ ... حِدَادُ النَّوَاحِى أَرْهَفَتْهَا الْمَوَاقِعُ (٦)

ويقول : كأن لسانه لسان ثَوْر . وحدثنى من سمع أعرابيا مدح رجلا برقة اللسان فقال : كان والله لسانه أرق من ورقه ، وألين من سَرَقه (٧) . وقال النبى صلى الله عليه وسلم لِحسّان بن ثابتٍ : ما بَقِى من لسانك ؟ فأخرج لسانه حتى ضرب بطرفه أرنبته ثم قال : والله ما يسرنى به مِقْوَلٌ من مَعَدّ ، والله لو وضعته على

---

(١) يسميه صاحب الجمهرة « محمد بن كعب الغنوى » وهذان البيتان من قصيدة جيدة تعد من المراثى فى الجمهرة

(٢) تراآه : نظروا إليه عن بعد أو لاح لهم فأبصروه . تحفظوا : احتشموا . العوراء : الكلمة الرزئة

(٣) بقية أعرابية : يعنى أن به بقية من طباع البدو

(٤) يعطى ظلامة : يقع عليه الظلم . نصف الحق الانصاف والعدل . لراضع . لئيم خسيس

(٥) مالا يندفع فى مريئه . مالا يستطيع ازدراده وما يغص به

(٦) أرهفتها المواقع : أحدتها كثرة الأحداث

(٧) السرقة : القطعة الرقيقة من الحرير المنسوج

صخر لفلقه ، أو على شعر لحلقه . قال : وسمعت أعرابيا يصف لسان رجل فقال : كان يَشُولُ بلسانه شَوَلان البَروقِ (١) ويتخلل به تخلل الحية . وأظن هذا الأعرابي أبا وَجيهٍ العُكْلِيّ .

وإنما سمي شوّال شوّالا لأن النوق شالت بأذنابها فيه . فان قال قائل : قد يتفق أن يكون شوال في وقت لا تشول الناقة بذنبها فيه ! فَلِمَ بقي هذا الاسم عليه وقد ينتقل ماله لزم عنه ؟ قيل له : إنما جعل هذا الإسم له سِمَةً حيث اتفق أن شالت النوق بأذنابها فيه فبقي عليه كالسِّمَةِ ، وكذلك رمضان إنما سمي لرَمَض الماء فيه ، وإن كان قد يتفق هذا الاسم في وقت البرد والحر .

ووصف أعرابيٌّ رجلا فقال : أتيناه فأخرج لسانه كأنه مِخْراق لاعِبٍ (٢) وقال العباس بن عبد المطلب للنبي صلى الله عليه وسلم : يارسول الله ، فيم الجمال ؟ قال في اللسان . وكان مُجاشِعُ بنُ دَارِمٍ خطيباً سليطا ، وكان نَهْشَلُ بَكيئاً مَنزوراً (٣) فلما خرجا من عند بعض الملوك عذله مجاشع في تركه الكلام . فقال له نهشل : إني والله لا أحسن تَكْذَابكَ ولا تأثامَكَ (٤) ، تَشول بلسانك شَوَلانَ البَرُوقِ

وقالوا : أعْلى جميع الخلق مرتبةً الملائكةُ ، ثم الإنس ، ثم الجن . وإنما صار لهؤلاء المزية على جميع الخلق بالعقل وبالاستطاعة على التصرف وبالمنطق .

وقال خالدُ بنُ صفوان : ما الانسان لولا اللسان إلا صورة ممثلة أو بهيمة مهملة .

وقال رجل لخالد بن صفوان : مالي إذا رأيتكم تتذاكرون الأخبار وتتدارسون الآثار وتتناشدون الأشعار ، وقع عليّ النوم ؟ قال : لأنك حمارٌ في مِسلاخ إنسان (٥)

وقال صاحب المنطق : حد الانسان الحي الناطق المبين . وقال الأعور الشَّنّيُّ (٦)

---

(١) قال الجاحظ : يشول يرفع . البروق الناقة إذا طلبت الفحل فلها حينئذ ترفع ذنبها

(٢) مخراق اللاعب : هو خرقة تفتل ويعرها اللاعبون مرا سريعا ، وقد تكون منديلا ، يضرب بها بعضهم بعضا

(٣) بكيئا : قليل الكلام . منزورا : لايكاد يتكلم إلا إذا ألححت عليه

(٤) تكذابك : أن أكذبك : تأثامك : ان اوثمك .

(٥) مسلاخ الانسان : جلده

(٦) هذان البيتان يرويان لزهير بن ابي سلمى وهما ضمن معلقته ، ويظهر أن هذا من تخابط الرواة وعبثهم

وَكائِنْ تَرَى مِنْ صَامِتٍ لَكَ مُعْجَبٍ   زِيَادَتُهُ أَوْ نَقْصُهُ فِى التَّكَلُّمِ
لِسَانُ الفَتَى نِصْفٌ وَنِصْفٌ فُؤَادُهُ   فَلَمْ تَبْقَ إِلَّا صُورَةُ اللَّحْمِ وَالدَّمِ

ولما دخل ضَمْرَةُ بن ضَمْرَةَ على النُّعْمانِ بنِ المنذرِ زَرَى عليه للذى رأى من دمامته وقصره وقلته فقال النعمان: تسمع بالمُعَيْدِىِّ لا أن تراه؟ فقال: أَبَيْتَ اللَّعْنَ، إنَّ الرجالَ لا تُكالُ بالقُفْزانِ ولا توزَنُ بميزان، وليست بمسوك(١) يُستقى بها، وإنما المرء بأصغريه: بقلبه ولسانهِ، إن صال صال بجَنان، وإن قال قال ببيان.

واليمانية تجعل هذا للصقْعب النهدِىِّ، فان كان ذلك كذلك فقد أقروا أن نبدأ من مَعَدٍّ.

وكان يقال: عقلُ المرءِ مدفونٌ بلسانه.

باب فى ذكر اللساد

قال الحسن: لسان العاقل من وراء قلبه، فإذا أراد الكلام تفكر، فان كان له قال، وإن كان عليه سكت. وقلب الجاهل من وراء لسانه، فان همَّ تكلم به، له أو عليه.

وقال أبو الوجيه: حدثنى الفرزدق (٢) قال: كنا فى ضيافة معاوية بن أبى سفيان ومعنا كعب بن جُعَيْل التغلبى فقال له يزيد: إن ابن حسان —

---

(١) المسوك: الجلود (القرب)

(٢) هو همام بن غالب التميمى ابو فراس. وهو وجرير والاخطل الذين ذهبوا بالتقدم على شعراء الاسلام فى عهد بنى مروان. وكان شاعرا فخم العبارة شديد اسر الكلام جيد الاسلوب. وكانت بينه وبين زميليه مناقضات ومنافرات ومنافسات واهاج. مات سنة ١١٠ هـ ورثاه جرير بأبيات منها:

فلا ولدت بعد الفرزدق حامل   ولا ذات بعل من نفاس تعلت
هو الوافد الميمون والراتق الثأى   إذا النعل يوما بالعشيرة زلت

يريد عبد الرحمن(١) — قد فضحنا فاهج الأنصار. قال: أرَادّي أنتَ إلى الإشْرَاكِ بَعْدَ الاسلام؟ لا أهجو قوماً نصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكني أدلك على غلام منا نصراني كأن لسانه لسان ثور: يعني الأخطل(٢)

وقال سعدُ بنُ أبي وقّاصٍ لِعُمَر ابنه — حين نطق مع القوم فبذهم وقد كانوا كلموه في الرضا عنه — قال: هذا الذي أغضبني عليه إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «يكون قوم يأكلون الدنيا بألسنتهم كما تلحس الأرض البقرة بلسانها»

وقال معاوية لعمرو بن العاص: ياعمرو إن أهل العراق قد أكرهوا عليا على أبي موسى، وأنا وأهل الشام راضون بك، وقد ضم إليك رجل طويل اللسان قصير الرأى، فأجد الحز وطبق المفصل، ولا تلقه برأيك كله.

والعجب من قول ابن الزبير للأعراب: سلاحكم رث، وحديثكم غث!؟ وكيف يكون هذا وقد ذكروا أنه أحسن الناس حديثاً وأن أبا نَضْرَة وعبيد الله ابن أبي بكرة(٣) إنما كانا يحكيانه، فلا أدرى إلا أن يكون حسن حديثه

---

(١) كان السبب فى ذلك ان عبد الرحمن بن حسان بن ثابت الانصارى احب رملة بنت معاوية فقال فيها:

رمل هل تذكرين يوم غزال ... إذ قطعنا مسيرنا بالتمنى
إذ تقولين عمرك الله هل شىء وإن جل سوف يسليك عنى
ام هل اطمعت منكم يا ابن حسان كما قد اراك اطمعت منى

(٢) فقال الأخطل فى ذلك قصيدة منها:

وإذا نسبت ابن الفريعة خلته ... كالجحش بين حمارة وحمار
لعن الاله من اليهود عصابة ... بالجزع بين صليصل وحرار
قوم إذا هدر العصير رأيتهم ... حمرا عيونهم من المسطار
خلو المكارم لستموا من اهلها ... وخذوا مساحيكم بنى النجار
إن الفوارس يعلمون ظهوركم ... اولاد كل مقبح اكار
ذهبت قريش بالمكارم والعلا ... واللؤم تحت عمائم الانصار

(٣) اما ابو نضرة فهو المنذر بن مالك من العوقة وهم بطن من عبد القيس. توفى فى ولاية عمر ابن هبيرة. واما عبيد الله بن ابى بكرة — كان بالأصل عبد الله بن ابي بكر وهو خطأ لأن عبد الله ابن ابى بكر مات فى عهد ابيه ولم يكن ابن الزبير قد بلغ الحلم. فأصلحناه على مازرى — كان عبيد الله هذا من اجمل الناس واشجعهم واكرمهم واحسنهم حديثا. وكان مع هذا شديد السواد. وكان عبد الملك بن مروان يقول عنه إنه سيد اهل الشرق. ولاه الحجاج سجستان سنة ثمان وسبعين فغزا

هو الذي ألقى الحسد بينه و بين كل حسن الحديث .

وقد ذكروا أن خالد بن صَفْوان تكلم فى بعض الأمر فأجابه رجل من أهل المدينة بكلام لم يظن خالدٌ أن الكلام كان عنده فلما طال بهما المجلس كان خالد عرَّض له (١) ببعض الأمر فقال المدنى : يا أبا صفوان ، ما من ذنب إلا اتفاق الصناعتين . وقال رجل من بنى مِنقر : تكلم خالد بن صفوان فى صلح بكلام لم يسمع الناس قبله مثله ، وإذا أعرابى فى بت (٢) ما فى رجليه حِذاء ، فأجابه بكلام وددت والله لو كنت مِتُّ وأن ذلك لم يكن ، فلما رأى خالد ما نزل بى قال : كيف نُجاريهم ؟ . وإنما نَحكيهم ، وكيف نُسابقهم ؟ . إنما نجرى على ما سبق إلينا من أعراقهم ، وليُفرخ رُوعك فإنه من مُقاعس (٣) ومقاعسٌ لك . فقلت يا أبا صَفوان ، والله ما ألومك على الأولى ولا أدع حَمدك على الأُخرى .

وقال عمر بن عبد العزيز : ما كلمنى رجل من بنى أسد إلا تمنيت أن يُمد له فى حُجته حتى يكثر كلامه فأسمعه . وقال يونس : ليس فى بنى أسد إلا خطيب وشاعرٌ أو قائفٌ (٤) أو زاجرٌ أو كاهنٌ أو فارس قال : وليس فى هُذَيل إلا شاعر أو رامٍ أو شديد العَدْوِ . (٥) ودُعِىَ رَقَبةُ بن مَصْقَلَةَ - أو كَرِبُ بن رقبة - إلى مجلس ليتكلم فيه فرأى مكان أعرابى فى شملة فأنكر موضعه فسأل الذى عن يمينه عنه فخبَّره أنه الذى أعدوه لجوابه ، فنهض مسرعا لا يَلْوى على شىء

بلاد كابل والافغان ، ووقع اصحابه فى مجاعة ، ومات هو وكثير من جنوده وفى ذاك يقول اعشى همدان :

اسمعت بالجيش الذين تمزقوا ... واصابهم ريب الزمان الأعوج

لبثوا بكابل ياكلون خيارهم ... فى شر منزلة وشر معرج

لم يلق جيش فى البلاد كما لقوا ... فلمثلهم قل للنوائح تنشج

(١) كان فى الأصل : اعرض . وهو خطا . والصواب ما اثبتناه

(٢) البت هنا القباء الغليظ

(٣) الاعراق : الاصول . وليفرخ روعك : ليهدا بالك ولتطمئن نفسك . ومقاعس : قبيلة من افصح قبائل العرب

(٤) القائف : هو الذى يقص الاثر

(٥) رام ، الرامي هو الذى يجيد الرماية . شديد العدو : هو الذى يسبق الخيل عدوا على قدميه

كراهة أن يجمع بين الديباجتين[١] فيتضع عند الجميع .

وقال خلاَّد بن يزيد : لم يكن أحد بعد أبي نَضْرة أحسن حديثاً من سَلْم بن قُتَيبة . قال : وكان يزيد بن عمر بن هُبَيْرة يقول : إحذفوا الحديث كما يحذفه سلم بن قتيبة[٢] ويزعمون أنه لم يروا محدِّثا قط صاحب آثار كان أجود حذفاً وأحسن اختصارا للحديث من سُفيَانِ بنِ عُيَيْنَةَ[٣] ، سألوه مرة عن قول طاوس[٤] في زكاة الجراد فقال : ابنه عنه : زكاته أخذه .

وباب آخر

وكانوا يمدحون شدة العارضة وقوة المُنَّةِ[٥] وظهور الحجة وثبات الجنان وكثرة الرِّيق والعلو على الخصم . ويهجون بخلاف ذلك . قال الشاعر :

طَباقَاءُلمْ يَشْهَدْ خُصُوماً وَلَمْ يَعِشْ حَمِيداًوَلمْ يَشْهَدْحِلالاً ولاَ عِطْرَا[٦]

قال أبو زُبَيْدٍ الطَّائي[٧]

وَخَطِيبٍ إذا تمعَّرَتِ الأوْ جُه يَوْماً في مَأْقِطٍ مَشْهُودِ[٨]

(١) الديباجتان هنا الوجهان او الميثنان

(٢) كان في الاصل مسلم وصححته كما أثبتناه سلم . وهو سلم بن قتيبة بن مسلم . كان سيدا معظما واميرا كريما ولاه ابن هبيرة على البصرة ثم تولاها لابي جعفر . ومات بالري

(٣) هو ابو محمد سفيان بن عيينه المحدث الشهير . مات سنة ١٩٨ ه

(٤) هو ابو عبد الرحمن طاوس بن كيسان كان من مشاهير المحدثين . مات سنة ١٠٦ ه

(٥) كان في الاصل : وقوة المسنة . وهو خطا . والصواب ما اثبتناه

(٦) قال الجاحظ : طباقاء ، يقال للبعير إذا لم يحسن الضراب : جمل عياياء وجمل طباقاء ، وهو هنا للرجل الذى لايتجه للحجة . الحلال : الجماعات ، ويقال حي حلال إذا كانوا متجاورين مقيمين ، والعطر ههنا العرس »

(٧) كان في الاصل : ابو زيد . وهو خطأ . والصواب ما أثبتناه . وهو ابو زبيد حرملة بن المنذر الطائي . كان شاعرا مجيدا ادرك الجاهلية والاسلام . وظل على النصرانية الى ان أسلم على يد الوليد بن عقبة والى الكوفة وحسن إسلامه . وقد عاش على ماقيل مائة وخمسين سنة وكان لسنا فصيحا وصافا بليغا ، وهو الذى وصف الاسد في حضرة عثمان

(٨) كان في الاصل : تموت الاوجه . وهو خطأ . والصواب ما اثبتناه . وتمعرت يعني علاها حمرة

وقال نافع بن خليفة الغَنَوى :

وَخَصْمٍ لَدَى بَابِ الأَمِيرِ كَأَنَّهُمْ　　قُرُومٌ فَشَا فِيهَا الزَّوَائِرُ وَالْهَدْرُ (١)
دَلَفْتُ لَهُمْ دُونَ الْمُنَى بِمُلِمَّةٍ　　مِنَ الدُّرِّ فِى أَعْقَابِ دُرَّتِهَا شَذْرُ (٢)
إِذَا الْقَوْمُ قَالُوا : أَدْنِ مِنْهَا وَجَدْتَهَا　　مُطَبَّقَةً يَهْمَاءَ لَيْسَ لَهَا خَصْرُ (٣)

وقال الأَسلع بن قِطاف الطُّهَوى :

فِدَاءٌ لِقَوْمِى كُلُّ مَعْشَرِ جَارِمٍ　　طَرِيدٍ وَمَخْذُولٍ بِمَا جَرَّ مُسْلَمِ (٤)
هُمُ أَفْحَمُوا الْخَصْمَ الَّذِى يَسْتَقِيدُنِى　　وَهُمْ فَصَمُوا حِجْلِى وَهُمْ حَقَنُوا دَمِى (٥)
بِأَيْدٍ يُفَرِّجْنَ الْمَضِيقَ وَأَلْسُنٍ　　سِلَاطٍ وَجَمْعٍ ذِى زُهَاءٍ عَرَمْرَمِ (٦)
إِذَا شِئْتَ لَمْ تَعْدَمْ لَدَى الْبَابِ مِنْهُمُ　　جَمِيلَ الْمُحَيَّا وَاضِحًا غَيْرَ تَوْأَمِ (٧)

الحجل . وقال الجاحظ : المأقط الموضع الضيق ، والمأقط الموضع الذى يقتل فيه » . قلت : وهذا البيت من قصيدة جيدة اولها :

إن طول الحياة غير سعود　　وضلال تأميل طول الخلود
علل المرء بالرجاء ويضحى　　غرضا للمنون نصب العمود
كل يوم ترميه منها سهام　　فمصيب أوصاف غير بعيد
من حميم ينسى الحياة جليـــد　　القوم حتى تراه كالمفئود
كل ميت قد اغتفرت فلا اجـــزع　　من والد ولا مولود

وهى طويلة

(١) قال الجاحظ : القروم الجمال المصاعب ، الزوائر الذين يزأرون ، الهدر صوته عند هيجه ، ويقال له الهدير »

(٢) قال الجاحظ : دلفت : دنوت » . قلت : يريد بالملمة القصيدة التى انشدها وكأنها الدر المنثور وفى عقب كل درة شذرة اي قطعة من الذهب

(٣) قال الجاحظ : ادن منها ، اى قللها واختصرها ، وجدتها مطبقة اى طبقتهم بالحجة ، اليهماء : الأرض التى لايهتدي فيها الطريق ، ويهماء هنا يعنى التى لايهتدى إليها ويضل الخصوم عندها ، والأيهم من الرجال : الحائر الذى لايهتدى لشىء ، وأرض يهماء إذا لم تكن فيها علامة »

(٤) جارم وفى رواية : جازم ، والجارم ذو الجريمة ، مسلم من أسلم نفسه إلى عدوه

(٥) يستقيدونى : يأسرنى . والحجل : القيد .

(٦) زهاء : هيئة حسنة ، عرمرم : كثير

(٧) قال الجاحظ : التوأمان الاخوان المولودان فى بطن »

وقال التَّميمى فى ذلك :

أَمَا رَأَيْتَ الأَلْسُنَ السِّلَاطَا   وَالجاهَ والأَقْدامَ وَالنَّشَاطَا (١)

إِنَّ النَّدَى حَيْثُ تَرَى الضِّغاطَا (٢)

ذهب فى البيت الأخير إلى قول الشاعر :

يَسْقُطُ الطَّيْرُ حَيْثُ يَنْتَثِرُ الحَبُّ   وَتُغْشَى مَنَازِلُ الكُرَمَاءِ

وإلى قول الآخر :

يَرْفَضُّ عَنْ بَيْتِ الفَقِيرِ ضُيُوفُهُ   وَتَرَى الغَنِىَّ يَهْدِى لَكَ الزُّوَّارَا (٣)

وأنشد فى المعنى الأول :

وَخَطِيبِ قَوْمٍ قَدَّمُوهُ أَمامَهُمْ   ثِقَةً بِهِ مُتَخَمِّطٍ تَيَّاحِ (٤)

جَاوَبْتُ خُطْبَتَهُ فَظَلَّ كَأَنَّهُ   لَمَّا خَطَبْتُ مُمَلَّحٌ بِمَلَاحِ (٥)

وأنشد أيضا :

أَرِقْتُ لِضَوْءِ بَرْقٍ فى نَشَاصٍ   تَلَأْلَأَ فى مُمَلَّاةٍ غِصَاصِ (٦)

لَوَاقِحُ دُلَّحٌ بالماءِ سُحْمٌ   تَمُجُّ الغَيْثَ مِنْ خَلَلِ الخَصَاصِ (٧)

سَلِ الخُطَبَاءَ هَلْ سَبَحُوا كَسَبْحِى   بُحُورَ القَوْلِ أَوْ غَاصُوا مَغَاصِى

لِسَانِي بالنَّثِيرِ وَبالقَوَافِي   وَبالأَسْجَاعِ أَمْهَرُ فى الغِوَاصِ (٨)

---

(١) السلاط : الطوال فى القول البليغ

(٢) الضغاط : الزحام

(٣) يرفض : يتفرق

(٤) قال الجاحظ : المتخمط المتكبر مع غضب ، التياح والمتيح الذى يعرض فى كل شىء ويدخل فيما لا يعنيه »

(٥) قال الجاحظ : مملح بملاح : اى منقبض كانه ملح من الملح ،

(٦) قال الجاحظ : النشاص السحاب الابيض المرتفع بعضه فوق بعض وليس بمنبسط ، والتلألؤ ظهور البرق فى سرعة ، مملاة بالماء ، غصاص قد غصت بالماء

(٧) قال الجاحظ : اللواقح التى قد لقحت من الريح ، والدلح الدانية الظاهرة المثقلة بالماء ، سحم سود ، الخصاص ههنا خلل السحاب ،

(٨) قال الجاحظ : النثير الكلام المنثور ، القوافى خواتم ابيات الشعر ، الاسجاع الكلام المزدوج على غير وزن »

مِنَ الحُوتِ الَّذِى فى لُجِّ بَحْرٍ ... يُجِيدُ الغوصَ فى لُجَجِ المَغاصِ
لَعَمْرُكَ إنَّنى لأُعِفُّ نفسِى ... وأسْتُرُ بالتَّكَرُّمِ مِنْ خَصاصِ (١)

وأنشد لرجل من بنى ناشب بن سليمان بن سلامة بن سعد بن مالك بن ثعلبة :

لَنَا قَمَرُ السَّماءِ وكلُّ نَجْمٍ ... يُضِىءُ لَنا إذا القمرانِ غارا (٢)
ومَنْ يَفْخَرْ بِغَيْرِ أبى نِزارٍ ... فلَيْسَ بأوَّلِ الخُطَباءِ جارا (٣)

وأنشد للاقرع :

إنِّى امْرُؤٌ لا أُقِيلُ الخَصْمَ عَثْرَتَهُ ... عِنْدَ الأميرِ إذا ما خَصْمُهُ ظَلَعا (٤)
يُنِيرُ وَجْهِى إذا جَدَّ الخِصامُ بِنا ... ووَجْهُ خَصْمِى تَراهُ الدَّهْرَ مُنْتَقِعا (٥)

وأنشد :

تَراهُ بِنَصْرِى فى الحَفِيظَةِ واثِقاً ... وإنْ صَدَّ عَنِّى العَيْنَ مِنْهُ وحاجِبُهْ
وإنْ خَطَرَتْ أيْدِى الكُماةِ وَجَدْتَنِى ... نَصُوراً إذا ما اسْتَيْبَسَ الرِّيقَ عاصِبُهْ (٦)

وقال ابنُ أحْمَرٍ ، وذكر الريق والاعتصام به :

هذا الثَّناءُ وأَجْدِرْ أنْ أُصاحِبَهُ ... وقَدْ يُدَوِّمُ رِيقَ الطَّامِعِ الأَمَلُ

وقال الزبير بن العوّام ، وهو يُرقِّص ابنه عُرْوَة :

أبْيَضُ مِنْ آلِ أبي عَتِيقْ ... مُبارَكٌ مِنْ وَلَدِ الصِّدِّيقْ
أَلَذُّهُ كما أَلَذُّ رِيقِى

وقالت امرأةٌ من بنى أسد :

---

(١) من خصاص : من خصاصة وهى الحاجة والفقر

(٢) القمران : الشمس والقمر

(٣) جار : ظلم

(٤) أقال عثرته : غفرها له وسترها عليه

(٥) منتقع : متغير من شدة وطئتى عليه

(٦) قال الجاحظ : الكماة جمع كمى والكمى الرجل المتكمى وهو المتكمى بالسلاح بمعنى المتكفر به المستتر . ويقال كمى الرجل شهادته يكميها إذا كتمها وسترها ، عاصبه : يابسه يعتصم به حتى يتم كلامه ،

ألا بكر الناعى بخير بنى أسد بعمرو بن مسعود وبالسيد الصمد (١)
فمن كان يعيى بالجواب فإنه أبو معقل لا حجر عنه ولا صدد
أثاروا بصحراء الثوية قبره وما كنت أخشى أن تناءى به البلد (٢)

وقال أوس بن حجر (٣) فى فضالة بن كلدة :

أبا دليجة من يوصى بأرملة ؟ أم من لأشعث ذى هدمين طملال (٤)
أم من يكون خطيب القوم إن حفلوا لدى الملوك أولى كيد وأقوال ؟

وقال أيضا فى فضالة بن كلدة .

ألهفا على حسن آلائه على الجابر الحى والحارب (٥)
ورقبته حتمات الملوك بين السرادق والحاجب (٦)
ويكفى المقالة أهل الرجا ل غير معيب ولا عائب

وأنشد أيضا :

(١) بكر الناعى : جاء فى بكرة النهار أوله ، والناعى المخبر بالموت ، والصمد : الذى يصمد إليه الناس أى يقصدونه فى حوائجهم

(٢) اثاروا : حفروا ، قال الجاحظ : الثوبة موضع يقال له صحراء الثوبة ، ومن قال الثوية فهي تصغير الثوبة ، تنامى : تبعد ،

(٣) هو اوس بن حجر التميمى كان من شعراء الجاهلية وفحولها ، وكان منقطعاً إلى فضالة بن كلدة وكان فضالة كثير البر به والخير عليه فلما مات قال فيه كلمة منها البيتان الواردان فى الأصل ونحن نروى هذه الكلمة برواية اخرى :

ياعين لابد من سكب وتهمال على فضالة جل الرزء والعالى
ابا دليجة من توصى بأرملة ام من لأشعث ذى طمرين ممحال
ابا دليجة من يكفى العشيرة إذ امسوا من الأمر فى لبس وبلبال
لازال مسك وريحان له ارج على صداك بصافى اللون سلسال

(٤) قال الجاحظ : هدمين ثوبين خلقين ، يقال ثوب اهدام إذا كان خلقا ، والطملال الفقير

(٥) الحارب : طالب الأوتار

(٦) قال الجاحظ : ورقبته انتظاره إذن الملوك ، وجعله بين السرادق والحاجب ليدل على مكانته من الملك ،

وَخَصْمٍ غِضَابٍ يُنْغِضُونَ رُؤُسَهُمْ أُولِى قَدَمٍ فِى الشَّغْبِ صُهْبٍ سِبَالُهَا (١)
ضَرَبْتُ لَهُمْ إِبْطَ الشِّمَالِ فَأَصْبَحَتْ يَرُدُّ غُوَاةَ آخَرِينَ نَكَالُهَا (٢)

وقال شُتَيم بن خويلد :

وَقُلْتُ لِسَيِّدِنَا : يَا حَلِيمُ إِنَّكَ لَمْ تَأْسُ أَسْوًا رَفِيقَا (٣)
أَعَنْتَ عَدِيًّا عَلَى شَأْوِهَا تُعَادِى فَرِيقًا وَتُبْقِى فَرِيقَا (٤)
زَجَرْتَ بِهَا لَيْلَةً كُلَّهَا فَجِئْتَ بِهَا مُؤْيِدًا خَنْفَقِيقَا (٥)

وأنشد لآدم مولى بلعنبر يقولها لابن له :

يَا بِأَبِي أَنْتَ وَيَا فَوْقَ بِأَبْ يَا بِأَبِي خُصْيَيْكَ مِنْ خُصًى وَزُبْ
أَنْتَ الْحَبِيبُ وَكَذَا قَوْلُ الْمُحِبْ جَنَّبَكَ اللهُ مَعَارِيضَ الْوَصَبْ (٦)
حَتَّى تُفِيدَ وَتُدَاوِى ذَا الْجَرَبْ وَذَا الْجُنُونِ مِنْ سُعَارٍ وَكَلَبْ (٧)
وَالْجَذْبَ حَتَّى يَسْتَقِيمَ ذُو الْحَدَبْ وَتَحْمِلَ الشَّاعِرَ فِى الْيَوْمِ الْعَصِبْ (٨)
عَلَى مَبَاهِيرَ كَثِيرَاتِ التَّعَبْ وَإِنْ أَرَادَ جَدِلٌ صَعْبٌ أَرِبْ (٩)

---

(١) ينغضون رؤسهم : يحركونها تعجبا . الشغب : تهييج الشر صهب سبالها : شبههم بالعجم لما بينه وبينهم من العداوة ، يعنى انهم دخلاء فى العربية

(٢) قال الجاحظ : إبط الشمال يعنى الفؤاد لانه يكون فى تلك الناحية ،

(٣) قال الجاحظ : تأسو تداوي اسوا واسى مصدران ، والآسى الطبيب ،

(٤) قال الجاحظ : الشأو الغلوة لركض الفرس ،

(٥) قال الجاحظ : مؤيد داهية وخنفقيق داهية ايضا ،

(٦) قال الجاحظ : الوصب المرض ،

(٧) كان فى الأصل : سعال . وليس هنا مقامها . فغيرناها بسعار . والسعار اشد انواع الكلب وهو من الادواء الشديدة التى تصيب الكلاب فيعتريها جنون فلا تعض شيئاً من إنسان اوحيوان إلا واصابته عدوى هذا الداء الوبيل . قال الجاحظ . كلب اى الندى قد كلب ،

(٨) وتحمل الشاعر . اى تمنحه فى ضمن منحك له مايحمله من انواع الركاب . قال الجاحظ . العصب الشديد . يقال يوم عصب وعصيب وعصبصب اذا كان شديدا

(٩) المباهير : أى النوق التى اعياها السير . قال الجاحظ : متاعيب قد علاهم البهر . جدل : كثير الجدل شديد الخصومة صعب اللدد . قال الجاحظ : الارب يقال إنه رجل اريب وارب وله ارب اذا كان عاقلا اديباً حازماً ،

خُصُومَةً تَنْقُبُ أَوْسَاطَ الرُّكَبْ   أَطْلَعْتُهُ مِنْ رُتَبٍ إِلَى رُتَبْ (١)
حَتَّى تَرَى الأَبْصَارُ أَمْثَالَ الشُّهُبْ   يَرْمِي بِهَا أَشْوَسُ مِلْحَاحٌ كَلِبْ (٢)
مُجَرَّبُ الشَّدَّاتِ مَيْمُونٌ مِذَبْ (٣)

وقالت ابنة وَثِيمَةَ ترثي أباها وَثِيمَةَ بْنَ عُثْمَانَ :

أَلْوَاهِبِ المَالَ التِّلاَ   دَ لَنَا وَيَكْفِينَا العَظِيمَهْ (٤)
وَيَكُونُ مِدْرَهَنَا إِذَا   نَزَلَتْ مُجَلِّحَةٌ عَظِيمَهْ (٥)
وَاحْمَرَّ آفَاقُ السَّمَا   ءِ وَلَمْ تَقَعْ فِي الأَرْضِ دِيمَهْ (٦)
وَتَعَذَّرَ الأَكَّالُ حَتَّى   كَانَ أَحْمَدَهَا الهَشِيمَهْ (٧)
لاَ ثُلَّةٌ تَرْعَى وَلاَ   إِبِلٌ وَلاَ بَقَرٌ مُسِيمَهْ (٨)
أَلْفَيْتَهُ مَأْوَى الأَرَا   مِلِ وَالمُدَفَّعَةِ اليَتِيمَهْ (٩)
وَالدَّافِعَ الخَصْمَ الأَلَدْ   دَ إِذَا تَفَوَّضَحَ فِي الخُصُومَهْ (١٠)
بِلِسَانِ لُقْمَانَ بْنِ عَا   دٍ وَفَصْلِ خُطْبَتِهِ الحَكِيمَهْ

(١) تنقب : تنخر العظام . قال الجاحظ : أظلعته يقال ظلع الرجل إذا غمز في مشيه . الرتبة واحدة الرتب والرتبات وهى الدرج ، وهي ههنا الأشياء المختلفة ، أى تخرجه من شئ إلى شئ .

(٢) أمثال الشهب : يريد أن حججه التى يرمى بها خصمه تنقض عليه انقضاض الشهب الثواقب . قال الجاحظ : الأشوس الذى ينظر بمؤخر عينه ، ملحاح ملح من الالحاح على الشئ .

(٣) قال الجاحظ . مذب أي يذب عن حريمه وعن نفسه .

(٤) قال الجاحظ : التلاد القديم من المال ، والطارف المستفاد .

(٥) قال الجاحظ : المدره لسان القوم المتكلم عنهم ، مجلحة أى داهية مصممة .

(٦) قال الجاحظ : احمر آفاق السماء اشتد البرد وقل المطر وكثر القحط ، ديمة واحدة الديم وهى الأمطار الدائمة مع سكون .

(٧) قال الجاحظ : تعذر تمنع ، الأكال جمع أكل وهو مايؤكل . الهشيمة مايهشم من الشجر أى يكسر .

(٨) قال الجاحظ : الثلة مابين الست إلى العشر من الغنم ، مسيمة راعية .

(٩) المدفعة : هى اليتيمة التى يتدافعها الناس فلا يقبلون إيواءها ولا القيام بأمرها لأنها لاسند لها ولا معين .

(١٠) تفوضح : فضح بعض الخصوم بعضا

أَلجمتهم بعد التدا فع والتجاذب في الحكومة

وكانت العرب تعظم شأن لقمان بن عاد الأكبر والأصغر ، ولقيم بن لقمان في النباهة والقدر وفى العلم والحكم وفى اللسان وفى الحلم . وهذان غير لقمان الحكيم المذكور فى القرآن على ما يقول المفسرون . ولارتفاع قدره وعظم شأنه قال النمر ابن تولب :

لُقيمُ بنُ لقمانَ من أُختِهِ فكانَ ابنَ أُختٍ له وابْنَمَا
لَيالِيَ حُمِّقَ فاستحصنتْ عليهِ فغُرَّ بها مُظْلِما
فغُرَّ بها رَجلٌ مُحْكَمٌ فجاءتْ بهِ رجُلاً مُحْكَما

وذلك أن أخت لقمان قالت لامرأة لقمان : إنى امرأة مُحْمِقَةٌ ، ولقمان رجل منجب محكم ، وأنا فى ليلة طهرى ، فهبى لى ليلتك ؟ ففعلت . فباتت فى بيت امرأة لقمان فوقع عليها فأحبلها بلُقيم . فلذلك قال النمر بن تولب ما قال . والمرأة إذا ولدت الحمقى فهى مُحْمِقَة ، ولا يُعلم ذلك حتى يُرى ولد زوجها من غيرها أكياساً . وقالت امرأة ذات بنات :

وَما أُبالِي أنْ أكُونَ مُحْمِقَهْ إذا رأيتُ خُصْيَةً مُعلَّقَهْ

وقال الآخر

أَزْرَى بسَعْيِكَ أنْ كُنْتَ امرأً حمِقاً مِنْ نَسْلِ ضاوِيَةِ الأعْراقِ مِحْماقِ (١)

وجاء فى الحديث « اِغْتَرِبُوا لَا تُضْوُوا » أى لا يتزوج الرجل القرابة القريبة فيجىء ولده ضاويا . والفعل من ضَوِيَ يضوى ضَوًى .

ولبعضهم فى البنات ، قالت إحدى القوابل :

---

(١) قال الجاحظ ضاوية الأعراق أي ضعيفة الأعراق نحيفتها ، يقال رجل ضاو وفيه ضاوية إذا كان نحيفا قليل الجسم . والمحماق التى عادتها أن تلد الحمق .

أيا سَحَابُ طَرِّقِي بِخَيْرِ وطَرِّقِي بِخُصْيَةٍ وَأَيْرِ (١)
وَلاَ تُرِينَا طَرَفَ البُظَيْرِ

وقال آخر فى إنجاب الامهات ، وهو يخاطب بنى إخوته :

عَفَارِيتاً عَلَىَّ وَأَكْلِ مَالِى وَحِلْماً عَنْ أُنَاسٍ آخَرِينَا
فَهلاَّ غَيْرَ عَمِّكُمُ ظَلَمْتُمْ إِذَا مَا كُنْتُمْ مُتَظَلِّمِينَا (٢)
فَلَوْ كُنْتُمْ لِكَيِّسَةٍ أَكَاسَتْ وَكَيْسُ الأُمِّ أَكْيَسُ لِلْبَنِينَا (٣)
وَكَانَ لَنَا فَزَارَةُ عَمَّ سُوءٍ وَكُنْتُ لَهُ كَشَرِّ بَنِى الأَخِينَا

ولبعض البنات هجر أبو حَمْزَةَ الضَّبِّيُّ خيمة امرأته ، وكان يقيل ويبيت عند جيران له حين ولدت امرأته بنتاً ، فمر يوماً بخبائها واذا هى ترقصها وتقول :

مَا لِأَبِي حَمْزَةَ لاَ يَأْتِينَا يَظَلُّ فِى الْبَيْتِ الَّذِى يَلِينَا
غَضْبَانَ أَنْ لاَ نَلِدَ الْبَنِينَا تَاللهِ مَا ذَلِكَ فى أَيْدِينَا
وَإِنَّمَا نَأْخُذُ مَا أُعْطِينَا وَنَحْنُ كَالأَرْضِ لِزَارِعِينَا
نُنْبِتُ مَا قَدْ زَرَعُوهُ فِينَا

فغدا الشيخ حتى ولج البيت فقبل رأس امرأته وابنتها .

وهذا الباب يقع فى كتاب الانسان من « كتاب الحيوان » وفى فضل ما بين الذكر والانثى تاماً ، وليس هذا الباب مما يدخل فى باب « البيان والتبيين » ولكن قد يجرى السبب فيُجرى معه بقدر ما يكون تنشيطاً لقارىء الكتاب ، لأن خروجه من الباب إذا طال لبعض العلم كان ذلك أروح على قلبه وأزيد فى نشاطه إن شاء الله .

وقد قال الاول فى تعظيم شأن لقيم بن لقمان

---

(١) طرق : التطريق قرب خروج الجنين من الرحم

(٢) المتظلمون : الظالمون الجائرون

(٣) الكيسة : العاقلة اللبيبة . أكاست : ولدت الكيسى

قُومِى اصْحِبِينِى فَمَا صِبْغ الفَتَى حَجَرًا ... لَكِنْ رَهِينَةَ أَحْجَارٍ وَأَرْمَاسِ (١)

قُومِى اصْبِحِينِى فإِنَّ الدَّهْرَ ذُو غِيَرٍ ... أَفْنَى لُقَيْمًا وَأَفْنَى آلَ مِرْمَاسِ

اليَوْمُ خَمْرٌ وَيَبْدُو فِى غَدٍ خَبَرٌ ... وَالدَّهْرُ مِنْ بَيْنِ إِنْعَامٍ وَإِبْآسِ (٢)

فاشْرَبْ عَلَى حَدَثَانِ الدَّهْرِ مُرْتَفِقًا ... لَا يَصْحَبُ الهَمُّ قَرْعَ السِّنِّ بِالكَاسِ (٣)

وقال أبو الطَّمَحَان القَيْنِيُّ (٤) فى ذكر لقمان :

إِنَّ الزَّمَانَ وَلَا تَفْنَى عَجَائِبُهُ ... فِيهِ تَقَطَّعُ أُلَّافٍ وَأَقْرَانِ

أَمْسَتْ بَنُو القَيْنِ أَفْرَاقًا مُوَزَّعَةً ... كَأَنَّهُمْ مِنْ بَقَايَا حَىِّ لُقْمَانِ (٥)

وقد ذكرت العرب هذه الامم البائدة والقرون السالفة ولبعضهم بقايا قليلة وهم أشلاء فى العرب متفرقون مغمورون مثل : جُرهُم وجاسِم ووَبار وعِملاق وأُميم وطَسْم وجَدِيس ولقمان والهس ماس وبنى الناصور وقَيْل بن عِترٍ وذى جَدَن . ويقال فى بنى الناصور أن أصلهم من الروم .

وأما ثمود فقد خبر الله عز وجل عنهم فقال: «وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى» وقال: «فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ؟» أنا أعجب من مسلم يصدق بالقرآن و يزعم أن فى قبائل العرب من بقايا ثمود !؟. وكان أبو عبيدة يتأول قوله «وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى» ان ذلك إنما وقع على الأكثر وعلى الجمهور الأكبر . وهذا التأويل أخرجه من أبى عُبيدة سوء

---

(١) قال الجاحظ : اصبحينى الصبوح شرب الغداة والغبوق شرب العشي، ارماس: قال الجاحظ : الرمس القبر يقال رمست الميت ارمسه ، بالكسر ، وأرمسه ، بالضم ، إذا دفنته.

(٢) إنعام وإبآس : يوم نعيم ويوم بؤس

(٣) مرتفقا : متكئاً اى واضعاً مرفقك على وسادة

(٤) هو حنظلة بن الشرقي القينى القضاعى ، شاعر فارس خارب (لص) صعلوك ، ادرك الجاهلية والاسلام فكان خبيثا فيهما جميعاً ، وهو القائل :

إذا قيل اى الناس خير قبيلة ... وأصبر يوما لاتوارى كواكبه

فان بنى لأم بن عمرو ارومة ... علت فوق صعب لاتنال مراقبه

اضاءت لهم احسابهم ووجوههم ... دجى الليل حتى نظم الجزع ثاقبه

لهم مجلس لايحصرون عن الندى ... إذا مطلب المعروف اجدب راكبه

(٥) بنو القين : قبيلة الشاعر

الرأى فى القوم (١) وليس له أن يجيء، إلى خبر عام مرسل غير مقيد وخبر مطلق غير مستثنى منه فيجعله خاصاً كالمستثنى منه! وأى شىء بقى لطاعن أو متأول بعد قوله تعالى: «فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِن بَاقِيَةٍ؟» فكيف يقول ذلك إذا كنا نحن قد نرى منهم فى كل حى باقية؟! معاذ الله من ذلك. وَرَوَوْا أن الحجاج قال يوماً على المنبر: يزعمون أنا من بقايا ثمود، وقد قال الله تبارك وتعالى «وثمود فما أبقى»؟!

فأما الأمم البائدة من العجم مثل كنعان ويونان وأشباه ذلك فكثير، ولكن العجم ليست لها عناية بحفظ شأن الأموات ولا الأحياء..!؟

وقال المسيَّب بن عَلَسٍ (٢) فى ذكر لقمان:

وَإِلَيْكَ أَعْمَلْتُ المَطِيَّةَ مِنْ ... سَهْلِ العِرَاقِ وَأَنْتَ بِالقَفْرِ
أَنْتَ الرَّئِيسُ إِذَا هُمْ نَزَلُوا ... وَتَوَجَّهُوا كَالأُسْدِ وَالنُّمْرِ
لَوْ كُنْتَ مِنْ شَيْءٍ سِوَى بَشَرٍ ... كُنْتَ المُنَوِّرَ لَيْلَةَ القَدْرِ
وَلأَنْتَ أَجْوَدُ بِالعَطَاءِ مِنَ الـ ... رَّيَّانِ لَمَّا جَادَ بِالقَطْرِ (٣)
وَلأَنْتَ أَشْجَعُ مِنْ أُسَامَةَ إِذْ ... نَقَعَ الصُّرَاخُ وَلَجَّ فِى الذُّعْرِ (٤)
وَلأَنْتَ أَبْيَنُ حِينَ تَنْطِقُ مِنْ ... لُقْمَانَ لَمَّا عَيَّ بِالأَمْرِ (٥)

وقال لبيد بن ربيعة الجعفرى:

وَأَخْلُفُ قُسّاً لَيْتَنِى وَلَوَ انَّنِى ... وَأَعْيَى عَلَى لُقْمَانَ حُكْمُ التَّدَبُّرِ

(١) لأن ابا عبيدة كان شعوبيا

(٢) هو المسيب بن علس البكري. كان من شعراء الجاهلية المقلين جيد الشعر محكم القول. مات سنة ٨٠ ه وهذه الابيات تنسب إلى الاعشى وهى فى ديوانه

(٣) الريان: جبل ببلاد طيء لايزال يسيل منه الماء فهو يشبهه فى الجود بهذا الجبل الجواد بالماء

(٤) هذا البيت مركب من بيتين اولهما للمسيب بن علس حيث يقول:

ولأنت اشجع من اسامة إذ ... نقع الصراخ ولج فى الذعر

وثانيهما لزهير بن ابي سلمى حيث يقول:

ولنعم حشو الدرع انت إذا ... دعيت نزال ولج فى الذعر

وليس من الصواب نسبة هذا البيت او بعضه إلى الاعشى. واسامة الأسد. ونقع الصراخ ارتفع

(٥) لما عى بالأمر: لما اعياه امر اخته

فَإِنْ تَسْأَلِينَا كَيْفَ نَحْنُ فَإِنَّنَا ... عَصَافِيرُ مِنْ هَذَا الأَنَامِ المُسَحَّرِ (١)

والمسحر المخدوع ، كما قال امرؤ القيس :

أَرَانَا مُوضِعِينَ لأَمْرِ غَيْبٍ ... وَنُسْحَرُ بِالطَّعَامِ وَبِالشَّرَابِ (٢)

وقال الفرزدق :

لَئِنْ حَرْوَمَتِي صَانَتْ مَعَدٌّ حِيَاضَهَا ... لَقَدْ كَانَ لُقْمَانُ بْنُ عَادٍ يَهَابُهَا

وقال آخر

إِذَا مَا مَاتَ مَيْتٌ مِنْ تَمِيمٍ ... فَسَرَّكَ أَنْ يَعِيشَ فَجِئْ بِزَادِ (٣)

بِخُبْزٍ أَوْ بِلَحْمٍ أَوْ بِتَمْرٍ ... أَوِ الشَّيْءِ المُلَفَّفِ فِي البِجَادِ (٤)

تَرَاهُ يَطُوفُ الآفَاقَ حِرْصًا ... لِيَأْكُلَ رَأْسَ لُقْمَانَ بْنِ عَادِ (٥)

وقال أفنون التغلبي :

لَوْ أَنَّنِي كُنْتُ مِنْ عَادٍ وَمِنْ إِرَمٍ ... رَبِيبَ قَيْلٍ وَلُقْمَانٍ وَذِي جَدَنِ

وقال آخر

مَا لَذَّةُ العَيْشِ وَالفَتَى لِلْ ... دَّهْرِ وَالدَّهْرُ ذُو فُنُونِ (٦)

أَهْلَكَ طَسْمًا وَقَبْلَ طَسْمٍ ... أَهْلَكَ عَادًا وَذَا جُدُونِ (٧)

وَأَهْلَ جَاسِمٍ وَمَأْرِبْ ... وَحَيَّ لُقْمَانَ وَالتُّقُونِ (٨)

---

(١) قال الجاحظ : السحر : الرئة والمسحر المعلل بالطعام والشراب .

(٢) قال الجاحظ : اي نعلل فكأنما نخدع ونسحر بالطعام وبالشراب .

(٣) تميم قبيلة من أمجد قبائل العرب ، يرميها الشاعر بالشره والنهم

(٤) الشيء الملفف في البجاد : ضرب من الطعام المصنوع

(٥) رأس لقمان : يغلب على ظنى انه يريد بها رأس الكبش ، وقد كنى عن الكبش بلقمان مبالغة في التنديد ، وإشارة إلى ماحدث بين لقمان وبين اخته وان كان ذلك قد وقع بخدعة . ولا أرد قول من يفسره بغير هذا على أن يأتي ببرهان أقوى ودليل أحكم

(٦) يقول : كيف يكون للانسان في هذا الدهر لذة يستطيبها مع أنه مخلوق للدهر فالدهر هو صاحب التصرف فيه بكل انواع التصرفات وفنونها ؟

(٧و٨) كل هذه أسماء قبائل واقوام بادوا من قديم الدهر

وَالْيُسْرُ لِلْعُسْرِ ، وَالتَّغَنِّى   لِلْفَقْرِ وَالْحَىُّ لِلْمَنُونِ[١]

قال : وهم وإن كانوا يحبون البيان والطلاقة ، والتحبير والبلاغة والتخلص والرشاقة ، فانهم كانوا يكرهون السَّلاطة والهَـذَر والتكلف والإسهاب والاكثار لما فى ذلك من التزيد والمباهاة واتباع الهوى والمنافسة فى العلو والقدر . وكانوا يكرهون الفضول فى البلاغة ، لأن ذلك يدعو إلى السلاطة ، والسلاطة تدعو إلى البَذَاء . وكلُّ مِراء فى الأرض فانما هو من نتاج الفضول ، ومَن حصل كلامه وميزه وحاسب نفسه وخاف الاثم والذم أشفق من الضراوة وسوء العادة ، وخاف ثمرة العُجب وهُجنة القبح وما فى حب السمعة من الفتنة وما فى الرياء من مجانبة الاخلاص .

ولقد دعا عُبادةُ بن الصامت[٢] بالطعام بكلام ظُن أنه ترك فيه المحاسبة ، فقال أوسُ بن شدّاد : إنه قد ترك فيه المحاسبة ، فاسترجع ثم قال : ما تكلمت بكلمة منذ بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا مَزمومة مَخطومة[٣] . وعن إبراهيم[٤] قال : إنما يهلك الناس فى فضول الكلام وفضول المال . وقال : دع المعاذر فان أكثرها مفاجر . وإنما صارت المعاذر كذلك لأنها داعية إلى التخلص بكل شىء . وقال سلاّمُ بن مُطيع : قال لى أيّوب[٥] : إياك وحفظ الحديث . خوفاً عليه من العجب. وقال ابراهيم النخعى : دع الاعتذار فانه يخالط الكذب

(١) التغنى : الغنى

(٢) هو ابو الوليد عبادة بن الصامت بن قيس الخزرجي الصحابي . كان احد النقباء الاثنى عشر ، شهد بدرا والمشاهد كلها وكان أحد السبعين الذين شهدوا العقبة ، وكان جميلا طويلا جسيما شجاعا بطلا . مات بالرملة من أرض الشام سنة ٣٤ هـ عن ٧٢ سنة

(٣) مزمومة مخطومة : أى كأنما عقد عليها بزمام أو خطمت بخطام ، يعنى انه منذ اسلم امسك لسانه عن الكلام فيما يضر ولا ينفع

(٤) هو ابراهيم بن يزيد النخعى ، كان من افاضل التابعين ، عالما فقيها محدثا حمل عنه العلم ولم يتجاوز الثمانى عشرة سنة . مات سنة ٩٦ هـ عن ٤٦ سنة

(٥) هو ايوب بن ابى تميمة السختياني . كان من اكابر الزهاد واماثل النساك وكان عالما فقيها محدثا . مات بالبصرة سنة ١٣١ هـ

قالوا : ونظر شاب وهو فى دار ابن سيرين [١] إلى فرش فى داره فقال : ما بال تلك الآجرة أرفع من تلك الآجرة الأخرى ؟ فقال ابن سيرين : يا ابن أخى إن فضول النظر يدعو إلى فضول القول .

وزعم إبراهيم بن السندى قال :أخبرنى من سمع عيسى بن على يقول : فضول النظر من فضول الخواطر وفضول النظر يدعو الى فضول القول وفضول القول يدعو إلى فضول العمل ، ومن تعود فضول الكلام ثم تدارك استصلاح لسانه خرج من استكراه القول ، وإن أبطأ أخرجه إبطاؤه إلى أقبح من الفضول .

قال أبو عمرو بن العلاء : أنكح ضِرارُ بن عمرو الضّبى ابنته مَعبدَ بن زُرارَة فلما أخرجها إليه قال لها : يابنية أمسكى عليك الفضلين ؟قالت : وما الفضلان ؟ قال فضل الغُلمة وفضل الكلام .

وضِرارُ بن عمرو هو الذى قال : مَن سَرّه بنوه ساءته نفسه . وهو الذى لما قال له المنذر : كيف تخلصت يوم كذا وكذا ، وما الذى نجاك ؟ قال : تأخير الأجل وإكراهى نفسى على المُقّ الطوال [٢] . وكان اخوته قد استشالوه [٣] حتى ركب فرسه ورفع عقيرته بعكاظ فقال : ألا إن خير حائل [٤] أمٌ، ألا فزوجوا الأمهات . وذلك أنه صرع بين القنا فانشل [٥] عليه اخوته لأمه حتى أنقذوه .

---

(١) هو ابو بكر محمد بن سيرين ، كان والده سيرين عبداً لانس بن مالك فكاتبه على عشرين الفا واداها ، وكانت امه صفية مولاة ابى بكر الصديق . وكان محمد بزازا وحبس بدين كان عليه . كان من افاضل التابعين . وكان الاصمعى يقول : الحسن البصرى سيد سمح ، وإذا حدثك الاصم — يعني ابن سيرين — بشيء فاشدد يديك عليه ، وقتادة حاطب ليل . وكانت ولادة ابن سيرين سنة ٣٣ هـ ومات سنة ١١٠ هـ

(٢) قال الجاحظ : المقاء المرأة الطويلة ، والمق جماعة النساء الطوال ، والمق ايضاً الخيل الطوال . قلت : والخيل هي المرادة فى هذا المقام لانها هى التى نجته

(٣) استشالوه : رفعوه بأيديهم

(٤) حائل : غير حامل

(٥) فانشل : اسرعوا نحوه

باب الصمت*

كان أعرابى يجالس الشعبى يطيل الصمت ، فسئل عن طول صمته فقال : أسمع فأعلم ، وأسكت فأسلم . وقالوا : لو كان الكلام من فضة لكان السكوت من ذهب . وقالوا : مَقتل المرء بين لَحْيَيه وفكيه . وأخذ أبو بكر الصديق رضى الله عنه بطرَف لسانه وقال : هذا الذى أوردنى الموارد . وقالوا : ليس شىء أحق أحق بطول سجن من لسان . وقالوا : اللسان سبع عقور .

وقال النبى صلى الله عليه وسلم « وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ فِى نَارِ جَهَنَّمَ إلاَّ حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ ؟ » وتكلم رجل عند النبى صلى الله عليه وسلم فخطل فى كلامه فقال النبى صلى الله عليه وسلم « ما أُعطِىَ العبد شراً من طلاقة اللسان » . وعن مُطرِّفِ بنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ الشِّخِّيرِ عن أبيه . قال : قدمنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى وفد فقلنا : يا رسول الله ، أنت سيدنا وأنت أطولنا علينا طولا ، وأنت الجفنة الغراء . فقال النبى صلى الله عليه وسلم « أَيُّهَا النَّاسُ ، قُولُوا بِقَوْلِكُمْ وَلاَ يَسْتَفِزَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ . فإنَّمَا أنَا عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ »

وقال خالد بن عبد الله القسرى لعمر بن عبد العزيز رحمه الله : من كانت الخلافة زانته فقد زنتها ، ومن شرفته فقد شرفتها ، فأنت كما قال الشاعر :

وَتَزِيدِينَ أَطْيَبَ الطِّيبِ طِيبًا ... إنْ تَمَسِّيهِ ، أَيْنَ مِثْلُكِ أَيْنَا
وَإِذَا الدُّرُّ زَانَ حُسْنَ وُجُوهٍ ... كَانَ لِلدُّرِّ حُسْنُ وَجْهِكِ زَيْنَا

قال عمر إن صاحبكم أُعطى مقولا ولم يعط معقلا . وقال الشاعر :

لِسَانُكَ مَعْسُولٌ وَنَفْسُكَ شَحَّةٌ ... وَدُونَ الثُّرَيَّا مِنْ صَدِيقِكَ مَالُكَا

وأخبرنا أن ناسا قالوا لابن عمر : أدع الله لنا بدعوات فقال : اللهم ارحمنا وعافنا وارزقنا . فقالوا : لو زدتنا يا أبا عبد الرحمن ؟ قال : نعوذ بالله من الإسهاب .

وقال أبو الأسود الدُّؤلى فى ذكر الاسهاب — يقولها فى الحارث بن عبد الله

* من غريب أمر الجاحظ أنه لا يحسن التصنيف فانك تراه يفتح الباب فى الكتاب ثم يدخل فيه أشياء كثيرة ليست منه

ابن أبي ربيعة بن المغيرة ، والحارث هو القُباع ، وكان خطيباً من وجوه قريش ورجالهم ، وإنما سمي القباع لأنه أتى بمكيال(١) لأهل المدينة فقال: إن هذا المكيال القُباع . فسمي به . والقباع الواسع الرأس القصير .

— قال أبو الأسود :

أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ جُزِيتَ خَيْراً ... أَرِحْنَا مِنْ قُبَاعِ بَنِي المُغِيرَهْ
بَلَوْنَاهُ فَلُمْنَاهُ فَأَعْيَا ... عَلَيْنَا مَا يُمِرُّ لَنَا مَرِيرَهْ(٢)
عَلَى أَنَّ الفَتَى نَكِحٌ أَكُولٌ ... وَمِنْهَابٌ مَذَاهِبُهُ كَثِيرَهْ

وقال الفرزدق لجرير :

وَقَبْلَكَ مَا أَعْيَيْتُ كَاسِرَ عَيْنِهِ ... زِيَاداً فَلَمْ تَقْدِرْ عَلَيَّ حَبَائِلُهْ(٢)
فَأَقْسَمْتُ لَا آتِيهِ تِسْعِينَ حِجَّةً ... وَلَوْ كُسِرَتْ عُنْقُ القُبَاعِ وَكَاهِلُهْ

وقال الشاعر :

إِيَّاكَ إِيَّاكَ المِرَاءَ فَإِنَّهُ ... إِلَى الشَّرِّ دَعَّاءٌ وَلِلصَّرْمِ جَالِبُ

وقال أبو العتاهية :

وَالصَّمْتُ أَجْمَلُ بِالفَتَى ... مِنْ مَنْطِقٍ فِي غَيْرِ حِينِهْ
كُلُّ امْرِئٍ فِي نَفْسِهِ ... أَعْلَى وَأَشْرَفُ مِنْ قَرِينِهْ

(١) كان في الاصل : بمكتل . والصواب ما اثبتناه . وراجع صفحة ١٢٢

(٢) هو زياد بن أبي سفيان ، ويكنى ابا المغيرة . كان مولده بالطائف عام الفتح . وكتب للمغيرة ابن شعبة ثم لابي موسى الاشعري ثم لابن عامر ثم لابن عباس . وكان مع علي بن ابي طالب فولاه فارس فاظهر فيها حزما وعزما وتدبيرا وسياسة لم ير الفرس مثلها من ولاة العرب حتى انه لما ترك فارس اسفوا عليه اشد الاسف . وكتب اليه معاوية وهو على فارس يتهدده ويتوعده تارة ، ويعده ويمنيه اخرى . وما زال به حتى استجاب له فولاه معاوية البصرة واعمالها خراسان وسجستان وما وليهما . ولست آخذ زياداً بتركه عليا والتحاقه بمعاوية ولا أرى في ذلك ما يطعن في عقله وفضله وكفاياته ، لان معاوية اعترف له بأخوته من ابي سفيان وليس بعد اطمئنان الانسان على نسبه شيء . ولما مات المغيرة بن شعبة ضم إليه ولاية العراقين وهو اول من جمعا له ، وهو اول من لبس الخفاف الساذجة وثياب الكتان بالبصرة . وهو صاحب الخطبة البليغة المسماة « البتراء » وهي التي قرر فيها الاحكام العرفية لاول مرة في الاسلام . وكانت ولايته ثمان سنين . وكان من نوابغ قريش . مات بالكوفة سنة ٥٣ هـ

وكان سهل بن هرون يقول : سياسة البلاغة أشد من البلاغة ، كما أن التوقى على الدواء أشد من الدواء . وكانوا يأمرون بالتبين والتثبت وبالتحرز من زلل الكلام ، ومن زلل الرأى ، ومن الرأى الدبرى . والرأى الدبرى هو الذى يعرض من الصواب بعد مضى الرأى الأول وفوت استدراكه . وكانوا يأمرون بالتحلم والتعلم وبالتقدم فى ذلك أشد التقدم . وقال الأحنفُ : قال عمرَ بن الخطاب رضى الله عنه : تفقهوا قبل أن تسودوا . وكان يقول رضى الله عنه : السؤدد مع السَّواد . وأنشدوا لـكُثَيِّر عَزَّةَ :

وفى الحِلْمِ وَالْإِسْلَامِ لِلمرْءِ وَازِعٌ ... وَفِى تَرْكِكِ طَاعَاتِ الفُؤَادِ المُتَيَّمِ (١)

بَصَائِرُ رُشْدٍ لِلفَتَى مُسْتَبِينَةٌ ... وَأَخْلَاقُ صِدْقٍ عِلْمُهَا بِالتَّعَلُّمِ

وقال الأفوه الأودىُّ (٢)

أَضْحَتْ قَرِينَةُ قَدْ تَغَيَّرَ بِشْرُهَا ... وَتَجَهَّمَتْ بِتَحِيَّةِ القَوْمِ العِدَا

أَلْوَتْ بِإِصْبَعِهَا وَقَالَتْ إِنَّمَا ... يَكْفِيكَ مِمَّا لَا تَرَى مَا قَدْ تَرَى

وأنشد :

إِبْدَأْ بِنَفْسِكَ فَانْهَهَا عَنْ غَيِّهَا ... فَإِذَا انْتَهَتْ عَنْهُ فَأَنْتَ حَكِيمُ

فَهُنَاكَ تُعْذَرُ إِنْ وَعَظْتَ وَيُقْتَدَى ... بِالقَوْلِ مِنْكَ وَيُقْبَلُ التَّعْلِيمُ

قالوا : وكان الأحنف أشد الناس سلطانا على نفسه . وكان الحسن أترك لما نهى عنه . وقال الآخر :

لَا تَعْذِرَانِّى فِى الْإِسَاءَةِ إِنَّهُ ... شَرُّ الرِّجَالِ مَنْ يُسِيءُ فَيُعْذَرُ

---

(١) قال الجاحظ : الوازع الناهى ، والوزعة جمع وازع وهم الناهون الكافون .

(٢) هو صلاءة بن عمرو بن مالك ، والأفوه لقب . كان من سادات العرب فى الجاهلية وكان شاعرا خلا وفارساً مغوارا وذا رأى وحزم . مات سنة ٥٧٠ م وهذان البيتان من كلمة يقول فيها :

وبروضه السلان منا مشهد ... والخيل شائحه وقد عظم البنا

تخلى الجماجم والأكف سيوفنا ... ورماحنا بالطعن تنتظم الـكلى

عافوا الاتاوة فاستقت اسلامهم ... حتى ارتووا عللا بأذنبة الردى

وقال الكميت بن زيد الأسدى :

وَلَمْ يَقُلْ بَعْدَ زَلَّةٍ لَهُمُ ... عِنْدَ المَعَاذِيرِ إِنَّمَا حَسِبُوا (١)

وأنشد الأحوص بن محمد (٢)

قَامَتْ تُخَاصِرُنِي بِقُنَّتِهَا ... خَوْدٌ تَأَطَّرُ غَادَةٌ بِكْرُ (٣)

كُلٌّ يَرَى أَنَّ الشَّبَابَ لَهُ ... فِي كُلِّ مَبْلَغِ لَذَّةٍ عُذْرُ

وقال جرير فى فوت الرأى :

وَلَا يَتَّقُونَ الشَّرَّ حَتَّى يُصِيبَهُمْ ... وَلَا يَعْرِفُونَ الأَمْرَ إِلَّا تَدَبُّرَا

ومدح النابغة ناسا بخلاف هذه الصفة فقال :

وَلَا يَحْسَبُونَ الخَيْرَ لَا شَرَّ بَعْدَهُ ... وَلَا يَحْسَبُونَ الشَّرَّ ضَرْبَةَ لَازِبِ (٤)

وأنشد :

هَفَاهَفْوَةً كَانَتْ مِنَ المَرْءِ بِدْعَةً ... وَمَا مِثْلُهُ عَنْ مِثْلِهَا بِسَلِيمِ

فَإِنْ يَكُ أَخْطَا فِي أَخِيكُمْ فَرُبَّمَا ... أَصَابَ الَّتِي فِيهَا صَلَاحُ تَمِيمِ

وقال قائل عند يزيد بن عمر بن هُبيرة (٥) والله ما أتى الحارث بن شريح، بيوم خير قط ؟ فقال له الترجمان بن هُريم : إلا يكن أتى بيوم خير فقد أتى بيوم شر !
وذهب الترجمان بن هُريم إلى مثل معنى قول الشاعر :

---

(١) الزلة : المفوة، والمعاذير : الاعتذارات . وحسبوا : ظنوا من الحسبان . ويروى : كرروا المعاذير . وهذا البيت من قصيدة يمدح بها آل الرسول صلوات الله عليهم فهى هاشمية

(٢) هو ابو محمد عبد الله بن محمد بن عاصم ، وانما سمي الأحوص لضيق كان في مؤخرة عينيه . كان شاعرا مجيدا سمح الطبع سهل الكلام صحيح المعنى ولشعره رونق وديباجة صافية وحلاوة وعذوبة ألفاظ ، ولكنه مع هذا كان دنىء الاخلاق والافعال قليل المروءة والدين هجاء للناس خبيث الداء . وكان من مقدمى الشعراء فى الدولة الاموية عند الرواة وأهل الحجاز

(٣) قال الجاحظ : تخاصرني آخذ بيدها وتأخذ بيدى ، والقنة المواضع الغليظة من الارض فى صلابة . الخود الحسنة الخلق ، تأطر تنثنى ، والغادة الناعمة اللينة .

(٤) قال الجاحظ : اللازب واللازم واحد . واللازب فى مكان آخر اليابس . قال الله عز وجل « من طين لازب » واللازبات السنون الجدبة .

(٥) هو الترجمان بن هريم بن أبي طحمة التيمى ، كان من الشجعان الفرسان البلغاء . وكان أميرا على الاهواز ورأس بني حنظلة لبنى أمية

وَما خُلِقَتْ بَنُو زَمَّانَ إلاَّ ... أخِيرًا بَعْدَ خلقِ النَّاسِ طُرَّا
وَمَا فعلت بَنُو زِمَّانَ خَيْرًا ... وَلاَ فعلت بَنُو زِمَّانَ شَرًّا

ومن هذا الجنس من الأحاديث — وهو يدخل فى باب الملح — قال الأصمعى : وصلت بالعلم ، ونلت بالملح . قال رجل مرة : أبى الذى قاد الجيوش وفتح الفتوح وخرج على الملوك واغتصب المنابر . فقال رجل من القوم : لا جرم ، لقد أسر وقتل وصلب ! فقال له المفتخر بأبيه : دعنى من أسر أبى وقتله وصلبه ، أبوك أنت حدث نفسه بشىء من هذا قط ؟

قد سمعنا رواية القوم واحتجاجاتهم ، وأنا أوصيك أن لا تدع التماس البيان والتبيين إن ظننت أن لك فيهما طبيعة ، وأنهما يناسبانك بعض المناسبة ويشاكلانك فى بعض المشاكلة . ولا تهمل طبيعتك فيستولى الاهمال على قوة القريحة ويستبد بها سوء العادة . وإن كنت ذا بيان وأحسست من نفسك بالنفوذ فى الخطابة والبلاغة وبقوة المنة يوم الحفل فلا تقصر فى التماس أعلاها سورة[1] وأرفعها فى البيان منزلة ، ولا يقطعنك تهيب الجهلاء وتخويف الجبناء ، ولا تصرفنك الروايات المعدولة عن وجوهها والأحاديث المتناولة على أقبح مخارجها . وكيف تطيعهم بهذه الروايات المعدولة والأخبار المدخولة ، وبهذا الرأى الذى ابتدعوه من قبل أنفسهم وقد سمعت الله تبارك وتعالى ذكر داود النبى عليه السلام فقال « وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إنه أوَّاب — إلى قوله — وفَصْلَ الخطاب » فجمع له بالحكمة : البراعة فى العقل والرجاحة فى الحلم والاتساع فى العلم والصواب فى الحكم ، وجمع له بفصل الخطاب : تفصيل المجمل وتخليص الملتبس والبصر بالحز فى موضع الحز والحسم فى موضع الحسم ؟ ! وذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم شعيباً النبى عليه السلام فقال « كان شعيب خطيب الأنبياء » وذلك عند بعض ما حكاه الله عنه فى كتابه وحلاه لأسماع عباده . فكيف تهاب منزلة الخطباء

(١) سورة : منزلة

وداود عليه السلام سلفك وشعيب إمامك مع ما تلونا عليك فى صدر هذا الكتاب من القرآن الحكيم والآى الكريم ؟ وهذه خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم مدونة محفوظة ومخلدة مشهورة ، وهذه خطب أبى بكر وعمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم . وقد كان لرسول الله شعراء ينافحون عنه وعن أصحابه بأمره . وكان ثابتُ بن قَيْس بن الشَّماس الأنصارى خطيب رسول الله صلى الله عليه وسلم لايدفع ذلك أحد .

فأما ما ذكرتم من الإسهاب والتكلف والخطل والتزيد ، فإنما يخرج إلى الاسهاب المتكلف وإلى الخطل المتزيد . فأما أرباب الكلام ورؤساء أهل البيان والمطبوعون المعاودون وأصحاب التحصيل والمحاسبة والتوقى والشفقة والذين يتكلمون فى صلاح ذات البين وفى إطفاء نائرة[1] أو حِمالة أو على مِنبر جماعة أو فى عقد إملاك بين مسلم ومسلمة ، فكيف يكون كلام هؤلاء يدعو إلى السلاطة والمراء وإلى الهذر والبذاء ، وإلى النفج والرياء ؟ ولو كان هذا كما يقولون لكان علىُّ بن أبى طالب وعبد الله بن عباس رضى الله عنهما أكثر الناس فيما ذكرتم . فلم خطب صَعْصَعَةُ بْنُ صُوحَانَ عند على بن أبى طالب ! ؟ وقد كان ينبغى للحسن البصرى أن يكون أحق التابعين بما ذكرتم ؟ !

قال الأصمعى : قيل لسَعيدِ بنِ المُسَيِّبْ[2] : هاهنا قومٌ نُساكٌ يعيبون إنشاد الشعر ؟ قال : نَسكوا نُسكا أعجميا .

وزعمتم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « شُعْبَتانِ مِنْ شُعَبِ النفاقِ الْبَذَاءُ وَالْبيَانُ ، وشُعْبتانِ مِن شُعَبِ الايمانِ : الحياءُ والْعِيُّ »

ونحن نعوذ بالله من العى ونعوذ بالله أن يكون القرآن يحث على البيان ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يحث على العى ، ونعوذ بالله أن يجمع رسول الله

(١) نائرة : فتنة

(٢) هو ابو محمد سعيد بن المسيب بن حزن . كان من خيار التابعين وكان أفقه أهل الحجاز وأعبر الناس للرؤيا ، وقد جمع بين الحديث والفقه والنسك والتعبير . ولد سنة ١٣ ومات سنة ٩٤ هـ

صلى الله عليه وسلم بين البذاء والبيان ، وإنما وقع النهي على كل شيء جاوز المقدار، فالعي مذموم والخطل مذموم ، ودين الله تبارك وتعالى بين المقصِّر والغالي .

وها هنا روايات كثيرة مدخولة وأحاديث معلولة. ورووا أن رجلا مدح الحياء عند الأحنف وأن الأحنف قال : ربما يعود ذلك ضعفاً . والخير لا يكون سبباً للشر ولكنا نقول : إن الحياء إسم لمقدار من المقادير ما زاد على ذلك المقدار فسمّه ما أحببت ، وكذلك الجود إسم لمقدار من المقادير ، فالسَّرَف إسم لما فضل عن ذلك المقدار . وللحزم مقدار ، فالجبن إسم لما فَضَلَ عن ذلك المقدار ، وللاقتصاد مقدار ، فالبخل إسم لما خرج عن ذلك المقدار ، وللشجاعة مقدار ، فالتهوُّر والخَوَر إسم لما جاوز ذلك المقدار .

وهذه الاحاديث ليست لعامتها أسانيد متصلة ،فان وجدتها متصلة لم تجدها محمودة وأكثرها جاءت مطلقة ليس لها حامل محمود ولا مذموم ، فاذا كانت الكلمة حسنة استمتعنا بها على قدر ما فيها من الحسن .

فإن أردت أن تتكلف هذه الصناعة وتنسب إلى هذا الأدب فقرضت قصيدة أو حبرت خطبة أو ألفت رسالة ، فإياك أن تدعوك ثقتك بنفسك ويدعوك عجبك بثمرة عقلك إلى أن تنتحله وتدعيه ، ولكن اعرضه على العلماء في عُرض رسائل أو أشعار أو خطب ، فإن رأيت الأسماع تُصغِي له والعيون تَحْدِجُ اليه ، ورأيت من يطلبه ويستحسنه فانتحله ، فإن كان ذلك في ابتداء أمرك وفي أول تكلفك فلم تر له طالبا ولا مستحسناً ، فلعله أن يكون — مادام ريضا قضيبا — تعنيسا[1] أن يحل عندهم محل المتروك ، فان عاودت أمثال ذلك مراراً فوجدت الأسماع عنه منصرفة والقلوب لاهية فخذ في غير هذه الصناعة واجعل رائدك الذي لا يكذبك حرصهم عليه أو زهدهم فيه . وقال الشاعر :

إنَّ الحديثَ تَغُرُّ القومَ خلوتُهُ ... حتّى يُلِجَّ بهم عِيٌّ وإكثارُ

(١) قضيبا : لم يتم كماله . تعنيسا : فات وقته

وفى المثل المضروب «كلُّ مُجْرٍ فى الخلاء مُسَرٌّ» (١) ولم يقولوا مسرور. وكلٌّ صواب. فلا تثق فى كلامك برأى نفسك. فإنى ربما رأيت الرجل متماسكا وفوق المتماسك حتى إذا صار إلى رأيه فى شعره وفى كلامه وفى ابنه، رأيته متهافتا وفوق المتهافت. وكان زهير بن أبي سُلمى وهو أحد الثلاثة المتقدمين يسمى كبار قصائده (الحوليات) وقال الحُطَيْئَةُ: خير الشعر الحولى المنقح. وقال البَعِيثُ الشاعر، وكان أخطب الناس: إنى والله ما أرسل الكلام قضيباً خشيباً وما أريد أن أخطب يوم الحفل إلا بالبائت المحكك.

وكنت أظن أن قولهم: محكك، كلمة مولده حتى سمعت قول الصعب بن على الكنانى: (٢)

أبلغْ فَزَارَةَ أنَّ الذِّئْبَ آكِلُهَا ... وَجَائعٌ سَغِبٌ شَرٌّ مِنَ الذِّئْبِ
أزَلُّ أطْلَسُ ذُو نَفْسٍ مُحَكَّكَةٍ ... قَدْ كَانَ طَارَ زَمَانًا فِى الْيَعَاسِيبِ (٣)

وتكلم يزيدُ بنُ أبانٍ الرَّقاشِيُّ، ثم تكلم الحسن وأعرابيَّان حاضران. فقال أحدهما لصاحبه: كيف رأيت الرجلين؟ قال: أما الأول فقاصٌّ مُجيد، وأما الآخر فعربيٌّ محكك. ونظر أعرابى إلى الحسن فقال له رجل: كيف تراه؟ قال: أرى خَيْشُومَ حُرٍّ. وأرادوا عبدَ اللهِ بنَ وَهْبٍ الرَّاسِبِيَّ (٤) على الكلام يوم

(١) هذا مثل يضرب لمن يعث خيله فى الصحراء على غير مشهد من الناس فيحسبها إذا أرسلت فى ميادين السباق سبقت وفازت فيسره هذا الوهم فتكون العاقبة شرا عليه

(٢) لاأدرى إذا كان فى كنانة من اسمه الصعب بن على أو هو الصعب بن على بن بكر بن وائل الذى ذكره امرؤ القيس فى شعره؟ على أن الجاحظ — إذا لم يكن قد وقع خطأ فى النسبة الى كنانة من ناسخي هذا الكتاب، — فيكون هناك صعب آخر كنانى والجاحظ أدرى الناس ببنى كنانة لأنهم قومه

(٣) الأزل الأرسح: الذئب يتولد بين الضبع والذئب. وكان فى الأصل: أدل وهو خطأ. والأطلس: الذئب الأمعط فى لونه غبرة إلى السواد ومحككة: قد هذبتها الأمور وشذبتها الأحداث. واليعاسيب: لعله يريد هنا أنه جرى زمنا مع زعماء اللصوص والخراب، وإلا فاليعسوب أمير النحل وقد يطلق على كل رئيس ناهض بأسباب الرئاسة

(٤) هو عبد الله بن وهب الراسبي الأزدي وكانت بيعته فى ١٠ شوال سنة ٣٧ هـ

عقدت له الخوارج[(١)] الرئاسة[(٢)] فقال: وما أنا والرأي الفطير والكلام القضيب؟[(٣)] ولما فرغوا من البيعة له قال: دعوا الرأي يَغِبَّ فإن غُبُوبه يكشف لكم عن محضه[(٤)]. وقيل لابن التَّوْأم الرَّقاشِي: تكلم؟ فقال: ما أشتهي الخبز إلا بائتا[(٥)] وقال عُمرُ بنُ لجأٍ لبعض الشعراء: أنا أشعر منك. قال: وبم ذاك؟ قال: لأني أقول البيت وأخاه، وتقول البيت وابنَ عمه. وذكر بعضهم شعر النابغة الجعدي فقال: مُطْرَفٌ بآلافٍ وخِمَارٌ بِوافٍ[(٦)]. وكان الأصمعي يفضّله من أجل ذلك، وكان يقول: ألحطيئةُ عبدٌ لشعره.! عاب شِعرَه حين وجده كله متخيَّراً منتخباً مستوياً، لمكان الصنعة والتكلف والقيام عليه. وقالوا: لو كان شعر صالح بنِ عبدِ القدُّوس وسابقٍ البَرْبرى كان مفرقاً فى أشعار كثيرة لصارت تلك الأشعار أرفع مما هى عليه بطبقات، ولصار شعرهما نوادر سائرة فى الآفاق، ولكن القصيدة إذا كانت كلها أمثالا لم تَسِر ولم تجر مجرى النوادر، ومتى لم يخرج السامع من شىء إلى شىء لم يكن لذلك النظام عنده موقع.

وقال بعض الشعراء لرجل: أنا أقول فى كل ساعة قصيدة، وأنت تقرضها فى كل شهر، فلم ذلك؟ قال: لأنى لا أقبل من شيطانى مثل الذى تقبله من شيطانك[(٧)]

(١) الخوارج جمع الخارجة وهم الطائفة نزعت أيديها عن طاعة السلطان بدعوى ضلاله وعدم التزامه جانب الحق، ولهم فى ذلك مذاهب وآراء فيها الغث وفيها السمين، ومع هذا فلا شك فى أنهم كانوا نوابغ الدهر، وهم القدوة فى التمسك بالعقيدة والدفاع عنها بكل نفيس وغال من أرواح وأموال.

(٢) الصحيح أنه لما عزم الخوارج على البيعة له.

(٣) ويروى انه قال: ياقوم استبيتوا الرأي. اي دعوه يغب

(٤) ويروى: فان غبوبه يكشف للمرء عن فصه، وازدحام الجواب مضلة للصواب. وليس الرأي بالارتجال ولا الحزم بالاقتضاب

(٥) رفعنا من هذا المقام جملة مضطربة وهى مكررة فمن أرادها على الصحة فليطلبها من الصفحة ٧١ س ١٦

(٦) المطرف: رداء من خز مربع ذو أعلام. والخمار: النصيف وهو الذي تغطى به المرأة رأسها ووجهها. والوافى: الدرهم ومقداره درهم وأربعة دوانق.

(٧) ذكرنى هذا بما يروى عن هوميروس الشاعر اليونانى، زعموا أن الشاعر ابرخس جاءه يوما يفاخره بكثرة شعره وسرعة عمله ويعيره بقلة شعره وبطئه، فقال له هوميروس: بلغنى ان خنزيرة بأنطاكية عيرت لبؤة بطول زمن الحمل وقلة الولد وفاخرتها بالسرعة والكثرة فقالت لها اللبؤة: لقد صدقت، إنى ألد الولد بعد الولد ولكن أسداً؟!

قالوا : وأنشد عُقبةُ بن رُؤبة أباه رؤبة بن العجَّاج شعراً وقال له : كيف تراه ؟ قال له : يابنى ، إن أباك ليعرض له مثل هذا يمينا وشمالا فما يلتفت اليه . وقد رووا ذلك فى زهير وابنه كعب .

وقيل لِعَقِيلِ بنِ عُلَّفَةَ : لم لا تطيل الهجاء ؟ قال : يكفيك من القلادة ما أحاط بالعنق . وقيل لأبى المهوس : لم لاتطيل الهجاء ؟ قال : لم أجد المثل النادر إلا بيتاً واحداً ، ولم أجد الشعر السائر إلا بيتاً واحداً . وقال مَسْلَمَةُ بنُ عَبْدِ الملك [1] لنُصيب : يا أبا محجن [2] أما تحسن الهجاء ! ؟ قال : أما ترانى أحسن مكان عافاك الله ، لاعافاك الله .. ! ؟ ولاموا الكميتَ بن زيد على الإطالة فقال : أنا على القِصار أقدر . وقيل للعجَّاج : مالك لاتحسن الهجاء ؟ قال : هل فى الأرض صانع إلا وهو على الإفساد أقدر ؟ وقال رؤبة : الهدم أسرع من البناء .

وهذه الحجج التى ذكروها عن نُصيب والكُميت والعجاج ورؤبة إنما ذكروها على وجه الاحتجاج لهم . وهذا منهم جهل إن كانت هذه الأخبار صادقة . وقد يكون الرجل له طبيعة فى الحساب وليس له طبيعة فى الكلام ، ويكون له طبيعة فى التجارة وليس له طبيعة فى الفلاحة ، ويكون له طبيعة فى الحُداء أو فى التَّغْبِيرِ [3] أو فى القراءة بالألحان وليس له طبيعة فى الغناء . وإن كانت هذه الأنواع كلها

(١) هو ابو سعيد مسلمة بن عبد الملك بن مروان . كان من شجعان بنى امية وابطالهم وممن تعتز بهم الدول وتفخر الأمم . قاد الجيوش منذ شب عن طوقه وفتح الفتوحات العظيمة فى بلاد الروم حتى لقد اوشك ان يستولى على القسطنطينية اولا ان مات فى خلال حصارها سليمان بن عبد الملك بالشام فأمره عمر بن عبد العزيز بتركها والعودة إليه بجيوشه . وكان على جانب عظيم من السياسة والدهاء وقوة الحزم والتدبير . وكان مع هذا جوادا سمحا سخيا . وكانت تعلو وجهه صفرة فكان خصومه يلقبونه بالجرادة الصفراء . ولى العراق اشهرا ثم عزل بعمر بن هبيرة . مات فى عهد هشام

(٢) كان بالاصل : ابو الحجناء . وهو خطأ . والصواب ما اثبتناه . ويروى ان مسلمة قال لنصيب : انت لا تحسن الهجاء ، فقال : بلى والله ، اترانى لا احسن ان اجعل مكان عافاك الله أخزاك الله ! قال : فان فلانا قد مدحته فحرمك فاهجه ؟ قال : لا والله ما ينبغي ان اهجوه وإنما ينبغى ان اهجو نفسي حين مدحته ، فقال مسلمة : هذا والله اشد من الهجاء

(٣) كان فى الاصل : التعبير « بالعين المهملة » وليس هذا مكانها . والصواب التغبير « بالغين المعجمة » . والتغبير : ترديد الصوت بالقراءة . وهذا مقامها اللائق بها

ترجع إلى تأليف الالحون . ويكون له طبيعة فى الناى وليس له طبيعة فى السرناى ،(١) ويكون له طبيعة فى قصبة الراعى ولا يكون له طبيعة فى القصبتين المضمومتين ، ويكون له طبع فى صناعة الالحون ولا يكون له طبع فى غيرها ، ويكون له طبع فى تأليف الرسائل والخطب والأسجاع ولا يكون له طبع فى قرض بيت شعر . ومثل هذا كثير جداً .

وكان عَبْدُ الحَمِيدِ الأَكْبَرُ (٢) وابْنُ المُقفع مع بلاغة أقلامهما وألسنتهما لا يستطيعان من الشعر إلا ما لا يذكر مثله ، وقيل لابن المقفع فى ذلك ؟ فقال : الذى أرضاه لا يجيئنى والذى يجيئنى لا أرضاه . وهذا الفرزدق وكان مستهتَراً (٣) بالنساء وكان زِيرَ غَوَانٍ (٤) ، وهو فى ذلك ليس له بيت واحد فى النسيب مذكور .

(١) الناي : المزمار . والسرناى : آلة من آلات الزمر اكبر من الناى

(٢) هو عبد الحميد بن يحيي الكاتب البليغ الاشهر . وهو كاتب بني مروان وزينة ملكهم . كان من اكتب الناس وابلغهم ، وكان صنوا لابن المقفع وخدينا . كان آخر من كتب لهم مروان بن محمد آخر بنى امية . وكان ابو جعفر المنصور يحسد الأمويين عليه ويقول : غلبنا بنو امية بثلاثة رجال : بالحجاج وعبدالحميد والمؤذن البعلبكى . ولما اشتد الطلب على مروان وتتابعت هزائمه وتبددت جيوشه قال لعبد الحميد : القوم محتاجون إليك لادبك وإن إعجابهم بك يدعوهم إلى حسن الظن بك فاستأمن إليهم واظهر الغدر بي فلعلك تنفعنى فى حياتى او بعد مماتي ؛ فقال عبد الحميد :

اسر وفاء ثم اظهر غدرة فمن لى بعذر يوسع الناس ظاهره

ثم قال : يا أمير المؤمنين ، إن الذي أمرتني به أنفع الأمرين إليك وأقبحهما بى . ولكنى أصبر حتى يفتح الله عليك أو أقتل معك . وهذا أبلغ غايات الوفاء . فلما قتل مروان استخفى عبد الحميد عند ابن المقفع بالجزيرة ، فغمز عليه وفاجأهما الطلب وهما فى بيت فقال الذين دخلوا : أيكما عبدالحميد؟ فقال كل واحد منهما : أنا . خوفا على صاحبه . فلما عرف عبد الحميد اخذ وسلم إلى عبد الجبار صاحب شرطة السفاح فقتله سنة ١٣٢ هـ ولعبد الحميد كصاحبه ابن المقفع شعر قليل . وقد وقفت له على هذه الأبيات الجياد قال :

ترحل ما ليس بالقافل واعقب ما ليس بالزائل
فلهفى على الخلف النازل ولهفى على السلف الراحل
ابكى على ذا وابكى لذا بكاء مولهة ثاكل
تبكى على ابن لهـا قاطع وتبكى على ابن لها واصل
فليست تفتر عن عبرة لها في الضمير وعن هامل
نقضت غوايات سكر الصبي ورد التقى عنى الباطل

(٣) كان فى الأصل : مشتهراً . وليس هذا مكان هذه الكلمة . والصحيح انها مستهترا . كما اثبتناها . والمستهتر بالشيء هو المولع به لا يبالى فى لزومه ما يكون

(٤) زير غوان : ملازم للنساء محب لمجالستهن ومحادثتهن . وهذا يؤيد ماذهبنا إليه

ومع حسده لجرير — وجرير عفيف لم يعشق امرأة قط — وهو مع ذلك أغزل الناس شعراً . وفى الشعراء من لايستطيع مجاوزة القصيد إلى الرجز . ومنهم من لا يستطيع مجاوزة الرجز إلى القصيد . ومنهم من يجمعهما : كجرير وعمر بن لجأ وأبى النجم وحُميد الأرقط والعُمانى ، وليس الفرزدق فى طواله بأشعر منه فى قصاره. وفى الشعراء من يخطب ، وفيهم من لايستطيع الخطابة . وكذلك حال الخطباء فى قرض الشعر . وشاعرٌ نفسه قد تختلف حالاته . وقال الفرزدق : أنا عند الناس أشعر الناس وربما مرت علىَّ ساعة ونزع ضرس أهون علىَّ من أن أقول بيتا واحداً. وقال العجاج : لقد قلت أرجوزتى التى أولها :

بَكَيْتُ والمُحْتَزَنُ البكِىُّ   وَإنّما يأْتِى الصِّبَا الصبىُّ

أطَرَباً وَأَنْتَ قَنَّسْرِىُّ   وَالدَّهْرُ بالإنْسانِ دَوَّرِىُّ(١)

وأنا بالرمل فانثالت (٢) علىَّ قوافيها انثيالا وإنى لأُريد اليوم دونها فى الأيام الكثيرة فما أقدر عليه . وقال لى أبو يعقوب الُخريمىُّ : خرجت من منزلى أريد الشماسية فابتدأت القول فى مرثية لأبى التَّختاخِ فرجعت والله وما أمكننى بيت واحد . وقال الشاعر :

وَقَدْ يَقْرِضُ الشِّعْرَ البَكِىُّ لِسانُهُ   وتَعْيِي القَوَافِى المرءَ وهْوَ خَطِيبُ

---

(١) قنسرى : كبير السن

(٢) انثالت : تتابع ورودها

بسم الله الرحمن الرحيم

باب من القول فى القوافى الظاهرة واللفظ الموجز من ملتقطات

كلام النساك

قال بعض الناس : من التَّوقِّ ترك الإفراط فى التوقى . وقال بعضهم : إذا لم يكن ماتريد فأرد ما يكون . وقال الشاعر :

قَدَرُ اللهِ وَارِدٌ حِينَ يُقضَى وُرُودُهُ
فأَرِدْ ما يَكونُ إنْ لَمْ يكنْ ماتُرِيدُهُ

وقيل لأعرابى فى شكاته : كيف تجدك ؟ قال : أجد ما لا أشتهى وأشتهى مالا أجد ، وأنا فى زمان من جاد لم يَجِد ، ومن وَجَد لم يَجُد(١) . وقال بعض النساك . أنا لما لا أرجو أرجى منى لما أرجو . وقال بعضهم : أعجب من العجب ترك التعجب من العجب . وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله لعبد بنى مخزوم : إنى أخاف الله فيما تقلدت ؟ قال : لستُ أخاف عليك أن تخاف وإنما أخاف عليك أن لا تخاف . وقال : الأحنف لمعاوية : أخافك إن صَدَقتك وأخاف الله إن كذَبْتك . وقال رجل من النساك لصاحب له وهو يجود بنفسه : أما ذنوبى فإنى أرجو لها مغفرة الله ولكنى أخف على بناتى الضيعة ! فقال له صاحبه : فالذى ترجوه لمغفرة ذنوبك فارجه لحفظ بناتك ؟ وقال رجل من النساك لصاحب له : مالى أراك حزينا ؟ قال : كان عندى يتيم أربيه لأُوجر فيه فمات فانقطع عنا أجره إذ بطل قيامنا بمؤُنته ؟ فقال له صاحبه : فاجتلب يتيما آخر يقوم لك مقام الأول ؟ قل أخاف أن لا أصيب يتيما فى سوء خلقه ؟ قال له صاحبه : أما أنا فلو كنت فى

(١) يعنى إن من كان من عادته الجود والسخاء ليس عنده مايجود به ومن كان عنده مال غلب عليه الشح فلا ينفقه فى اكتساب المكرمات وفى حسن الأحدوثة

فى موضعك منه لا ذكرت سوء خُلقه ؟ وقال آخر، وسمعه أبو هريرة النحوى وهو يقول . ما يمنعنى من تعلم القرآن إلا أنى أخاف أن أضيعه ، قال: أما أنت فقد عجلت له التضييع ولعلك إذا تعلمته لم تضيعه . وقال عمر بن عبد العزيز لرجل : مَن سيد قومك ؟ قال : أنا قال: لو كنت كذلك لم تقل .

باب آخر

وقالوا فى حسن البيان ، وفى التخلص من الخصم بالحق والباطل، وفى تخليص الحق من الباطل ، وفى الاقرار بالحق وفى ترك الفخر بالباطل. قال أعرابى ، وذكر حماسَ بن ثامل :

بَرِئْتُ إلى الرَّحمنِ مِن كُلِّ صاحِبٍ   أُصاحِبُهُ إلاَّ حِماسَ بْنَ ثامِلِ
وظَنِّى بِهِ بَيْنَ السِّماطَيْنِ أنَّهُ   سَيَنْجُو بِحَقٍّ أو سَيَنْجُو بِباطِلِ

وقال العُجيرُ السلولى:

وَإنَّ ابنَ زَيدٍ لَابْنُ عَمِّى وَإنَّهُ   لَبَلَّالُ أيْدِى جِلَّةِ الشَّوْلِ بالدَّمِ (١)
طلوعُ الثَّنايا بالمَطايا وَإنَّهُ   غَداةَ المرادِى لَلْخطيبُ المُقدَّمُ (٢)
يَسُرُّكَ مَظلوماً وَيُرْضيكَ ظالِماً   وَيَكْفيكَ ما حُمِّلْتَهُ حينَ تغرَمُ

وَقال ابنُ رِبْعٍ الهُذَلِيُّ :

أعَيْنِىَ ألا فابْكِى رُقَيْبَةَ إنَّهُ   وَصُولٌ لِأرْحامٍ ومِعْطاءُ سائِلِ
فأُقْسِمُ لَوْ أدْرَكْتُهُ لَحَمَيْتُهُ   وإنْ كانَ لم يَتْرُكْ مَقالاً لِقائِلِ

وقال الرَّبيعُ بن أبى الحُقَيق من بنى النَّضير ، وبعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى خيبر فقتلوه :

(١) قال الجاحظ : الشول جمع شائلة وهي الناقة التى جف لبنها ، وإذا شالت بذنبها بعد اللقاح فهى شائل وجمعها شول ،

(٢) قال الجاحظ : المرادي : المصادع والمقارع ، يقال ردبت الحجر بصخرة او بمعول إذا ضربته بها لتكسره ، والمرداة الصخرة التى تكسر بها الحجارة ،

سَائِلْ بِنا خَابِرَ أَكْفائِنا   وَالعِلْمُ قَدْ يُلْفَى لَدَى السائِلِ (١)
إنَّا إذَا مالَتْ دَوَاعِى الهوَى   وأَنْصتَ السامِعُ للقائِلِ
واصْطَرَعَ النَّاسُ بِأَلْبابِهِمْ   نَقْضِى بِحُكْمٍ عادِلٍ فاصِلِ (٢)
لا نَجْعَلُ الباطِلَ حَقًّا وَلا   نُلِطُّ دُونَ الحَقِّ بِالباطِلِ (٣)
نَكْرَهُ أَنْ تَسْفَهَ أَحْلامُنا   فَنَخْمُلَ الدَّهْرَ مَعَ الخامِلِ

وقال الآخر ، وذكر حِماساً أيضاً :

أَتانِى حِماسٌ بابْنِ مَاهِى يَسُوقُهُ   لِيُبْغِيَهُ خَيْراً وَلَيْسَ بِفاعِلِ
لِيُعْطِى عَبْساً مَا لَنا ، وَصُدُورُنا   مِنَ الغَيْظِ تَغْلِى مِثْلَ غَلْى المَراجِلِ
وَقافِيَةٍ قِيلَتْ لَكُمْ لَمْ أَجِدْ لَها   جَواباً إذا لَمْ تَضْرِبُوا بالمَناصِلِ
فَأَنْطِقَ فى حَقٍّ بِحَقٍّ وَلَمْ يَكُنْ   لِيَرْحَضَ عَنْكُمْ قالَةَ الخِزْىِ باطِلِى (٤)

وَقالَ عَمْرُو بْنُ مَعْدِيكَرِبَ (٥)

---

(١) الخابر : العالم الواقف على حقائق الأمور
(٢) اصطرعوا بألبابهم : تصارعوا بعقولهم . تجادلوا وتخاصموا وادلى كل بحجته .
(٣) نلط : نمنع ونستر
(٤) قال الجاحظ : ليرحض أي ليغسل ، والراحض الغاسل ، والمرحاض الموضع الذي يغسل فيه.
(٥) هو عمرو بن معديكرب الزبيدي فارس اليمن بلا منازع وبطل من ابطال العرب فى الجاهلية والاسلام ، كان من اشجع الناس واقواهم ، له غارات فى الجاهلية معروفة ، ومشاهد فى الاسلام موصوفة ، شهد كثيراً من الوقائع ايام الفتوح وابلى فيها بلاءحسنا . مات غازيا بنهاوند عن سن عالية. سنة ٢١ هـ وهذا البيت من كلمة له وهى من اجود الشعر ، وهى :

ولما رأيت الخيل زورا كأنها   جداول زرع ارسلت فاسبطرت
فجاشت إلى النفس اول مرة   فردت على مكروهها فاستقرت
هتفت فجاءت من زبيد عصابة   إذا طردت فاءت قريبا فكرت
علام اقول الرمح يثقل عاتقي   إذا انا لم احمل إذا الخيل كرت
لحا الله جرما كلما ذر شارق   وجوه كلاب هارشت فازبأرت
فلم تغن جرم نهدها إذ تلاقيا   ولكن جرما فى اللقاء ابذعرت
فظلت كأنى للرماح دريئة   اقاتل عن ابناء جرم وفرت
فلو ان قومى . الخ البيت .

فَلَوْ أَنَّ قَوْمِي أَنْطَقَتْنِي رِمَاحُهُمْ   نَطَقْتُ وَلَكِنَّ الرِّمَاحَ أَجَرَّتِ (١)

وقال أبو عبيدة : صاح رُؤْبَةُ في بعض الحروب التي بين تميم والأزد : يامعشر بني تميم أطلقوا من لساني . قال : أبصر رجلا منهم قد طعن فارساً طعنة فصاح : لا عِيًّا ولاشللا : والعرب تقول : عِيٌّ أبأس من شَلل . كأن العى فوق كل زَمانَة . وقالت الجُهَنية (٢)

أَلَا هَلَكَ الحُلْوُ الحَلالُ الحُلاحِلُ   وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمٌ وَحِلْمٌ وَنَائِلُ (٣)

وَذُو خُطَبٍ يَوْماً إِذَا القَوْمُ أُفْحِمُوا   تُصِيبُ مَرَادِي قَوْلِهِ ما يُحَاوِلُ

بَصِيرٌ بِعَوْرَاتِ الكَلامِ إِذا الْتَقَى   شَرِيجانِ بَيْنَ القَوْمِ حَقٌّ وَباطِلُ (٤)

أَبِيٌّ لِما يَأْبَى الكَرِيمُ بِسَيْفِهِ   وإِنْ أَسْلَمَتْهُ جُنْدُهُ وَالقَبائِلُ

وَلَيْسَ بِمِعْطاءِ الظُّلامَةِ عَنْ يَدٍ   وَلا دُونَ أَعْلَى سُورَةِ المَجْدِ قابِلُ

وأنشد أبو عبيدة — في الخطيب يطول كلامه ويكون ذكوراً لأول خطبته، وللذى بنى عليه أمره ، وإن شغب شاغب فقطع عليه كلامه، أو حدث عند ذلك حدث يحتاج فيه إلى تدبير آخر وصل الثانى من كلامه بالأول حتى لايكون أحد كلاميه أجود من الآخر :

فَإِنْ أَحْدَثُوا شَغْباً يُقَطِّعُ نَظْمَها   فَإِنَّكَ وَصَّالٌ لِما قَطَعَ الشَّغْبُ

وَلَوْ كُنْتَ نَسَّاجاً سَدَوْتَ خِطابَها   بِقَوْلٍ كَطَعْمِ الشَّهْدِ بِالبارِدِ العَذْبِ

وقال نُصَيْبٌ (٥)

---

(١) قال الجاحظ : الجرار عود يعرض في فم الفصيل او يشق به لسانه لئلا يرضع ، فيقول : قومي لم يطعنوا بالرماح فأثنى عليهم ولكنهم فروا فأمسكت كالمجر الذى فى فمه جرار،

(٢) وفى نسخة : الجهضمية

(٣) قال الجاحظ : الحلاحل السيد ،

(٤) عورات الكلام : عيوبه وما يحدث الضرر منه ، قال الجاحظ : شريجان : جنسان ، ويقال الناس شرجان وشريجان ، أي فرقتان ، ومنه حديث النبي أنه لما بلغ الكديد أمر الناس بالفطر فأصبح الناس شرجين . أى بعضهم صائما وبعضهم مفطرا »

(٥) هو أبو محجن نصيب بن رباح مولى عبد العزيز بن مروان ، وهو نصيب الأكبر . قال ابن

وَمَا بَدَلْتُ ابْتِذَالَ الثَّوْبِ وُدَّكُمْ ... وَعَائِدٌ خَلَقًا مَا كَانَ يُبْتَذَلُ
وَعِلْمُكَ الشيءَ تَهْوَى أَنْ تُبَيِّنَهُ ... أَشْفَى بِقَلْبِكَ مِنْ أَخْبَارِ مَنْ تَسَلُ

وقال الآخر :

لَعَمْرُكَ مَا وُدُّ اللِّسَانِ بِنَافِعٍ ... إذا لم يكُنْ أَصْلُ الْمَوَدَّةِ فِي الصَّدْرِ

وقال الآخر

تَعَلَّمْ فَلَيْسَ الْمَرْءُ يُولَدُ عَالِمًا ... وَلَيْسَ أَخُو عِلْمٍ كَمَنْ هُوَ جَاهِلُ
وَإِنَّ كَبِيرَ الْقَوْمِ لَا عِلْمَ عِنْدَهُ ... صَغِيرٌ إِذَا الْتَفَّتْ عَلَيْهِ الْمَحَافِلُ

وقال الآخر :

فَتًى مِثْلُ صَفْوِ الْمَاءِ لَيْسَ بِبَاخِلٍ ... عَلَيْكَ وَلَا مُهْدٍ مَلَامًا لِبَاخِلِ
وَلَا قَائِلٍ عَوْرَاءَ تُؤْذِي رَفِيقَهُ ... وَلَا رَافِعٍ رَأْسًا بِعَوْرَاءَ قَائِلِ
وَلَا مُسْلِمٍ مَوْلًى لِأَمْرٍ يُصِيبُهُ ... وَلَا خَالِطٍ حَقًّا مُصِيبًا بِبَاطِلِ
وَلَا رَافِعٍ أُحْدُوثَةَ السُّوءِ مُعْجَبًا ... بِهَا بَيْنَ أَيْدِي الْمَجْلِسِ الْمُتَقَابِلِ
تَرَى أَهْلَهُ فِي نِعْمَةٍ وَهْوَ شَاحِبٌ ... طَوِي الْبَطْنِ مِخْمَاصُ الضُّحَى وَالْأَصَائِلِ

وقالت أُخْتُ يزيدَ بْنِ الطَّثْرِيَّةِ (١)

أَرَى الْأَثْلَ مِنْ بَطْنِ الْعَقِيقِ مُجَاوِرِي ... قَرِيبًا وَقَدْ غَالَتْ يَزِيدَ غَوَائِلُهُ (٢)

دأب : كان نصيب من قضاعة ثم من بلى وكانت أمه سوداء فوقع عليها سيدها فحبلت بنصيب فوثب عليه عمه بعد وفاة أبيه فباعه من عبد العزيز . إذن فنصيب عربي صلبيه . كان شاعرا فحلا فصيحا مقدما في النسيب والمديح عفيفا كريما غير ذي حظ في الهجاء ، وكان له ولد يسمى محجن وبه كان يكنى . وله مواقف مع جرير والفرزدق . دخل يوما على عبد الملك فتغدى معه ثم قال له عبد الملك : هل لك فيما نتنادم عليه ؟ فقال : تؤمنني ! فأمنه ، فقال : لوني حائل ، وشعري مفلفل ، وخلقتي مشوهة ، ولم أبلغ ما بلغت من إكرامك إياي بشرف أب أو أم أو عشيرة ، وإنما بلغته بعقلي ولساني ، فأنشدك الله يا أمير المؤمنين أن تحول بيني وبين ما بلغت به هذه المنزلة منك ، فأعفاه

(١) هي زينب بنت الصمة أخت يزيد بن الطثرية ، والطثرية أمهما . كانت شاعرة محسنة من أبلغ شواعر الاسلام ويزيد أخوها كان من فحول الشعراء وكان فارسا مغوارا . قتل في إحدى المعارك بين قومه وبين بني حنيفة بن لجيم ــ أيام بني العباس فقالت ترثيه بهذه الأبيات الحسان

(٢) الأثل : شجر الطرفاء ، والعقيق : واد ببلاد بني عقيل مما يلي اليمامة . مجاوري : مقيم على حاله مع أن يزيد غالته الغوائل

فَتىً قُدَّ قَدَّ السَّيْفِ لَامُتَضائِلٌ   وَلا رَهِلٌ لَبَّاتُهُ وبآدِلُهْ (١)
فَتىً لايُرَى خَرْقُ القَمِيصِ بِخَصْرِهِ   وَلٰـكِنَّمَا تُوهِي القَمِيصَ كَواهِلُهْ (٢)
إذا نَزَلَ الأَضْيافُ كانَ عَذَوَّراً   عَلَى الحَيِّ حَتّى تَسْتَقِلَّ مَرَاجِلُهْ (٣)
مَضَى فَوَرِثْناهُ دَرِيسَ مُفاضَةٍ   وَأَبْيَضَ هِنْدِيّاً طَوِيلاً حَمائِلُه (٤)
يَسُرُّكَ مَظْلُوماً وَيُرْضِيكَ ظالِماً   وَكُلُّ الذى حُمِّلْتَهُ فهوَ حامِلُه (٥)
أَخُو الجِدِّ إنْ جَدَّ الرِجالُ وَشَمَّرُوا   وذُو باطِلٍ إن شِئْتَ أَلْهاكَ باطِلُه (٦)

يصير هذا الشعر وما أشبهه مما وقع فى هذا الباب إلى الشعر الذى فى أول الفصل

باب شعر وغير ذلك من الكلام مما يدخل فى باب الخطب

قال الشاعر:

عَجِبْتُ لِأَقْوامٍ يَعِيبُونَ خُطْبَتِي   وَما مِنهُم فى مَوْقِفٍ بِخَطِيبُ

---

(١) قد قد السيف: يعنى انه كان ممشوق القد امتشاق السيف. لامتضائل: ليس بالضئيل الجسم ولا النحيله. ولا رهل: يعنى ولا مترهل الجسم مسترخى اللحم من السمن. اللبات: العروق. والبآدل، جمع بأدلة، وهي لحمة بين الابط والثندوة. ويروى: واباجل، والاباجل: العروق. ومعنى هذا كله انه كان معتدل القوام ممشوق القد غير جسم ولا لحيم

(٢) خرق القميص: يعنى انه كان على يسار فلا يلبس الخلق من الثياب. توهى القميص: يعنى ان كواهله هي التى توهي القميص، ولعلها تريد بهذا القميص الذي توهيه كواهله، حمائل السيف!

(٣) العذور: السيء الخلق. يعنى انه كان حينما تنزل به الأضياف يهمه امرهم ويعمل على إكرامهم فتشتد وطأته على اهله فى تعجيل القرى وتحضير الطعام لارضاء الضيوف، فاذا بلغ امنيته من إكرام ضيوفه عاد إلى خلقه الاول من السماحة والبشاشة. والمراجل: القدور التى يهيا فيها الطعام

(٤) دريس مفاضة: درع بال. وابيض هنديا: وسيفا صقيلا. يعنى أنه أفنى ماله فى الكرم ولم يبق لنا ما نرثه عنه إلا هذه الدرع وهذا السيف

(٥) يسرك مظلوما: يعنى يسرك وان كان الظلم واقعا عليه. ويرضيك ظالما: يعنى وإن كنت أنت الظالم له. حامله: أى يحمل عنك كل مالا تقوى على حمله من المغارم وما إليها

(٦) يعنى أنه يجد في موضع الجد ويهزل فى موضع الهزل. وبعد هذه الابيات:

وقد كان يروى المشرفى بكفه   ويبلغ اقصى حجرة الحى نائله
كريم إذا لاقيته متبسما   وإما تولى اشعث الرأس جافله
إذا القوم اموا بيته فهو عامد   لأحسن ما ظنوا به فهو فاعله
ترى جازر به يرعدان وناره   عليها عدا ميل الهشيم وصامله
يجران ثنيا خيرها عظم جاره   بصيرا بها لم تعد عنها مشاغله

وقال الآخر :

إنَّ الكلامَ لفي الفؤادِ وإنما جُعِلَ اللسانُ على الفؤادِ دليلا
لا يُعْجِبَنَّكَ من خطيبٍ قولُه حتى يكونَ مع اللسانِ أصيلا

وأنشد الآخر :

أبرَّ فما يزدادُ إلاَّ حماقةً ونوكاً وإنْ كانتْ كثيراً مخارجُهْ

وقد يكون ردىء العقل جيد اللسان . وكان أبو العباس الأعمى[١] يقول :

إذا وصفَ الإسلامَ أحسنَ وصفَهُ بفيهِ ويأبى قلبُهُ ويهاجرُهْ
وإنْ قامَ قالَ الحقَّ ما دامَ قائماً تقيُّ اللسانِ كافرٌ بعدُ سائرُهْ

يقول إنه يتيه عن قوله ويأباه ويهجره ، ويقول الحق على منبره بلسانه وسائره كافر .

وقال قيسُ بنُ عاصمٍ المنقريُّ[٢] يذكر ما في بنى منقر من الخطابة :

إنِّي امرؤٌ لا يعتري خُلُقي دنسٌ يُفَنِّدُهُ ولا أفْنُ[٣]
من منقرٍ في بيتِ مكرُمةٍ والأصلُ يَنْبُتُ حولَهُ الغُصْنُ
خُطباءُ حينَ يقومُ قائلُهُمْ بيضُ الوُجوهِ مصاقعٌ لُسْنُ
لا يفطنونَ لعيبِ جارِهِمِ وهُمُ لِحُسْنِ جوارِهِمْ فُطُنُ

ومن هذا الباب ، وليس منه فى الجملة ، قول الآخر :

أشارتْ بطرْفِ العينِ خيفةَ أهلِها إشارةَ مذعورٍ ولمْ تتكلّمِ

---

(١) هو السائب بن فروخ ابو العباس الاعمى مولى بنى الديل . كان شاعرا مجيدا من مقدمى شعراء بنى امية ومن المتشيعين لهم الذابين عنهم ، وله فى مدحهم اشعار كثيرة

(٢) هو ابو على قيس بن عاصم بن سنان المنقرى . كان سيد بنى تميم فى عهده ، وهو شاعر فارس شجاع يضرب به المثل فى الحلم ، وكان كثير الغارات فى الجاهلية . وهو احد من وأد بناته فيها . ادرك الاسلام واسلم وحسن إسلامه وصحب النبي حياته وعمر بعده زمنا . وكان ميمون النقيبة فى غزواته مظفرا . وله اخبار واحاديث فى المروءة والحلم تعد افضل قدوة .

(٣) الدنس : العيب الفاحش . الأفن : ضعف العقل وفساد الراي

فَأَيْقَنْتُ أَنَّ الطَّرْفَ قَدْ قَالَ مَرْحَبًا ‏ ‏ وَأَهْلًا وَسَهْلًا بِالْحَبِيبِ الْمُسَلِّمِ

وقال نصيب :

يَقُولُ فَيُحْسِنُ الْقَوْلَ ابْنُ لَيْلَى ‏ ‏ وَيَفْعَلُ فَوْقَ أَحْسَنِ مَا يَقُولُ (١)

وقال آخر :

أَلَا رُبَّ خَصْمٍ ذِي فُنُونٍ عَلَوْتُهُ ‏ ‏ وَإِنْ كَانَ أَلْوَى يُشْبِهُ الْحَقَّ بَاطِلُهْ (٢)

فهذا هو معنى قول العتابى : البلاغة إظهار ما غمض من الحق ، وتصوير الباطل فى صورة الحق . وقال الشاعر وهو كما قال :

عَجِبْتُ لِإِدْلَالِ الْعَيِيِّ بِنَفْسِهِ ‏ ‏ وَصَمْتِ الَّذِي قَدْ كَانَ بِالْقَوْلِ أَعْلَمَا

وَفِي الصَّمْتِ سَتْرٌ لِلْعَيِيِّ وَإِنَّمَا ‏ ‏ صَحِيفَةُ لُبِّ الْمَرْءِ أَنْ يَتَكَلَّمَا

وموضع الصحيفة من هذا البيت موضع ذكر العنوان فى شعره الذى رثى به عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه ، يقول :

ضَحَّوْا بِأَشْمَطَ عُنْوَانُ السُّجُودِ بِهِ ‏ ‏ يُقَطِّعُ اللَّيْلَ تَسْبِيحًا وَقُرْآنَا

وأنشد أيضاً :

تَرَى الْفِتْيَانَ كَالنَّخْلِ ‏ ‏ وَمَا يُدْرِيكَ مَا الدَّخْلُ

وَكُلٌّ فِي الْهَوَى لَيْثٌ ‏ ‏ وَفِيمَا نَابَهُ فَسْلُ (٣)

وَلَيْسَ الشَّأْنُ فِي الْوَصْلِ ‏ ‏ وَلَكِنْ أَنْ يُرَى الْفَضْلُ

وقال كسرى أنو شروان لبزرجمهر : أى الأشياء خير للمرء العيى ؟ قال : عقل يعيش به . قال فان لم يكن له عقل ؟ قال : فإخوان يسترون عليه . قال :

---

(١) كان نصيب يرحل فى كل عام إلى عبد العزيز بن مروان بمصر مستميحا فيجيزه ويحسن صلته فقال فيه : يقول : البيت وبعده :

فتى لايرزأ الخلان إلا ‏ ‏ مودتهم ويرزؤه الخليل

فبشر اهل مصر فقد اتاهم ‏ ‏ مع النيل الذى فى مصر نيل

(٢) الوى : منافق فى كلامه مداور فى اغراضه

(٣) الفسل : النذل الجبان الدنىء

فان لم يكن له إخوان ؟ . قال: فمال يتحبب به الى الناس. قال: فان لم يكن له مال ؟ قال : فعى صامت . قال : فان لم يكن ذلك ؟ قال : فموت مريح [١]

وقال مُوسى بنُ يَحيى بن خالدٍ . قال أبو على : رسائل المرء فى كتبه أدل على مقدار عقله ، وأصدق شاهد على غيبه لك ومعناه فيك من أضعاف ذلك على المشافهة والمواجهة .

وباب آخر

ووصفوا كلامهم فى أشعارهم فجعلوه كبُرُود العَصْب [٢] ، وكالحُلل والمعاطف والديباج والوَشْى وأشباه ذلك . وأنشدنى أبو الجماهر جُنْدَب بن مُدْرِك الهلالى :

لا يُشْتَرَى الحَمْدُ أُمْنِيَّةً ... وَلا يُشْتَرَى الحَمْدُ بالمقصِرِ [٣]
وَلٰكِنَّما يُشْتَرَى غالِياً ... فَمَنْ يُعْطِ قِيمَتَهُ يَشْتَرِ
وَمَنْ يَعْتَطِفْهُ عَلَى مِئزَرٍ ... فَنِعْمَ الرِّدَاءُ عَلَى المِئْزَرِ

وأنشدني لابن مَيَّادَة [٤]

نَعَمْ إنَّنِى مُهْدٍ ثَناءً وَمِدْحَةً ... كَبُرْدِ يَمَانٍ يُرْبِحُ البَيْعَ تَاجِرُهْ

وأنشدنى :

فَإنْ أَهْلِكْ فَقَدْ أَبْقَيْتُ بَعْدِى ... قَوَافِيَ تُعْجِبُ المُتَمَثِّلِينا
لَذِيذَاتِ المَقَاطِعِ مُحْكَمَاتٍ ... لَوَ انَّ الشِّعْرَ يُلْبَسُ لارْتُدِينا

وقال أبو قَرْدُودَةَ يرثى ابنَ عَمَّارٍ قتيل النُّعْمانِ ووصف كلامه ، وقد كان نهاه عن منادمته :

---

(١) راجع هذا الكلام بصفحة ٢٠ وفيه خلاف لما ههنا

(٢) برود العصب : ثياب جيدة محكمة النسج كانت تصنع باليمن

(٣) المقصر : الخشبة التى تقصر عليها الثياب

(٤) هو الرماح بن ابرد اليربوعى . كان شاعرا فصيحا مقدما من شعراء الدولتين . وكان عريضا للشعراء يطلب مهاجاتهم سبابا للناس هجاء . مات في خلافة المنصور

إِنّى نَهَيْتُ ابْنَ عَمَّارٍ وَقُلْتُ لَهُ ... لَا تَأْمَنَنْ أَحْمَرَ الْعَيْنَيْنِ وَالشَّعَرَهْ
إِنَّ الْمُلُوكَ مَتَى تَنْزِلْ بِسَاحَتِهِمْ ... تَطِرْ بِنَارِكَ مِنْ نِيرَانِهِمْ شَرَرَهْ
يَاجَفْنَةً كَإِزَاءِ الْحَوْضِ قَدْ هَدَمُوا ... وَمَنْطِقاً مِثْلَ وَشْىِ الْيُمْنَةِ الْحَبِرَهْ

وقال الشاعر (١) فى مديح أَحْمَدَ بْنِ أَبِى دُؤَادٍ (٢)

وَعَوِيصٍ مِنَ الْأُمُورِ بَهِيمٍ ... غَامِضِ الشَّخْصِ مُظْلِمٍ مَسْتُورِ
قَدْ تَسَنَّمْتَ مَا تَوَعَّرَ مِنْهُ ... بِلِسَانٍ يَزِينُهُ التَّحْبِيرُ
مِثْلِ وَشْىِ الْبُرُودِ هَلْهَلَهُ النَّسْـ ... ـجُ وَعِنْدَ الْحِجَاجِ دُرٌّ نَثِيرُ
حَسَنُ الصَّمْتِ وَالْمَقَاطِعِ إِمَّا ... أَنْصَتَ الْقَوْمُ وَالْحَدِيثُ يَدُورُ
ثُمَّ مِنْ بَعْدُ لَحْظَةً تُورِثُ الْيُسْـ ... ـرَ وَعِرْضٌ مُهَذَّبٌ مَوْفُورُ

ومما يضم إلى هذا وليس منه بعينه قول جَمِيلِ بْنِ مَعْمَرٍ (٣)

نَمَتْ فِى الرَّوَابِى مِنْ مَعَدٍّ وَأَفْلَجَتْ ... عَلَى الْخَفِرَاتِ الْغُرِّ وَهْىَ وَرِيدُ (٤)

---

(١) الشاعر هو الجاحظ نفسه ، أنظر كتابنا ، أدب الجاحظ .

(٢) هو القاضى السرى العظيم أبو عبدالله أحمد بن أبى دؤاد الايادى صاحب السطوة والجاه العريض والنفوذ الواسع فى دولة المعتصم والواثق العباسيين ، كان بعيد الهمة واسع المروءة مهيب الجانب مقيل العثرات ، وكان الخليفة المعتصم لايرد له طلبا كائنا ما كان . على أنه لم يكن يطلب منه شيئاً قط لنفسه وإنما كانت همته منصرفة إلى قضاء مصالح الناس والسعي فى خيرهم والعمل على إنقاذهم من ورطات الحياة والترفيه عنهم وحفظ ماء وجوههم وحقن دمائهم . وله فى أعمال البر وإسداء المعروف أياد لم يلحق شأوه فيها غيره . وله فى ذلك حوادث واخبار هي منتهى عجب العاجب . وكان المعتصم يقول فيه : هذا والله الذي يتزين بمثله ويبتهج بقربه ويعد به ألوف من جنسه . وقد وضع الجاحظ كتاب البيان والتبيين له وأجازه ابن أبي دؤاد عنه بخمسة آلاف دينار . على انى مع هذا لاأدرى لماذا نكر الجاحظ نفسه فى رواية هذه الأبيات التى قالهاهو فيه ! ولعل ذلك لبعض التدبير ! على مايعبر به الجاحظ . توفى بالفالج سنة ٢٤٠ ه

(٣) هو جميل بن معمر العذري الشاعر الناسب البليغ . كان مقدماً على جميع أقرانه فى النسيب وكانت معشوقته بثينة . وكان في عهد بنى أمية وأخباره مستفيضة . والظاهر أن هذان البيتان ليسا لجميل لانى لم أجدهما فى قصيدته التى رواها بأكملها صاحب الامالى عن أبي بكر بن دريد ، ولعل الجاحظ إن كان واثقا من روايته ، قد بلغه مالم يبلغ ابن دريد

(٤) قال الجاحظ : نمت شبت ، الروابى من معد : البيوت الشريفة ، واصل الرابية . والرباوة ماارتفع من الارض . وأفلجت ظهرت وقهرت ، الخفرات الحييات ، قلت : وهى وريد : متوردة الخدود

أناةٌ على نيرين أضحى لِداتُها ... بَلِينَ بلاءَ الرَّيْطِ وَهْي جديدُ (١)

ومن هذا الشكل وليس منه بعينه قول الشاعر :

على كلِّ ذي نيرين زيدَ محالُهُ ... محالاً وفي أضلاعه زيدَ أضلُعا (٢)

وقال أبو يعقوب الخُرَيْمِيُّ الأعورُ : أول شعر قلته هذان البيتان :

بقلبي سقامٌ لستُ أُحسِنُ وصفَهُ ... على أنَّهُ ما كانَ فهْوَ شديدُ

تَمُرُّ بهِ الأيامُ تسحبُ ذيلَها ... فتَبْلَى بهِ الأيامُ وَهْوَ جديدُ

وقال أبو الأسود الدُّؤَلِي :

أبى القلبُ إلاَّ أمَّ عمرٍو وحُبَّها ... عجوزاً ومَنْ يُحببْ عجوزاً يُفنَّدِ (٣)

كبُرْدِ اليمانِي قدْ تقادمَ عهدُهُ ... ورُقْعتُهُ ما شئتَ في العينِ واليدِ

وقال ابنُ هَرْمَةَ :

إنَّ الأديمَ الذي أصبحتَ تعرُكُهُ ... جهلاً لذو نَغَلٍ بادٍ وذو حَلَمِ (٤)

ولنْ يَئِطَّ بأيدي الخالقينَ ولا ... أيدي الخوالقِ إلاَّ جيِّدُ الأدَمِ (٥)

وفي غير هذا الباب وهو قريب منه قول ذي الرُّمَّة :

وفي قَعْرِ حَجْرٍ مِنْ ذُؤابةِ عامرٍ ... إمامُ هُدًى مُستبصِرُ الحكمِ عادِلُهْ

كأنَّ على أعطافِهِ ماءَ مُذْهَبٍ ... إذا سَمَلُ السِّرْبالِ طارَتْ رَعابِلُهْ (٦)

---

(١) قال الجاحظ : الاناة المرأة التي فيها فتور عند القيام ، وقوله على نيرين وصفها بالقوة كالثوب الذي ينسج على نيرين وهو الثوب الذي له سديان كالديباج وما اشبه . اضحى لداتها ، اللدة القرينة في المولد والمنشأ ، فيقول إن اقرانها قد بلين وهي جديدة لحسن غذائها ودوام نعمتها .

(٢) قال الجاحظ : المحال محال الظهر وهي فقاره واحدها محالة .

(٣) يفند : يكذب

(٤) ذو نغل : به فساد . والحلم : القراد . يعني فاسد ممزق

(٥) يئط : يعني له اطيط صوت لجدته وقوته

(٦) قال الجاحظ : الرعابل القطع ، وشواء مرعبل اى مقطع ، ورعبلت الشيء اي قطعته . ويقال ثوب سمل واسمال . واسمل الثوب وسمل إذا اخلق .

وهو الذى يقول :

حَوْرَاء فى دَعَجٍ صَفْرَاء فى نَعَجٍ ... كأنّها فِضَّةٌ قد مَسَّها ذَهَبُ (١)

ولذلك قال الأعشى :

بَيْضَاء ضَحْوَتَها وَصَفْــــراء العَشِيَّةِ كالعَرَارَهْ (٢)

وقال الآخر :

قد عَلِمَتْ بَيْضَاء صفْرَاء الأصُلْ ... لأُغْنِيَنَّ اليَوْمَ ما أُغْنى رَجُلْ (٣)

وقال بَشَّارُ بنُ بُرْد :

وَخُذِى مَلَابِسَ زِينَةٍ ... ومُصَبَّغَاتٍ فَهْىَ أَفْخَرْ

وَإِذَا دَخَلْتِ تَقَنَّعِى ... بالحُمْرِ إنَّ الحُسْنَ أحْمَرْ

وهذان أعميان (٤) قد اهتديا من هذا الأمر إلى مالا يبلغه تمييز البصير. ولبشار خاصة فى هذا الباب ما ليس لأحد، ولولا أنه فى « كتاب الرجل والمرأة » وفى « باب القول فى الانسان » فى « كتاب الحيوان » أليق وأذكى لذكرناه فى هذا الموضع . ومما ذكروا الوزن فيه قوله :

زِنِى القَوْمَ حتَّى تَعْرِفِى عِنْدَ وَزْنِهِمْ ... إذا رُفِعَ المِيزَانُ كَيْفَ أَمِيلُ

وقال ابنُ الزَّبِيرِ الأسَدِيُّ (٥)

أعَاذِلُ غُضِّى بعضَ لَوْمِكِ إنَّنى ... أرَى الموتَ لا يَرْضَى بِدَيْنٍ ولا رَهْنِ

وَإنِّى أرَى دَهْراً تغَيَّرَ صَرْفُهُ ... ودُنْيا أرَاها لا تَقُومُ على وَزْنِ

---

(١) قال الجاحظ : الحور شدة بياض العين . والدعج شدة بياض الحدقة ، والنعج اللين . قالوا : لأن المرأة الرقيقة اللون يكون بياضها بالغداة يضرب إلى الحمرة وبالعشى يضرب إلى الصفرة .

(٢) العرارة : نبتة ذات بهار اصفر طيب الريح

(٣) الأصل جمع اصيل وهو وقت انحدار الشمس للمغيب

(٤) الاعميان يريد بها الأعشي وبشار لان الاعشى فى حكم الأعمى

(٥) هو عبد الله بن الزبير بن الاشيم الأسدي ، شاعر بالغ من شعراء الدولة الأموية ومن شيعتها واهل هواها ، نشأ بالكوفة وكان قد هجا عبد الله بن الزبير بن العوام فلما غلب مصعب على الكوفة وضع يده عليه ثم اطلقه واحسن صلته فمدحه مدائح كثيرة ، ثم لحق بالحجاج فارسله فى بعث إلى الرى فمات بها . وله اخبار كثيرة وحوادث

باب آخر

ويذكرون الكلام الموزون ويمدحون به، ويفضلون إصابة المقادير ويذمون الخروج من التبوبل. قال جعفر بن سليمان: ليس يطيب الطعام بكثرة الإنفاق وجودة التوابل وإنما الشأن فى إصابة القدر. وقال الشاعر وهو عارقُ بنُ أثالٍ الطائىُّ(١)

مَا إنْ يَزَالُ بِبَغْدَادٍ يُزَاحِمُنَا ... عَلَى البَرَاذِينِ أَشْبَاهُ البَرَاذِينِ (٢)
أَعْطَاهُمُ اللهُ أَمْوالاً وَمَنْزِلَةً ... مِنَ المُلُوكِ بِلا عَقْلٍ وَلا دِينِ (٣)
مَاشِئْتَ مِنْ بَغْلَةٍ شَقْرَاءَ نَاجِيَةٍ ... أَوْ مِنْ أَثَاثٍ وَقَوْلٍ غَيْرِ مَوْزُونِ (٤)

وأنشد بعض الشعراء:

رَأَتْ رَجُلاً أَوْدَى السِّفَارُ بِجِسْمِهِ ... فَلَمْ يَبْقَ إلاَّ مَنْطِقٌ وَجَنَاجِنُ (٥)
إذَا حُسِرَتْ عَنْهُ العِمَامَةُ رَاعَهَا ... جَمِيلُ الخُفُوقِ أَغْفَلَتْهُ الدَّوَاهِنُ (٦)
فَإنْ أَكُ مَعْرُوقَ العِظَامِ فَإنَّنِى ... إذَا مَا وَزَنْتَ القَوْمَ بِالقَوْمِ وَازِنُ (٧)

قال مَالِكُ ابن أسماء فى بعض نسائه، وكانت تصيب الكلام كثيراً، وربما لحنت(٨)

---

(١) فى الجاهليين عارق بن جروة الطائى ولم أجد فى الاسلاميين من اسمه عارف بن أثال، فان لم يكن هناك تحريف فى الاسم فالجاحظ أدرى ولا يمكن أن تذكر بغداد فى شعر جاهلى وقد رأيت فى بعض النسخ طارق وهو خطأ، وفي بنى طى عارق وكل هؤلاء جاهليون

(٢) البراذين: دواب كالبغال وهي دون الخيل واقدر من الحمير

(٣) هذا وصف لاتراك الدولة العباسية

(٤) الظاهر ان قائل هذا الشعر كان من عميان الشعراء فى بغداد فصدمته بغلة لاحد الاتراك فقال ماقال

(٥) قال الجاحظ: الجناجن عظام الصدر.

(٦) جميل الخفوق: يريد به شعر رأسه. واغفلته الدواهن: تركته نساؤه بلا دهن ولا ترجيل فبان به الشعث

(٧) معروق العظام: يعنى ان عظامه عارية من اللحم، يريد انه غير سمين الجسم

(٨) راجع صفحة ١٣٥

أَمُعْطِي مِنِّي عَلَى بَصَرِي لِلْحُبِّ ... أَمْ أَنْتِ أَكْمَلُ النَّاسِ حُسْنَا
وَحَدِيثٍ أَلَذُّهُ هُوَ مِمَّا ... يَنْعَتُ النَّاعِتُونَ يُوزَنُ وَزْنَا
مَنْطِقٌ عَاقِلٌ وَتَلْحَنُ أَحْيَا ... نًا وَخَيْرُ الحَدِيثِ مَا كَانَ لَحْنَا

وقال طَرَفَة فى المقدار وإصابته :

فَسَقَى دِيَارَكِ غَيْرَ مُفْسِدِهَا ... صَوْبُ الرَّبِيعِ وَدِيمَةٌ تَهْمِي

طلب الغيث على قدر الحاجة ، لأن الفاضل ضار .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم فى دعائه « أَللَّهُمَّ اسْقِنَا سَقْيًا نَافِعًا » لأن المطر ربما جاء فى غير إبَّان الزراعات ، وربما جاء والتمر فى الجرن والطعام فى البيادر وربما كان فى الكثرة مجاوزاً لمقدار الحاجة . وقال النبي صلى الله عليه وسلم « اللَّهم حوالينا ولا علينا »

وقال بعض الشعراء لصاحبه : أنا أشعر منك . قال : وَلِم ؟ قال : لأنى أقول البيت وأخاه وتقول البيت وابن عمه ! وعاب رؤبة شعر ابنه عُقبة فقال : ليس له قِران . وجعل البيت أخا البيت إذا أشبهه وكان حقه أن يوضع إلى جنبه ، وعلى ذلك التأويل قال الأعشى :

أَبَا مِسْمَعٍ أَقْصِرْ فَإِنَّ قَصِيدَةً ... مَتَى تَأْتِكُمْ تَلْحَقْ بِهَا أَخَوَاتُهَا

قال الله عزّ وجل « وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا »

وقال عَمْرو بن مَعْدِيكَرِب :

وَكُلُّ أَخٍ مُفَارِقُهُ أَخُوهُ ... لَعَمْرُ أَبِيكَ إِلَّا الفَرْقَدَانِ

وقالوا فيما هو أبعد معنى وأقل لفظاً ، قال الهُذَلىُّ :

أَعَامِرُ لَا آلُوكَ إِلَّا مُهَنَّدًا ... وَجِلْدُ أَبِي عِجْلٍ وَثِيقُ القَبَائِلِ (١)

وقالوا ما هو أبعد من هذا ، قال ابن عسلة الشيبانى ، واسمه عبد المسيح : (٢)

---

(١) قال الجاحظ : يعنى بأبي عجل الثور .

(٢) هذان البيتان من قصيدة جيدة تراها بالمفضليات مشروحة بقلمنا

وَسَمَاعِ مُدْجِنَةٍ تُعَلِّمُنَا ... حَتَّى نَنَامَ تَنَاوُمَ العُجْمِ (١)
فَصَحَوْتُ وَالنَّمَرِيُّ يَحْسَبُهَا ... عَمَّ السِّمَاكِ وَخَالَةَ النَّجْمِ (٢)

وقال أبو النجم (٣) فيما هو أبعد من هذا ووصف العير، والمعيوز الموضع الذى يكون فيه الأعيار :

« وَظَلَّ يُوفِى الأَكَمَ ابْنُ خَالِهَا »

فهذا مما يدل على توسعهم فى الكلام ، وحمل بعضه على بعض ، واشتقاق بعضه من بعض . وقال النبى صلى الله عليه وسلم « نِعْمَتِ العمة لكم النخلة » كأن بينها و بين الانسان تشابه وتشاكل من وجوه . وقد ذكرنا ذلك فى « كتاب الزرع والنخل » وفى مثل ذلك قال بعض الفصحاء :

شَهِدْتُ بِأَنَّ التَّمْرَ بِالزُّبْدِ طَيِّبٌ ... وَأَنَّ الْحُبَارَى خَالَةُ الْكَرَوَانِ

لان الحبارى وان كانت أعظم بدنا من الكروان فان اللون وعمود الصورة واحد ، فلذلك جعلها خالته ، ورأى أن ذلك قرابة تستحق بها هذا القول .

باب آخر من الشعر

مما قالوا فى الخطب واللسن والامتداح به والمديح عليه

قال كَعْبُ الْأَشْقَرِيُّ :

إِلَّا أَكُنْ فِى الأَرْضِ أَخْطُبُ قَائِمًا ... فَإِنِّى عَلَى ظَهْرِ الكُمَيْتِ خَطِيبُ

وقال ثَابِتُ قُطْنَةَ :

فَإِلَّا أَكُنْ فِيكُمْ خَطِيبًا فَإِنَّنِى ... بِسُمْرِ القَنَا وَالسَّيْفِ جِدُّ خَطِيبِ (٤)

---

(١) قال الجاحظ : مدجنة أى سحابة دائمة .

(٢) قال الجاحظ : النجم واحد وجمع ، والنجم الثريا فى كلام العرب .

(٣) هو الفضل بن قدامة العجلى ، كان شاعرا راجزا فحلا من مقدمى الرجاز فى الاسلام وكان من أحسن الناس إنشادا ، وكان من المقربين عند هشام بن عبد الملك وله مدائح فى عبد الملك وعظماء بنى أمية

(٤) راجع صفحة ١٣٦

وقالت لَيْلَى الأَخْيَلِيَّةُ (١)

حَتَّى إِذَا رُفِعَ اللِّوَاءُ رَأَيْتَهُ   تَحْتَ اللِّوَاءِ عَلَى الخَمِيسِ زَعِيمَا

وقال الآخر:

عَجِبْتُ لِأَقْوَامٍ يَعِيبُونَ خُطْبَتِي   وَمَا مِنْهُمُ فِي مَأْقِطٍ بِخَطِيبِ

وهؤلاء يفخرون بخطبهم التى عليها يعتمدون بالسيوف والرماح ، وإن كانوا خطباء . وقال دُرَيْدُ بْنُ الصِّمَّةِ :

أَبْلِغْ نُعَيْمًا وَأَوْفَى إِنْ لَقِيتَهُمَا   إِنْ لَمْ يَكُنْ كَانَ فِي سَمْعَيْهِمَا صَمَمُ

فَلَا يَزَالُ شِهَابٌ يُسْتَضَاءُ بِهِ   يَهْدِي المَقَانِبَ مَا لَمْ يُهْلِكِ الصِّمَمُ (٢)،

عَارِي الأَشَاجِعِ مَعْصُوبٌ بِلِمَّتِهِ   أَمْرُ الزَّعَامَةِ فِي عِرْنِينِهِ شَمَمُ (٣)

وقال أبو العباس الأعمى مولى بنى بكر بن عبد مناف ، فى بنى عبد شمس:

لَيْتَ شِعْرِي أَفَاحَ رَائِحَةُ المِسْـــكِ مَا إِنْ إِخَالُ بِالخَيْفِ أُنْسِي

حِينَ غَابَتْ بَنُو أُمَيَّةَ عَنْهُ   وَالبَهَالِيلُ مِنْ بَنِي عَبْدِ شَمْسِ

خُطَبَاءٌ عَلَى المَنَابِرِ فُرْسَا   نٌ عَلَيْهَا وَقَالَةٌ غَيْرُ خُرْسِ

---

(١) هى ليلى الاخيلية صاحبة توبة بن الحمير ، كانت من أفصح الشواعر وأبلغهن ، ولها مع الحجاج حديث طريف ، وهذا البيت من كلمة جيدة اولها :

ياايها السدم الملوى رأسه   ليقود من اهل الحجاز بريما

اتريد عمرو بن الخليع ودونه   كعب إذاً لوجدته مرؤما

إن الخليع ورهطه فى عامر   كالقلب البس جؤجؤا وحزيما

لاتغزون الدهر آل مطرف   لاظالما ابدا ولا مظلوما

قوم رباط الخيل وسط بيوتهم   واسنة زرق تخال نجوماً

ومخرق عنه القميص تخاله   وسط البيوت من الحياء سقيما

حتى إذا رفع اللواء رأيته   تحت اللواء على الخميس زعيما

(٢) قال الجاحظ : المقانب جمع مقنب والمقنب الجماعة من الخيل ليست بالكثيرة ،

(٣)، قال الجاحظ : الأشاجع عروق ظاهر الكف وهى مغرز الأصابع ، اللمة الشعيرة التى المت بالمنكب ، زعيم القوم رأسهم وسيدهم الذى يتكلم عنهم والزعامة مصدر الزعيم الذى يسود قومه ، وقوله معصوب بلمته اى يعصب برأسه كل امر ، عرنينه انفه ،

لَايُعَابُونَ صَامِتِينَ وَإِنْ قَا ... لُوا أَصَابُوا وَلَمْ يَقُولُوا بِلُبْسِ
بِحُلُومٍ إِذَا الْحُلُومُ اسْتُخِفَّتْ ... وَوُجُوهٍ مِثْلِ الدَّنَانِيرِ مُلْسِ

وقال الْعَجَّاجُ :

وحَاصِنٍ مِنْ حاصِناتٍ مُلْسِ ... مِنَ الأَذَى وَمِنْ قِرَافِ الوَقْسِ (١)

وقال امْرُؤُ القَيْسِ بن حُجر :

وَيَارُبَّ يَوْمٍ قَدْ أَرُوحُ مُرَجَّلاً ... حَبِيبًا إِلَى الْبِيضِ الْكَوَاعِبِ أَمْلَسَا

وقال أبو العباس الأعمى :

وَلَمْ أَرَ حَيًّا مِثْلَ حَيٍّ تَحَمَّلُوا ... إِلَى الشَّامِ مَظْلُومِينَ مُنْذُ بُرِيتُ
أَعَزَّ وَأَمْضَى حِينَ تَشْتَجِرُ الْقَنَا ... وَأَعْلَمَ بِالْمِسْكِينِ حَيْثُ يَبِيتُ
وَأَرْفَقَ بِالدُّنْيَا بِأُولَى سِيَاسَةٍ ... إِذَا كَادَ أَمْرُ الْمُسْلِمِينَ يَفُوتُ
إِذَا مَاتَ مِنْهُمْ سَيِّدٌ قَامَ سَيِّدٌ ... بَصِيرٌ بِعَوْرَاتِ الْكَلَامِ زَمِيتُ (٢)

وقال آخر :

لَا يُغْسَلُ العِرْضُ مِنْ تَدَنُّسِهِ ... وَالثَّوْبُ إِنْ مَسَّ مَدْنَسًا غُسِلَا
وَزَلَّةُ الرِّجْلِ تُسْتَقَالُ وَلَا ... يَكَادُ رَأْيٌ يُقِيلُكَ الزَّلَلَا

---

(١) قال الجاحظ : المحصنة ذات الزوج ، والحاصن العفيفة ، والوقس الجرب . قلت : وهذا البيت من ارجوزة انشدها العجاج بين يدي الوليد بن عبد الملك واولها :

كم قد حسرنا من علاة عنس ... كبداء كالقوس وأخرى جلس

ثم قال :

إمام رغس فى نصاب رغس ... ملكه الله بغير نحس
خليفة ساس بغير فجس ... حتا ولا تكثر بالبخس
يقبل انس اهله بالأنس ... ويهرس الداء وفوق الهرس
ضياء بين قمر وشمس ... ازهر لم يولد بنجم النحس
بين نجيب لم يعب بوكس ... وحاصن من حاصنات ملس
من الأذى ومن قراف الوقس ... من قنس مجد فوق كل قنس

(٢) زميت : وقور

وقال آخر في الزلل :

أَلَهْفِى إِذْ عَصَيْتُ أَبا يَزِيدٍ وَلَهْفِى إِذْ أَطَعْتُ أَبا الْعَلاءِ
وكانَتْ هَفْوَةً مِنْ غَيْرِ رِيحٍ وكانَتْ زَلَّةً مِنْ غَيْرِ ماءِ

وقال آخر :

فإنَّكَ لَمْ يُنْذِرْكَ أَمْرٌ تَخافُهُ إذا كُنْتَ فيهِ جاهِلاً مِثْلَ خابِرِ

وقال ابن وابصة ـ واسمه سالم ـ في مقام قام فيه مع ناس من الخطباء :

يا أَيُّها المُتَحَلِّى غَيْرَ شِيمَتِهِ وَمَنْ سَجِيَّتُهُ الإكْثارُ والمَلَقُ
أَعْمِدْ إِلى القَصْدِ فِيما أَنْتَ راكِبُهُ إِنَّ التَّخَلُّقَ يَأْتِى دُونَهُ الْخُلُقُ
صَدَّتْ هُنَيْدَةُ لَمَّا جِئْتُ زائِرَها عَنِّى بِمَطْرُوفَةٍ إِنْسانُها غَرِقُ (١)
وَراعَها الشَّيْبُ فِى رَأْسِى فَقُلْتُ لَها كَذاكَ يَصْفَرُّ بَعْدَ الخُضْرَةِ الوَرَقُ
بَلْ مَوْقِفٍ مِثْلِ حَدِّ السَّيْفِ قُمْتُ بِهِ أَحْمِى الذِّمارَ وَتَرْمِينِى بِهِ الحَدَقُ
فَما زَلَلْتُ وَلا أُلْفِيتُ ذا خَطَلٍ إِذا الرِّجالُ عَلَى أَمْثالِها زَلِقُوا

وأنشد أعرابى من باهلة :

سَأَعْمِلُ نَصَّ العِيسِ حَتَّى يَكُفَّنِى غِنَى المالِ يَوْماً أَوْ غِنَى الحَدَثانِ
فَلَلْمَوْتُ خَيْرٌ مِنْ حَياةٍ يُرَى لَها عَلَى الحُرِّ بالإقْلالِ وَسْمُ هَوانِ
مَتَى يَتَكَلَّمْ يُلْغَ حُكْمُ كَلامِهِ وَإِنْ لَمْ يَقُلْ قالُوا عَدِيمُ بَيانِ
كَأَنَّ الغِنَى فِى أَهْلِهِ بُورِكَ الغِنَى بِغَيْرِ لِسانٍ ناطِقٌ بِلِسانِ

وفى مثلها ، فى بعض الوجوه ، قول عُرْوَةَ بنِ الْوَرْدِ :

ذَرِينِى لِلْغِنَى أَسْعَى فَإِنِّى رَأَيْتُ النَّاسَ شَرُّهُمُ الفَقِيرُ
وَأَهْوَنُهُمْ وَأَحْقَرُهُمْ لَدَيْهِمْ وَإِنْ أَمْسَى لَهُ نَسَبٌ وَخِيرُ

(١) هنيدة تصغير هند وهي محبوبته

وَيُقْصَى فى النَّدِىِّ وَتُزْدَرِيهِ حَلِيلَتُهُ وَيَنْهَرُهُ الصَّغِيرُ
وَيُلْفَى ذُو الْغِنَى وَلَهُ جَلَالٌ يَكَادُ فُؤَادُ صَاحِبِهِ يَطِيرُ
قَلِيلٌ ذَنْبُهُ وَالذَّنْبُ جَمٌّ وَلَكِنْ لِلْغِنَى رَبٌّ غَفُورُ

وقال ابن عباس رضى الله تعالى عنه : الهوى إله معبود . وتلا قوله عزوجل « أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ »

وقال أبو الاعور سعيد بن زيد بن عمرو بن نُفَيل :

تِلْكَ عِرْسَاىَ تَنْطِقَانِ عَلَى عَمْدٍ لِىَ الْيَوْمَ قَوْلَ زُورٍ وَهِتْرِ
سَالَتَانِى الطَّلَاقَ أَنْ رَأَتَا مَا لِى قَلِيلًا ؟ قَدْ جِئْتُمَانِى بِنُكْرِ
فَلَعَلِّى أَنْ يَكْثُرَ الْمَالُ عِنْدِى وَيُعَرَّى مِنَ الْمَغَارِمِ ظَهْرِى
وَتُرَى أَعْبُدٌ لَنَا وَأَوَاقٍ وَمَنَاصِيفُ مِنْ خَوَادِمَ عَشْرِ (١)
وَتَجُرَّا الْأَذْيَالَ فى نِعْمَةٍ زَوْ لٍ تَقُولَانِ : ضَعْ عَصَاكَ لِدَهْرِ (٢)
وَيْكَأَنْ مَنْ يَكُنْ لَهُ نَشَبٌ يُحْ بَبْ وَمَنْ يَفْتَقِرْ يَعِشْ عَيْشَ ضُرِّ
وَيُجَنَّبْ سِرَّ النَّجِىِّ وَلَكِنَّ أَخَا الْمَالِ مُحْضَرٌ كُلَّ سِرِّ

وقال عَبِيدُ بْنُ الْأَبْرَصِ فى نحو هذا وليس كمثله :

تِلْكَ عِرْسِى غَضْبَى تُرِيدُ زِيَالِى أَلِبَيْنٍ تُرِيدُ أَمْ لِدَلَالِ ؟ (٣)
إِنْ يَكُنْ طِبُّكِ الْفِرَاقُ فَلَا أَحْـ فِلُ أَنْ تَعْطِفِى صُدُورَ الْجِمَالِ (٤)
كُنْتِ بَيْضَاءَ كَالْمَهَاةِ وَإِذْ آتِيكِ نَشْوَانَ مُرْخِيًا أَذْيَالِى
فَاتْرُكِى مَطَّ حَاجِبَيْكِ وَعِيشِى مَعَنَا بِالرَّجَاءِ وَالتَّأْمَالِ

(١) قال الجاحظ : المناصيف الخدم واحدها منصف وناصف ، وقد نصف القوم ينصفهم نصافة إذا خدمهم .
(٢) قال الجاحظ : نعمة زول حسنة . والزول الخفيف الظريف وجمعه ازوال .
(٣) تريد زيالى : تريد فراقى
(٤) تعطفى : اى لااهتم إذا رحلت

زَعَمَتْ أَنَّنِى كَبِرْتُ وَأَنِّى قَلَّ مَالِى وَضَنَّ عَنِّى المَوَالِى
وَصَحَا بَاطِلِى وأَصْبَحْتُ شَيْخًا لَا يُوَاتِى أَمْثَالَهَا أَمْثَالِى
إِنْ تَرَيْنِى تَغَيَّرَ الرَّأْسُ مِنِّى وَعَلَا الشَّيْبُ مَفْرِقِى وَقَذَالِى
فَبِمَا أَدْخُلُ الخِبَاءَ عَلَى مَهْ ضُومَةِ الكَشْحِ طَفْلَةٍ كَالغَزَالِ (١)
فَتَعَاطَيْتُ جِيدَهَا ثُمَّ مَالَتْ مَيَلَانَ الكَثِيبِ بَيْنَ الرِّمَالِ
ثُمَّ قَالَتْ : فِدًى لِنَفْسِكَ نَفْسِى وَفِدَاءٌ لِمَالِ أَهْلِكَ مَالِى

وخرج عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه من داره يوما ، وقد جاء عامِرُ بْنُ عبد قيس فقعد فى دهليزه ، فلما رأى شيخاً دميماً أشغَى ثَطاً (٢) فى عباءة فأنكره وأنكر مكانه ، فقال : يا أعرابى ، أين ربك ؟ قال : بالمرصاد .

يقال إن عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه لم يفحمه أحد قط غير عامر بن عَبْدِ قَيْسٍ . ونظر معاوية إلى النَّخَّار بن أَوْسٍ العُذْرِىِّ الخطيب الناسب فى عباءة فى ناحية من مجلسه فأنكره وأنكر مكانه زراية منه عليه ، فقال : من هـذا ؟ فقال النخار : يا أمير المؤمنين ، إن العباءة لا تكلمك إنما يكلمك من فيها .

قال ونظر عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه إلى هَرِمِ بْنِ قُطْبَةَ (٣) ملتفا فى بَتٍّ فى ناحية المسجد ورأى دمامته وقلته وعرف تقديم العرب له فى الحكم والعلم فأحب أن يكشفه و يسبر ماعنده ، فقال : أرأيت لو تنافرا إليك اليوم أيهما كنت تُنَفِّرُ ؟ يعنى عَلْقَمَةَ بْنَ عُلَاثَةَ وَعَامِرَ بْنَ الطُّفَيْلِ . فقال : يا أمير المؤمنين ، لو قلت فيهما كلمة لأعدتها جَذَعَةً (٤) فقال عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه : لهذا العقل تحاكمت إليك العرب (٥) . ونظر عمر إلى الأحنف وعنده الوفد ، والأحنف ملتف

---

(١) قال الجاحظ : الكشح الخصر ، وقوله مهضومة اراد لطيفة ، والطفلة الرخصة الناعمة ،
(٢) قال الجاحظ : الشغى تراكب الاسنان واختلافها ، ثط : صغير اللحية ،
(٣) هو هرم بن قطبة بن سنان بن عمرو الفزارى
(٤) يعنى لأعاد الفتنة بين الحيين كما كانت فى اول امرها فى الجاهلية
(٥) ويروى أن عمر قال : ياهرم اى الرجلين كنت منفلا لو فضلت ؟ فقال : لو قلت ذلك

فى بت له ، فترك جميع القوم واستنطقه ، فلما تَبعَّق منه ما تَبعَّق ، وتكلم بذلك الكلام البليغ المصيب وذهب ذلك المذهب ، لم يزل عنده فى علياء ثم صار إلى أن عقد له الرياسة ثابتاً له ذلك إلى أن فارق الدنيا .

ونظر النُّعْمَانُ بْنُ الْمُنْذِرِ إلى ضَمْرَةَ بْنِ ضَمْرَةَ فلما رأى دمامته وقلته قال: تَسْمَعُ بالْمُعَيْدِىِّ لَا أَنْ تَرَاهُ . هكذا تقول العرب . فقال ضَمْرَةُ : أبيت اللعن ، إن الرجال لاتكال بالقفزان، وإنما المرء بأصغريه لسانه وقلبه . وكان ضمرة خطيباً ، وكان فارساً شاعراً شريفاً سيداً .

وكان الرَّمِق بْنُ زَيْدٍ مدح أبا جُبَيْلَةَ الْغَسَّانِى ، وكان الرمق دميما قصيراً ، فلما أنشده وحاوره قال : عسل طيب فى ظرف سوء .

قال وتكلم عَابَاه بْنُ الْهَيْثَمِ السَّدُوسِىُّ لدى عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ، وكان علباء أعور دميما ، فلما رأى براعته وسمع بيانه أقبل عمر يُصَعِّدُ فيه بصره وَيُحَدِّرُهُ ، فلما خرج قال عمر : لكل أناس فى جميلهم خبرة .

قال أبو عثمان : وأنشدت سهل بن هرون قول سَلَمَةَ بْنِ خُرْشُبٍ وشعره الذى أرسل به إلى سُبَيْعِ التغلبى فى شأن الرُّهُنِ التى وضعت على يديه فى قتال عبس وذبيان ، فقال سهل بن هرون : والله لكأنه قد سمع رسالة عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه إلى أبى موسى الأشعرى فى سياسة القضاء وتدبير الحكم ! ؟

والقصيدة قوله :

أَبْلِغْ سُبَيْعاً وَأَنْتَ سَيِّدُنَا ... قِدَماً وَأَوْفَى رِجَالِنَا ذِمَمَا
أَنَّ بَغِيضاً وَأَنَّ إِخْوَتَهَا ... ذُبْيَانَ قَدْ ضَرَّمُوا الذى اضْطَرَمَا[1]
نُبِّئْتُ أَنْ حَكَّمُوكَ بَيْنَهُمُ ... فَلَا يَقُولُنَّ بِئْسَ مَا حَكَمَا
إِنْ كُنْتَ ذَا خِبْرَةٍ بِشَأْنِهِمِ ... تَعْرِفُ ذَا حَقِّهِمْ وَمَنْ ظَلَمَا

يا أمير المؤمنين لمادت جذعة ولبلغت شعاف هجر ؟ فقال عمر : نعم مستودع السر ومسند الأمر إليه انت باهرم ، مثل هذا فليسد العشيرة ، وإلى مثلك فليستبضع القوم احكامهم

(١) بغيض وذبيان من قبائل غطفان

وَتَنْزِلُ الأَمْرَ فى مَنَازِلِهِ حُكْماً وَعِلْماً وَتُحْضِرُ الفُهِمَا
وَلا تُبَالِي مَنِ المُحِقُّ وَلا المُبْطِلُ لَا إِلَّ وَلا ذِمَمَا (١)
فَاحْكُمْ وَأَنْتَ الحَكِيمُ بَيْنَهُمُ لَنْ تَعْدَمُوا الحُكْمَ ثَابِتاً صَتِمَا (٢)
وَاصْدَعْ أَدِيمَ السَّوَاءِ بَيْنَهُمُ عَلَى رِضَا مَنْ رَضِى وَمَنْ رَغِمَا (٣)
إِنْ كَانَ مَالاً فَفُضَّ عِدَّتَهُ مَالاً بِمَالٍ وَإِنْ دَمَاً فَدَمَا
حَتَّى تَرَى ظَاهِرَ الحُكُومَةِ مِثْلَ الصُّبْحِ جَلَّى نَهَارُهُ ظُلَمَا
هَذَا وَإِنْ لَمْ تُطِقْ حُكُومَتَهُمْ فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ أُمُورَهُمْ سَلَمَا

وقال العايشى كان عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه أعلم الناس بالشعر ، ولكنه إذ ابتلى بالحكم بين النجاشى والعَجلانى (٤) وبين الحطيئة (٥) والزِّبرقان

---

(١) لا إلّ : لا عهدا ولا حلفا

(٢) قال الجاحظ : الصتم الصحيح القوي ، يقال رجل صتم إذا كان شديدا ،

(٣) الأديم : الجلد . ورغم : كره

(٤) أما النجاشى فهو قيس بن عمرو الحارثى شاعر يمى أسلم فيمن أسلم عند ما فتحت اليمن . وكان هجاء خبيثا . وأما العجلانى فهو تميم بن أبى مقبل ، وكان بنو العجلان يفخرون بلقبهم لأنه لقب جدهم عبد الله بن كعب لقب به لتعجيله القرى لضيوفه . فلما وقع الشر بين النجاشى وتميم هجاهم النجاشى بقوله :

إذا الله جازى أهل لؤم ودقة فجازي بنى العجلان رهط ابن مقبل
قبيلة لا يغدرون بذمة ولا يظلمون الناس حبة خردل
ولا يردون الماء إلا عشية إذا صدر الوراد عن كل منهل
تعاف الكلاب الضاريات لحومهم وتأ كل من كعب بن عوف ونهشل
وما سمى العجلان إلا لقيلهم خذ القعب واحلب ايها العبد واعجل
اولئك إخوان اللعين واسرة الـ ـهجين ورهط الواهن المتذلل

فلما قال ذلك استعدوا عليه عمر بن الخطاب فحبسه بعد الحكومة

(٥) الحطيئة هو جرول بن اوس العبسى شاعر مخضرم من فحول الشعراء ومقدمهم ، كان متصرفا فى فنون الشعر مجيدا فى ضروبه ، مع سلاطة ودناءة وخسة نفس ، ولم تقف به خسة نفسه عند حد أن يهجو من يحسن إليه بل تناول بالهجو اباه وامه وزوجته وحتى نفسه . وكان الزبرقان بن بدر انزله واهله فى حيه واوصاهم به خيرا فقصروا فى حقه فهجاه واقذع بشعر كثير شره قوله :

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فانك أنت الطاعم الكاسى

فرفع الزبرقان امره إلى عمر فحاكمه وحبسه فقال وهو بالحبس ووجه الكلام إلى عمر :

ماذا تقول لأفراخ بذي مرخ زغب الحواصل لاماء ولا شجر

كره أن يتعرض للشعراء ، واستشهد رجالا للفريقين مثل حسان بن ثابت وغيره ممن تهون عليهم سبالهم فإذا سمع كلامهم حكم بما يعلم ،وكان الذى ظهر من حكم ذلك الشاعر مقنعاً للفريقين ، ويكون هو قد تخلص بعرضه سليما ، فلما رآه من لاعلم له يسأل هذا وهذا ظن أن ذلك لجهله بما يعرف غيره ؟ ولقد أنشدوه شعراً لزهير ، وكان لشعره مقدما ، فلما انتهوا إلى قوله :

وَإِنَّ الحقَّ مَقْطَعُهُ ثلاثٌ ... يَمِينٌ أَوْ نِفارٌ أَوْ جَلاءُ

قال عمر ، كالمتعجب من علمه بالحقوق وتفصيله بينها و إقامته أقسامها — :

وَإِنَّ الحقَّ مَقْطَعُهُ ثلاثٌ ... يمينٌ أَوْ نِفارٌ أَوْ جَلاءُ ؟

يردد البيت من التعجب .

وأنشدوه قصيدة عَبْدَةَ بْنِ الطَّبِيبِ الطويلة التى على اللام ، فلما بلغ المنشد إلى قوله :

والمرْءُ ساعٍ لأَمْرٍ لَيْسَ يُدْرِكُهُ ... وَالعَيْشُ شُحٌّ وَإِشْفاقٌ وَتَأْمِيلُ(١)

قال عُمَرُ متعجباً : وَالْعَيْشُ شُحٌّ وَإِشْفاقٌ وَتَأْمِيل ؟

يعجبهم من حسن ما قسم وفصل .

وأنشدوه قصيدة أبِى قَيْسِ بْنِ الْأَسْلَتِ التى على العين وهو ساكت ، فلما أنتهى المنشد الى قوله :

القيت كاسبهم فى قعر مظلمة ... فاغفر عليك سلام الله يا عمر
انت الامام الذى من بعد صاحبه ... القت اليك مقاليد النهى البشر
لم يؤثروك بها إذ قدموك لها ... لـكن لأنفسهم كانت بك الاثر
فامنن على صبية بالرمل مسكنهم ... بين الاباطح تغشاهم بها القرر
اهلى فداؤك كم بينى وبينهم ... من عرض داوية يعمى بها الخبر

فعفا عمر عنه واخذ عليه العهد ألا يعود واشترى منه أعراض المسلمين بثلاثة آلاف درهم . مات سنة ٥٩ هـ

(١) هذا البيت من قصيدة جيدة انظرها مشروحة بقلمنا بالمفضليات

الـكَيْسُ وَالقُوَّةُ خَيْرٌ مِنَ الْـ   إشْفاقِ والفَهَّةِ وَالهاعِ (١)

أعاد عُمرُ البيت وقال :

الـكَيسُ والقوَّةُ خَيْرٌ مِنَ الْـ   إشفاقِ وَالفَهَّةِ والهَاعِ

وجعل عُمرُ يردد البيت ويتعجب منه .

قال محمد بن سلام الجُمَحِيُّ عن بعض أشياخه كان عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه لايكاد يعرض له أمر إلا أنشد فيه بيت شعر .

وقال أبُو عَمْرِو بْنِ العَلَاءِ : كان الشاعر فى الجاهلية يقدم على الخطيب بفرط حاجتهم إلى الشعر الذى يقيد عليهم مآثرهم ويفخم شأنهم ويهول على عدوهم ومن غزاهم ويهيب من فرسانهم ويخوف من كثرة عددهم ويهابهم شاعر غيرهم فيراقب شاعرهم ، فلما كثر الشعر والشعراء ، واتخذوا الشعر مكسبة ورحلوا إلى السوقة وتسرعوا إلى أعراض الناس ، صار الخطيب عندهم فوق الشاعر . ولذلك قال الأول : ألشعر أدنى مروءة السَّرِيِّ وأسرى مروءة الدنيِّ . قال : ولقد وضع قول الشعر من قدر النابغة الذبيانى ، ولوكان فى الدهر الأول مازاده ذلك إلا رفعة .

وعن الشَّعْبِي (٢) قال : ما رأيت مثلى ، ما أشاء أن ألقى رجلا أعلمَ منى بشىء إلا لقيته . وقال الحسن البصرى : يكون الرجل عابداً ولا يكون عاقلا ، ويكون عابداً عاقلا ولا يكون عالمًا ، وكان مُسْلم بن يَسَار (٣) عاقلا عابدا عالما . وكان يقال : فقه الحسن وورع ابن سِيرِين وعقل مُطَرف وحفظ قتادة . وذُكِرَتِ البَصرةُ فقيل : شيخها الحسن وفتاها بكر بن عبد الله المزنى . والذين بثوا العلم فى الدنيا أربعة :

---

(١) وهذا البيت من مفضلية ايضا انظرها مشروحة بقلمنا بالمفضليات

(٢) هو عامر بن شراحيل بن عبد الشعبي ، اصله من حمير وعداده فى همدان . . وكنيته ابو عمرو كان ضئيلا نحيفا وكانت امه من سبي جلولاء قرية بنواحي فارس . كتب لعبد الله بن مطيع العدوى ولعبد الله بن يزيد الخطمي عامل ابن الزبير على الكوفة . وكان راوية قاصا إخباريا معروفا بالمزح . مات سنة ١٠٥ هـ

(٣) هو مسلم بن يسار ، كان ابوه يسار مولى ميمونة الهلالية زوج النبي ، وكان مسلم فقيها محدثا

قتادةُ ، وَالزُّهرىُّ ، وَالأعمَشُ ، والـكلبيُّ[(١)] . وجمع سليمان بن عبد الملك بين قتادةوالزهرى ، فغلب قتادة الزهرى ، فقيل لسليمان فى ذلك فقال : إنه فقيه مليح. فقال القحْذَمىُّ : لا ، ولـكنه تعصب للقرشية ولانقطاعه إليهم ولروايته فضائلهم. وكان الأصمعى يقول وصلت بالعلم، ونلتُ بِالْمُلَحِ . وكان سهل بن هرون يقول : اللسان البليغ والشعر الجيد لا يكادان يجتمعان فى واحد ، وأعسر من ذلك أن يجتمع بلاغة الشعر و بلاغة القلم . والمسجديون[(٢)] يقولون : من تمنى رجلا حسن العقل وحسن اللسان وحسن القلم ، تمنى شيأ عسيراً .

باب : وكانوا يعيبون النوك والعى والحمق وأخلاق النساء والصبيان

قال الشاعر:

إذامَا كُنْتَ مُتَّخِذاً خليلاً — فلاَ تثِقَنْ بكُلِّ أخِي إخاءِ
فإِنْ خُيِّرْتَ بينهم فأَلصِقْ — بأَهْلِ العَقْلِ مِنْهُمْ وَالحَيَاءِ
فإِنَّ العَقْلَ لَيسَ لَهُ إذا مَا — تفاضَلَتِ الفضائِلُ مِنْ كِفاءِ
فإِنَّ النَّوْكَ لِلأَحْسَابِ غَوْلٌ — وَأَهْوَنُ دَائِهِ دَاءُ العَيَاءِ[(٣)]
وَمَنْ تَرَكَ العَوَاقِبَ مُهْمَلاَتٍ — فأيسَرُ سَعْيِهِ سَعْيُ العَنَاءِ
فلاَ تَثِقَنَّ بالنَّوْكَى لِشَيْءٍ — وَلَو كانُوا بَنِى مَاءِ السَّمَاءِ[(٤)]
فَليسُوا قابِلِي أَدَبٍ فَدَعْهُمْ — وَكُنْ من ذَاكَ مُنقطِعَ الرَّجَاءِ

---

(١) الأعمش هو أبو محمد سليمان بن مهران مولى بنى كاهل من أسد . كان من خيار العلماء والمحدثين ومن أفاضل أهل الخير ، وكان على زهد وتقوى وصلاح . ولد سنة ٦١ ومات سنة ١٤٨ هـ . والكلبي هو أبو النضر محمد بن السائب بن بشر الكلبي . كان من أوائل المفسرين وأكابر الرواة والاخباريين وافاضل النسابين . شهد وقعة دير الجماجم مع ابن الأشعث . ومات بالكوفة سنة ١٤٦ هـ

(٢) المسجديون قوم كانوا يلزمون مسجد البصرة كما كان اهل الصفة يلزمون مسجد المدينة . ولهم احاديث واخبار وآراء كثيرا مايرويها الجاحظ عنهم

(٣) غول : هلاك

(٤) النوكى : الحمق

وقال الآخر فى التضييع والنَّوْك :

فَعِشْ فى جَدٍّ أَنوكَ ساعَدَتْهُ مَقادِيرٌ يُخالِفُها الصَّوابُ (١)
ذَهَابُ المالِ فى حَمْدٍ وَأَجْرٍ ذَهَابٌ لا يُقالُ لهُ ذَهابُ

وأنشد فى ذلك :

أَرَى زَمَناً نَوْكَاهُ أَسْعَدُ أَهْلِهِ وَلـكِنَّما يَشْقَى بِهِ كلُّ عاقِلِ
مَشَى فَوْقَهُ رِجْلاهُ وَالرَّأْسُ تَحْتَهُ فكَبَّ الأَعالِى بارْتفاعِ الأَسافِلِ

وقال الآخر :

وَلَمْ أَرَ مِثْلَ الفقرِ أَوْضَعَ لِلفتَى وَلمْ أَرَ مِثْلَ المالِ أَرْفَعَ لِلرَّذْلِ
وَلَمْ أَرَ عِزًّا لِامْرِىءٍ كَعَشِيرَةٍ وَلمْ أَرَ ذُلاًّ مِثْلَ نَأْيٍ عَنِ الأَهْلِ
وَلَمْ أَرَ مِنْ عُدْمٍ أَضَرَّ عَلَى امْرِىءٍ إذا عَاشَ وَسْطَ النَّاسِ مِنْ عَدَمِ العقلِ

وقال الآخر :

تحامَقْ معَ الحمقى إذا ما لقيتَهُمْ ولا تَلْقَهُمْ بالعَقْلِ إنْ كُنتَ ذا عَقلْ
فإِنِّى رَأَيْتُ المَرْءَ يَشْقَى بِعَقْلِهِ كما كانَ قبلَ اليَوْمِ يَسْعَدُ بالعقلِ

وقال الآخر :

وَأَنْزَلَنِى طُولُ النَّوَى دارَ غُرْبَةٍ إذا شِئْتُ لاقَيْتُ امْرَأً لا أُشاكِلُهْ
فَحَامَقْتُهُ حَتَّى يُقالَ سَجِيَّةٌ وَلوْ كانَ ذا عَقْلٍ لـكُنْتُ أُعاقِلُهْ

وقال بِشْرُ بْنُ المُعْتَمِرِ وأنشد :

وَإِذَا الغَبِىُّ رَأَيْتَهُ مُسْتَغْنِياً أَعْيا الطَّبِيبَ وَحِيلَةَ المُحْتالِ

وأنشدنى آخر :

وَلِلدَّهْرِ أَيَّامٌ فَـكُنْ فى لِبَاسِهِ كَلِبْسَتِهِ يَوْماً أَجَدَّ وَأَخْلَقَا
وَكُنْ أَكْيَسَ الـكَيْسَى إذا كُنْتَ فِيهِمُ وَإِنْ كُنْتَ فِى الحَمْقَى فَـكُنْ أَنْتَ أَحْمَقَا

(١) جد انوك : حظ أحمق

وأنشدني آخر

وَلاَ تقرَبي يا بِنْتَ عَمّي بُوهَـةً ... مِنَ القَوْمِ دِفْناسًا غَبِيًّا مُفَنَّدَا (١)
وَإِنْ كانَ أعْطَى رَأسَ سِتّينَ بَكْرَةً ... وَحُكْمًا عَلَى حُكْمٍ وَعَبْدًا مُوَلَّدَا
ألاَ فاحْذَرِي لا تُورِدَنَّكِ هَجْمَةٌ ... طِوَالُ الذُّرَى حِبْنْسًا مِنَ القَوْمِ قُعْدُدَا (٢)

وأنشدني آخر:

كَسَا اللهُ حَيَّيْ تَغْلِبَ ابْنَةَ وَائِلٍ ... مِنَ اللُّؤْمِ أظْفَارًا بَطِيئًا نُصُولُها (٣)
إذَا ارْتَحَلُوا عَنْ دَارِ ضَيْمٍ تَعَاذَلُوا ... عَلَيْهَا وَرَدُّوا وَفْدَهُمْ يَسْتَقِيلُهَا

وأنشدني آخر:

وَإِنْ عَنَاءً أنْ تُفَهِّمَ جَاهِلاً ... وَيَحْسَبُ جَهْلاً أنَّهُ مِنْكَ أفْهَمُ

وقال جرير:

وَلاَ يَعْرِفُونَ الشَّرَّ حَتَّى يُصِيبَهُمْ ... وَلاَ يَعْرِفُونَ الأمْرَ إلاَّ تَدَبُّرَا

وقال الأعرج المَعْنِيُّ الطَّائِيُّ: (٤)

لَقَدْ عَلِمَ الأقْوَامُ أنْ قَدْ قَدَرْتُمُ ... وَلَمْ تَبْدَأوهُمْ بالمَظَالِمِ أوَّلاَ
فَكُونُوا كَدَاعِي كَرَّةٍ بَعْدَ فَرَّةٍ ... ألاَ رُبَّ مَنْ قَدْ فَرَّ ثُمَّتَ أقْبَلاَ
فَإنْ أنْتُمُ لَمْ تَفْعَلُوا فَتَبَدَّلُوا ... بِكُلِّ سِنَانٍ مَعْشَرَ الغُرْبِ مِغْزَلاَ
وَأعْطُوهُمُ حُكْمَ الصَّبِيِّ بأهْلِهِ ... وَإنّي لأرْجُو أنْ يَقُولُوا بأنْ: لاَ (٥)

(٦)

---

(١) البوهة: الأحمق الطائش. والدفناس: الدنيء البخيل
(٢) الهجمة: قطعة من الابل من الاربعين إلي المائة، والحبس: الثقيل الروح. والقعدد: البعيد النسب من الجد الاعلى
(٣) حيا تغلب: يريد بهما بكر وتغلب ابن وائل
(٤) هو شاعر فارس من شعراء الدولتين كان من شعراء الخوارج وفرسانهم المعدودين وظل خارجيا إلى الدولة العباسية
(٥) قال الجاحظ: يقال اظلم من صبي واكذب من صبي واخرق من صبي
(٦) بياض بالأصول

وأنشد

وَلاَ تَحْكُمَا حُكْمَ الصَّبِيِّ فإنَّهُ ... كَثِيرٌ عَلَى ظَهْرِ الطَّرِيقِ مَجَاهِلُهْ

سئل دغفل عن بنى عامر فقال : أعناق ظباء، وأعجاز نساء ! قيل : فما تقول فى أهل اليمن ؟ قال : سيِّدٌ وأنْوكٌ .

باب فى ذكر المعلمين

من أمثال العامة . أحمق من معلم كتاب . وقد ذكرهم صِقْلابٌ [فقال] :

وكَيْفَ يُرَجَّى العَقْلُ والرَّأْيُ عِنْدَ مَنْ ... يَرُوحُ عَلَى أُنْثَى وَيَغْدُو عَلَى طِفْلِ

وفى قول بعض الحكماء : لا تستشيروا معلماً ولا راعى غنم ولا كثير القعود مع النساء . وقال : لاتدع أم صبيك تضربه ، فإنه أعقل منها وان كانت أسن منه . وقد سمعنا فى الأمثال : أحمق من راعى ضأن ثمانين .

فأما استحماق رعاة الغنم فى الجملة ، فكيف يكون ذلك صوابا وقد رعى الغنم عدة من جلة الأنبياء عليهم السلام ؟ ولعمرى إن الفدادين (١) من أهل الوبر ورعاة الابل ليتلومون على رعاة الغنم ، ويقول أحدهم لصاحبه : ان كنت كاذبا فحلبت قاعدا . وقال الآخر :

تَرَى حَالِبَ المِعْزَى إذَا صَرَّ قَاعِدًا ... وَحَالِبُهُنَّ القَائِمُ المُتَطَاوِلُ

قالت امرأة من غامدٍ فى هزيمة ربيعة بنِ مُكَدَّم (٢) لجمع غامد وحده :

أَلاَ هَلْ أَتَاهَا عَلَى نَأْيِهَا ... بِمَا فَضَحَتْ قَوْمَهَا غَامِدُ

تَمَنَّيْتُمُ مِائَتَيْ فَارِسٍ ... فَرَدَّكُمُ فَارِسٌ وَاحِدُ

فَلَيْتَ لَنَا بِارْتِبَاطِ الخُيُولِ ... ضَأْنًا لَهَا حَالِبٌ قَاعِدُ

---

(١) الفدادون : اصحاب الاصوات الغليظة المنكرة من الرعاة وأمثالهم

(٢) كان من فرسان العرب الأنجاد وشجعانهم الأبطال . وكان شاعرا فحلا مقلا . وله مع عمرو بن معدى كرب ودريد بن الصمة ونظرائهما احداث وخطوب فى الجاهلية . مات فى إحدى الوقائع فى الجاهلية

وقد سمعنا قول بعضهم : أَلْحُمْقُ فى الحاكة والمعلمين والغزالين . قال: والحاكة أقل وأسقط من أن يقال لهم حمق ، وكذلك الغزالون ! لأن الأحمق هو الذى يتكلم بالصواب الجيد ثم يجىء بخطأ فاحش ، والحائك ليس عنده صواب جيد فى فعال ولا مقال ، الا أن يجعل جودة الحياكة من هذا الباب ، وليس هو من هذا فى شىء .

وهذا باب آخر

ويقال : فلان أحمق . فاذا قالوا : مائق ، فليس يريدون ذلك المعنى بعينه . وكذلك إذا قالوا : أَنْوَكُ . وكذلك إذا قالوا : رَقِيعٌ . ويقولون : فلان سليم الصدر . ثم يقولون : غبىٌّ . ثم يقولون : أبله وكذلك إذا قالوا : معتوه، ومسلوس، وأشباه ذلك .

قال أَبُو عُبَيْدَةَ : يقال للفارس : شُجاع ، فاذا تقدم ذلك قيل : بطل ، فإذا تقدم شيئا قيل : بُهْمَةٌ ، فإذا صار إلى الغاية قيل : أَلْيَسُ . قال العجاج : « أَلْيَسُ عَنْ حَوْبَائِهِ سَخِىٌّ »

وهذا المأخذ يجرى فى الصفات كلها من : جود وبخل وصلاح وفساد ونقصان ورُجحان . ومازلت أسمع هذا القول فى المعلمين . والمعلمون عندى على ضربين : منهم رجال ارتفعوا عن تعليم أولاد العامة إلى تعليم أولاد الخاصة ، ومنهم رجال ارتفعوا عن تعليم أولاد الخاصة إلى تعليم أولاد الملوك أنفسهم المرشحين للخلافة ، فكيف تستطيع أن تزعم أن مثل عَلِىِّ بْنِ حَمْزَةَ الْكِسَائِىِّ ومحمدِ بْنِ الْمُسْتَنِيرِ الذى يقال له قُطْرُبٌ (١) وأشباه هؤلاء يقال لهم حَمْقَى ؟ ولا يجوز هذا القول على هؤلاء ، ولا على الطبقة التى دونهم ! ! فإن ذهبوا إلى مُعلمى كتاتيب القرى فإن لكل قوم حاشية وَسِفلة ، فما هم فى ذلك إلا كغيرهم .

(١) هو محمد بن المستنير سماه سيبويه « قطرب » اخذ النحو عن سيبويه وعيسى بن عمر ، واخذ علم الكلام عن النظام ، واتصل بابى دلف العجلى وادب ولده ، وله تصانيف كثيرة ، وكان ابن السكيت لا يوثقه . مات سنة ٢٠٦ هـ

وكيف تقول مثل ذلك فى هؤلاء، وفيهم الفقهاء والشعراء والخطباء، مثل: كُمَيْتِ بنِ زَيْدٍ، وعبدِ الحميدِ الكاتب، وقَيْسِ بن سَعْدٍ [١] وعطاءِ بن أبى رَبَاحٍ [٢]. ومثل عبد الكريم بن أبى أمية، وحُسين المعلم، وأبى سعيد المعلم؟! *ومن المعلمين: الضَّحَّاكُ بنُ مزاحم [٣] [و]معبد الجُهَنِى، [قال] عامر الشعبى، فكانا يعلمان أولاد عبد الملك بن مروان، وكان معبد يعلم سعيدا* [٤]. ومنهم أبو سعيد المؤدب [٥] — وهو غير أبي سعيد المعلم — وكان يحدث عن هِشَامِ بن عُرْوَةَ وغيره؟ ومنهم عَبْدُ الصَّمَدِ بنُ عَبدِ الأعلى وكان معلم وُلد عُتْبَةَ بن أبى سُفيان. وكان إسماعيل بن على أزم بعض بنيه عبدَ الله بن المقفع ليعلمه؟ وكان أبو بكر عبد الله بن كَيْسَانَ معلما. ومنهم محمد بن السكن. وما كان عندنا بالبصرة رجلان أدرى بصنوف العلم ولا أحسن بيانا من أبي الوزير وأبى عدنان المعلمين، وحالهم من أول ما أذكر من أيام الصبا.

وقد قال الناس فى أبى البيداء وفى أبي عبد الله الكاتب وفى الحجاج بن يوسف وأبيه ما قالوا؟ وقد أنشدوا مع هذا الخبر شاهدا من الشعر [٦] على أن الحجاج وأباه كانا معلمين بالطائف.؟!

---

(١) هو قيس بن سعد بن عبادة الخزرجى الانصارى. كان من الصحابة، ولاه على بن ابى طالب مصر ايام الفتنة بينه وبين معاوية فخافه معاوية فدس له حتى عزله على: وكان كريما جوادا شجاعا بطلا وكان جسيما طويلا جدا. توفي بالمدينة فى آخر عهد معاوية

(٢) هو عطاء بن اسلم مولى بنى فهر. كان من صلحاء التابعين. نشأ بمكة وبها علم الكتاب، وكان اسود اعور افطس اشل، ثم عمى ومات سنة ١١٥ ه عن ٨٨ سنة

(٣) هو ابو القاسم الضحاك بن مزاحم من رهط زينب زوج النبى. قيل انه ظل في بطن امه سنتين حتى اثغر. وكان معلما رحل إلى خراسان واقام بها إلي ان مات سنة ١٠٢ ه

(٤) ** كانت هذه الجملة مضطربة فى الاصل اضطرابا غريبا، فقد كانت هكذا: «ومن المعلمين الضحاك ابن مزاحم أبو معبد الجهنى وعامر الشعبى فكانا يعلمان أولاد عبد الملك بن مروان وكان ابو معبد يعلم سعيدا، وأنت ترى أن الضحاك لم يكن يكنى بأبى معبد ولم يكن جهنيا، والحقيقة أن الضحاك رجل ومعبد الجهنى رجل آخر، وقد كان معبد الجهنى أحد رؤس القدرية، ولذلك اثبتنا فى الاصل ما رأيناه صوابا، والغريب ان هذا الخطأ وقع فى جميع النسخ المطبوعة ولم يلتفت إليه أحد.

(٥) هو محمد بن مسلم بن ابى الوضاح القضاعى، ضمه المنصور إلى المهدى لادبه. وكان راوية محدثا فاضلا. روى عن سالم الافطس وهشام بن عروة والاعمش وغيرهم

(٥) ماقيل من الشعر فى الحجاج «وكان اسمه وهو صغير كليبا» وفى أبيه هو ماقاله مالك بن الريب حيث يقول:

ثم رجع بنا القول الى الكلام الاول . قالوا : أحق الناس بالرحمة عالم يجرى عليه حكم جاهل . وكتب الحجَّاج إلى المُهلَّب يُعجله فى حرب الأزارقة وَيُسمعهُ (١) فكتب اليه المُهلَّب : إن البلاء كل البلاء أن يكون الرأى لمن يملكه دون من يبصره . . ! ؟

وباب آخر

قال بعض الربانيين من الأدباء وأهل المعرفة من البلغاء ، ممن يكره التشادق والتعمق ويبغض الإغراق فى القول والتكلف والاجتلاب ، ويعرف أكثر أدواء الكلام ودوائه وما يعترى المتكلم من الفتنة بحسن مايقول وما يعرض للسامع من الإفتتان بما يسمع والذى يورث الإقتدار من التحكم والتسلط والذى يمكن الحاذق والمطبوع من التمويه للمعانى والخلابة وحسن المنطق – قال فى بعض مواعظه : أنذركم حسن الالفاظ وحلاوة مخارج الكلام ، فان المعنى إذا اكتسى لفظا حسنا وأعاره البليغ مخرجا سهلا ومنحه المتكلم قولا متعشقا،صار فى قلبك أحلى ولصدرك أملا ، والمعانى إذا كُسيت الألفاظ الكريمة وألبست الأوصاف الرفيعة ، تحولت فى العيون عن مقادير صورها وأربت على حقائق أقدارها بقدر ما زُينت وعلى حسب ما زُخرفت ، فقد صارت الألفاظ فى معنى المعارض ، وصارت المعانى فى معنى الجوارى ، والقلب ضعيف وسلطان الهوى قوى ومدخل خُدع الشيطان خفى .

فاذكر هذا الباب ولا تنسه ، وتأمله ولا تفرط فيه ، فإن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه لم يقل للأحنف – بعد أن احتبسه حولا مُجَرَّما (٢) ليستكثر

فماذا عسى الحجاج يبلغ جهده إذا نحن جاوزنا حفير زياد
فلولا بنو مروان كان ابن يوسف كما كان عبدا من عبيد إياد
زمان هو العبد المقر بذله يراوح غلمان القرى ويغادى

وما قاله آخر فيه :

أينسى كليب زمان الهزال وتعليمه سورة الكوثر
رغيف له فلكة ماترى وآخر كالقمر الأزهر

(١) يسمعه : يشتمه
(٢) حولا مجرما : عاماً كاملا

منه وليبالغ فى تصفح حاله ، والتنفير عن شأنه — : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد كان خوّفنا كل منافق عليم ، وقد خفت أن تكون منهم — إلا لِمَا كان راعه من حسن منطقه ومال إليه لِمَا رأى من رفقه وقلة تكلفه !؟ ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحراً » . وقال عمر بن عبد العزيز لرجل أحسن فى طلب حاجة وتأتى لها بكلام وجيز ومنطق حسن — : هذا والله السِّحر الحلال . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لَا خِلَابَةَ » [١] فالقصد من ذلك أن تجتنب السُّوقِىَّ والوحشى ولا تجعل همك فى تهذيب الألفاظ وشغلك فى التخلص إلى غرائب المعانى ، وفى الاقتصار بلاغ وفى التوسط مجانبة للوعورة ، والخروج من سبيل من لا يحاسب نفسه ، وقد قال الشاعر :

عَلَيْكَ بِأَوْسَاطِ الأمُورِ فإنها   نجاةٌ وَلَا تَرْكَبْ ذَلولاً وَلَا صَعْبَا

وقال الآخر :

لَا تَذْهَبَنَّ فى الأُمُورِ فُرُطَا   لَا تَسْأَلَنَّ إنْ سَأَلْتَ شَطَطَا
وَكُنْ مِنَ النَّاسِ جَمِيعاً وَسَطَا

وليكن كلامك بين المقصر والغالى ، فإنك تسلم من الهُجنة عند العلماء ، ومن فتنة الشيطان . وقال أعرابىٌّ للحسن : علمنى دينا وسطا ، لا ذاهباً شطوطا ولا هابطاً هبوطا ؟ فقال الحسن : لئن قلت ذاك إن خير الأمور أوساطها . وجاء فى الحديث « خالِطوا النَّاس و زَايِلوهم » [٢] وقال عبد الله بن مسعود [٣] فى خطبته : وخير الأمور أوساطها ، وما قل وكفى خير مما كثر وألهى ، نفس تنجيها خير من إمارة

(١) لاخلابة : لاخداع

(٢) زايلوهم : قاربوا فى مفارقتهم ومباعدتهم

(٣) هو أبو عبد الرحمن عبد الله بن مسعود الهذلى الصحابي . شهد مع رسول الله بدرا وبيعة الرضوان وجميع المشاهد ، وكان على قضاء الكوفة وبيت مالها لعمر بن الخطاب وصدرا من خلافة عثمان ، ثم صار إلى المدينة وبها أقام . وكان نحيفا قصيراً يكاد الجلوس يوازونه من قصره وكان مع هذا شديد الأدمة . مات بالمدينة ودفن بالبقيع سنة ٣٢ عن بضع وستين سنة . وستأتى خطبته فى الجزء الثاني إن شاء الله

لا تحصيها . وقال على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه : كن فى الدنيا وسطا وامش جانباً . وكانوا يقولون : إ كره الغُلُوَّ كما تكره التقصير . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لأصحابه: «قُولوا بقولِكم ولا يَستَحْوِذَنَّ عليكم الشيطان» وكان يقول: « وَهَل يُكِبُّ الناسَ على مَناخِرِهم فى نار جهنم إلاَّ حصائدُ ألسنتهم؟»

باب من الخطب القصار

من خطب السلف ومواعظ النساك وتأديب من تأديب العلماء

قال رجل لأبى هُريرة النحوى : أريد أن أتعلم العلم وأخاف أن أضيعه؟! قال: كفى بترك العلم إضاعة . وسمع الأحنف رجلا يقول : التعلم فى الصغر كالنقش فى الحجر . فقال الأحنف: الكبير أكبر الناس عقلا ولكنه أشغل قلبا . وقال أبو الدَّرْداء(١) : مالى أرى علماءكم يذهبون وجهالكم لا يتعلمون . . ؟!

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنَّ الله لا يَقبِضُ العلمَ انتزاعاً ينتزعه من النَّاس ، ولكن يَقبِضُ العلماءَ حتى إذا لم يَبْقَ عالِمٌ اتخذ الناسُ رُؤَساء جُهَّالا فسُئلوا فأفتوا بغير علم فضَلُّوا وأضلوا » ولذلك قال عبد الله بن عباس رضى الله تعالى عنه حين دُلِّىَ زيدُ بنُ ثابت(٢) فى القبر : من سره أن يرى كيف ذهاب العلم فلينظر ، فهكذا ذهابه . وقال بعض الشعراء لبعض العلماء :

أَبْعَدْتَ مِنْ يَوْمِكَ الْفِرَارَ فَمَا ... جَاوَزْتَ حَيْثُ انْتَهَى بِكَ القَدَرُ

لَوْ كانَ يُنْجِي مِنَ الرَّدَى حَذَرٌ ... نَجَّاكَ مِمَّا أَصابَكَ الحَذَرُ

يَرْحَمُكَ اللهُ مِنْ أَخِي ثِقَةٍ ... لَمْ يَكُ فى صَفْوِ وُدِّهِ كَدَرُ

فَهكَذَا يَفْسُدُ الزَّمَانُ وَيَفْنَى الْعِلْمُ مِنْهُ وَيَدْرُسُ الأَثَرُ

(١) هو عويمر بن مالك الخزرجى الصحابى كان قبل إسلامه تاجراً ، وكان فارساً شجاعا عفامتنسكا . قال ابن قتيبة : مات بالشام سنة ٣٢ وعقبه بالشام

(٢) هو زيد بن ثابت الأنصارى ، وكان ابن ١١ سنة حينما قدم رسول الله المدينة مهاجرا ، وهو الذى قام بكتابة المصحف على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم كتب لعمر بن الخطاب . وكتب مصحف عثمان . وكان يعرف اللغة العبرية ومات سنة ٤٥ هـ

وقال قتَادة : لو كان أحدٌ مكتفياً من العلم لا كتفى نبى الله موسى عليه السلام إذ قال للعبد الصالح : « هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِى مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً » ؟

أبو العباس التميمى قال : قال طاوُس : الكلمة الصالحة صَدَقَةٌ .

وعن عبد الله بن ثمامة بن أنس عن أبيه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « فَضْلُ لِسانِكَ تُعَبِّرُ بِهِ عَنْ أَخِيكَ الَّذِى لا لِسَانَ لَهُ صَدَقَةٌ »[(١)]

وقال الخليل : تَكَثَّرْ من العلم لتعرف ، وتقلل منه لتحفظ . وقال الفُضَيل[(٢)] : نعمت الهدية الكلمة من الحكمة يحفظها الرجل حتى يلقيها إلى أخيه. وكان يقال : إجعل ما فى الكتب رأس مال ، وما فى قلبك للنفقة . وكان يقال : يكتب الرجل أحسن ما سمع ، ويحفظ أحسن ما كتب . وقال أعرابى : حرف فى قلبك خير من عشرة فى طومارك[(٣)] . وقال عمر بن عبد العزيز : ماقُرِن شىء بشىء أفضل من علم إلى حلم ومن عفو إلى قدرة . وكان مَيْمون بن سَيَاه إذا جلس الى قوم قال : إنا قوم منقطع بنا فحدثونا أحاديث نتجمل بها . وفخر سليم مولى زياد بزياد عند معاوية فقال معاوية : أسكت فوالله ما أدرك صاحبك شيئاً بسيفه إلا وقد أدركت أكثر منه بلسانى . وضرب الحَجاج أعناق أسرى فلما قدموا إليه رجلا ليضرب عنقه قال : والله لئن كنا أسأنا فى الذنب فما أحسنت فى العفو ؟ فقال الحجاج : أُفٍّ لهذه الجيف ، أما كان فيها أحد يُحسن مثل هذا ؟ وأمسك عن القتل .

وقال بشير الرَّحَّال : إنى لأجد فى قلبى حَرًّا لا يذهبه إلا برد العدل أو حر السنان[(٤)] وقدموا رجلا من الخوارج إلى عبد الملك بن مروان لتضرب عنقه — ودخل على عبد الملك ابن صغير له قد ضربه المعلم وهو يبكى — فهمّ عبد الملك

(١) هذا نص شرعي فى اباحة التوكيل فى القضايا فليغتبط به المحامون وليرعوا حق الله فى حقوق المتقاضين

(٢) هو الفضيل بن عياض يكنى ابا على اصله من تميم ومولده بأبيورد من خراسان . قدم الكوفة كبيراً وسمع من منصور بن المعتمر وغيره ثم رحل إلى مكة وبها اقام . كان من اكابر الزهاد واماثل النساك كثير العبادة . مات بمكة سنة ١٨٧ هـ

(٣) الطومار : الصحيفة

(٤) اوحر السنان : او القتال دون العدل حتى يقر فى نصابه

بالمعلم فقال[١] : دعه يبكى فإنه أفتح لجِرْمِهِ وأصح لبصره وأذهب لصوته ؟ فقال له عبد الملك : أما يشغلك ما أنت فيه عن هذا ؟ قال : ما ينبغى للمسلم أن يشغله عن قول الحق شيء ..؟! فأمر بتخلية سبيله . وقال إبراهيم بن أدهم[٢] : أعربنا فى كلامنا فما نلحن حرفا ، ولحنا فى أعمالنا فما نعرب حرفا . وأنشد :

نُرَقِّعُ دُنْيانا بِتَمزِيقِ دِينِنَا　　فلا دِينُنا يَبْقَى ولا ما نُرَقِّعُ

وقال زياد على المنبر : إن الرجل ليتكلم بالكلمة ما يقطع بها ذَنَب عنز مُصور[٣] لو بلغت إمامه سفك بها دمه . وعزل عُمَرُ زياداً عن كتابة أبى موسى[٤] فى بعض قدْماته فقال له زياد : أعن عجز أم عن خيانة ؟ قال : لا عن واحدة منهما ، ولكن أكره أن أحمل على العامة فضل عقلك . وبلغ الحجاج موت أسماء بن خارجة فقال : هل سمعتم بالذى عاش ما شاء ومات حين شاء ..؟!

وكان يقال : كدر الجماعة خير من صَفْو الفُرْقة . قال أبو الحسن : مر عُمَر بن ذَرٍّ بعبد الله بن عيَّاش المنتوف ، وقد كان سفه عليه ثم أعرض عنه فتعلق بثوبه فقال : يا هناه[٥] ، إنا لم نجد لك إذا عصيت الله فينا خيراً من أن نطيع الله فيك !

وهذا كلام أخذه عمر بن ذر عن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه حين قال عمر : إنى والله لا أدع حقا لله لشكاية تظهر ولا لغضب يحتمل ولا لمحاباة بشر ، وإنك والله ما عاقبت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه . وكتب عمر بن

---

(١) فقال : يعنى الخارجي

(٢) هو ابراهيم بن أدهم كان من اكابر النساك وافاضل الزهاد وكان غزاء

(٣) عنز مصور : يريد صورة عنز لا حقيقتها

(٤) هو ابو موسى عبد الله بن قيس الأشعرى قدم على رسول الله فى وفد من اخوته وقومه فأسلموا جميعاً وشهد مع رسول الله خيبراً وما بعدها من المشاهد . وكان خفيف الجسم قصيراً ثطاحسن الصوت بالقراءة ، ولى القضاء لعمر وشهد مع على صفين واختير حكما عن على فأضاع صاحبه بسلامة صدره وتغلب عمرو بن العاص عليه بدهائه . وقد روى ابن قتيبة فى المعارف أن أبا موسى عثر بقبر دانيال النبى بناحية السوس فأخرج رفاته وكفنه وصلى عليه ثم قبره . توفى سنة ٥٢ هـ

(٥) ياهناه : هذا حرف نداء خاصة

الخطاب إلى سَعد ابن أبي وَقَّاص (١) : يا سعد سعد بنى أهيب ، إن الله إذا أحب عبداحببه إلى خلقه ، فاعتبر منزلتك من الله بمنزلتك من الناس واعلم أن مالك عند الله مثل الذى لله عندك .

ومات لعمر بن ذر ابنٌ فقال : أى بنى شغلنى الحزن لك عن الحزن عليك !

وقال رجل من مُجَاشع : كان الحسن يخطب فى دم فينا فأجابه رجل فقال : وقد تركت ذلك لله ولوجوهكم ! فقال الحسن : لا تقل هكذا بل قل : لله ثم لوجوهكم ، وآجرك الله .

ومر رجل بأبى بكر رضى الله تعالى عنه ومعه ثوب فقال : أتبيع الثوب ؟ فقال : لا عافاك الله . فقال أبو بكر رضى الله تعالى عنه : لقد علمتم لو كنتم تعلمون ، قل : لا ، وعافاك الله !

وسأل عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه رجلا عن شىء فقال : الله أعلم . فقال عمر : لقد شَقِينا إن كنا لا نعلم أن الله أعلم ، إذا سُئل أحدكم عن شىء لا يعلمه فليقل : لا علم لى . وكان أبو الدرداء يقول : أبغض الناس إلىَّ أن أظلمه من لا يستعين على بأحد إلا بالله .

وذكر ابن ذَر الدنيا فقال : كأنكم إنما زادكم فى حرصكم عليها ذم الله عز وجل لها . ونظر أعرابى إلى مال له كثير من الماشية وغيرها فقال : يُنعةٌ (٢) ، ولكل يُنعةٍ استحشاف . فباع ما هنالك من ماله ثم لزم ثغرا من ثغور المسلمين حتى مات فيه . وتمنى قوم عند يَزِيد الرَّقاشى فقال : أتمنى كما تمنيتم ؟ قالوا : تمنه .

(١) هو سعد بن أبي وقاص الزهرى الصحابى الجليل والفاتح العظيم ، كان أحد العشرة المبشرين بالجنة ، وأحد أصحاب الشورى ، وكان أرمى الناس ودعا له النبي فقال : اللهم استجب دعوته وسدد رميته . ولاه عمر الكوفة وقاد الجيوش فى حرب القادسية ، ثم ولى الكوفة لعثمان ثم عزله بالوليد ابن عقبة فلما قدم عليه قال سعد للوليد : يا أبا وهب ، أكست بعدنا أم حمقنا بعدك ؟ فقال : ما كسنا ولا حمقت ، ولكن القوم استأثروا . وكان لسعد قصر بالعقيق على عشرة أميال من المدينة فلما مات به حمل على رقاب الناس إلى المدينة ، وهو آخر العشرة موتا . وكان أسلم وهو ابن تسع عشرة سنة . ومات سنة ٥٥ هـ

(٢) ينعة : يعنى أنها كالزهرة النضرة التى غايتها إلي ذبول

قال : ليتنا لم نخلق ، وليتنا إذ خلقنا لم نعص ، وليتنا إذ عصينا لم نمت ، وليتنا إذ متنا لم نبعث ، وليتنا إذ بعثنا لم نحاسب ، وليتنا إذ حوسبنا لم نعذب ، وليتنا إذ عذبنا لم نخلد .

وقال الحجاج : ليت الله إذ خلقنا للآخرة كفانا أمر الدنيا فرفع عنا الهمّ بالمأكل والمشرب والملبس والمنكح ، أو ليته إذ وقعنا في هذه الدار كفانا أمر الآخرة فرفع عنا الاهتمام بما ينجي من عذابه . فبلغ كلامهما[1] عبدَ الله بنَ حَسن بن حسن ، أو عَليّ بن الحُسَين ، فقال . ما علما شيئًا في التمنى ، ما اختار الله فهو خير .
قال أبو الدّرْداء : من هوان الدنيا على الله أنه لا يعصى إلا فيها ولا ينال ماعنده إلا بتركها . قال شُريح[2] : الحدة كناية عن الجهل . وقال أبو عبيدة : العارضة كناية عن البذاء .

وإذا قالوا : فلان مقتصد ، فتلك كناية عن البخل ، وإذا قالوا للعامل مستقص ، فهو كناية عن الجوْر . وقال حبيب بن أوس الشاعر أبو تمّام الطائى[3]

---

(١) يعنى كلام يزيد الرقاشى والحجاج

(٢) هو شريح بن الحارث الكندى . كان من أفاضل القضاة وأماثل الحكام ولاه عمر بن الخطاب قضاء الكوفة فظل عليها ٧٥ سنة لم يتعطل فيها إلا ثلاث سنين امتنع فيها من القضاء في فتنة ابن الزبير فاستعفى الحجاج فأعفاه . وكان كثير الترويح عن نفسه فى مجلس القضاء بالمزح مع المتقاضين . مات عن ١٢٠ سنة فى سنة ٨٠ ه

(٣) هو ابو تمام حبيب بن اوس الطائى الشاعر المبدع المشهور . مات سنة ٢٣٠ ه وهذه الأبيات من كلمة يهجو بها عياش بن لهيعة اورديها هنا لاختلاف روايتها عما رواه الجاحظ فى الأصل . قال :

النار والعار والمكروه والعطب ... والقتل والصلب والمران والخشب
بنى لهيعة ما بالى وبالكم ... وفى البلاد مناديح ومضطرب
لجاجة بي فيكم ليس يشبهها ... إلا لجاجتكم فى انكم عرب
اشكيتمونى فلما ان شكوتكم ... غضبتم دام ذاك السخط والغضب
كذبتم ليس يزهى من له حسب ... ومن له نسب عمن له ادب
إني لذو عجب منكم اكرره ... فيكم وفى عجبى من لؤمكم عجب
عياش مالك فى اكرومة أرب ... ولا لأكرومة من ساقط ارب
يا اكثر الناس وعداحشوه خلف ... واكثر الناس قولا كله كذب

كَذَبْتُمْ لَيْسَ يُزْهَى مَنْ لَهُ حَسَبٌ ... وَمَنْ لَهُ نَسَبٌ عَمَّنْ لَهُ أَدَبُ
إِنِّى لَذُو عَجَبٍ مِنْكُمْ أُرَدِّدُهُ ... فِيكُمْ وَفِى عَجَبِى مِنْ زَهْوِكُمْ عَجَبُ
لَاحَاجَةَ بِى فِيكُمْ لَيْسَ يُشْبِهُهَا ... إِلَّا الْحَاجَتُكُمْ فِى أَنَّكُمْ عَرَبُ

وقيل لأعرابية مات ابنها : ما أحسن عزاءك عن ابنك ؟ قالت : إن مصيبته أمنتني من المصائب بعده . وقال سعيد بن عثمان بن عفان لِطوَيس المغنى : أينا أسن؟ أنا أو أنت ياطُويس ؟ فقال : بأبى أنت وأمى ، لقد شهدت زفاف أمك المباركة إلى أبيك الطيب ! فانظر إلى حذقه وإلى معرفته بمخارج الكلام كيف لم يقل : بزفاف أمك الطيبة إلى أبيك المبارك ؟ وهكذا كان وجه الكلام فقلب المعنى .

وقال رجل من أهل الشام : كنت فى حلقة أبى مُسْهِر فى مسجد دمشق فذكرنا الكلام و براعته والصمت ونبالته ، قال : كلا إن النجم ليس كالقمر ، إنك تصف الصمت بالكلام ولا تصف الكلام بالصمت . وقال الهيثم بن صالح لابنه وكان خطيبا : يابنى ، إذا أقللت من الكلام أكثرت من الصواب وإذا أكثرت من الكلام أقللت من الصواب ، قال : يا أبه ، فان أنا أكثرت وأكثرت ؟ ! يعنى كلاما وصوابا ، قال : يابنى ، مارأيت موعوظا أحق بأن يكون واعظا منك !

وقال ابن عباس : لولا الوسواس ماباليت أن لا أكلم الناس .

وقال عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه : ما تستبقوا من الدنيا تجدوه فى الآخرة . وقال رجل للحسن : إنى أكره الموت . قال : ذلك لأنك أخرت مالك ولو قدمته لسرك أن تلحق به . وقال عامر بن الظَّرِب العَدْوَانِىّ (١) : الرأى نائم

(١) هو عامر بن الظرب العدوانى ، كان من حكام العرب فى الجاهلية يعنى أن العرب كانت تحتكم إليه عند النوازل فكان عندهم مرضى الحكم ، وهو من المعمرين ، فلما تقدمت به السن قال له أحد أولاده : إنك كبرت وربما أخطأت فى الحكم فيحمل عنك ؟ قال : فاجعلوا لى أمارة أعرفها فاذا زغت فسمعتها رجعت إلى الحكم والصواب ، فكان يجلس قدام بيته ويقعد ابنه فى البيت ومعه العصا فاذا زاغ أو هفا قرع له الجفنة فرجع إلى الصواب ، فقيل فيه « إن العصا قرعت لذى الحلم » ويروى له شعر جيد وكلام مسدد

والهوى يقظان ، فمن هنا يغلب الهوى الرأى . وقال : مكتوب فى الحكمة : إشكر لمن أنعم عليك ، وانعم على من شكر لك . وقال أبو الدرداء: أيها الناس ، لايمنعكم سوء ماتعلمون منا أن تقبلوا أحسن ما تسمعون منا .

وقال عبد الملك على المنبر : ألا تنصفوننا يامعشر الرعية ؟ تريدون منا سيرة أبى بكر وعمر ولم تسيروا فى أنفسكم ولا فينا سيرة رعية أبى بكر وعمر ؟! نسأل الله أن يعين كلا على كل . وقال رجل من العرب : أربع لا يشبعن من أربع : أنثى من ذكر ، وعين من نظر ، وأرض من مطر ، وأذن من خبر (١)

وقال موسى عليه السلام لأهله « ٱمْكُثُوا إِنِّى آنَسْتُ نَاراً لَعَلِّى آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ » فقال بعض المعترضين : فقد قال « أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ » قال أبو عُقيل : لم يعرف موقع النار من أبناء السبيل ، ومن الجائع المقرور . وقال لَبِيدُ بْنُ رَبيعة :

وَمَقَامٍ ضَيِّقٍ فَرَّجْتُهُ ... بِبَيَانٍ وَلِسَانٍ وَجَدَلْ
لَوْ يَقُومُ الْفِيلُ أَوْ فَيَّالُهُ ... زَلَّ عَنْ مِثْلِ مَقَامِى وَزَحَلْ (٢)
وَلَدَى النُّعْمَانِ مِنِّى مَوْطِنٌ ... بَيْنَ فَاثُورِ أُفَاقٍ فَالدَّحَلْ (٣)
إِذْ دَعَتْنِى عَامِرٌ أَنْصُرُهَا ... فَالْتَقَى الأَلْسُنَ كَالنَّبْلِ الدُّوَلْ (٤)
فَرَمَيْتُ الْقَوْمَ رِشْقاً صَائِباً ... لَيْسَ بِالْعُصْلِ وَلَا بِالْمُقْتَعَلْ (٥)
وَانْتَضَلْنَا وَابْنُ سَلْمَى قَاعِدٌ ... كَعَتِيقِ الطَّيْرِ يُغْضِى وَيُجَلْ (٦)

(١) وعلى ذكر هذه الاربع أذكر للمقتدر الخليفة العباسى أربعا من أظرف ماقيل ، وهى : اربع من لذات الدنيا : النظر إلى الوجوه الصبيحة الجميله ، وشم الأرواح الثقيلة البغيضه ، وصفع الأقفية اللحيمة الشحيمه ، وحلق اللحى الطويلة العريضه .

(٢) زحل : زل عن مكانه وتحول

(٣) فاثور أفاق والدحل : اسما موضعين

(٤) الدول : المتداول

(٥) الرشق : السهم . العصل « بكسر الصاد » المعوج ، والمقتعل : الذى لم يبر بريا جيدا ، فهو ينفى عن السهم هذه الصفات

(٦) انتضلنا : ناضل بعضنا بعضا بالنبال والمراد هنا القول الصائب

وَقَبِيلٌ مِنْ لُكَيْزٍ شَاهِدٌ ... رَهْطُ مَرْجُومٍ وَرَهْطُ ابْنِ الْمُعَلْ

وقال :

وَأَبْيَضَ يَجْتَابُ الْخُرُوقَ عَلَى الْوَجَى ... خَطِيبًا إِذَا الْتَفَّ الْمَجَامِعُ فَاصِلَا (١)

وقال لبيدٌ :

لَوْ كَانَ حَيٌّ فِي الْحَيَاةِ مُخَلَّدًا ... فِي الدَّهْرِ أَدْرَكَهُ أَبُو يَكْسُومِ (٢)

بِكَتَائِبٍ خُرْسٍ تَعَوَّدَ كَبْشُهَا ... نَطْحَ الْكِبَاشِ شَبِيهَةٍ بِنُجُومِ (٣)

وَلَقَدْ بَلَوْتُكَ وَابْتَلَيْتُ خَلِيقَتِي ... وَلَقَدْ كَفَاكَ مُعَلِّمِي تَعْلِيمِي

وقال لَبِيدٌ :

ذَهَبَ الَّذِينَ يُعَاشُ فِي أَكْنَافِهِمْ ... وَبَقِيتُ فِي خَلْفٍ كَجِلْدِ الأَجْرَبِ

يَتَأَكَّلُونَ مَغَالَةً وَخِيَانَةً ... وَيُعَابُ قَائِلُهُمْ وَإِنْ لَمْ يَشْغَبِ (٤)

وقال زَيْدُ بن جُنْدَب (٥) فى ذكر الشغب :

مَا كَانَ أَغْنَى رِجَالاً ضَلَّ سَعْيُهُمُ ... عَنِ الْجِدَالِ وَأَغْنَاهُمْ عَنِ الشَّغَبِ

وقال آخر فى الشغب :

إِنِّي إِذَا عَاقَبْتُ ذُو عِقَابِ ... وَإِنْ تُشَاغِبْنِي فَذُو شِغَابِ

وقال ابن أَحمرُ بن العَمَرِد :

وَكَمْ حَلَّهَا مِنْ تَيِّحَانٍ سَمَيْذَعٍ ... مُصَافِي النَّدَى سَاقٍ بِسَهْمَاءَ مُطْعِمِ (٦)

(١) يجتاب الخروق : يقطع الفاوز . الوجى : الحفا وهو مرض يعتري القدمين من كثرة المشي . الفاصل : القاطع

(٢) ابو يكسوم : هو قائد جيوش الحبشة التى جاءت لغزو بلاد العرب وامتلاك الكعبة ، ومعها الفيل

(٣) الخرس : التى لاصوت لها . والكبش هنا هو قائد الجيش

(٤) مغالة : سرقة واغتيالا

(٥) هو زيد بن جندب الايادى خطيب الازارقة . وانظر صفحات ٤٩ و ٥٠ و ٥١ و٦٢

(٦) التيحان : الكثير الحركة العريض « بكسر العين وتشديد الراى » للأمور . السميذع : السيد الكريم . والسهماء : السنة الشديدة التى تسهم معها الاجسام اى تذهب اللحم وتدع الجلد على العظم

طَوِى الْبَطْنِ مِتْلَافٍ إِذَا هَبَّتِ الصَّبَا عَلَى الأَمْرِ غَوَّاصٍ وَفِى الحَىِّ شَيْظَمِ (١)

وقال :

هَلْ لأَمْنِى قَوْمٌ لِمَوْقِفِ سَائِلٍ أَوْ فِى مُخَاصَمَةِ اللَّجُوجِ الأَصْيَدِ (٢)

وقال فى التطبيق :

فَلَمَّا أَنْ بَدَا القَعْقَاعُ لَجَّتْ عَلَى شَرَكٍ تُنَاقِلُهُ نِقَالَا
تَعَاوَرْنَا الحَدِيثَ وَطَبَّقَتْهُ كَمَا طَبَّقْتَ بِالنَّعْلِ المِثَالَا

وهذا التطبيق غير التطبيق الأول :

وقال آخر :

لَوْ كُنْتُ ذَا عِلْمٍ عَلِمْتُ وَكَيْفَ لِى بِالْعِلْمِ بَعْدَ تَدَبُّرِ الأَمْرِ

وقال المعترض على أصحاب الخطابة والبلاغة :

قال لقمان لابنه : يابنى ، إنى قد ندمت على الكلام ولم أندم على السكوت ،

وقال الشاعر :

مَا إِنْ نَدِمْتُ عَلَى سُكُوتِى مَرَّةً وَلَقَدْ نَدِمْتُ عَلَى الكَلَامِ مِرَارَا

وقال آخر .

خَلِّ جَنْبَيْكَ لِرَامٍ وَامْضِ عَنْهُ بِسَلَامِ
مُتْ بِدَاءِ الصَّمْتِ خَيْرٌ لَكَ مِنْ دَاءِ الكَلَامِ
إِنَّمَا المُسْلِمُ مَنْ أَلْجَمَ فَاهُ بِلِجَامِ

وقال آخر فى التحذير والاحتراس .

أَخْفِضِ الصَّوْتَ إِنْ نَطَقْتَ بِلَيْلٍ وَالْتَفِتْ بِالنَّهَارِ قَبْلَ الكَلَامِ

---

(١) شيظم : طويل فتى لحيم

(٢) الاصيد : المتكبر

وقال فى مثل ذلك .

لاأسألُ النَّاسَ عمَّا فى ضمائرِهِمْ   مَافِى ضَمِيرِى لهُمْ مِنِّى سيكفِينِى

وقال حمزة بن بيض (١)

لمْ يكُنْ عَنْ جِنايةٍ لحِقتْنِى   لايَسارِى وَلاَ يَمِينِى جَنَتْنِى

بَلْ جَناهَا أخٌ عَلَىَّ كَرِيمٌ   وَعلى أهْلِها بَرَاقِشُ تَجْنِى

لأن هذه الكلبة — وهى براقش — إنما نبحت غزيا وقد مروا من ورائهم وقد رجعوا خائبين مخفقين ، ، فلما نبحتهم استدلوا بنباحها على أهلها فاستباحوهم ولو سكتت كانوا قد سلموا ، فضرب ابن بيض بها المثل . وقال الأخطل :

تَنِقُّ بلاَ شَىْءٍ شُيُوخُ مُحَارِبٍ   وَمَاخِلْتُها كانَتْ تَرِيشُ وَلاَ تَبْرِى (٢)

ضَفَادِعُ فى ظَلْماءِ لَيْلٍ تجاوَبَتْ   فدَلَّ عليْها صَوْتُها حَيَّةَ النَّهْرِ

وقالوا : ألصمت حكم وقليل فاعله . وقالوا . إستكثر من الهيبة صامت . وقيل لرجل من كاب طويل الصمت . : بحق ماسمتكم العلماء خُرس العرب ! فقال : أسكت فأسلم وأسمع فأعلم . وكانوا يقولون : لا تعدلوا بالسلامة شيئاً ، [فإنك] لا تسمع الناس يقولون : جلد فلان حين صمت ولا قتل حين سكت ، وتسمعهم يقولون : جُلد فلان حين قال كذا وكذا وقُتل حين قال كذا وكذا . وفى الحديث المأثور : رحم الله من سكت فسلم أو قال خيراً فغنم . والسلامة فوق الغنيمة لأن السلامة أصل والغنيمة فرع .

وقال النبى صلى الله عليه وسلم « إنَّ اللهَ يَبغَضُ البَلِيغَ الذِى يَتخَلَّلُ بِلِسَانِهِ كَمَا تتخَلَّلُ البَاقِرَةُ بِلِسَانِهَا »

---

(١) هو حمزة بن بيض الكوفى شاعر من شعراء الدولة الأموية وبليغ من بلغائها . وكان خليعا ماجنا يعد من فحول طبقة الخلعاء المجان . وكان منقطعاً إلى المهلب بن أبى صفرة وفى حاشيته ثم التحق بأبان بن الوليد وبلال بن أبى بردة الأشعري . وافاد منهم مالا جزيلا . ولم يدرك الدولة العباسية

(٢) قال الجاحظ . النقيق صياح الضفادع .

وقيل . إن كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب . وقال صاحب البلاغة والخطابة وأهل البيان وحب التبيين : إنما عاب النبي صلى الله عليه وسلم المتشادقين والثرثارين والذى يتخلل بلسانه كما تتخلل الباقرة بلسانها ، والاعرابى المتشادق ، وهو الذى يصنع بفكيه وشدقيه مالا يستجيزه أهل الأدب من خطباء أهل المدر، فمن تكلف ذلك منهم فهو أعيب والذم له ألزم . وقد كان الرجل من العرب يقف الموقف فيرسل عدة أمثال سائرة ، ولم يكن الناس جميعا يتمثلون بها إلا لما فيها من المرفق والانتفاع . ومدار العلم على الشاهد والمثل . وإنما حثوا على الصمت لان العامة إلى معرفة خطأ القول أسرع منهم إلى معرفة خطأ الصمت ، ومعنى الصامت فى صمته أخفى من معنى القائل فى قوله ، وإلا فالسكوت عن قول الحق فى معنى النطق بالباطل . ولعمرى إن الناس إلى الكلام لأسرع ، لأن فى أصل التركيب أن الحاجة إلى القول والعمل أكثر من الحاجة إلى ترك العمل والسكوت عن جميع القول. وليس الصمت كله أفضل من الكلام كله ولا الكلام كله أفضل من السكوت كله ، بل قد علمنا أن عامة الكلام أفضل من عامة السكوت . وقد قال الله عزوجل « سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ » فجعل سمعه وكذبه سواء. وقال الشاعر:

بَنِى عَدِيٍّ أَلَا يُنْهَى سَفِيهُكُمُ ... إِنَّ السَّفِيهَ إِذَا لَمْ يُنْهَ مَأْمُورُ

وقال آخر :

فإِنْ أَنا لَمْ آمُرْ وَلَمْ أَنْهَ عَنْكُمَا ... ضَحِكْتُ لَهُ حَتَّى يَلِجَّ وَيَسْتَشْرِى (١)

وكيف يكون الصمت أنفع والإيثار له أفضل ، ونفعه لا يكاد يجاوز رأس صاحبه ، ونفع الكلام يعم ويخص! والرواة لم يرووا سكوت الصامتين كما روت كلام الناطقين . وبالكلام أرسل الله أنبياءه لا بالصمت . ومواضع الصمت المحمودة قليلة ومواضع الكلام المحمودة كثيرة . وطول الصمت يفسد البيان . وقال بكر بن عبد الله المزنى : طول الصمت حُبْسَةٌ كما قال عمر : ترك الحركة

(١) يلج من اللجاج . ويستشرى : ويتفاقم أمره ويتزايد لجاجه

عُقْلة(١) . وإذا ترك الانسان القول ماتت خواطره وتبلدت نفسه وفسد حسه . وكانوا يُروون صبيانهم الأرجاز ويعلمونهم المناقلات ويأمرونهم برفع الصوت وتحقيق الإعراب لأن ذلك يفتق اللَّهات ويفتح الجرم . واللسان إذا أكثرت تحريكه رق ولان وإذا أقللت تقليبه وأطلت إسكاته جسا(٢) وغلظ . وقال عُبابة الْجُعْفِيُّ : لولا الدُّربة وسوء العادة لأمرت فتياننا أن يمارى بعضهم بعضا . وأية جارحة منعتها الحركة ولم تمرنها على الأعمال أصابها من التعقد على حسب ذلك المنع .

فلِمَ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للنابغة الجعدى : « لا يَفْضُضِ اللهُ فاكَ » ولِمَ قال لكعب بن مالكٍ : « مَا نَسِيَ اللهُ لَكَ مَقَالَكَ ذَلِكَ » ولم قال لهيذان ابن شيخ : « رُبَّ خَطِيبٍ من عَبْسٍ » ؟ ولم قال لحسَّان لما هيج الغطاريف على بنى عَبْدِ مَنَافٍ : « واللهِ لَشِعْرُكَ أَشَدُّ عَلَيْهِمْ مِنْ وَقْعِ السِّهَامِ فِي غَبَشِ الظَّلَامِ » ؟

وما نشك أنه صلى الله عليه وسلم قد نهى عن المراء وعن التزيد والتكلف وعن كل ما ضارع الرياء أو السمعة والنفج والبذخ(٣) وعن التهاتر والتشاغب وعن المغالبة والمماتنة . فأما نفس البيان فكيف ينهى عنه وأبين الكلام كلام الله وهو الذى مدح التبيين وأهل التفصيل ! ؟ وفى هذا كفاية إن شاء الله .

قال دَغْفَلُ بْنُ حَنْظَلَةَ : إن للعلم أربعا : آفة ونكدا وإضاعة واستجاعة ، فآفته النسيان ونكده الكذب وإضاعته وضعه فى غير موضعه واستجاعته أنك لا تشبع منه . وإنما عاب الاستجاعة لسوء تدبير أكثر العلماء ، ولخرق سياسة أكثر الرواة ، لأن الرواة إذا شغلوا عقولهم بالازدياد والجمع عن تحفظ ماقد حصلوه وتدبر ماقد دونوه كان ذلك الازدياد داعيا إلى النقصان ، وذلك الربح سببا للخسران وقد جاء فى الحديث « مَنْهُومَانِ لَا يَشْبَعَانِ مَنْهُومٌ فِي الْعِلْمِ وَمَنْهُومٌ فِي الْمَالِ » وقالوا : علم علمك وتعلم علم غيرك ، فاذا أنت قد علمت ماجهلت وحفظت ماعلمت

(١) العقلة : احتباس الأعضاء عن التصرف واعتقالها عن اداء وظائفها .
(٢) جسا : صلب
(٣) النفج والبذخ : التكبر والتبذخ والذهاب بالنفس

وقال الخَلِيلُ بْنُ أَحْمَد(١) : إجعل تعليمك دراسة لعلمك واجعل مناظرة المتعلم تنبيها لك على ماليس عندك . وقال بعضهم ، وأظنه بَكْر بن عبد الله المزَنى : لاتكدوا هذه القلوب ولا تُهملوها فخير الـكلام ما كان عقب الجِمَام(٢) ومن أكره بصره عَشِى وعاودوا الفكر عند نَبَوَاتِ القلوب(٣) واشحذوها بالمذاكرة ولا تيأسوا من إصابة الحكمة إذا امْتُحِنتم ببعض الإستغلاق فإن من أدام قرع الباب ولَج . وقال الشاعر :

إذَا المَرْءُ أعْيَتْهُ المُرُوءَةُ نَاشِئاً ... فَمَطْلَبُهَا كَهْلاً عَلَيْهِ شَدِيدُ(٤)

وقال الأحنف : السُّؤدد مع السواد(٥) . وتقول الحكماء : من لم ينطق بالحكمة قبل الأربعين لم يبلغ فيها . وأنشد :

وَدُونَ النَّدَى فى كل قَلْبٍ ثَنِيَّةٌ ... لهَا مَصْعَدٌ حَزْنٌ وَمُنحَدَرٌ سَهْلُ(٦)

وَوَدَّ الفتى فى كل نَيْلٍ يُنِيلُهُ ... إذا مَا انقضى لَوْ أَنَّ نائِلَهُ جَزْلُ(٧)

وقال الهُذَلِيُّ :

وَإنَّ سِيَادَةَ الأَقْوَامِ فاعْلَمْ ... لهَا صُعَدَاءُ مَطْلَبُهَا طَوِيلُ

أتَرْجُو أَنْ تَسُودَ وَلَنْ تَعَنَّى ... وَكَيْفَ يَسُودُ ذُو الدَّعَةِ البَخِيلُ(٨)

وعن عُتْبَةَ بن عمر بن عبد الرَّحمن بن الحارث بن هِشَامٍ قال : ما رأيت

(١) هو الخليل بن احمد الفراهيدى الأزدى . كان إماماً فى اللغة والنحو والادب واخبار العرب ، وهو اول من اخترع علم العروض ووضع قواعده واحكم اساسه ، واول من صنف فى علم اللغة حين وضع كتابه « العين » ولم يتمه . وكان على تعفف وتزهد وصلاح . وله شعر قليل إلا انه حسن فى شعر العلماء . وله كتب كثيرة جارعليها المؤلفون من بعده . ولد بالبصرة سنة ١٠٠ وتوفى سنة ١٦٠هـ

(٢) عقب الجمام . بعد الاستراحة من النصب والتعب

(٣) نبوات القلوب : نفورها

(٤) ناشئاً : صغيراً

(٥) سبق ان رويت هذه العبارة لعمر بن الخطاب

(٦) الثنية : العقبة فى الجبل

(٧) جزل : كثير

(٨) تعنى : تلقى العناء فى سبيل السيادة

عقول الناس إلا قريبا بعضها من بعض ، إلا ما كان من الحجاج و إياس بن معاوية، فان عقولهما كانت ترجح على عقول الناس أبو الحسن قال : سمعت أبا الضمرى الحارثى (؟) يقول : كان الحجاج أحمق بنى مدينة واسط فى بادية النَّبَطِ ثم قال لهم : لا تدخلوها ، فلما مات دَلَفوا (١) إليها من قريب. سمعت قَحْطَبَةَ الجُشَمِىَّ يقول : كان أهل البصرة لا يشكُّون أنه لم يكن بالبصرة رجل أعقل من عُبيد الله ابن الحسن وعبيد الله بن سالم . وقال معاوية لِعَمْرو بن العاص : إن أهل العراق قد قرنوا بك رجلا (٢) طويل اللسان قصير الرأى ، فأجد الحز وطبق المفصل و إياك أن تلقاه برأيك كله ؟

باب ما قالوا فيه من الحديث الحسن الموجز المحذوف القليل الفضول

قال الشاعر :

لَهَا بَشَرٌ مِثْلُ الحَرِيرِ وَمَنْطِقٌ ... رَخِيمُ الحَوَاشِي لَاهُرَاءٌ وَلَا نَزْرُ (٣)

وقال ابنُ أحْمَرَ :

تَضَعُ الحَدِيثَ عَلَى مَوَاضِعِهِ ... وكَلَامُهَا مِنْ بَعْدِهِ نَزْرُ

وقال الآخر :

حَدِيثٌ كَطَعْمِ الشَّهْدِ حُلْوٌ صُدُورُهُ ... وَأعْجَازُهُ الخُطْبَانُ دُونَ المَحَارِمِ (٤)

وقال بَشَّارٌ :

أُنُسٌ غَرَائِرُ مَا هَمَمْنَ بِرِيبَةٍ ... كَظِبَاءِ مَكَّةَ صَيْدُهُنَّ حَرَامُ (٥)

يُحْسَبْنَ مِنْ أُنْسِ الحَدِيثِ زَوَانِيًا ... وَيَصُدُّهُنَّ عَنِ الخَنَا الإسْلَامُ

وقال بَشَّارٌ

فَنَعِمْنَا وَالعَيْنُ حَيٌّ كَمَيْتٍ ... بِحَدِيثٍ كَنَشْوَةِ الخَنْدَرِيسِ (٦)

---

(١) دلفوا : مالوا وزحفوا

(٢) يريد ابا موسى الاشعرى

(٣) الهراء : الكثير الذي لاخير فيه . والنزر : القليل

(٤) الخطبان : نبت كالهليون

(٥) أنس جمع آنسة وهي الفتاة تأنس بحديثها . غرائر جمع غريرة وهى الفتاة التى لم تستحكم بعد

(٦) العين : الرقيب . الخندريس : الخمر

وقال بشارٌ [١]

وَكأَنَّ رَفْضَ حَدِيثِهَا ... قِطَعُ الرِّيَاضِ كُسِينَ زَهْرَا
وَتَخَالُ مَا جُمِعَتْ عَلَيْهِ ... ثِيَابُهَا ذَهَبًا وَعِطْرَا
وَكأَنَّ تَحْتَ لِسَانِهَا ... هَارُوتَ يَنْفُثُ فِيهِ سِحْرَا

وقال بَشَّارُ العُقَيلِيُّ:

وَفَتَاةٍ صُبَّ الجَمَالُ عَلَيْهَا ... بِحَدِيثٍ كَلَذَّةِ النَّشْوَانِ

وقال بشار:

وَبِكْرٍ كَنُوَّارِ الرِّيَاضِ حَدِيثُهَا ... تَرُوقُ بِوَجْهٍ وَاضِحٍ وَقَوَامِ

وقال بَشَّارٌ:

وَحَدِيثٍ كَأَنَّهُ قِطَعُ الرَّوْ ... ضِ وَفِيهِ الصَّفْرَاءُ وَالحَمْرَاءُ

وقال الأخطل:

فَأَسْرَيْنَ خَمْسًا ثُمَّ أَصْبَحْنَ غُدْوَةً ... يُخَبِّرْنَ أَخْبَارًا أَلَذَّ مِنَ الخَمْرِ

أخبرنا عامر بن صالح أن عبد الله [٢] بن عمر بن عبد العزيز كتب الى امرأته وعند اخوان له:

---

(١) كان بشار يهوى امرأة من اهل البصرة فراسلها يسألها زيارته ، فوعدته بذلك ثم اخلفته ، وجعل ينتظرها ليلته حتى اصبح فلما لم تأته ارسل إليها يعاتبها فاعتذرت بمرض اصابها ، فكتب إليها بهذه الأبيات نرويها كاملة لما بينها وبين رواية الجاحظ من الخلاف:

يا ليلتي تزداد نكرا ... من حب من احببت بكرا
حوراء إن نظرت إليـك ... سقتك بالعينين خمرا
وكأنك رجع حديثها ... قطع الرياض كسين زهرا
وكأن تحت لسانها ... هاروت ينفث فيه سحرا
وتخال ماجمعت عليـه ... ثيابها ذهبا وعطرا
وكأنها برد الشرا ... ب صفا ووافق منك فطرا
جنية إنسية ... أو بين ذاك أجل أمرا
وكفاك أني لم احط ... بشكاة من أحببت خبرا
إلا مقالة زائر ... نثرت لى الاحزان نثرا
متخشعا تحت الهوى ... عشرا وتحت الموت عشرا

(٢) كان بالأصل عبد العزيز ، والصواب ما اثبتناه

إنّ عندى أبقاكِ ربُّكِ ضيفاً ... واجباً حقُّهم كهولاً ومُرْدا

طَرَقوا جارَكِ الّذى كان قِدْماً ... لا يَرى مِن كرامةِ الضيفِ بُدّاً

فلديهِ أضيافُه قد قراهم ... وهُمُ يشتهون تمراً وزُبدا

فلهذا جرى الحديثُ ولكنْ ... قد جعلنا بعضَ المزاحةِ جِدّاً

وأنشد الهُذَلىُّ :

كرُّوا الأحاديثَ عن ليلى إذا بعُدتْ ... إنَّ الأحاديث عن ليلى لتُلهينى

وقال الهُذَلىُّ فى حلاوة الحديث :

وإنَّ حديثاً منكِ لو تبذُلينَه ... جنَى النَّحلِ أو ألبانُ عوذٍ مطافلِ (١)

مطافيلُ أبكارٌ حديثٌ نِتاجُها ... تُشابُ بماءٍ مثلِ ماءِ المفاصلِ (٢)

وفى الكلام الموزون يقول عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر (٣)

فالزَمِ الصمتَ إنَّ فى الصمتِ حُكماً ... وإذا أنت قلتَ قولاً فزِنْهُ

---

(١) قال الجاحظ : العوذ جمع عائذ وهى الناقة إذا وضعت ، فاذا مشى ولدها فهى مرشح ، فاذا تبعها فهى متلية لانه يتلوها ، وهى فى هذا كله مطفل ، فان كان أول ولد لها ولدته فهى بكر »

(٢) قال الجاحظ : ماء المفاصل فيه قولان ، أحدهما أن المفاصل ما بين الجبلين واحدها مفصل ، وإنما اراد صفاء الماء لانه ينحدر عن الجبال ولا يمر بطين ولا تراب ، ويقال : مفاصل البعير وذكروا أن فيها ماء له صفاء وعذوبة»

(٣) هو عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن ابى طالب . كان من فتيان بنى هاشم وأجوادهم وشعرائهم . وزعموا أنه كان يتزندق . وكان ورد الكوفة زائرا لعبد الله بن عمر بن عبد العزيز فتزوج بها فلما وقعت العصبية قال له أهل الكوفة : اخرج فأنت احق بهذا الامر من غيرك ! واجتمعت له جماعة فلم يشعر به عبد الله بن عمر إلا وقد خرج عليه ، فلما خرج دعا إلى الرضا من آل محمد ولبس الصوف وأظهر سيما الخير فبايعه بعض أهل الكوفة ثم اشاروا عليه بقصد فارس وبلاد المشرق . ثم قاتل عبدالله بن عمر ، غير ان جنوده تفرقت عنه فانهزم ثم جمع جموعا وتغلب بها على ماه الكوفة وماه البصرة وهمذان وقم والرى وقومس واصبهان وفارس . فلما قوي امره كتب إلى الامصار يدعو إلى نفسه . ثم إن مروان بن محمد جهز إليه الجيوش فلما راى ان لاقبل له بها قصد خراسان ومعه اخوته وهناك اخذه ابو مسلم وحبسه وفي حبسه كتب رسالته المشهورة إلى ابى مسلم وهى من اجود ما كتب فى مثل حاله . ثم خافه ابو مسلم فدس إليه من سمه فى الحبس

وقال أبو ذُؤَيْب :

وَسِرْبٍ يُطَلَّى بِالْعَبِيرِ كَأَنَّهُ ... دِمَاءُ ظِبَاءٍ بِالنُّحُورِ ذَبِيحِ (١)

بَذَلْتَ لَهُنَّ الْقَوْلَ إِنَّكَ وَاجِدٌ ... لِمَا شِئْتَ مِنْ حُلْوِ الْكَلَامِ فَصِيحِ

وأنشد للحكم بن رَيْحَان من بنى عمرو بن كلاب :

يا أَجْدَلَ النَّاسِ إِنْ جَادَلْتَهُ جَدَلاً ... وَأَكْثَرَ النَّاسِ إِنْ عَاتَبْتَهُ عِلَلاَ

كَأَنَّمَا عَسَلٌ رُجْعَانُ مَنْطِقِهَا ... إِنْ كَانَ رَجْعُ الْكَلَامِ يُشْبِهُ الْعَسَلاَ

وقال القَطَامِيُّ (٢) :

وَفِي الْخُدُورِ غَمَامَاتٌ بَرَقْنَ لَنَا ... حَتَّى تَصَيَّدْنَنَا مِنْ كُلِّ مُصْطَادِ

فَهُنَّ يَنْبِذْنَ مِنْ قَوْلٍ يُصِبْنَ بِهِ ... مَوَاقِعَ الْمَاءِ مِنْ ذِي الْغُلَّةِ الصَّادِي (٣)

وقال الْأَخْطَلُ :

شُمُسٌ إِذَا خَطِلَ الْحَدِيثُ أَوَانِسٌ ... يَرْقُبْنَ كُلَّ مُجَذَّرٍ تِنْبَالِ (٤)

أُنُفٌ كَأَنَّ حَدِيثَهُنَّ تَنَادُمٌ ... بِالْكَأْسِ كُلُّ عَقِيلَةٍ مِكْسَالِ (٥)

وقال أبو الْعَمَيْثَل (٦) .

لَقِيتُ ابْنَةَ السَّهْمِيِّ زَيْنَبَ مِنْ عُفْرٍ ... وَنَحْنُ حَرَامٌ مُسْيَ عَاشِرَةِ الْعَشْرِ (٧)

---

(١) قال الجاحظ : السرب « بكسر السين » الجماعة من النساء والبقر والطير والظباء . ويقال فلان آمن السرب « بفتح السين » وخلى السرب ، اى المسالك والمذاهب . وإنما هو مثل مضروب للصدر والقلب ، وعن الاصمعي : فلان واسع السرب « بكسر السين » اى واسع الصدر بطىء التأنيب »

(٢) هو عمير بن شييم القطامى ، شاعر فحل مقل مجيد نصرانى من شعراء الاسلام فى الدولة الأموية . ويروى انه اسلم . مات سنة ١٠١ هـ

(٣) قال الجاحظ : ينبذن يلقين ، الغلة الغليل العطش الشديد ، والصادى العطشان ايضا والاسم الصدى »

(٤) قال الجاحظ : الشمس النوافر ، التنبال القصير ، والمجذر مثله »

(٥) قال الجاحظ : الأنف جمع الانفة « بكسر النون » وهي المنكرة للشىء غير راضية عنه ، العقيلة المصونة فى اهلها وعقيلة كل شىء خيرته ، والمكسال ذات الكسل عن الحركة »

(٦) كان ابو العميثل من الشعراء الفحول ذوى الفصاحة والبلاغة واللسن ، وكان فخم العبارة بدوي الشارة ، وكان فى خاصة الامير طاهر بن الحسين وولده

(٧) قال الجاحظ : تقول مايلقانا فلان إلا عن غفر اي بعد مدة »

وإِنّي وإِيّاها لَحتْمٌ مَبيتُنا ... جميعًا ومسرانا مُغِذٌّ وذُو فَتْرِ (١)

فكلّمتُها ثِنْتينِ كالثَّلجِ مِنهما ... على اللَّوحِ والأُخرى أَحرُّ من الجَمْرِ (٢)

وأنشد :

وَإِنّا لَنُجْرِي بَيْنَنا حِينَ نَلْتَقي ... حَدِيثًا لَهُ وَشْيٌ كَوَشْيِ المَطارِفِ (٣)

حَدِيثٌ كَطَعْمِ القَطْرِ فِي المَحْلِ يُشْتَفَى ... بِهِ مِنْ جَوًى فِي داخِلِ القَلْبِ لاطِفِ (٤)

وقال الشَّمّاخُ بنُ ضِرار الغطفانى (٥)

يَقَرُّ بِعَيْنِي أَنْ أُنَبَّأَ أَنَّها ... وَإِنْ لَمْ أَنَلْها أَيِّمٌ لَمْ تَزَوَّجِ (٦)

وَكُنْتُ إِذا لاقَيْتُها كانَ سِرُّنا ... وَما بَيْنَنا مِثْلَ الشِّواءِ المُلَهْوَجِ (٧)

---

(١) قال الجاحظ : ويقال أغذ السير إذا جد فيه وأسرع »

(٢) قال الجاحظ : اللوح بالفتح العطش ، يقال لاح الرجل يلوح لوحا والتاح يلتاح التياحا إذا عطش ، واللوح أيضا الذى يكتب فيه . واللوح بالضم الهواء ، يقال لا أفعل ذلك ولو نزوت في اللوح أو حتى تنزو في اللوح »

(٣) له وشى : يعنى مزخرف محسن جميل الحواشى

(٤) القطر: المطر . المحل : الشدة والجدب . جوي لاطف : خفي دقيق

(٥) كان في الأصل : التغلبي . والصواب ما اثبتناه . وهذان البيتان من قصيدة جيدة اولها .

ألا ناديا أظعان ليلى تعرج ... فقد هجن شوقا ليته لم يهيج

وفيها يقول :

كنانية إن لم أنلها فانها ... على النأى من أهل الدلال المولج

وسيطة قوم صالحين يكنها ... من الحر فى دار النوى ظل هودج

منعمة لم تلق بؤس معيشة ... ولم تغتزل يوما على عود عوسج

هضيم الحشا لا يملأ الكف خصرها ... ويملأ منها كل حجل ودملج

تميح بمسواك الأراك بنانها ... رضاب الندي عن اقحوان مفلج

وإن مر من تخشى اتقته بمعصم ... وسب بنضح الزعفران مضرج

وترفع جلبابا بعبل موشم ... بكن جبينا كان غير مشجج

تخامص عن برد الوشاح إذا مشت ... تخامص حاف الخيل فى الأمعز الوجي

يقر بعينى . البيت . وبعده :

ولو تطلب المعروف عندى رددتها ... بحاجة لا القالى ولا المتلجلج

(٦) الايم : التى لا زوج لها

(٧) الشواء : اللحم ، والملهوج : الذى لم ينضج . قال الجاحظ : الملهوج المعجل الذى لم ينتظر به النضج ، يريد انهما من خوف الرقباء كانا على عجلة »

وقال جِرانُ العَوْد (١)

فَنِلْنا سِقاطاً مِنْ حَدِيثٍ كأَنَّهُ ... جَنَى النَّحْلِ أوْ أبْكارُ كَرْمٍ يُقَطَّفُ (٢)
حَدِيثاً لَوْ أنَّ البَقْلَ يُولَى بِمِثْلِهِ ... زَهَا البَقْلُ وَاخْضَرَّ العِضَاهُ المُصَيِّفُ

وقال الكُمَيْتُ :

وَحَدِيثُهُنَّ إذا التَقَيْنَ ... تَهانُفُ البِيضِ الغَرائِرْ (٣)
فإذا ضَحِكْنَ عَنِ العِذابِ ... لَنا المُسِفَّاتِ الثَّوَاغِرْ (٤)
كانَ التَّهَلُّلُ بالتَّبَسُّمِ ... لا الفَهاهَةُ بالقَرَاقِرْ (٥)

وقال الآخر [هو ذو الرمة]

وَلَمَّا تَلاقَيْنا جَرَى مِنْ عُيُونِنا ... دُمُوعٌ كَفَفْنا غَرْبَها بالأصابِعِ
وَنِلْنا سِقاطاً مِنْ حَدِيثٍ كأنَّهُ ... جَنَى النَّحْلِ مَمْزُوجاً بِماءِ الوَقائِعِ (٦)

وقال الأشْعَثُ بنُ سُمَيٍّ :

هَلْ تَعْرِفُ المَبْدَا إلى السَّنامِ ... ناطَ بِهِ سَواحِرُ الكَلامِ
كَلامُهُنَّ بُرْءُ ذِي السَّقامِ

---

(١) هو عامر بن الحارث بن كلفة النميري شاعر فحل فصيح من شعراء العرب . وهذان البيتان من قصيدة جيدة اولها :

ذكرت الصبا فانهلت العين تذرف ... وراجعك الشوق الذي كنت تعرف

(٢) لم اجد هذا البيت فى القصيدة ولكنى رايته يقول :

ينازعننا لذا رخيما كأنه ... عوائر من قطر حداهن صيف
رقيق الحواشي لو تسمع راهب ... ببطنان قولا مثله ظل يرجف
حديث لو ان البقل يولى بنفضه ... نما البقل واخضر العضاه المصيف
هو الخلد فى الدنيا لمن يستطيعه ... وقتل لاصحاب الصبابة مذعف

اما هذا البيت فهو للفرزدق وهو هكذا

إذا هن ساقطن الحديث كأنه ... جنى النحل او ابكار كرم يقطف

ومما يلاحظ أن الجاحظ لا يدقق كثيرا فى رواية الشعر ولا يتحرى قائله وإنما كان على مايظهر يستملى من حافظته وكثيرا ما تخون الحافظة . وعندى ان اختياره فى البيت الثانى لكلمة « زها » ارق والطف فى كلمة « نما » التى فى الرواية

(٣) التهانف : التضاحك بدل

(٤) العذاب : الثنايا التى حلا ريقها وعذب . المسفات الثواغر : الثغور اللطاف

(٥) القراقر : الضحك المسموع

(٦) ماء الوقائع : ماء المنابع العذبة

وقال الراجز، ووصف عيون الظباء بالسحر، وذكر قوساً صفراء، فقال:

صَفْرَاءُ فَرْعٌ خَطَمُوهَا بِوَتَرْ ... لَأْمٍ مُمَرٍّ مِثْلِ حُلْقُومِ النُّغَرْ (١)

حَدَتْ ظُبَاتٍ أَسْهُمٍ مِثْلِ الشَّرَرْ ... فَصَرَّعَتْهُنَّ بِأَكْنَافِ الْحُفَرْ (٢)

حُورَ الْعُيُونِ بَابِلِيَّاتِ النَّظَرْ ... يَحْسَبُهَا النَّاظِرُ مِنْ وَحْشِ الْبَشَرْ (٣)

باب آخر من الأسجاع فى الكلام

قال عُمَرُ بْنُ ذَرٍّ: الله المستعان على ألسنة تصف وقلوب تعرف وأعمال تخلف. ولما مدح عُتَيْبَةُ بْنُ مِرْدَاس عبد الله بن عباس قال: لا أعطى من يعصى الرحمن ويطيع الشيطان ويقول البهتان. وفى الحديث المأثور: «يقول العبدُ: مالى مالى؟؟ وإنما لك من مالك ما أكلت فأفنيت أو أعطيت فأمضيت أو لَبِست فأبليت»

وقال النَّمِرُ بْنُ تَوْلَبٍ:

أَعَاذِلُ إِنْ يُصْبِحْ صَدَاىَ بِقَفْرَةٍ ... بَعِيدًا فَآتِى صَاحِبِى وَقَرِيبِى (٤)

تَرَىْ أَنَّ مَا أَبْقَيْتُ لَمْ أَكُ رَبَّهُ ... وَأَنَّ الَّذِى أَنْفَقْتُ كَانَ نَصِيبِى

ووصف أعرابى رجلا فقال: صغير القدر قصيرُ الشِّبْرِ ضيق الصدر لئيم النَّجْرِ (٥) عظيم الكِبْر كثير الفخر.

ووصف بعض الخطباء رجلا فقال: ما رأيت أضربَ لِمَثَلٍ ولا أركبَ لجمل ولا أصعدَ فى قُلَلٍ (٦) منه. وسأل بعض الأمراء رسولا قدم من جهة السند: كيف

(١) صفراء فرع: قوس غير مشقوقه. خطموها بوتر: ربطوا طرفيها بوتر. لأم ممر: يعنى ان الوتر مزدوج قد أمر فتله. والنغر: البلبل وقد شبه الوتر بحلقوم البلبل

(٢) الظبات: نصول السهام

(٣) حور العين: واسعو الحدقات. بابليات النظر: ينظرن بفتور كأنه السحر. ويروى: من وحش البقر

(٤) قال الجاحظ: الصدى طائر يخرج من قبر الميت فينعى إليه ضعف وليه وعجزه: وهذا كانت العرب تقوله فى الجاهلية، وهو هنا مستعار، اي إن اصبحت انا»

(٥) قال الجاحظ: الشبر القامة. والنجر الطباع»

(٦) القلل: هي رؤس الجبال

رأيتم البلاد ؟ فقال : ماؤها وَشَل [١] ولِصُّها بَطَل وتمرها دَقَل [٢] ، إن كثر الجند بها جاعوا ، وإن قلوا بها ضاعوا . وقيل لصَعْصَعة بن معاوية : من أين أقبلت ؟ قال : من الفجّ العميق ؟ [٣] قيل : فأين تريد ؟ قال : البيت العتيق [٤] . قيل : هل من مَطر ؟ قال : نعم ، حتى عفا الأثر وأنضر الشجر ودَهْدَه الحجر [٥] . واستجار عونُ بن عبد الله بن عتبة بن مسعود بمحمد بن مَرْوان بنصيبين وتزوج بها امرأة ، فقال محمد : كيف ترى نصيبين ؟ قال : كثيرة العقارب قليلة الأقارب . !!

يريد بقوله : قليلة ، كقول القائل : فلان قليل الحياء ، ليس يريد أن هنالك حياء وإن قل . يضعون قليلا فى موضع ليس .

وَوَلِيَ عَلاء الكلابي عملا خسيساً بعد أن كان على عمل جسيم ، فقال : أَلْعَنوق [٦] بعد النوق !؟ قال : ونظر رجل من العباد إلى باب بعض الملوك فقال : باب جديد وموت عتيد ونَزْع شديد وسفر بعيد . وقيل لبعض العرب : أى شيء تَمَنّى وأي شيء أحب إليك ؟ قال : لواء منشور والجلوس على السرير والسلام عليك أيها الأمير . وقيل لآخر وصلى ركعتين وأطال فيهما وقد كان أمر بقتله : أجَزعت من الموت ؟ فقال : إن أجزع فقد أرى كفناً منشوراً وسيفاً مشهوراً وقبراً محفوراً [٧] وقال عبد الملك بن مَرْوان لأعرابى : ما أطيب الطعام ؟ قال : بَكْرَة

---

(١) الوشل : القليل الآسن

(٢) الدقل : الردئ

(٣) الفج العميق : المكان البعيد

(٤) البيت العتيق : الحرم المكى

(٥) دهده الحجر : حركه واكتسحه

(٦) العنوق : الاناث من صغار المعزى

(٧) قائل هذا هو حجر بن عدى الكندى كان من أماثل الصحابة وكان ينكر على بنى أمية سب على على المنبر وكان بيته فى الكوفة مثابة للشيعة فكانوا يجاهرون بسب معاوية فأخذه زياد وهو أمير العراق فحبسه مع اثنى عشر رجلا من خاصة اصحابه ثم كتب إلى معاوية فى شأنه وبعث الكتاب وحجرا واصحابه إليه فلما قربوا من دمشق حبسوا في مكان وقتل منهم فيه ستة منهم حجر واطلق سبيل الباقين . وبعده : ولست ادري ايؤدبنى إلى جنة ام إلى نار

سَنِمَةً مُعْتَبِطة غير ضَمِنه فى قدور رَذِمه بشفار خَذِمه فى غداة شَبِمه ..!؟
فقال عبد الملك : وأبيك لقد أطبت .. !! (١)

وقالوا : لا تغتر بمناصحة الأمير إذا غشك الوزير : وقالوا: مَن صادَق الكتاب أغنوه ومن عاداهم أفقروه . وقالوا : إجعل قول الكذاب ريحاً (٢) تكن مستريحا

وقيل لِعَبْدِ الصَّمَدِ بْنِ الْفَضْلِ بْنِ عِيْسَى الرَّقاشى : لم تؤثر السجع على المنثور وتلزم نفسك القوافى و إقامة الوزن ؟ قال : إن كلامى لو كنت لا آمل فيه إلا سماع الشاهد لقَلَّ خلافى عليك ، ولكنى أريد الغائب والحاضر والراهن والغابر، فالحفظ إليه أسرع والآذان لسماعه أنشط وهو أحق بالتقييد و بقلة التفلت . وما تكلمت به العرب من جيد المنثور أكثر مما تكلمت به من جيد الموزون فلم يحفظ من المنثور عُشره ولا ضاع من الموزون عشره . قالوا : فقد قيل للذى قال : يا رسول الله ، أرَأيت من لا شرب ولا أكل ولا صاح فاستهل ، أليس مثل ذلك يِطَلّ؟ (٣) فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أَسجعٌ كسجع الجاهلية » ؟ قال عبد الصمد : لو أن هذا المتكلم لم يرد إلا الاقامة لهذا الوزن لما كان عليه بأس ، ولكنه عسى أن يكون أراد إبطالا لحق فتشادق فى كلامه .

وقال غير عبد الصمد : وجدنا الشعر من القصيد والرجز قد سمعه رسول الله صلى الله عليه وسلم واستحسنه وأمر به شعراءه ، وعامة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قالوا شعراً قليلا كان ذلك أم كثيراً ، وسمعوا واستنشدوا ، فالسجع والمزدوج دون القصيد والرجز ، فكيف يحل ما هو أكثر و يحرم ما هو أقل . !؟
وقال غيرهما : إذا لم يطل ذلك ولم تكن القوافى مطلوبة مجتلبة أو ملتمسة متكلَّفة وكان ذلك كقول الأعرابى لعامل الماء : حَلبت رِكابى (٤) وحرقت ثيابى وضربت

(١) البكرة السنمة : الناقة ذات السنام الجيد . معتبطة غير ضمنة : نحرت لغير علة ولا زمانة ولا ضعف . فى قدور رذمة : فى قصاع ممتلئة . بشفار خذمة : بسكاكين حادة قاطعة . فى غداة شبمة : فى صبيحة باردة لينة . قال الجاحظ : الشبم البارد »
(٢) ريحا : يريد به الضراط
(٣) يريد السؤال عن المولود المخدج الذى نزل سقطا بلا روح ولا نفس هل له دية أم دمه مطلول لادية له ولا فداء ! والظاهر ان امه كانت اجهضت
(٤) قال الجاحظ : الركاب ماركب من الابل»

صحابى ومنعت إبلى من الماء والكلأ ؟ ! قال : أوَسجعٌ أيضا ؟ فقال الأعرابى : فكيف أقول ؟ ؟

لأنه لو قال : حلبت إبلى أو جمالى أو نوقى أو بُعرانى أو صِرمتى لكان لم يعبر عن حق معناه ، وإنما حُلبت ركابه ، فكيف يدع الركاب إلى غير الركاب ؟ وكذا قوله : حرقت ثيابى وضربت صحابى ، لأن الكلام إذا قل وقع وقوعاً لا يجوز تغييره ، وإذا طال وجدت فى القوافى ما يكون مجتلباً ومطلوباً مستكرها وفى الحديث المأثور — ويدخل على من طعن فى قوله تعالى « تَبَّتْ يدَا أبِى لَهَب » وزعم أنه شعر لأنه فى تقدير : «ستفعلن مفاعلن — وطعن فى قوله عليه السلام « هَلْ أنتِ إلاَّ إصْبَعٌ دَمِيتِ وَفِى سَبيل الله مَا لَقِيتِ »[1] فيقال له : إعلم أنك لو اعترضت أحاديث الناس وخطبهم ورسائلهم لوجدت فيها مثل : مستفعلن فاعلن كثيراً ، وليس أحد فى الأرض يجعل ذلك المقدار شعراً ، ولو أن رجلا من الباعة صاح : مَنْ يشترى باذِنْجان ؟ لقد كان تكلم بكلام فى وزن : مستفعلن مَفعولان ! فكيف يكون هذا شعرا وصاحبه لم يقصد إلى الشعر ؟ ومثل هذا المقدار من الوزن قد يتهيأ فى جميع الكلام . وإذا جاء المقدار الذى يعلم أنه من نتاج الشعر والمعرفة بالأوزان والقصد إليها كان ذلك شعرا . وهذا قريب ، والجواب فيه سهل بحمد الله . وسمعت غلاماً لصديق لى وكان قد سَقِىَ بطنُه[2] يقول لغلمان مولاه : إذهبوا بى إلى الطبيب وقولوا قد اكتوى . وهذا الكلام يخرج وزنه : فاعلاتن مفاعلن ، مرتين . وقد علمت أن هذا الغلام لم يخطر بباله قط أن يقول بيت شعر أبدا ، ومثل هذا كثير لو تتبعته فى كلام حاشيتك وغلمانك لوجدته .

وكان الذى كرّه الأسجاع بعينها — وإن كانت دون الشعر فى التكلف والصنعة — أن كهان العرب الذين كان أكثر أهل الجاهلية يتحاكمون إليهم وكانوا يدعون الكهانة وأن مع كل واحد منهم رَئِيّاً من الجن مثل : حَازِى جُهَيْنَةَ ، ومثل شِقٍّ ،

(١) وقد زعم بعضهم أن هذا بيت من الشعر قاله النبي إنشادا لا إنشاء .

(٢) سقى بطنه : يعنى أصابه مرض بالاستسقاء

وسَطِيح ، وعُزى سلمة ، وأشباههم كانوا يتكهنون ويحكمون بالاسجاع، كقوله : والأرض والسماء ، والعقاب والصقعاء ، واقعة ببقعاء ، لقد نفر المجد بنى العشراء ، للمجد والسناء . وهذا الباب كثير . ألا ترى أن ضَمْرَةَ بْنَ ضَمْرَةَ وَهرِمَ بنَ قُطْبَةَ والأقرع بن حابسٍ ونُفَيْلَ بن عبدالعُزَّى كانوا يحكمون و ينفرون بالأسجاع؟ وكذلك ربيعةُ بْنُ حُذارٍ ، فوقع النهى فى ذلك لقرب عهدهم بالجاهلية ولبقيتها فيهم وفى صدور كثير منهم ؟ فلما زالت العلة زال التحريم . وقد كان الخطباء تتكلم عند الخلفاء الراشدين فتكون فى تلك الخطب أسجاع كثيرة فلم ينهوا منهم أحدا .

وكان الفضلُ بنُ عيسى الرَّقاشى سجاعاً فى قصصه ، وكان عمرو بن عُبيد وهِشَام بن حَسان وَأبَانُ بن أبى عَيَّاش يأتون مجلسه . قال له داود بن أبى هند : لولا أنك تفسر القرآن برأيك لأتيناك فى مجلسك ! قال : فهل ترانى أحرم حلالا وأحل حراما ..!؟ وانما كان يتلو الآية التى فيها ذكر النار والجنة والحشر والموت وأشباه ذلك .

وقد كان عبدُ الصمد بن الفضل وأبوالعباس القاسم بن يحيى ، وعامة قُصاص البصرة ، وهم أخطب من الخطباء ، يجلس إليهم عامة الفقهاء .

وقد كان النهى ظاهراً عن مرثية أُميةَ بنِ أبى الصَّلْتِ لقتلى أهل بدر (١) كقوله :

هَلاَّ بَكَيْتَ عَلَى الكِرَامِ   بَنِى الكِرَامِ أُولِى المَمَادِحْ

---

(١) قلت : فلما زالت العلة زال النهى . والدليل على ذلك ان ابن اسحق صاحب السير والمغازى المتوفى ببغداد سنة ١٥١ هـ قد روى هذه المرثية وغيرها من المراثى ولم ير فى ذلك مانعا . ورواية ابن اسحق هكذا

الا بكيت على الكرا   م بنى الكرام اولى الممادح
كبكا الحمام على فرو   ع الايك فى الغصن الجوانح
يبكين حرى مستكنـات   يرحن مع الروائح
امثالهن الباكيا   ت المعولات من النوائح
من يبكهم يبكى على   حزن ويصدق كل مادح

وهى طويلة وثقيلة

وروى ناس شبيها بذلك فى هجاء الأعشى[1] لعلقمةَ بنِ عَلاثةَ . فلما زالت العلة زال النهى .

وقال أبو وائلةَ بنِ خليفة فى عبدِ الملكِ بنِ المُهلَّبِ :

لقدْ صَبرَتْ لِلذُّلِّ أعْوادُ مِنْبَرٍ تقومُ عَليْهـا فى يدَيْكَ قَضِيبُ
بكَى المِنـبرُ الغَرْبىُّ إذْ قُمْتَ فوْقهُ فكَادَتْ مَسامِيرُ الحديدِ تذُوبُ
رَأيْتُكَ لمَّا شِبْتَ أدْركَكَ الذِى يُصِيبُ سَراةَ الأزْدِ حِينَ تَشِيبُ
سَفاهَةُ أحْلامٍ وَبُخْلٌ بِنائِلٍ وَفِيكَ لِمَنْ عابَ المَزُونَ عُيُوبُ

وخطب الوليدُ بنُ عبد الملك فقال: إن أمير المؤمنين عبدَ الملك كان يقول: إن الحجاجَ جِلدةُ ما بين عينى ، ألاَ وانه جلدةُ وجهى كله . وخطب الوليدُ بعد وفاة الحجاج وتوليته يزيدَ بنِ أبى مُسلم فقال : إنما مثلى ومثل يزيد بن أبى مُسلم بعد الحجاج كمن سقط منه درْهم فأصاب ديناراً .

شَبيبُ بنُ شَيْبةَ قال: حدثنى خالدُ بنُ صفوان قال : خطبنا يزيدُ بنُ المُهلَّبِ بواسطَ فقال: إنى قد أسمع قول الرعاع : قد جاء مَسْلَمةُ ، وقد جاء العباسُ ، وقد جاء أهل الشام ؛ وما أهل الشام الا تسعة أسياف : سبعةٌ منها معى واثنان علىَّ ، وأما مَسلَمة فجرادةٌ صفراء ، وأما العباس فنسطوس بن نسطوس[2] ، أتاكم فى برابرة وصقالبة وجَرامِقة وجَراجِمة وأقباط وأنباط وأخلاط من الناس ، إنما أقبل اليكم

(١) كان الأعشى اتى الاسود العنسى وامتدحه فأعطاه عطاء جزيلا فلما مر ببلاد بنى عامر خافهم على ما معه من المال فأتى علقمة بن علاثة مستجيرا به فقال قد اجرتك من الجن والانس ، قال : ومن الموت ؟ قال : لا. فأتى عامر بن الطفيل فأجاره حتى من الموت ، فقال الاعشى: وكيف تجيرنى من الموت ؟ قال : إن مت وانت فى جوارى بعثت إلى اهلك الدية ! فمدح عامرا وهجا علقمة ، ومما قاله فيه:

علقم ما انت إلى عامر الناقض الاوتار والواتر
إن تسد الحوص فلم تعدهم وعامر ساد بنى عامر

ولم يرج علقمة بشىء اشد عليه من قوله :

تبيتون فى المشتى ملاء بطونكم وجاراتكم غرثى يبتن خمائصا

(٢) العباس بن الوليد بن عبد الملك كان من أشجع الناس وكان يقال له « فارس بنى امية » اما قول يزيد أنه نسطوس بن نسطوس ، فانه يعرض بعربيته ويصفه بأنه رومي ، لان أم العباس كانت رومية نصرانية

الفلاحون والأوباش كأشلاء اللحم ، والله مالقوا أقواما قط كحدِّكم وحديدكم وعدكم وعديدكم ، أعيرونى سواعدكم ساعة من نهار تصفقون بها طراطيمهم ، فإنما هى غَدوة أو رَوحة حتى يحكم الله بيننا و بين القوم الفاسقين .

ومدح بشار هزارَ مرْدَ العتكى (١) بالخطب وركوبه المنابر، بل رثاه وأبنَّهُ فقال:

مَا بالُ عَيْنِكَ دَمْعُها مَسْكُوبُ ... سَهِرَتْ فأَنْتَ بِنَوْمِها مَحْرُوبُ (٢)

وكذاكَ مَنْ صَحِبَ الحَوادِثَ لَمْ يَزَلْ ... تَأْتِى عَلَيْهِ سَلامَةٌ وَنُكُوبُ (٣)

يا أَرْضُ وَيْحَكِ أَكْرِمِيهِ فإنَّهُ ... لَمْ يَبْقَ لِلْعَتَكِيِّ فِيكِ ضَرِيبُ (٤)

أَبْهَى على خَشَبِ المَنابِرِ قائِمًا ... يَوْمًا وَأَحْزَمُ إِذْ تَشُبُّ حُرُوبُ

خطباء البصرة

قال : كان سَوَّارُ بنُ عبد الله أول تميمى خطب على منبر البصرة، ثم خطب عبيد الله بن الحسن . وولى منبر البصرة أربعة من القضاة ، فكانوا قضاةً أمراء : بلال (٥) ، وسَوَّار ، وعُبيد الله ، وأحمد بن رَباح . وكان بلالٌ قاضيا بن قاض ابن قاض ، وقال رؤبة :

فأنتَ يا ابْنَ القاضِيينِ قاضِ ... مُعتزِمٌ على الطَّرِيقِ ماضِ .

قال أبو الحسن المدائنى : كان عُبيد الله بن الحسن حيث وفد على المهدى معزيا أعد له كلاما ، فبلغه أن الناس أعجبهم كلامه فقال لشبيب بن شيبة : إنى والله ما ألتفت إلى هؤلاء ، ولكن سل لى عنها أبا عُبيد الله الكاتب ؟ فسأله فقال :

(١) هو عمر بن حفص بن عثمان بن قبيصة بن ابي صفرة الازدي العتكي . وهزار مرد معناه « الف رجل » كان شجاعا بطلا وفارسا مغوارا وخطيبا بليغا ، وكان جوادا سخيا كثير البذل والعطاء . وستأتى بقية هذه الابيات فى الجزء الثانى إن شاء الله

(٢) محروب : مسلوب

(٣) النكوب :النكبات

(٤) الضريب : المثيل والنظير

(٥) هو بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الاشعرى ، كان قاضيا واميرا ، وكان ابو بردة واسمه عامر بن عبد الله قاضيا توفى سنة ١٠٣ أعنى أبا بردة

ما أحسن ما تكلم به ؟ على أنه أخذ مواعظ الحسن ورسائل غَيْلَانَ (١) فلقح بينهما كلاما. فأخبره بذلك شبيب فقال عبيد الله : لا والله أن أخطأ حرفا واحداً.

وكان محمد بن سليمان له خطبة لا يغيرها ، وكان يقول : إن الله وملائكتُهُ فكان يرفع الملائكة ، فقيل له [في] ذلك فقال: خَرِّجُوا لها وجها! ولم يكن يدع الرفع.

قال : وصلى بنا خُزَيْمَةُ يوم النحر فخطب فلم يسمع من كلامه إلا ذكر أمير المؤمنين الرشيد وولي عهده محمد . قال : وكان زُهَيْرُ بْنُ محمد الضَّبِّيُّ يدار به إذا قرع المنبر . وقال الشاعر .

أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِلَيْكَ نَشْكُو ... وَإِنْ كُنَّا نَقُومُ بِغَيْرِ عُذْرِ
غَفَرْتَ ذُنُوبَنَا وَعَفَوْتَ عَنَّا ... وَلَيْسَتْ مِنْكَ أَنْ تَعْفُو بِبِكْرِ (٢)
فَإِنَّ الْمِنْبَرَ الْبَصْرِيَّ يَشْكُو ... عَلَى الْعِلَّاتِ إِسْحَقَ بْنَ شِمْرِ
أَضَبُّ عَلَى خَشَبَاتِ مُلْكٍ ... كَمَرْكَبِ ثَعْلَبٍ ظَهْرَ الْهِزَبْرِ (٣)

وقال بعض شعراء العسكر يهجو رجلا من أهل العسكر :

مَازِلْتَ تَرْكَبُ كُلَّ شَيْءٍ قَائِمٍ ... حَتَّى اجْتَرَأْتَ عَلَى رُكُوبِ الْمِنْبَرِ
مَازَالَ مِنْبَرُكَ الَّذِي دَنَّسْتَهُ ... بِالْأَمْسِ مِنْكَ كَحَائِضٍ لَمْ تَطْهُرِ

وقال آخر :

فَمَا مِنْبَرٌ دَنَّسْتَهُ بِاسْتِ أَفْكَلٍ ... بِزَاكٍ وَلَوْ طَهَّرْتَهُ بِابْنِ طَاهِرِ (٤)

باب السجاع

عن الشعبي قال : قال عيسى بن مريم عليه السلام « ألبر ثلاثة : ألمنطق

(١) هو غيلان الدمشقي القبطي ، كان هو ومعبد الجهني اول من تكلم في القدر ودعا إليه ، وكان معبد قبله ، فهما رأسا القدرية على الاطلاق، ولما ظهرت نحلته اخذه هشام بن عبد الملك وصلبه بباب دمشق . وكان كاتبا بليغا ومتكلما فصيحا وخطيبا مفوها

(٢) يعني ليست اول مراتك التي تعفو فيها عن الذنوب

(٣) الهزبر : الاسد

(٤) الافكل : الرعديد الجبان

والمنظر والصمت . فمن كان منطقه فى غير ذكر فقد لغا ، ومن كان نظره فى غير اعتبار فقد سها ، ومن كان صمته فى غير فكر فقد لها » وقال على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه : أفضل العبادة الصمت وانتظار الفرج . وقال يَزِيدُ بْنُ الْمُهَلَّبَ وهو فى الحبس : والهفاه على طِلْبَةٍ بمائة ألف وفَرَجٍ فى جبهة الأسد ؟ ! وقال عمر رضى الله تعالى عنه : استغزروا الدموع بالتذكر .

وقال عيسى بن عمر : سمعنا الحسن يقول : إقْدَعُوا هذه النفوس فإنها طُلَعَةٌ واعصوها فإنكم إن أطعتموها تنزع بكم إلى شر غاية ، وحادثوها بالذكر فإنها سريعة الدثور [١] قال : فحدثت بهذا الحديث أبا عَمْرِو بْنِ الْعَلَاءِ فتعجب من كلامه . وقال الشاعر :

سَمِعْنَا بِهِيجاً أَوْجَفَتْ فَذَكَرْتُهُ وَلَا يَبْعَثُ الأَحْزَانَ مِثْلُ التَّذَكُّرِ [٢]

ومن الأسجاع قول أيوب بن القِرِّيَّةِ ، وقد كان دُعى لكلام فاحتبس القول عليه فقال : قد طال السمر وسقط القمر واشتد المطر ، فماذا ينتظر ؟ فأجابه فتى من عبد القَيْسِ فقال : قد طال الأرق وسقط الشفق وكثر اللَّثَقُ [٣] ، فلينطق من نطق . وقال أعرابى لرجل : نحن والله آكل منكم للمأدوم وأكسب منكم للمعدوم وأعطى منكم للمحروم . ووصف أعرابى رجلا فقال : إنَّ رِفدَكَ لنجيح وإن خيرك لسريح ، وإن منعك لمريح [٤] .

وسئل أعرابى فقيل له : ما أشد البرد ؟ فقال . ريح جِرْبِياء ، فى ظَلٍّ عماء فى غِب سماء . [٥] ودعا أعرابى فقال : اللهم إنى أسألك البقاء والنماء وطيب

(١) قال الجاحظ : إقدعوا كفوا ، طلعة اي تطلع إلى كل شيء ، حادثوا اي اجلوا واشحذوا ، والدثور الدروس ، يقال دثر اثر فلان اى ذهب ، كما يقال درس وعفا »

(٢) قال الجاحظ : الوجيف السير الشديد ، يقال وجف الفرس والبعير واوجفته ، ومثله الايضاع وهو الاسراع ، اراد بهيجاء اقبلت مسرعة »

(٣) قال الجاحظ : اللثق الندى الوحل »

(٤) قال الجاحظ : سريح عجل ، مريح من كد الطلب »

(٥) الريح الجربياء : هي التى تهب بين الصبا والجنوب ، والظل العماء : هو البخار المالىء للأفق حتى لا تكاد ترى السماء من خلفه ، وغب سماء : بعد مطر

الإناء[١] وحط الأعداء، ورفع الأولياء. وقال إبراهيم النَّخَعى لمنصور بن المعتمر:[٢] سل مسألة الحمق واحفظ حفظ الكَيْسى. ووصفت عمة حاجز اللص[٣] حاجزا ففضلته وقالت: كان حاجز لا يشبع ليلة يُضاف ولا ينام ليلة يخاف. ووصف بعضهم فرسا فقال: أقبل بزُبْرَة الأسد[٤] وأدبر بعجز الذئب.

ولما اجتمع الناس وقامت الخطباء لبيعة يزيد وأظهر قوم الكراهة قام رجل يقال له يزيد بن المُقَنَّع فاخترط من سيفه شبرا ثم قال: هذا أمير المؤمنين — وأشار بيده إلى معاوية — فإن مات فهذا — وأشار بيده إلى يزيد — فمن أبى فهذا — وأشار بيده إلى سيفه. فقال معاوية: أنت سيد الخطباء..؟!

ولما قامت خطباء نزار عند معاوية فذهبت فى الخطب كل مذهب قام صَبِرَة ابن شَيْمان[٥] فقال: يا أمير المؤمنين، إنَّا حى فعال ولسنا حى مقال، ونحن نبلغ بفعالنا أكثر من مقال غيرنا[٦]

ولما وفد الأحنف فى وجوه أهل البصرة إلى عبد الله بن الزُّبير تكلم أبو حاضر الأُسَيْدِى — وكان خطيبا جميلا — فقال له عبد الله بن الزُّبير: أسكت فوالله لوددت أن لى بكل عشرة من أهل العراق رجلا من أهل الشام، صرف الدينار بالدرهم. قال: يا أمير المؤمنين، إن لنا ولك مثلا أفتأذن فى ذكره؟ قال: نعم. قال: مثلنا ومثلك ومثل أهل الشام قول الأعشى حيث يقول:

عُلِّقْتُها عَرَضاً وعُلِّقَتْ رَجُلاً غَيْرِى وعُلِّقَ أُخْرَى غَيْرَها الرَّجُلُ

(١) قال الجاحظ: الإناء الرزق.

(٢) هو منصور بن المعتمر السلمى يكنى أبا عتاب، كان أصله من الحبشة، وكان من خيار التابعين متزهدا متنسكا صواما بكاء، ولاه يزيد بن عمر بن هبيرة القضاء فلم يقض فى شىء فعزله. مات سنة ١٣٢ هـ

(٣) هو حاجز بن عوف الازدي شاعر مقل صعلوك. وكان من العدائين الذين يسبقون الخيل عدوا على أقدامهم. وكان كثير الغارة علي القبائل والأحياء. لقد كان من شياطين العرب

(٤) قال الجاحظ: الزبرة مغرز العنق، ويقال الشعر الذى بين كتفيه، ووصفه بأنه محطوط الكفل.

(٥) هو صبرة بن شيمان الحدانى، كان من خيار التابعين وكان فى صف عائشة يوم الجمل

(٦) ويروى أنه قال: إنا حي فعال ولسنا بحى مقال، ونحن بأدنى فعالنا عند أحسن مقالهم.

أحبكَ أهلُ العراق وأحببت أهلَ الشامِ وأحب أهلُ الشام عبد الملك ابن مرْوان .

عن حُميد بن أبي البَختري قال: ذكر معاويةُ لابن الزبير بيعةَ يزيد فقال ابن الزبير: إني أناديك ولا أناجيك، إن أخاك من صدقك، فانظر قبل أن تُقدِم وتفكر قبل أن تندم، فان النظر قبل التقدم، والتفكر قبل التندم.!؟ فضحك معاوية ثم قال: تعلمت أبا بكر السجاعة عند الكبر؟ إن في دون ماسجعت به على أخيك ما يكفيك! ثم أخذ بيده فأجلسه معه على السرير.

أخبرنا ثُمامة بن أشْرَسٍ قال: لما صرفت اليمانية — من أهل مُزَّة[1] — الماء عن أهل دمشق ووجهوه إلى الصحارى كتب إليهم أبو الهَيْذَام:[2] الى بني استها أهل مُزَّة، لَيمَسَيِنَّنِي الماء أو لَتُصَبِّحَنَّكم الخيل؟ قال: فوافاهم الماء قبل أن يُعتموا.[3] فقال أبو الهَيْذام: ألصدق يُنْبي عنكَ لا الوَعيدُ.

وحدثني ثمامة عمن قدم عليه من أهل الشام قال: لما بايع الناس يزيد بن الوليد وأتاه الخبر عن مروان بن محمد ببعض التلكُّؤ والتحبُّس كتب اليه:

بسم الله الرحمن الرحيم. من عبد الله أمير المؤمنين يزيد بن الوليد إلى مروان ابن محمد، أما بعد فإني أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى؟ فإذا أتاك كتابي هذا فاعتمد على أيهما شئت والسلام.

---

(١) هي مزة كلب قرية من أرباض دمشق

(٢) هو أبو الهيذام بن عامر الخريمي المرى، كان من فرسان العرب المعروفين وشجعانهم الموصوفين، وكان جواد سمحا سخيا. وكان من قواد الرشيد على بعض جيوشه، ولما مات رثاه أبو يعقوب الخريمي الشاعر بهذه الأبيات الجيدة وهى قوله:

تذكرني شمس الضحى نور وجهه ... ولى لحظات نحوها حين تطلع
واعددته ذخرا لكل ملمة ... وسهم المنايا بالذخائر مولع
وإني وإن أظهرت فى جلادة ... وصانعت أعدائى عليه لموجع
ملكت دموع العين حتى رددتها ... إلى ناظرى وأعين القلب تدمع
ولو شئت أن أبكي دما لبكيته ... عليه ولكن ساحة الصبر أوسع

(٣) قال الجاحظ: أي يصيرون فى وقت عتمة الليل وعتمته ظلمته، يقال عتم الليل يعتم إذا اظلم، وأعتم الناس صاروا فى وقت العتمة.

وهاهنا مذاهب تدل على أصالة الرأى ، ومذاهب تدل على تمام النفس ، وعلى الصلاح والكمال ، لا أرى كثيرا من الناس يقفون عليها .

واستعمل عبدُ الملك بنُ مروان نافعَ بنَ عَلقمةَ بنِ نضلة بن صفوان بن مُحرث خال مروان على مكة فخطب ذات يوم ـ وأبانُ بن عثمان بحذاء المنبر ـ فشتم طَلْحَةَ والزُّبَيْرَ ، فلما نزل قال لأبانٍ : أرضيتك من المُدْهِنَيْنِ فى أمير المؤمنين !؟ (١) قال : لا والله ، ولكن سُؤْتنى ، حسبى أن يكونا شركاء فى أمره . فما أدرى أيهما أحسن : كلام أبان بن عثمان هذا أم إسحق بن عيسى ؟ فإنه قال: أُعيذ علياً بالله أن يكون قتل عُثمان ، وأعيذ عثمان بالله أن يقتله على . فمدح علياً بكلام سديد غير نافر ومقبول غير وحشى ، وذهب إلى معنى الحديث فى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أَشَدُّ أَهْلِ النَّارِ عَذَاباً مَنْ قَتَلَ نَبِيّاً أَوْ قَتَلَهُ نَبِيٌّ » يقول : لايتفق أن يقتله نبى بنفسه إلا وهو أشد خلق الله معاندة وأجرأهم على معصيته . فيقول: لا يجوز أن يقتله علىّ إلا وهو مستحق للقتل .

خطبة من خطب النبى صلى الله عليه وسلم

خطب النبى صلى الله عليه وسلم بعشر كلمات . حمد الله وأثنى عليه ثم قال : « أيها الناس ، إن لكم مَعَالِمَ فانتهوا إلى معالمكم ، وإن لكم نهاية فانتهوا إلى نهايتكم . إنّ المؤمن بين مخافتين : بين عاجل قد مَضى لايدرى ما الله صانعٌ به ، و بين آجل قد بَقِىَ لايدرى ما الله قاض فيه ، فليأخذ العبدمن نفسه لنفسه ، ومن دنياه لآخرته ، ومن الشَّبيبة قبل الكِبْرَةِ ،ومن الحياة قبل الموت .فوالذى نفس محمد بيده ما بعد الموت من مُستعتَب ، ولا بعد الدنيا من دار ، إلا الجنة أو النار » .

أبو الحسن المدائنى قال : تكلم عمَّارُ بْنُ ياسِرٍ يوماً فأوجز فقيل له :لوزدتنا ؟

(١) المدهنان : المصانعان . ويريد بأمير المؤمنين : عثمان بن عفان

قال : أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم باطالة الصلاة وقَصر الخطبة .

وعن شيخ من الأنصار من بنى زُرَيْقٍ أن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه لما أتى بسيف النُّعْمَانِ بن الْمُنْذِرِ دعا جُبَيْرَ بن مُطْعِم فسلحه إياه ثم قال : ياجُبير ، ممن كان النعمان ؟ قال : من أَشْلاَءِ قَنَصِ بْن مَعدٍ . (١) وكان جُبير أنسب العرب ، وكان أخذ النسب عن أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه،وعن جُبير أخذ سَعيدُ بنُ الْمُسَيَّب . ورُوى عن بعض وُلد طلحة قال : قلت لسَعيد ابن المسيب : عَلمني النسب ؟ قال : أنت رجل تريد أن تُسابّ الناس .؟ وثلاثة فى نسق واحد كانوا أصحاب نسب : عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ، أخذ ذلك عن الخطاب ، وكان كثيراً ما يقول: سمعت ذلك عن الخطاب ، ولم أسمع ذلك من الخطاب . والْخَطَّابُ بنُ نُفَيْلٍ ،ونُفَيْلُ بنُ عبدِ العُزّى،تنافر إليه عبدُ المطلب وحربُ بن أمية فنفرَ عبدَ المطلب . أى حكم لعبد المطلب . والمنافرة المحاكمة .

والنُّسَّاب أربعة : دَغْفَلُ بْنُ حَنظَلَةَ ، وَعُمَيْرُ بن ضَمْضَم (٢) وَصُبْحُ الْحَنفِى (٣)، وَابْنُ الْكيِّسِ النَّمَرِىُّ . قال الاصمعى : دَغْفَلُ بْنُ حَنْظَلَةَ ،وَالنَّسَّابَةُ الْبَكْرِىُّ وكان نصرانياً ، ولم يُسمه .

خطب سليمان بن عبد الملك فقال : إتخذوا كتاب الله إماماً وارضوا به حكماً واجعلوه قائداً ، فإنه ناسخ لما قبله ، ولم ينسخه كتاب بعده . وأول كلام بارع سمعوه منه : ألكلام فيما يَعنيك خير من السكوت عما يضرك ، والسكوت عما لا يعنيك خير من الكلام فيما يضرك .

خَلاَّدُ بْنُ يَزِيدَ الأَرْقَطُ قال : سمعت من يخبرنا عن الشَّعبى قال : ماسمعت متكلماً على منبر قط تكلم فأحسن إلا تمنيت أن يسكت خوفاً من أن يسىء ، إلا زِيَاداً ، فإنه كلما كان أكثر كان أجود كلاما . وكان نَوْفَلُ بنُ مساحقٍ إذا

(١) من أشلاء قنص بن معد : يعنى من بقايا سلالته

(٢) كان فى الأصل : وعميرة ابو ضمضام . وهو خطأ . والصواب ماأثبتناه عن ابن قتيبة،ويؤخذ من عبارته أنه ناقل عن نسخة من البيان والتبيين ، فهذه بضاعتنا ردت إلينا

(٣) وسماه ابن قتيبة وابن النديم : صالح الحنفي

دخل على امرأته صمت وإذا خرج من عندها تكلم ، فرأته يوماً كذلك فقالت : أما عندى فتَطْرِقُ وأما عند الناس فتَنْطِقُ ؟! قال : لأنى أدِق عن جليلك وتَجِلين عن دقيقى .

قال أبو الحسن : قادعيَّاشُ بن الزِّبْرِقان بن بَدْرٍ إلى عبد الملك بن مروان خمساً وعشرين فرساً ، فلما جلس لينظر إليها نسب كل فرس منها إلى جميع آبائه وأمهاته ، وحلف على كل فرس بيمين غير اليمين التى حلف بها على الفرس الآخر! فقال عبد الملك بن مروان : عجبى من اختلاف أيمانه أشد من عجبى من معرفته بأنساب الخيل . وقال : كان للزِّبْرِقان بن بدر ثلاثة أسماء : القمر والزِّبرقان والحصين، وكانت له ثلاث كنى : أبو شَذْرَةَ وأبو عَيَّاش وأبو عباس . وكان عَيَّاش ابنه خطيباً مارداً شديد العارضة شديد الشكيمة وجيهاً ، وله يقول جرير :

أعَيَّاشُ قَدْ ذَاقَ القُيُونُ مَرَارَتِى وَأوْقَدْتُ نارًا فادْنُ دُونَكَ فاصْطَلِ [١]

فقال عياش : إنى إذاً لمقرور ؟ قالوا : فغلب عليه .

باب أسماء الخطباء والبلغاء والابيناء وذكر قبائلهم وأنسابهم

كان التدبير فى أسماء الخطباء وحالاتهم وأوصافهم أن نذكر أسماء أهل الجاهلية على مراتبهم ، وأسماء أهل الإسلام على منازلهم ، ونجعل لكل قبيلة منهم خطباء، ونقسم أمورهم باباً باباً على حدته ، ونقدم من قدمه الله عز وجل ورسوله صلى الله عليه وسلم فى النسب ، وفضله فى الحسب . ولكنى لما عجزت عن نظمه وتنضيده تكلفت ذكرهم فى الجملة ، والله المستعان وبه التوفيق . ولا حول ولا قوة الا به.

كان الفَضْلُ بن عيسى الرَّقَاشِىُّ من أخطب الناس وكان متكلما وكان قاصاً مجيداً ، وكان يجلس إليه عَمْرو بنُ عُبَيْدٍ وَهِشَامُ بْنُ حَسَّانٍ وَأبَانُ بْنُ أبى

(١) هذا البيت من قصيدة له مطلعها :

أمن عهد ذى عهد تفيض دموعنا كأن قذى العينين من حب فلفل

وهى طويلة ومثبتة فى ديوانه الذى جمع وطبع سنة ١٣١٣ هـ بحالة سيئة جداً

عَيَّاشٍ وكثير من الفقهاء ، وهو رئيس الفضيلية واليه ينسبون . وخطب إليه ابنته سَوَادَةَ بنتَ الفضل سُلَيْمَانُ بْنُ طَرْخَانَ التَّيْمِيُّ (١) فولدت له المُعْتَمِرَ ابْنَ سُلَيْمَان ، (٢) وكان سليمان مباينًا للفضل فى المقاله ، فلما ماتت سَوَادَةُ شهد الجنازة المعتمر وأبوه فقدما الفضل . وكان الفضل لايركب إلا الحمير ، فقال له عيسى بْنُ حاضر : إنك لتؤثر الحمير على جميع المركوب فلم ذلك ؟ قال : لما فيها من المرافق والمنافع ! قال : مثل أى شىء ؟ قال : لاتستبدل بالمكان على قدر اختلاف الزمان ، ثم هى أقلها داء وأيسرها دواء ، وأسلم صريعًا ، وأكثر تصريفًا ، وأسهل مرتقى ، وأخفض مهوى ، وأقل جماحًا ، وأشهر فارهًا ، وأقل نظيرًا ، يُزهى راكبه وقد تواضع بركوبه ، ويكون مقتصداً وقد أسرف فى ثمنه ..!؟ قال : ونظر يوما إلى حمـار فاره تحت مسلم بن قتيبة فقال : قعدة نبى و بذلة جبار ! قال عيسى ابن حاضر : ذهب الى حِمار عُزير والى حمار مَسِيح الدجال ، والى حمار بَلْعَمْ . وكان يقول : لو أراد أبو سَيَّارَةَ عُمَيْلَةُ بنُ الأعزل (٣) أن يدفع بالموسم على فرس عربى أو جمل مُهرى لفعل ، ولـكنه ركب عيراً أربعين عاماً لأنه كان يتألَّه. وقد ضرب به المثل فقالوا : أصح من عير [أبى] سَيَّارَة .

---

(١) هو ابو المعتمر ، وكان مولى لبنى مرة . كان من خيار التابعين ومن اهل النسك والورع ، مات بالبصرة سنة ١٤٣ هـ

(٢) هو ابن سليمان المار ذكره ، وكان من الزهاد والعباد . مات بالبصرة سنة ١٨٧ هـ

(٣) كان بالأصل : ابن اعزلة . والصواب ماأثبتناه عن ابن اسحق . وكان ابو سيارة العدواني يدفع بالناس فى مواسم الحج ايام الجاهلية وعليه قام الاسلام . قالوا : وكانت له اتان سوداء عوراء خطامها ليف ، وفيه يقول احد شعراء العرب :

نحن دفعنا عن ابى سياره   وعن مواليه بنى فزاره
حتى اجاز سالما حماره   مستقبل القبلة يدعو جاره

وكان أبو سيارة يقول

لاهم مالى فى الحمار الأسود   أصبحت بين العالمين أحسد
فق أبا سيارة المحسد   من شر كل حاسد إذ يحسد

ثم يقول : اللهم بغض بين رعائنا وحبب بين نسائنا واجعل المال فى سمحائنا ، أشرق ثبير كيما نغير . وزعموا انه اول من جعل الدية مائة من الابل . فيكون على ذلك أحد حكام العرب

والفضل هو الذى يقول فى قصصه : سل الأرض فقل : مَن شق أنهارك وغرس أشجارك وجَنى ثِمارك ؟ فان لم تجبك حِواراً ، أجابتك اعتباراً .

وكان عبدُ الصمدِ بنُ الفضل أغزر من أبيه وأعجب وأبين وأخطب . وحدثنى أبو جعفر الصوفى القاصّ قال : تكلم عبدُ الصمد فى خلق البعوضة وفى جميع شأنها ثلاثة مجالس تامة .

وكان يزيدُ بنُ أبَانٍ عم الفضلِ بنِ عيسى بن أبَان الرَّقاشىّ من أصحاب أنس(١) والحسن ، كان يتكلم فى مجلس الحسن وكان زاهداً عابداً وعالما فاضلا ، وكان قاصّاً مجيداً . قال أبو عُبيدة : وكان أبوهم خطيباً وكذلك جدهم ، وكانوا خطباء الأكاسرة فلما سُبُوا وولد لهم الأولاد فى بلاد الاسلام وفى جزيرة العرب نَزَعَهُمْ ذلك العِرقُ فقاموا فى أهل هذه اللغة كمقامهم فى أهل تلك اللغة ، وفيهم شعر وخطب ، وما زالوا كذلك حتى أصهر الغرباء إليهم ففسد ذلك العِرقُ ودخله الخَوَرُ .

ومن خطباء إياد : قُسُّ بنُ ساعِدَةَ ، وهو الذى قال فيه النبى صلى الله عليه وسلم « رأيته بسوق عكاظ على جمل أحمر وهو يقول : أيها الناس اجتمعوا فاسمعوا وعوا ، من عاش مات ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت » وهو القائل : فى هذه آيات محكمات مطر ونبات وآباء وأمهات وذاهب وآت ، ونجوم تمور ، وبحور لا تغور ، وسقف مرفوع ومهاد موضوع ، وليل داج وسماء ذات أبراج ، مالى أرى الناس يموتون ولا يرجعون ؟ أرضوا فأقاموا أم حُبسوا فناموا ؟ وهو القائل : يامعشر إياد ، أين ثمود وعاد ، وأين الآباء والأجداد ، أين المعروف الذى لم يُشكر والظلم الذى لم ينكر ، أقسم قسٌّ قسما بالله أن لله دينا هو أرضى له من دينكم هذا . وأنشدوا له هذه :

(١) هو انس بن مالك الانصارى الصحابى المحدث المشهور . لما قدم النبى المدينة جاءت به امه إليه وهو ابن ثمان سنين ، فكان فى خدمة النبى إلى ان اختاره الله إليه ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم قد دعا له فقال : اللهم ارزقه مالا وولداً وبارك له . قال انس : فانى لمن اكثر الانصار مالا وولداً . وعمر انس عمرا طويلا وروى الحديث وكان إماما فيه ، وهو آخر من مات من الصحابة بالبصرة سنة ٩٣هـ

فى الذَّاهِبِينَ الأَوَّلِينَ ... مِنَ القُرُونِ لَنا بَصَائِرْ
لَمَّا رَأَيْتُ مَوَارِدًا ... لِلمَوْتِ لَيْسَ لَهَا مَصَادِرْ
وَرَأَيْتُ قَوْمِى نَحْوَهَا ... تَمضِى الأَكابِرُ وَالأَصَاغِرْ
لَا يَرْجِعُ المَاضِى وَلَا ... يَبقَى مِنَ البَاقِينَ غَابِرْ
أَيقَنْتُ أَنِّي لَا مَحَالَةَ ... حَيثُ صَارَ القَوْمُ صَائِرْ

ومن الخطباء: زيدُ بنُ علىّ بن الُحسين. وكان خالد بن عبد الله (١) أقرَّ على زيد بن على وداود بن على وأيوب بن سلمة المخزومى وعلى بن محمد بن عمر ابن على وعلى بن سعد بن ابراهيم بن عبد الرحمن بن عوف، فسأل هِشامٌ زيداً عن ذلك فقال: أحلف لك؟ قال: وإذا حلفت أصدقك؟ قال زيد: إتق الله؟ قال: أوَمثلك يا زيد يأمر مثلى بتقوى الله؟ قال زيد: لا أحد فوق أن يُوصَى بتقوى الله ولا دون أن يُوصِي بتقوى الله! قال هشام: بلغنى أنك تريد الخلافة ولا تصلح لها لأنك ابن أمة؟ قال زيد: فقد كان اسماعيل بن ابراهيم صلوات الله عليه ابن أمة، واسحق عليه السلام ابن حرة، فأخرج الله عز وجل من صلب اسماعيل عليه السلام خير ولد آدم محمدا صلى الله عليه وسلم؟ فعندها قال له: قُم. قال: إذاً لا ترانى إلا حيث تكره. ولما خرج من الدار قال: ما أحبَّ أحدٌ الحياة قط إلا ذل. فقال له سالم مولى هِشام: لا يسمعن هذا الكلام منك أحد.؟

وقال محمدُ بنُ عُميرٍ: إن زيداً لما رأى الأرض قد طبقت جوراً ورأى قلة الأعوان ورأى تخاذل الناس، كانت الشهادة أحب المنيات اليه. وكان زيد كثيراً ما ينشد:

شَرَّدَهُ الخَوْفُ وَأَزْرَى بِهِ ... كَذَاكَ مَنْ يَكْرَهُ حَرَّ الجِلَادْ (٢)
مُنْخَرِقُ الخُفَّيْنِ يَشْكُو الوَجَى ... تَنْكُبُهُ أَطْرَافُ مَرْوٍ حِدَادْ (٣)

(١) هو خالد بن عبد الله القسرى. مرت ترجمته ص ١١٤ وأقر عليهم: أى قال فيهم لهشام أنهم يعملون على الخروج على الدولة ونفض أيديهم من طاعة السلطان
(٢) حر الجلاد: نار الحرب
(٣) الوجى: الحفا يصيب القدمين. المرو الحداد: الحجارة الصلبة المحددة الأطراف

قَدْ كَانَ فى المَوْتِ لهُ رَاحَةٌ وَالمَوْتُ حَتْمٌ فِي رِقَابِ العِبَادْ

قال : وكثيرا ماينشد شعر العبسى فى ذلك :

إنَّ المُحَكَّمَ مَنْ لَمْ يَرْتَقِبْ حَسَبَاً أَوْ يَرْهَبِ السَّيْفَ أَوْ حَدَّ القَنَا جَنَفَا

مَنْ عَاذَ بالسَّيْفِ لَاقَى فُرْصَةً عَجَبَاً مَوْتاً عَلَى عَجَلٍ أوْ عَاشَ مُنْتَصِفَا

ولما بعث يوسف بن عمر (١) برأس زيد ونصر بن خُزيمة مع شيبة بن عَقَّال وكلف آل أبى طالب أن يبرأوا من زيد ويقوم خطباؤهم بذالك ، فأول من قام عبد الله بن الحسن فأوجز فى كلامه ثم جلس . ثم قام عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر فأطنب فى كلامه وكان شاعراً بيناً وخطيباً لسناً ، فانصرف الناس وهم يقولون : ابنُ الطيار أخطب الناس . فقيل لعبد الله بن الحسن فى ذلك فقال : لو شئت أن أقول لقلت ، ولكن لم يكن مقام سرور ! فأعجب الناس ذلك منه .

ومن أهل الدهاء والنكراء (٢) ومن أهل اللسن واللَّقَن والجواب العجيب والكلام الصحيح والامثال السائرة والمخارج العجيبة : هند بنت الخُسّ وهى الزرقاء ، وجُمعة بنت حابس (٣) ويقال أن حابساً من إياد . وقال عامر بن عبد الله الفزارى : جمع بين هند وجمعة ، فقيل لجمعة : أى الرجال أحب إليك ؟ قالت : الشَّنِقُ (٤) الكبد الظاهر الجلد الشديد الجذب بالمسد . فقيل لهند : أى الرجال أحب إليك ؟ قالت : القريب الأمد الواسع البلد الذى يوفد إليه ولا يَفِدْ . وقد سئلت هند عن حر الصيف

(١) هو يوسف بن عمر الثقفى ، وهو ابن عم الحجاج . كان من جبابرة الولاة . ولى اليمن لهشام فلما غضب هشام على خالد بن عبد الله القسرى والى العراق عزله وولى يوسف بن عمر مكانه وامره بمحاسبة خالد وعماله فعذبهم حتى مات خالد بين يديه كما مات بلال بن ابى بردة فى عذابه . فلما مات الوليد بن يزيد هرب عمر إلى الشام فأخذ هناك وحبس ثم دخل عليه يزيد بن خالد فى محبسه فقتله بأبيه

(٢) النكراء : الفطنة بدهاء .

(٣) كان فى الاصول التى بين ايدينا : جمعة بنت حابس . وقد أصلحناه كما هنا وفى صفحة ٦٠ حيث لم نتمكن فى التنبيه على هذا الاصلاح هناك . وقد ذكر اسمها خمعة صاحب اللباب والمحكم وابن الشجرى فى كتابه ماتفق لفظه واختلف معناه ، وكذلك رواه القاضى عياض فى شرحه لحديث ام زرع ، والمعروف انها بنت الخس اخت هند . والمسألة روايات تختلف او تصحيفات تقع من النساخ

(٤) الشنق : الشديد الشوق . انظر صفحة ٣١

وبرد الشتاء. فقالت: من جمل بؤسا كأذى! وقد ضرب بها المثل، فمن ذلك قول ليلى بنت النضر الشاعرة:

وَكُنتُ ابنُ جُدعانٍ دَلالةُ أُمّه … وكانتْ كَبِنتِ الخُسِّ أَوهى أكبَرُ

وقال ابن الاعرابى: يقال: بنت الخس وبنت الخص وهى الزرقاء، وبنت الخسف. وقال يونس: لايقال إلا بنت الأخس وهى الزرقاء. وقال أبو عمرو ابن العلاء: داهيتا نساء العرب: هند الزرقاء، وعنز الزرقاء وهى زرقاء اليمامة.

قال اليقطرى: قيل لعبد الله بن الحسن: ماتقول فى المراء؟ قال: ماعسى أن أقول فى شىء يفسد الصداقة القديمة ويحل العقدة الوثيقة؟ وإن كان لأقل مافيه أن يكون دُربة للمغالبة، والمغالبة من أمتن أسباب الفتنة، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أتاه السائب بن صيفى فقال: أتعرفنى يا رسول الله؟ قال: كيف لاأعرف شريكي الذى كان لايشارينى ولايمارينى؟! قال: فتحولت الى زيد بن على فقلت له: ألصمت خير أم الكلام؟ قال: أخزى الله المساكتة فما أفسدها للبيان وأجلبها للحصر، والله للمماراة أسرع فى هدم العى من النار فى يبس العرفج (١) ومن السيل فى الحُدور.

وقد عرف زيد أن المراة مذمومة ولكنه قال المماراة على ما فيها أقل ضرراً من المساكتة التى تورث البلدة (٢) وتحل العقدة وتفسد المُنة وتورث عللا وتولد أدواء أيسرها العى، فإلى هذا المعنى ذهب زيد. ومن الخطباء: خالد بن سلمة المخزومى من قريش وأبو حاضر وسالم، وقد تكلم عند الخلفاء. ومن خطباء بنى أسيد: الحكم بن يزيد بن عمير، وقد رأس. ومن أهل اللسن منهم والبيان: ألحجاج بن عمير بن زيد. ومن الخطباء: سعيد بن العاص (٣) بن سعيد بن العاص بن أمية.

(١) العرفج: شجر سهلى

(٢) البلدة: البلادة والعجز

(٣) هو ابو عثمان سعيد بن العاص، كان سيدا من سادات بنى اميه، قتل ابوه العاص بن سعيد

وقيل لِسعيد بن المُسَيَّبِ : مَن أبلغ الناس ؟ قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقيل له : ليس عن هذا نسألك ؟ قال : معاوية وابنه ، وسعيد وابنه[١] وما كان ابنُ الزُّبَيرِ بدونهم ولكن لم يكن لكلامه طلاوة مقبولة .

فمن العجب أن ابنَ الزُّبير ملأ دفاتر العلماء كلاما ، وهم لا يحفظون لسعيد ابن العاص وابنه من الكلام إلا مالابال له . وكان سعيد جواداً ولم ينزع قميصه قط ، وكان أسود نحيفاً ، وكان يقال له : عُكَّةُ العسل ، وقال الحُطَيْئَةُ :

سَعِيدٌ فلاَ يَغْرُرْكَ قِلَّةُ لَحْمِهِ ... تَخَدَّدَ عَنْهُ اللَّحْمُ وَهُوَ صَلِيبُ

وكان أول من خَشَّ الإبل فى نفس عظم الأنف ، وكان فى تدبيره اضطراب . وقال قائل من أهل الكوفة :

يَاوَيْلَنا قَدْ ذَهَبَ الْوَلِيدُ ... وَجَاءَنَا مُجَوَّعاً سَعِيدُ

يَنْقُصُ فى الصَّاعِ وَلاَ يَزِيدُ

والأمراء تتحبب إلى الرعية بزيادة المكاييل ، ولو كان المذهب فى الزيادة فى الأوزان كالمذهب فى الزيادة فى المكاييل ما قصروا ، كما سأل الأحنف عُمَرَ بنَ

مشركا يوم بدر ، وكان سعيد إذ ذاك غلاما حدثا فقدم إلى النبي فكساه جبة ، وكان شجاعا باسلا ، وهو اول من خش الابل اى وضع لها الخشاش فى عظم الأنف ، والخشاش عود يبرى حتى يصير كالمسلة فاذا وضع فى انف البعير الصعب القياد ذل واستكان . وإليه تنسب الثياب السعيدية ، وكانت تصنع من الكتان . وكان عثمان بن عفان ولاه الكوفة فأساء إلى اهلها فشكوه إلى عثمان فعزله وولى مكانه ابا موسى الاشعري . مات سنة ٥٩ هـ

(٢) هو عمرو بن سعيد الأشدق : كان من اكابر بنى امية واماثلهم وامجادهم . وكان فارسا شجاعا بطلا مغوارا ، وعلى يديه استتب الامر لمروان بن الحكم ، وكان مروان وعده بالامر من بعده ، تطمينا له وشحذا لعزيمته على تأييده ، فلما مات مروان وثب عبد الملك على الامر وحاط نفسه بكل مايثبت قدمه ، غير انه كان على حذر شديد من عمرو وكان عمرو يتربص به الفرص ، ولما سار عبد الملك لقتال مصعب بن الزبير اخذ معه عمرا فقال له عمرو : إن اباك قد وعدني هذا الامر من بعده ، وقد كان من بلائي معه مالم يخف عليك ، فاجعل لى هذا الامر من بعدك ! فلما لم يجبه عبد الملك انسل عمرو إلى دمشق فغلب عليها وبلغ خبره عبد الملك فرجع الى دمشق وحاربه اياماً ثم اصطلحا وكتبا بذلك كتاباً ، ثم دعاه عبد الملك فأجلسه على سريره وهو يحادثه ثم قال له : ياابا امية إنى قد آليت إن انا ملأت عينى منك أن أجمعك فى جامعة ، فقال : قد أبر الله قسمك ! فلما وضع يديه ورجليه فى الحديد امر فصرع وجلس على صدره وذبحه .

الخطاب رضى الله تعالى عنه الزيادة فى المكاييل . ولذلك اختلفت أسماء المكاييل كالزيادى والفالج والخالدى ، حتى صرنا إلى هذا الملجم اليوم .

ثم من الخطباء : عَمْرُو بنُ سعيدٍ وهو الأشدق ، يقال إن ذلك إنما قيل له لتشادقه فى الكلام ، وقال آخرون بل كان أفقم مائل الذَّقنِ ، ولذلك قال عبيد الله بنُ زِياد حين أهوى إلى عبد الله بن معاوية : يدك عنه يالطيم الشيطان ويا عاصى الرحمن ! وقال الشاعر :

وَعَمْرُو لَطِيمُ الجِنِّ وَابْنُ مُحَمَّدٍ   بِأَسْوَأ هَذَا الأَمْرِ مُلْتَبِسَانِ

ذكر ذلك عن عَوَانَةَ ، وهذا خلاف قول الشاعر :

تَشَادَقَ حَتَّى مَالَ بالقَوْلِ شِدْقُهُ   وكلُّ خَطِيبٍ لا أبالكَ أشْدَقُ

وكان معاويةُ قد دعا به فى غِلمة من قريش ، فلما استنطقه قال : إن أول كل مَركب صعب وإن مع اليوم غداً . وقال له : إلى مَن أوصى بك أبوك ؟ قال : إن أبى أوصى إلىَّ ولم يُوص بى ! قال : وبأى شىء أوصاك ؟ قال : بأن لا يفقد إخوانه منه إلا شخصه . ؟ فقال معاوية عند ذلك : إن ابن سَعيد هذا لأشدق . فهذا يدل عندهم على أنه إنما سمى بالأشدق لمكان التشادق .

ثم كان بعد عمرو بن سعيد : سعيد بن عمرو بن سعيد ، وكان ناسباً خطيباً وأعظم الناس كبرا ، وقيل له عند الموت : إن المريض ليستريح إلى الأنين والى أن يصف مابه إلى الطبيب . فقال :

أُجَالِيدُ مِنْ رَيْبِ المَنُونِ فلا تَرَى   عَلَى هَالِكٍ عَيْناً لَنَا الدَّهْرَ تَدْمَعُ

ودخل على عبد الملك مع خطباء قريش وأشرافهم ، فتكلموا من قيام وتكلم وهو جالس ، فتبسم عبدُ الملك وقال : لقد رجوت عثرته ، ولقد أحسن حتى خِفت عَثرته . فسعيد بن عَمرو بنِ سَعيد خطيبٌ ابن خطيب ابن خطيب .

ومن الخطباء: سُهَيْلُ بْنُ عَمْرِو الأعلمُ (١) أحد بنى حِسْل بْن مَعِيص، وكان يكنى أبا يزيد، وكان عظيم القدر شريف النفس صحيح الاسلام، وكان عمر رضى الله تعالى عنه قال للنبى صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله، إنزع ثنيتيه السفليين حتى يَدلَع لسانُه، فلا يقوم عليك خطيبا أبدا؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا أُمَثِّلُ فيُمَثِّلُ اللهُ بى وإنْ كُنْتُ نَبِيًّا، دَعْهُ يا عُمَرُ فعسى أنْ يَقُومَ مَقامًا تَحْمَدُهُ» فلما هاج أهل مكة عند الذى بلغهم من وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم قام خطيبا فقال: أيها الناس، إن يكن محمد قد مات فان الله حى لم يمت، وقد علمتم أنى أكثركم قتباً فى بر وجاريةً فى بحر، (٢) فأقروا أميركم وأنا ضامن إن لم يتم الأمر أن أردها عليكم. فسكن الناس. وهو الذى قال يوم خرج إذنُ عُمَرَ وهو بالباب وعُيَيْنةُ بنُ حِصنٍ والأقرعُ بنُ حابسٍ وفلان وفلان. فقال الآذن: أين بِلال، أين صُهيب، أين سَلْمان، أين عَمار.؟ فتمعَّرت (٣) وجوه القوم، فقال سُهَيْلٌ: لِمَ تتمعر وجوهكم! دُعوا ودُعينا، فأسرعوا وأبطأنا، ولئن حسدتموهم على باب عُمَرَ لما أعد الله لهم فى الجنة أكثر.

ومن الخطباء: عبد الله بن عروة بن الزبير. قالوا: كان خالد بن صفوان يشبه به! وما علمت أنه كان فى الخطباء أحد أجود خطباً من خالد بن صفوان وشبيب بن شيبة للذى يحفظ الناس ويدور على ألسنتهم من كلامهما، وما علمنا أن أحداً ولَّدَ لهما حرفاً واحداً.

ومن النسابين من بنى العنبر ثم من بنى المنذر: الخَنْتَف بن زَيْدِ بن جَعْوَنَةَ، وهو الذى تعرض له دَغفَلُ بنُ حَنْظَلة العلامة عند ابن عامر (٤) بالبصرة فقال

(١) راجع صفحة ٦٥

(٢) يريد بالقتب الابل ويريد بالجارية السفينة. يعنى انه كان واسع التجارة ذا مال عظيم

(٣) فتمعرت: تغيرت من الغيظ والحنق

(٤) هو عبد الله بن عامر بن كريز القرشى الصحابي، كان من اكابر الشجعان وامائل الفرسان، وكان جوادا سمحاً معطاء، قال على بن أبي طالب: عبد الله بن عامر فتى قريش. ولاه عثمان بن عفان البصرة فاحتفر بها نهرين وحفر نهر الأبلة. وكان قائداً عظيما ذا تدبير وسياسة، فتح عامة فارس

له : متى عهدك بِسَجاحِ أم صادرٍ ؟ فقال له : مالى بها عهد منذ أضلت أُم حِلس ! وهى بعض أمهات دَغفل ، فقال له : نَشدتك بالله ، أنحن كنا لكم أكثر غَزوا فى الجاهلية أم أنتم لنا ؟ قال : بل أنتم فلم تُفلحوا ولم تنجحوا ، غزانا فارسكم وسيدكم وابن سيدكم فهزمناه مرة وأسرناه مرة وقتلناه مرة وأخذنا فى فدائه خِدر أمه ، وغزانا أكثركم غزواً وأنبهكم فى ذلك ذكراً فأعرجناه ثم أرجلناه ! فقال ابن عامر : أسألكما بالله لما كففتما .

وكان عبدُ اللهِ بنُ عامرٍ ومُصْعَبُ بنُ الزُّبَيْرِ (١) يُحبان أن يعرفا حالات الناس ، فكانا يُغريان بين الوجوه وبين العلماء ، فلا جرم أنهما كانا إذا سبا أوجعا.

وكان أبو بكر رضى الله تعالى عنه أنسب هذه الأمة ، ثم عُمر ، ثم جُبير بن مُطعم (٢) ثم سَعيد بن المسيب ، ثم محمد بن سعيد بن المسيب . ومحمد هو الذى نفى إلى عنكة المخزوميين فرفع ذلك الى والى المدينة فجلده الحد . وكان ينشد :

وَيَرْبُوعُ بنُ عَنكةَ ابنُ أرضٍ وَأعتقَهُ هُبيرَةُ بَعْدَ حِينِ

يعنى هبيرة بن أبي وهب المخزومي . ومن النسابين العلماء : عُتبة بن عمرو ابن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، وكان من ذوى الرأى والدهاء ، وكان ذا منزلة من الحجاج بن يوسف ، وعمرو بن عبد الرحمن خامس خمسة فى الشرف . وكان هو الساعى بين الأزد وتميم فى الصلح .

وخراسان وسجستان وكابل ، افغان أستان ، وكان مولعاً بالعمارة فاتخذ النباج وغرس فيها الأشجار وبنى بها السور فهى تدعى نباج ابن عامر ، واتخذ القريتين وغرس بها الغراس ، وأنبط عيون ابن عامر وبينها وبين النباج ليلة على طريق المدينة ، وحفر الحفير ثم حفر السمينة ، وشاد له قصرا بقرب قباء وجعل فيه زنوجاً ليعملوا فيه فماتوا فتركه . واتخذ بعرفات حياضاً ونخيلا . ولما عزل عن البصرة قال: لو تركت لخرجت المرأة فى حداجتها على دابتها ترد كل يوم ماء وسوقا حتى توافى مكة . مات سنة ٥٩ هـ

(٢) هو مصعب بن الزبير بن العوام . كان فارساً شجاعاً بطلا جواد . ولاه اخوه عبدالله بن الزبير على العراقين فوطد الأمر فيها وازال فتنة المختار بن ابي عبيد الثقفى وبدد جموعه ، غير ان عبدالملك لم يتركه يستقر بعد طول ماعانى فوجه إليه جيوشه وعليها اخوه محمد بن مروان فقاتلوه القتال وراوحوه حتى خر صريعا فى المعركة . قتله عبيد الله بن زياد بن ظبيان

(٣) هو جبير بن مطعم القرشى الصحابى ، اسلم علم الفتح بالمدينة وكان من سادات مسلمي الفتح ، وروي عن النبي احاديث كثيرة . مات سنة ٥٩ هـ

ومن بنى الحُرقُوس : شُعبَةُ بنُ القَلْعَمْ ، وكان ذا لسان وجواب وعارضة وكان وصافاً فصيحا ، و بنوه : عبد الله وعمر وخالد ، كلهم كانوا فى هذه الصفة ، غير أن خالدا كان قد جمع مع بلاغة اللسان : ألعلم والحلاوة والظرف . وكان الحجاج لايصبر عنه .

ومن بنى أسيد بن عمرو بن تميم : أبو بكر بن الحَكَم ، كان ناسباً راوية شاعراً ، وكان أحلى الناس لساناً وأحسنهم منطقا وأكثرهم تصرفا ، وهو الذى يقول له رُؤْبة :

لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ تَكُونَ سَاحِراً   رَاوِيَةً طَوْراً وَطَوْراً شَاعِراً

ومنهم : مُعَلَّلُ بْنُ خَالِدٍ أحد بنى أنمار بن الهُجَيْم ، وكان نسابة علامة راوية صدوقا مقلدا ، وذُكِرَ لِلمُنْتَجع بن نبهانَ فقال : كان لا يُجارى ولايُمارى .

ومنهم من بنى العنبر ثم من بنى عَمرو بن جُندَب : أبو الخنساء عَبَّادُ بْنُ كُسَيْب ، وكان شاعرا علامة وراوية نسابة ، وكانت له حرمة بأبى جعفر المنصور .

ومنهم عَمْرو بن خَوْلة ، كان ناسبا خطيباً وراوية فصيحا ، من وُلْدِ سعيد ابن العاص .

والذى أتى سعيد بن المسيب ليعلمه النسب هو إسحق بن يحيٰى بن طلحة . وكان يحيٰى بن عُرْوة بن الزبير ناسبا عالما ، ضربه إبراهيم بن هِشام المخزومى والى المدينة حتى مات لبعض القول .

وكان مُصْعب بنُ عبدِالله بن ثابت ناسبا عالما ، ومن وُلْده : الزُّبيرى عامل الرشيد على المدينة واليمن .

ومنهم ثم من قريش : محمد بن جعفر بن حفص ، وهو ابن عائشة ويكنى أبا بكر ، وابنه عبيد الله كان يجرى مجراه ، يكنى أبا عبد الرحمن .

ومن خُزاعة بن مازن : أبو عَمْرو وأبو سُفيان ابنا العلاء بن عمّار بن العُريان ، فاما أبو عمرو فكان أعلم الناس بأمور العرب مع صحة سماع وصدق لسان . وحدثنى

الأصمعى قال : جلست إلى أبى عَمرو عشر حِجَج ما سمعته يحتج ببيت إسلامى. وقال مرة : لقد كثر هذا المحدث وحسن حتى هممت أن آمر فتياننا بروايته . . ؟ يعنى شعر جرير والفرزدق وأشباههما . وحدثنى أبوعبيدة قال : كان أبو عمرو أعلم الناس بالعرب والعربية ، وبالقراءة والشعر وأيام الناس ، وكانت داره خلف دار جعفر بن سليمان ، وكانت كتبه التى كتب عن العرب الفصحاء قد ملأت بيتاً له إلى قريب من السقف ثم إنه تقرأها فأحرقها كلها ، فلما رجع بعد إلى علمه الأول لم يكن عنده إلا ماحفظه بقلبه،وكان عامة أخباره عن أعراب قد أدركوا الجاهلية . وفى أبى عَمْرو بن العَلاَء ، يقول الفرزدق :

مَازِلْتُ أَفْتَحُ أَبْوَاباً وَأُغْلِقُهَا حَتَّى أَتَيْتُ أَبَا عَمْرِو بْنِ عَمَّارِ

فإذا كان الفرزدق ، وهو راوية الناس وشاعرهم وصاحب أخبارهم ، يقول فيه مثل هذا القول ، فهو الذى لايشك فى خطابته و بلاغته . وقال يُونُس : لولا شعر الفرزدق لذهب نصف أخبار الناس . وقال فى أبى عمرٍو مكّىُّ بنُ سَوَادَةَ :

أَلْجَامِعُ الْعِلْمَ نَنْسَاهُ وَيَحْفَظُهُ وَالصَّادِقُ القَوْلَ إِنْ أَنْدَادُهُ كَذَبُوا

وكان أبوسفيان بن العلاء ناسبا ، وكلاهما كُنَاهما أسماؤُهما.وكذلك أبو عمرو ابن لبيد وأبو سفيان بن العلاء بن لبيد التغلبى خليفة عيسى بن شبيب المازنى على شرط البصرة .

وكان عَقِيلُ بن أبى طالب ناسبا عالما بالأمهات ، بين اللسان شديد الجواب لا يقوم له أحد .

وكان أبو الْجَهْم بن حُذيفة العدوى ناسبا شديد العارضة كثير الذكر للأمهات بالمثالب .

ورؤساء النسابين : دَغفل بنُ حَنْظلة أحد بنى عمرو بن شيبان ، لم يدرك الناس مثله لسانا وعلما وحفظاً . ومن هذه الطبقة : زَيْدُ بن الكَيِّسِ النَّمَرى ، ومن نسابى كلب : محمد بن السائب ،وهشام بن محمد بن السائب ، وشرقى بن القطامى ،

وكان أعلاهم فى العلم ومن ضرب به المثل: حماد بن بشر [١] قال سِماكُ العُكْلىُّ :

فَسائِلْ دَغْفَلاً وَأخا هِلالٍ ‏ ‏ وَنَخّاراً يُنَبِّئْكَ اليَقِينا

وقد ذكرنا دغفلا . وأخوهلال هو زَيْدُ بْنُ الكَيِّسِ ، و بنوهلال حى من النمر ابن قاسط . وقال مِسْكِينُ بْنُ أُنَيفٍ الدّارمىُّ [٢] فى ذلك :

وعِنْدَ الكَيِّسِ النَّمرىِّ عِلْمٌ ‏ ‏ ولَوْ أمْسى بِمُنْخَرِقِ الشَّمالِ

وقال ثابت قُطْنة :

فَما العِضّانِ لَوْ سُئِلا جَمِيعاً ‏ ‏ أخُو بَكْرٍ وَزَيْدُ بَنى هِلالِ

ولا الكَلْبىُّ حَمّادُ بن بِشْرٍ ‏ ‏ وَلا مَنْ قادَ فى الزَّمَنِ الخَوالى

وقال زِيادُ الأعْجَمُ :

بَلْ لو سألْتَ أخا رَبيعَةَ دَغْفَلاً ‏ ‏ لوَجَدْتَ فى شَيْبانَ نِسْبَةَ دَغْفَلِ

إنَّ الأحاين والذينَ يَلونَهُمْ ‏ ‏ شَرُّ الأنامِ ونَسْلُ عبدِ الأعْزَلِ

يهجو فيها بنى الخنساء . ومنهم : إياسُ النصرى ، كان أنسب الناس ، وهو الذى قال : كانوا يقولون : أشعر العرب أبُو دُؤادٍ الإيادى وَعدِىُّ بْنُ زَيْدٍ العِبادى. وكان أبو نَوْفَلِ بْنُ أبِى عَقْرَبٍ علامة ناسبا خطيبا فصيحا ، وهو رجل من كنانة أحد بنى عُريج . ومن بنى كنانة ثم من بنى الشَّدّاخ : يَزِيدُ بْنُ بَكْرِ بنِ دَأْبٍ ، وكان يزيد عالما ناسبا وراوية شاعراً وهو القائل :

---

(١) هو حماد بن ميسرة أو ابن سابور المعروف بحماد الراوية . كان واحد عصره فى الحفظ والرواية والشعر والانساب والادب ، وكان يقول الشعر الجيد وينسبه الى الشعراء الاقدمين ويدخل عليهم منه ما ليس لهم ، أصله من الديلم أسر اباه عروة بن زيد الخيل ، وعاش حتى ادرك المهدي العباسى وجالسه وانشده الاشعار ، وكان مولده سنة ٧٥ ومات سنة ١٥٦ هـ

(٢) هو ربيعة بن عامر بن انيف وإنما لقب مسكينا لشعر قاله . وهو شاعر اسلامى شريف ظهر فى عهد بنى أمية وساد قومه ، وقع بينه وبين الفرزدق تهاج ثم تكافا فكان الفرزدق بعد ذلك يقول: نجوت من ثلاثة أشياء لاأخاف بعدها شيئاً ، نجوت من زياد حين طلبنى ، ونجوت من ابنى رميلة وقد نذرا دمى وما فاتهما أحد طلباه ، ونجوت من مهاجاة مسكين الدارمى لأنى لو طاولته الهجاء لاضطرنى ان اهدم شطر حسبى وفخرى لأنه من بحبوحة نسبى واشراف عشيرتى

أللهُ يعلمُ في عَليٍّ عِلمهُ وَكَذاكَ عِلمُ اللهِ فى عثمانِ

ووَلَدَ يزيدُ : يحيي وعيسى [وعيسى] هو الذى يعرف فى العامة « بابن داب » وكان من أحسن الناس حديثاً و بياناً ، وكان شاعراً راوية وصاحب رسائل وخطب وكان يجيدها جداً . ومن آل دأب : حُذيفة بنُ دأب ، و كان عالماً ناسباً . وفي آل دأب علم بالنسب والخبر .

وكان أبو الأسْوَدِ الدُّؤْلىُّ — واسمه ظالم بن عمرو بن جَندل بن سفيان — خطيباً عالماً وكان قد جمع شدة العقل وصواب الرأى وجودة اللسان وقول الشعر والظرف ، وهو يُعد فى هذه الأصناف وفى الشيعة وفى العُرجان وفى المفاليج . وعلى كل شيء من هذا شاهد سيقع فى موضعه إن شاء الله تعالى.

وقال الُخسّ لابنته هند : أريد شراء فحل لابلى ؟ قالت إن اشتريته فاشتره أسجح الخدين غائر العينين أرقب أخرم أعكى أكوَم ، إن عُصى غشم و إن أُطيع تَجرثَم[(١)]. وهى التى قالت — لما قيل لها ما الذى حملك على أن زنيت بعبدك — ؟ قالت : طول السّواد[(٢)] وقرب الوساد . وقال الشاعر فى السّواد[(٣)]

وَيفهم قولَ الحَكلِ لوأنّ ذرّةً تُساوِدُ أُخرى لم يَفُتهُ سِوادُها

قالوا : وعاتب هِشام بن عبد الملك زَيْدَ بن على فقال له : بلغنى عنك شىء ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، أحلف لك ! قال : و إذا حلفت لى أصدقك ؟ قال نعم ، إن الله لم يرفع أحدا فوق إلاّ يرضى به ، ولم يضع أحدا دون الاّ يرضى منه به[(٤)].

وكان زِيادُ بنُ ظَبْيانَ التيمى العايشى خطيباً فدخل عليه ابنه عُبَيْدُ الله وهو

---

(١) قال الجاحظ : أسجح سهل واسع ، يقال ملكت فأسجح ، ارقب غليظ الرقبة ، اخرم متنفخ موضع الخرم ، اعكى العكوة مغرز الوركين فى المؤخر ، تصفه بشدة الوركين ، أكوم عظيم السنام ، إن عصي غشم إن عصته الناقة غصبها نفسها ، تجرثم اى بقى ، مأخوذ من الجرثومة وهى الطين والتراب يجمع حول النخلة ليقويها ، تصفه بالصبر والقوة على الضراب.

(٢) قال الجاحظ : السواد السرار.

(٣) راجع صفحة ٤٨

(٤) راجع صفحة ٢٤٨

يكيد بنفسه[١] ، قال : ألا أوصى بك الامير زيادا ؟ قال : لا ! قال : ولم ؟ قال : إذا لم يكن للحيّ إلا وصية الميت ، فالحي هو الميت..!؟ وكان عُبيد الله أفتك الناس وأخطب الناس ، وهو الذى أتى باب مالك بن مِسْمَع ومعه نار ليحرق عليه داره — وقد كان نابه أمر فلم يرسل اليه قبل الناس — فأشرف عليه مالك فقال: مهلا يا أبا مطر ، فوالله إن فى كنانتى سهما أنا به أوثق منى بك ! قال : وإنك لتعدنى فى كنانتك ! فوالله لو أن قمت فيها لطلتها ولو قعدت فيها لخرقتها ! قال مالك : مهلا. أكثر الله فى العشيرة مثلك ! قال: لقد سألت الله شططا . ودخل عبيد الله على عبد الملك بن مروان بعد أن أتاه برأس مُصْعَب بن الزُّبير ، ومعه ناس من وجوه بكر بن وائل ، فأراد أن يقعد معه على سريره ، فقال له عبد الملك: ما بال الناس يزعمون أنك لا تشبه أباك ؟ قال : والله لأنا أشبه بأبى من الليل بالليل و الغراب بالغراب والماء بالماء ولكن إن شئت أنبأتك بمن لا يشبه أباه! قال : ومن ذاك ؟ قال : من لم يولد لتمام ولم تنضجه الارحام ولم يشبه الأخوال والاعمام ! قال : ومن ذاك ؟ قال : إبن عمى سُوَيْدُ بْنُ مَنْجُوف ![٢] قال عبد الملك : أوكذلك أنت ياسويد ؟ قال: نعم ..!؟ فلما خرج من عنده أقبل عليه سويد فقال : وَرِيَتْ بك زنادى ، والله ما يسرنى أنك نقصته حرفاً واحداً مما قلته وأن لى حُمر النَّعم[٣] قال: وأنا والله ما يسرنى بحلمك اليوم عنى سود النَّعم. وأتى عُبيدُ الله عتّابَ بن وَرْقاء، وعتاب على أصبهان، فأعطاه عشرين ألف درهم ، فقال: والله ما أحسنت فأحمدك ولا أسأت فأذمك ،

(١) يكيد بنفسه : يقاسى المشقة فى سياقه عند الاحتضار

(٢) هو سويد بن منجوف السدوسي ، كان من سادات قومه ومن رجالات الدولة فى بنى امية ، وكان مع هذا غير حسن المنظر ، ضئيلا قبيحا ، غير انه كان شجاعا باسلا وجوادا كريما . وفيه يقول عبد الله بن الزبير الاسدى ، وكان قد استجار به فأجاره :

أليس ورائى إن بلاد تجهمت ... سويد بن منجوف وبكر بن وائل
حصون براها الله لم ير مثلها ... طوال اعاليها شداد الاسافل
هم اصبحوا كنزى الذى لست تاركا ... ونبلى التى اعددتها للمناضل

(٣) لان هذه الصفات التى قالها عبيد الله إنما قصد بها عبد الملك ولكنه خاف الشر فصرفها الى سويد ابن منجوف .

وانى لأقرب البعداء، وأبعد القرباء. وقال أَشْيَمُ بنُ شَقيق بنِ ثَور لعُبيد الله بن زياد ابن ظبيان : ما أنت قائل لربك وقد حملت رأس مُصعب بن الزُّبير إلى عبد الملك ابن مروان ؟ قال: أسكت فأنت يوم القيامة أخطب من صعصعة بن صُوحان إذا تكلمت الخوارج .!؟

فما ظنك ببلاغة رجل عُبَيْدُ الله بنُ زِيادٍ [1] يضرب به المثل ؟ وانما أردنا بهذا الحديث خاصة الدلالة على تقديم صعصعة بن صُوحان فى الخطب ، وأولى من كل دلالة إستنطاق عليّ له.

وكان عثمان بن عُروة أخطب الناس ، وهو الذى قال : والشكر وإن قل ثمن لكل نوال وإن جل .

وكان ثابت بنُ عبد الله بنِ الزُّبير من أبين الناس ولم يكن خطيبا .

وكان قَسامَةُ بْنُ زُهَيْرٍ أحد بني رِزام بن مازن مع زهده ونسكه ومنطقه من أبين الناس ، وكان يَعدل بعامر بن عَبد قَيس فى زهده ومنطقه ، وهو الذى قال : رَوِّحوا هذه القلوب تعى الذكر . وهو الذى قال : يا معشر الناس إن كلامكم أكثر من صمتكم فاستعينوا على الكلام بالصمت وعلى الصواب بالفكر . وهو الذى كان رسول عمر فى البحث عن شأن المُغيرَةِ وشهادة أبي بَكْرة .

وكان خالِدُ بْنُ يَزِيدْ بنِ مُعاوِيَةَ خطيباً شاعراً وفصيحا جامعا وجيد الرأى كثير الأدب ، وكان أول من ترجم كتب النجوم والطب والكيمياء .

---

(١) هو عبيد الله بن زياد بن ظبيان ، كان شجاعاً باسلا وفاتكا جريئاً وخطيبا مبينا ومنطيقا بليغاً . كان على جند العراق يوم البشر وكان رأس بكر بن وائل فيه ، قتل مصعب بن الزبير اخاه النابى بن زياد الحرب التى كانت بينه وبين عبد الملك ، فحقد عليه عبيدالله فلما كان مصعب على العراق لاخيه عبد الله وسير عبد الملك إليه الجيوش كان ابن ظبيان على راس فرقة منها ، فلما انهزم الجند عن مصعب ولم يبق معه اكثر من سبعة رجال تقدم اليه عبيد الله ودعاه إلى المبارزة فاحتقره مصعب وضربه على البيضة فهمشها وجرحه . فعصب راسه ثم عاد إليه وحمل عليه حملة منكرة فصرع مصعب واحتز راسه . قال عبيدالله : فلما وضع راس مصعب بين يدى عبد الملك سجد فهممت والله ان اقتله فاكون افتك العرب لقتل ملكين من قريش فى يوم واحد ، ثم وجدت نفسى تنازعنى إلى الحياة فأمسكت . وقيل له : بماذا تحتج عند الله من قتلك مصعبا ؟ فقال : إن تركت احتج رجوت ان اكون اخطب من صعصعة بن صوحان . وقيل إن ابن ظبيان بعد قتله مصعبا لم ينتفع بنفسه فى نومة او يقظة ، كان يهول عليه فى منامه فلا ينام حتى كل جسمه ونهك . فلم يزل كذلك حتى مات

ومن خطباء قريش: خَالِدُ بْنُ سَلَمَةَ المخزومي وهو ذو الشفة. وقال الشاعر في ذلك:

فَمَا كَانَ قَائِلُهُمْ دَغْفَلٌ ... وَلاَ الْحَيْقُطَانُ وَلاَ ذُوالشَّفَهْ[١]

ومن خطباء العرب: عُطَارِدُ بْنُ حَاجب بن زُرارة، وهو كان الخطيب عند النبي صلى الله عليه وسلم. وقال فيه الفرزدق بن غالب:

وَمِنَّا خَطِيبٌ لاَ يُعَابُ وَحَامِلٌ ... أَغَرُّ إِذَا الْتَفَّتْ عَلَيْهِ الْمَجَامِعُ

ومن الخطباء عَوْنُ بْنُ عَبْدِ الله بنِ عُتبة بن مَسعود، وكان مع ذلك راوية ناسبا شاعرا، ولما رجع عن قول الْمُرْجِئَةِ إلى قول الشيعة قال:

وَأَوَّلُ مَا نُفَارِقُ غَيْرَ شَكٍّ ... نُفَارِقُ مَا يَقُولُ الْمُرْجِئُونَا

وَقَالُوا مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ جَوْرٍ ... وَلَيْسَ الْمُؤْمِنُونَ بِجَائِرِينَا

وَقَالُوا مُؤْمِنٌ دَمُهُ حَلاَلٌ ... وَقَدْ حَرُمَتْ دِمَاءُ الْمُؤْمِنِينَا

وكان حين هرب إلى مُحمد بن مَرْوَانَ في فَلٍّ[٢] ابن الأشعث[٣] ألزمه ابنه يؤدبه ويقومه فقال له يوما: كيف ترى ابن أخيك؟ قال: ألزمتني رجلا إن غبت عنه عتب وإن أتيته حُجب وإن عاتبته غضب! ثم لزم عُمرَ بن عبد العزيز وكان ذا منزلة منه. قالوا: وله يقول جرير:

يَا أَيُّهَا الرَّجُلُ الْمُرْخِي عِمَامَتَهُ ... هَذَا زَمَانُكَ إِنِّي قَدْ مَضَى زَمَنِي

أَبْلِغْ خَلِيفَتَنَا إِنْ كُنْتَ لاَقِيَهُ ... أَنِّي لَدَى الْبَابِ كَالْمَشْدُودِ فِي قَرَنِ

---

(١) قال الجاحظ في رسالة فخر السودان على البيضان: ومنهم (من السودان) الحيقطان الشاعر كان يفضل في رأيه وعقله وهمته، وهو الذي يقول في الاخوان: لا تعرف الاخ حتى ترافقه في الحضر وتزامله في السفر. وروى له قصيدة يحتج بها اليمانية على قريش ومضر ويحتج بها العجم على العرب، ولا اظنها له.

(٢) الفل: بقية الجيش المهزوم.

(٣) هو عبد الرحمن بن محمد بن الاشعث. كان شجاعا بطلا وخطيبا بليغا وفارسا مغوارا، حارب الخوارج وأبلى فيهم بلاء حسنا، وكان تقيا غيورا هاله ما رآى من تصرف الحجاج وكثرة سفكه للدماء بالظلم والجور فخرج عليه وتبعه العلماء والمحدثون والقراء وكانت له مع جيوشه وقائع هائلة كوقعة الاهواز ووقعة الزاوية ووقعة دير الجماجم ووقعة دجيل. قتل سنة ٨٣ هـ

وَقَدْ زَارَكَ وُفُودُ الخافِقَيْنِ مَعًا ... وَمُذْ وَلِيتَ أُمُورَ النَّاسِ لَمْ تَرَنِي

• كان الجارُودُ بن أبي سَبْرَة — ويكنى أبا نوفل — من أبين الناس وأحسنهم حديثاً، وكان راوية علامة شاعرا مفلقا، وكان من رجال الشيعة، ولما استنطقه الحجاج قال: ما ظننت أن بالعراق مثل هذا؟ وكان يقول: ما أمكنني والٍ قط من أذنه الا غلبت عليه ما خلا هذا اليهودي — يعني بلال بن أبي بردة — وكان عليه متحاملا، فلما بلغه أنه دُهِق حتى دقت ساقه وجُمِل الوتر في خصيبه أنشأ يقول:

لَقَدْ قَرَّ عَيْنِي أَنَّ سَاقَيْهِ دُقَّتَا ... وَأَنَّ قُوَى الأَوْتَارِ فِي البَيْضَةِ اليُسْرَى

بَخِلْتَ وَرَاجَعْتَ الخِيَانَةَ وَالخَنَا ... فَيَسَّرَكَ اللهُ المُقَدَّسُ لِلعُسْرَى

فَمَا جِذْعُ سُوءٍ خَرَّبَ السُّوسُ جَوْفَهُ ... يُعَالِجُهُ النَّجَّارُ يُبْرَى كَمَا تُبْرَى

وإنما ذكر الخصية اليسرى لأن العامة تقول: إن الولد منها يكون.

ومن الخطباء الذين لا يضاهون ولا يجارون: عبد الله بن عباس، قالوا: خطبنا بمكة — وعثمان رضى الله تعالى عنه محاصراً — خطبة لو شهدتها الترك والديلم لأسلمتا[١] وذكره حسان بن ثابت فقال[٢]:

إِذَا قَالَ لَمْ يَتْرُكْ مَقَالاً لِقَائِلٍ ... بِمُلْتَقَطَاتٍ لَا تَرَى بَيْنَهَا فَصْلَا[٣]

كَفَى وَشَفَى مَا فِي النُّفُوسِ وَلَمْ يَدَعْ ... لِذِي إِرْبَةٍ فِي القَوْلِ جِدًّا وَلَا هَزْلَا[٤]

سَمَوْتَ إِلَى العَلْيَا بِغَيْرِ مَشَقَّةٍ ... فَنِلْتَ ذُرَاهَا لَا دَنِيًّا وَلَا وَغْلَا[٥]

وقال الحسن: كان عبد الله بن عباس أول من عرف بالبصرة صعد المنبر فقرأ البقرة وآل عمران ففسرهما حرفا حرفا وكان والله مثجا يسيل غَرْبا، وكان يسمى

(١) وروى عن ابي وائل انه قال: خطبنا ابن عباس وهو على الموسم فافتتح سورة النور فجعل يقرأ ويفسر فجعلت اقول: مارايت ولا سمعت كلام رجل مثله، ولو سمعته فارس والروم والترك لاسلمت

(٢) كان ابن عباس ذكر الانصار فى حضرة عمر بن الخطاب وذكر عظيم بلائهم فى الاسلام وشاد بفضلهم واثنى على حسان فى نضاله عن النبى صلى الله عليه وسلم فقال فيه حسان هذه الابيات

(٣) بملتقطات: بكلمات متخيرات

(٤) الاربة والمأربه: الحاجة

(٥) الوغل: النذل الدنىء الساقط

البحر وحَبْر قريش. وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «اللَّهُم فقِّهْهُ في الدين وعلمه التأويل»، وقال عمر غُصْ غوَّاص. ونظر إليه يتكلم فقال: «شِنْشِنَةٌ أعرِفُها مِن أخْزَمٍ» الشعر لأبي أخزم الطائي وهو جد أبي حاتم طي، أو جد جده. وكان له ابن يقال له أخزم، فمات وترك بنين فوثبوا يوما على جدهم أبي أخزم فأدموه فقال:

إنَّ بَنِيَّ زَمَّلُونِي بالدَّمِ شِنْشِنَةٌ أعرِفُها مِن أخْزَمِ (١)

أي أنهم أشبهوا أباهم في طبيعته وخلقه، وأحسبه كان به عاقا. فهكذا ذكر ابن الكلبي. فأراد عمر رضي الله تعالى عنه: إني أعرف فيك مشابهة في أبيك في رأيه وعقله. ويقال إنه لم يكن لقرشي مثل رأي العباس.

ومن خطباء بني هاشم أيضا: دَاوُد بْنُ عَلى. وكان يكنى أبا سليمان، وكان أنطق الناس وأجودهم ارتجالا واقتضابا للقول، ويقال إنه لم يتقدم في تحبير خطبة قط، وله كلام كثير معروف محفوظ، فمن ذلك خطبته على أهل مكة:

شكراً شكراً، أما والله ما خرجنا لنحتفر فيكم نهراً ولا لنبني فيكم قصرا أظن عدوُّ الله (٢) — ان لم نظفر به — أن أرخي له في زمامه حتى عَثَر في فضل خطامه؟ فالآن عاد الأمر في نصابه وطلعت الشمس من مطلعها وأخذ القوسَ باريها وعاد النَّبلُ إلى النزعة ورجع الأمر إلى مستقره في أهل بيت نبيكم، أهل بيت الرأفة والرحمة.

ومن خطباء بني هاشم عبد الله بن الحسن، وهو القائل لابنه إبراهيم أو محمد أي بُنَيَّ، إني مؤد [إليك] حق الله في تأديبك فأد إلى حق الله في حسن الاستماع، أي بني كف الأذى وارفض البذاء، واستعن على الكلام بطول الفكر في المواطن التي تدعوك نفسك فيها إلى القول، فإن للقول ساعات يضر فيها الخطأ ولا ينفع فيها الصواب، وأحذر مشورة الجاهل وإن كان ناصحا كما تحذر مشورة العاقل إذا

(١) زملوني: ضرجوني. قال الجاحظ: «والشنشنة مثل الطبيعة والسجية»

(٢) يريد به مروان بن محمد آخر ملوك بني امية

كان غاشا ، يوشك أن يورّطاك بمشورتهما فيسبق إليك مكر العاقل وغرارة الجاهل .

قال الحسن بن خليل : كان المأمون قد استثقل سهل بن هرون فدخل عليه سهل يوما والناس عنده على منازلهم ، فتكلم المأمون بكلام فذهب فيه كل مذهب ، فلما فرغ المأمون من كلامه أقبل سهل بن هرون على ذلك الجمع فقال : ما لكم تسمعون ولا تعون ، وتشاهدون ولا تفهمون ، وتفهمون ولا تعجبون ، وتنظرون ولا تبصرون ! والله إنه ليفعل ويقول فى اليوم القصير مثل ما فعل بنو مروان وقالوا فى الدهر الطويل ، عربكم كعجمهم وعجمكم كعبيدهم ، ولكن كيف يعرف الدواء من لا يشعر بالداء ..!؟ قال : فرجع له المأمون بعد ذلك إلى الرأى الأول .

ومن خطباء بنى هاشم ، ثم من ولد جعفر بن سليمان : سليمان بن جعفر والى مكة ، قال المكى : سمعت مشايخنا من أهل مكة يقولون : إنه لم يرد عليهم أمير منذ عقلوا الكلام إلا وسليمان أبين منه قاعدا وأخطب منه قائما .

وكان داود بن جعفر إذا خطب اسحنفر (١) فلم يرده شىء ، وكان فى لسانه شبيه بالرتة (٢) وكان أيوب فوق داود فى الكلام والبيان ، ولم يكن له مقامات داود فى الخطب . قال عيسى بن اسحق لداود بن جعفر : بلغنى أن معاوية قال للنخّار بن أوس : أبغى محدثا ؟ قال : ومعى ياأمير المؤمنين تريد محدثا ؟ قال نعم ، أستريح منك اليه ومنه إليك . وأنا لا أستريح لغير حديثك ، ولا يكون صمتك فى حال من الحالات أوفق لى من كلامك . وكان إسماعيل بن جعفر من أرق الناس لسانا وأحسنهم بيانا .

ومن خطباء بنى هاشم : جعفر بن حسن بن الحسين بن على ، وكان أحد من ينازع زيدا فى الوصية ، فكان الناس يجتمعون ليسمعوا محاوباتهم فقط .

---

(١) إسحنفر : مضى فى قوله مسرعا
(٢) الرتة من عيوب اللسان

وجماعة من وُلد العباس فى عصر واحد لم يكن لهم نظراء، فى أصالة الرأى وفى الكمال والجلالة وفى العلم بقريش والدولة و برجال الدعوة ، مع البيان العجيب والغور البعيد والنفوس الشريفة والاقدار الرفيعة ، وكانوا فوق الخطباء وفوق أصحاب الأخبار، وكانوا يجلون عن هذه الاسماء، إلا أن يصف الواصف بعضهم ببعض ذلك. منهم عَبْدُ الْمَلِكِ بن صَالِح[1] سأله الرشيد — وسليمان بن أبى جعفر وعيسى بن جعفر شاهدان — فقال له : كيف رأيت أرض كذا وكذا ؟ قال: مسافى ريح ومنابت شيح قال: فأرض كذا وكذا ؟ قال : هضاب حُمْر ، وبُراتٌ عُفر[2] حتى أتى على

(١) هو عبد الملك بن صالح بن على بن عبد الله بن عباس ، كان من عظماء العباسيين ومن أكابر رجالاتهم ، وكان نادر المثال فى جلالته وعظيم قدرة وفائق نبله ، مع الفصاحة والبلاغه وقوة اللسن وشدة العارضة . ولاه الرشيد المدينة فقيل ليحيى بن خالد البرمكى : كيف ولاه المدينة من بين عماله ؟ فقال: أحب ان يباهي به قريشا ويعلمهم أن فى بنى العباس مثله . ثم ولاه الرشيد قيادة الصوائف ، ثم ولاه الأمين الشام والجزيرة . وكان الرشيد قد جعل ولده القاسم فى حجره. فلما عهد إلى الأمين والمأمون بالولاية من بعده قال عبد الملك يحضه على العهد للقاسم معهما :

يا أيها الملك الذى لو كان نجما كان سعدا
للقاسم اعقد بيعة واوقد له فى الملك زندا
الله فرد واحد فاجعل ولاة العهد فردا

فعهد الرشيد إليه معهما . ثم وشى به إلى الرشيد فتنكر له ثم رضى عنه فى خطب طويل . ثم غضب عليه وتنكر له فحبسه عند الفضل بن الربيع فكتب إليه يقول :

أخلاي لى شجو وليس لكم شجو وكل امرئ من شجو صاحبه خلو
من اى نواحى الأرض أبغى رضاكم وأنتم اناس ما لمرضاتكم نحو
فلا حسن نأتى به تعرفونه ولا إن أسأنا كان عندكم عفو

فلما وقف عليها الرشيد قال : والله إن كان قالها فقد أحسن وإن كان رواها فقد احسن . وكتب إليه غير ذلك شعرا كثيرا، ولما مات الرشيد اطلقه الأمين وولاه الشام . وقد مدح الحقد بكلام عجيب ، قيل له : إن اخاك عبد الله يزعم انك حقود ! فقال : إن كان الحقد بقاء الشر والخير لأعلمهما إنهما عندى لباقيان :

إذا ما امرؤ لم يحقد الوتر لم تجد لديه لدى النعماء حمداً ولا شكر

وهو اول من ذم الشورى واحتج للاستبداد ، قال : ماستشرت احدا قط إلا تكبر عليك وتصاغرت لديه ، وداخلته العزة وداخلتك الذلة . فعليك بالاستبداد فان صاحبه مبجل فى العيون مهيب فى الصدور وإذا افتقرت إلى العقول حقرتك العيون فيتضع شأنك وتخف بك اركانك ويستحقرك الصغير ويستخف بك الكبير . مات سنة ١٩٦ ه

(٢) قال الجاحظ : الهضبة الجبل ينبسط على الارض وجمعها هضاب . والبرات الاماكن اللينة السهلة واحدها برث ، وقوله عفراى حمرتها كحمرة التراب . والظبى الاعفر الاحمر لان حمرته كذلك والعفر والعفر التراب ، ، يعنى بفتح الفاء وسكونها ، ومنه قيل ضربه حتى عفره اي الحقه بالتراب .

جميع ما أراد . فقال عيسى لسليمان : والله ما ينبغى لنا أن نرضى لأنفسنا بالدون من الـكلام . ومن هؤلاء عَبْدُالله بن صالح، والعباس بن محمد، واسحق بن عيسى، واسحق ابن سليمان ، وأيوب بن جعفر ، هؤلاء أعلم بقريش و بالدولة و برجال الدعوة من المعروفين برواية الاخبار .

وكان ابراهيم بن السندى يحدثنى عن هؤلاء بشىء هو خلاف مافى كتب الهيثم بن عدى وابن الـكلبى ، وإذا سمعته علمت أنه ليس من المؤلف المزور .

وكان عَبْدُ الله بن على ، وداود بن على ، يَعدلان بأُمة من الأمم .

ومن مواليهم : ابراهيم ونصر أبنا السندى ، فأما نصر فـكان صاحب أخبار وأحاديث ، وكان لايعدو حديث ابن الـكلبى والهيثم . وأما ابراهيم فإنه كان رجلا لانظير له ، وكان خطيبا وكان ناسبا وكان فقيها وكان نحويا عروضيا وحافظا للحديث راوية للشعر شاعرا ، وكان فخم الألفاظ شريف المعانى ، وكان كاتب القلم كاتب العمل ، وكان يتكلم بكلام رؤبة ويعمل فى الخارج بعمل زاذان فروخ الأعور ، (١) وكان منجما طبيبا ، وكان من رؤساء المتكلمين وعالما بالدولة و برجال الدعوة ، وكان أحفظ الناس لما سمع وأقلهم نوما وأصبرهم على السهر .

ومن خطباء تميم : جَحْدَبٌ ، وكان خطيبا راوية ، وكان قضى على جرير فى بعض مذاهبه فقال جرير :

قَبَحَ الإلٰهُ وَلا يُقبِحُ غيرُهُ ... بَظْرًا تَفَلَّقَ عَنْ مَفَارِقِ جَحْدَبِ

(١) كانت الدواوين فى العراق إلى عهد عبد الملك يقوم عليها جماعة من كتاب الفرس فكانت حسابات الخراج وما إليها تكتب باللغة الفارسية فلما ولى الحجاج العراقين زابه أمر من كتاب الخراج فقال : ألا يوجد من ينقل لنا أعمال الدواوين إلى العربية ؟ فقال له زاذان فروخ الاعور – وكان من الكتاب فيها – أنا أقوم بذلك ! وعمل امامه انموذجا فسر به الحجاج وأمره باجراء النقل . فلما بلغ ذلك رؤس الكتاب من الفرس جن جنونهم وذهبوا إلى زاذان ووعدوه ومنون بالاموال الـكثيرة إذا هو أظهر العجز حتى يعدل الحجاج عن طلبه ، ثم هددوه بكل أنواع التنكيل إذا هو أقدم . فلم يأبه لهم وتم النقل وقضى الامر . وبهذا أسدى إلى الدولة العربية وإلى اللسان العربى يدا لاتنسى

وهو الذى كان لقيه خالدُ بن سَلَمَةَ المخزومى الخطيب الناسب فقال : والله ما أنت من حَنْظَلَةَ الأكرمين ولا سعد الأكثرين ولا عمرو الأسَدِّين، ومافى تميم خير بعد هؤلاء ! فقال له جَحْدَب : والله إنك لمن قريش ، وما أنت من بيتها ولا من ثبوتها ولا من شُوراها[1] وخلافتها ولا من أهل سَدانتها وسِقايتها !

وهو شبيه بما قال خالد بن صفوان لِلعبدَرى[2] ، فإنه قال له : هَشَمَتْك هاشم وأمتك أمية وخزمتك مخزوم ، وأنت من عبد دارها ومنتهى عارها ، تفتح لها الأبواب إذا أقبلت وتغلقها إذا أدبرت .

ومن وُلْد المنذر : عبد الله بن شُبرُمَة بن طُفيل بن هُبيرة بن المنذر ، وكان فقيها عالما قاضياً وكان راوية شاعراً وكان خطيباً ناسبا وكان حاضر الجواب مفوها ، وكان لاجتماع هذه الخصال فيه يشبه بعامر الشَّعبى ، وكان يُكنى أبا شبرمة . وقال يَحيى بن نَوْفَل :

لَمَّا سألتُ النَّاسَ أيْنَ المكرُمَهْ ... وَالعِزُّ وَالجُرْثومَةُ المُقدَّمَهْ
وَأيْنَ فارُوقُ الأُمُورِ المُحْكَمَهْ ... تَتابَعَ النَّاسُ على ابنِ شُبْرُمَهْ

وابن شبرمة الذى يقول فى ابن أبى لَيلى :

وَكَيْفَ تُرَجَّى لِفَصْلِ القَضَاء ... وَلَمْ تُصِبِ الحُكْمَ فِى نَفْسِكا
فَتَزْعُمُ أنَّكَ لابْنِ الجُلاحِ ... وَهَيْهاتَ دَعْواكَ مِنْ أَصْلِكا

وقال رجل من فقهاء المدينة : من عندنا خرج العلم . فقال ابن شُبرمة : نعم ، ثم لم يرجع إليكم . وقال عيسى بن موسى[3] : دلونى على رجل أوليه كذا وكذا؟ فقال ابن شبرمة : أصلح الله الأمير ، هل لك فى رجل إن دعوتموه أجابكم وإن تركتموه لم يأتكم ، ليس بالمُلِح طلبا ولا بالممعن هربا . .!؟ وسئل عن رجل فقال : إن له شرفا و بيتا وقَدَما ! ونظروا فإذا هو ساقط من السَّفَلَةِ ، فقيل له فى

(١) فى الأصول : ولا من شوارها ، ولا معنى لها هنا ، والصواب ما أثبتناه . يعنى ولا أنت من أهل شوراها ، ولم يكن أحد من بنى مخزوم فى أهل الشورى الستة

(٢) العبدري نسبة إلى عبد الدار

(٣) هو من أمراء بنى العباس

ذلك ؟ فقال : ما كذبتُ ، شرفه أذناه وقدمه التى يمشى عليها ولابد من أن يكون له بيت يأوى إليه .

قال أبو اسحق[١] : بل كذبت ، إنما هو كقول القائل حين سأله بعض من أراد تزويج حرمة عن رجل فقال : هو يبيع الدواب ! فلما نظروا فى أمره وجدوه يبيع السنانير ؟ فلما سئل عن ذلك قال : ما كذبت ، لأن السنور دابة . قال أبو اسحق : بل لعمرى لقد كذب . وهـذا مثل القائل حين سئل عن رجل فى تزويج امرأة فقال : رزين المجلس نافذ الطعنة ، فحسبوه سيدا فارسا ! فنظروا فوجدوه خياطا ! فسئل عن ذلك فقال : ما كذبت ، إنه لطويل الجلوس جيد الطعن بالابرة ! فقال أبو اسحق : بل لعمرى لقد كذب ، لأنه قد غرهم منه ، وكذلك لو سأله رجل عن رجل يريد أن يسلفه مالا عظيما فقال : هو يملك مالا كان يبيعه بمائة ألف ومائة ألف ! فلما بايعه الرجل وجده معدما ضعيف الحيلة ! فلما قيل له فى ذلك قال : ما كذبت لأنه يملك عينيه وأذنيه وأنفه وشفتيه حتى عد جميع أعضائه وجوارحه. ومن قال للمستشير هذا القول فقد غره ، وذلك مما لا يحل فى دين ولا يحسن فى الحرية ، وهذا القول معصية لله تعالى والمعصية لا تكون صدقا ، وأدنى منازل هذا الخبر لا يسمى صدقا . فأما التسمية له بالكذب فان فيها كلاما يطول.

ومن الخطباء المشهورين فى العوام والمقدمين فى الخواص : خالد بن صفوان الأهتمى ، زعموا جميعا أنه كان عند أبى العباس أمير المؤمنين وكان من سماره وأهل المنزله عنده ، ففخر عليه ناس من بَلحارث بن كعب وأكثروا فى القول ، فقال أبو العباس : لم لا تتكلم يا خالد ؟ فقال : أخوال أمير المؤمنين وعصبته ؟ قال : فأنتم أعمام أمير المؤمنين وعصبته ؟ قال خالد : وماعسى أن أقول ليقوم كانوا بين ناسج بُرد ودابغ جِلد وسائس قرد وراكب عرد[٢] ، دل عليهم هُدهد وغرقتهم فأرة وملكتهم امرأة . . ؟ ! [٣]

---

(١) هو ابراهيم بن سيار النظام
(٢) العرد : الحمار
(٣) وملكتهم امرأة : يريد بها بلقيس

فلئن كان خالد قد فكر وتدبر هذا الكلام ، إنه للراوية الحافظ والمؤلف المجيد ، ولئن كان هذا شيئا حضره حين حُرك و بسط ، فماله نظير فى الدنيا ! فتأمل هذا الكلام فإنك ستجده مليحا مقبولا وعظيم القدر جليلا ، ولو خطب اليمانى بلسان سحبان وائل حولا كريتا [1] ثم صُك بهذه الفقرة ماقامت له قائمة .

وكان أذكر الناس لأول كلامه وأحفظهم لكل شيء سلف من منطقة. قال مكى بن سوادة فى صفته له :

عَلِيمٌ بِتَنْزِيلِ الْكَلَامِ مُلَقَّنٌ ذَكُورٌ لِمَا سَدَّاهُ أَوَّلَ أَوَّلَا [2]

يَبُذُّ قَرِيعَ الْقَوْمِ فِى كُلِّ مَحْفِلٍ وَإِنْ كَانَ سَحْبَانًا خَطِيبَ وَدَغْفَلَا [3]

تَرَى خُطَبَاءَ النَّاسِ يَوْمَ ارْتِجَالِهِ كَأَنَّهُمُ الْكِرْوَانُ عَايَنَ أَجْدَلَا [4]

وكان يعارض شبيب بن شيبة لاجتماعهما على القرابة والمجاورة والصناعة ، فذُكر شبيب عنده مرة فقال : ليس له صديق فى السر ولا عدو فى العلانية ؟

وهذا كلام ليس يعرف قدره إلا الراسخون فى الصناعه .

وكان خالد جميلا ولم يكن بالطويل ، فقالت له امرأة : انك لجميل يا أبا صفوان ؟ قال: وكيف تقولين هذا وما فىَّ عمود الجمال ولا رداؤه ولا بُرْنُسُهُ ؟ فقيل له : ما عمود الجمال ؟ قال الطول ، ولست بطويل ! ورداؤه البياض ولست بأبيض ! و برنسه سواد الشعر ، وأنا أشمط ! ولكن قولى . إنك لمليح ظريف . وخالد يعد فى الصُلعان . ولكلام خالد كتاب يدور فى أيدى الوراقين . وكان الأزهر بن عبد الحارث بن ضرار بن عمرو الضبى ، عالماً ناسبا . ومن خطباء بني ضبة حنظلة بن ضرار ، وقد أدرك الاسلام وطال عمره حتى أدرك يوم الجمل ، وقيل له :

---

(١) الحول الكريت : العام التام

(٢) ملقن : ملهم حاضر الجواب

(٣) قريع القوم : سيدهم

(٤) قال الجاحظ : الكروان جمع كروان « بفتح الكاف » وهو ذكر الحبارى ، والاجدل الصقر »

ما بقى منك ؟ قال : أذكر القديم وأنسى الحديث وأرق بالليل وأنام وسط القوم . ومن خطباء بنى ضَبَة وعلمائهم : مَنْجُورُ بنُ غَيْلَانَ بن خَرَشة ، وكان مقدماً فى المنطق وهو الذى كتب الى الحجاج : إنهم قد عرضوا على الذهب والفضة ، فما ترى أن آخذ ؟ قال : أرى أن تأخذ الذهب ! فذهب عنه هاربا ، ثم قتله بعد . وذكره القُلاخُ بنُ حَزْنٍ المنقرى فقال :

مِثَالُ مَنْجُورٍ قَلِيـلٌ وَمِثْلُهُ ... فَتَى الصِّدْقِ إنْ صَفَّقْتَهُ كُلَّ مُصَفَّقِ [١]

وَمَا كُنْتُ أَشْرِيهِ بِدُنْيَا عَرِيضَةٍ ... وَلَا بِابْنِ خَالٍ بَيْنَ غَرْبٍ وَمَشْرِقِ [٢]

إذا قَالَ بَذَّ القَائِلِينَ مَقَالُهُ ... وَيَأْخُـذُ مِنْ أَكْفَائِهِ بِالمُخَنَّقِ

ومن خطباء الخوارج : قَطَرِيُّ بن الفُجَاءَةِ [٣] له خطبة طويلة مشهورة وكلام كثير محفوظ ، وكانت له كنيتان : كنية فى السلم وهو : أبو محمد ، وكنية فى الحرب وهو : أبو نعامة . وكانت كنية عامِرِ بنِ الطُّفَيْلِ فى الحرب غير كنيته فى السلم ، كان يكنى فى الحرب بأبى عقيل ، وفى السلم : بأبى على . وكان يَزِيدُ بن مَزْيَدَ [٤] يكنى فى السلم بأبى خالد ، وفى الحرب بأبى الزبير . وقال مُسْلمُ بنُ الوليدِ الأنصارِى :

لَوْلَا سُيُوفُ أَبِى الزُّبَيْرِ وَخَيْلُهُ ... نَشَرَ الوَلِيدُ بِسَيْفِهِ الضَّحَّاكَا

---

(١) صفقته : خبرت أموره وقلبته على الشؤون وجدته مصفقا اى حولا قلبا

(٢) أشريه : أبيعه

(٣) هو قطرى بن الفجاءة المازنى احد زعماء الخوارج ، كان من الشجاعة والفروسية والتدبير على جانب عظيم ، بايعته الخوارج بعد مقتل رئيسهم الزبير بن على . وجرت بينه وبين المهلب بن ابى صفرة حروب وخطوب يطول شرحها ، وظل عشرين سنة يسلم عليه الخوارج بالخلافة وهو يقودهم فى الحروب افضل قيادة إلى أن سير اليه الحجاج جيشا بقيادة سفيان بن الأبرد ففرق شمله ، وقتله سودة ابن ابجر الدارمي . وكان خطيبا بليغا وشاعرا مجيدا .

(٤) هو يزيد بن مزيد الشيبانى . كان من القواد العظام فى عهد الرشيد ، ولي ارمينية وحارب الوليد ابن طريف الشيبانى الخارجى وقتله ، كما حارب خراشة الخارجى وقتله . وكان شهما هماما فارسا جوادا . وشاعره مسلم بن الوليد

وفيه يقول :

لَوْلَا يَزِيدُ وَمِقْدَارٌ لَهُ سَبَبٌ عَاشَ الْوَلِيدُ مَعَ الْغَاوِينَ أَعْوَامَا(١)
سَلَّ الْخَلِيفَةُ سَيْفاً مِنْ بَنِي مَطَرٍ يَمْضِي فَيَخْتَرِقُ الْأَرْوَاحَ وَالْهَامَا
إِذَا الْخِلَافَةُ عُدَّتْ كُنْتَ أَنْتَ لَهَا عِزّاً وَكَانَ بَنُو الْعَبَّاسِ حُكَّامَا

ألا تراه قد ذكر قتل الوليد . وقد كان خالدُ بنُ يَزِيدَ اكتنى بها فى الحرب فى بعض أيامه بمصر .

وهذا الباب مستقصى مع غيره فى أبواب الكنى والاسماء وهو وارد عليكم إن شاء الله تعالى .

ومن خطباء الخوارج : إبنُ صِدِّيقَةٍ ، وهو القاسم بن عبد الرحمن بن صديقة وكان صُفريا خطيباً ناسباً ويشوبه بعض الظرف والهزل .

ومن علماء الخوارج : شُبَيْلُ بنُ عَزْرة الضُّبَعِيُّ صاحب الغريب ، وكان راوية خطيبا وشاعرا ناسباً ، وكان سبعين سنة رافضياً ثم انتقل خارجياً صفريا .

ومن علماء الخوارج : الضَّحَّاكُ بنُ قَيْسٍ الشَّيْبَانِيُّ (٢) ويكنى أبا سعيد ، وهو الذى ملك العراق وسار فى خمسين ألفاً وبايعه عبدُ الله بن عمر بنِ عبدالعزيز وسُليمان بنُ هِشام بن عبد الملك وصليا خلفه . وقال شاعرهم .

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَظْهَرَ دِينَهُ وَصَلَّتْ قُرَيْشٌ خَلْفَ بَكْرِ بْنِ وَائِلِ

وكان ابنُ عَطاءِ اللَّيْثِيُّ يسامر الرشيد ، وكان صاحب أخبار وأسمار وعلم بالانساب وكان أظرف الناس وأحلاهم .

وكان عبدُ العزيزِ بنُ عبد اللهِ بنِ عامر بنْ كُرَيْزٍ ، راوية ناسبا وعالما بالعربية

---

(١) الوليد : هو الوليد بن طريف الشيبانى ، وكان خرج بالجزيرة وكثرت جموعه واستفحل امره فسير إليه الرشيد الجيوش يتلو بعضها بعضا وهو يفتك بها ويبدد شملها إلي ان سار اليه يزيد فقتله واستباح جيوشه

(٢) هو الضحاك بن قيس الشيبانى خرج بالجزيرة فى جموع كثيرة من الخوارج وانتزع الكوفة من عبد الله بن عمر بن عبد العزيز اميرها بعد حرب شديدة ، ثم سار إليه مروان بن محمد فى سنة ١٢٨ فقتله .

فصيحاً . وكان عبدُ الأعلى بنُ عَبد الله بن عامر من أبين الناس وأفصحهم ، وكان مَسْلَمَةُ بنُ عَبد الملك يقول . إنى لأنَحِّى كور العمامة عن أُذنى لأسمع كلام عبد الاعلى بن عبد الله . وقال بعض الأمراء — وأظنه بلال بن أبى بُردة — لأبى نَوفَلٍ الجارُودِ بْن أبى سَبْرَةَ : ماذا تصنعون عند عبد الأعلى إذا كنتم عنده ؟ قال : يشاهدنا بأحسن استماع وأحسن حديث ، ثم يأتى الطباخ فيمثل بين عينيه فيقول : ماعندك ؟ فيقول عندى لون كذا وجدى كذا ودجاجة كذا ومن الحلو كذا ! قال . ولم يسأل عن ذلك ؟ قال : ليُقْصِرَ كل رجل عما لايشتهى حتى يأتيه مايشتهى ، ثم يأتون بالخوان فيتضايق وتتسع وَيُقَصِّرُ ونجتهد فإذا شبعنا خَوَى تخوية الظليم ثم أقبل يأ كل أ كل الجائع المقرور . والجارود هو الذى قال : سوء الخلق يُفسد العمل كما يُفسد الخل العسل ، وهو الذى قال: عليكم بالمر بد فانه يطرد الفكر ويجلو البصر ويجلب الخبر ويجمع بين ربيعة ومضر .

وصعد عثمان المنبر فأرتج عليه فقال : إن أبا بكر وعمر كانا يعدان لهذا المقام مقالا ، وأنتم إلى إمام عادل أحوج منكم إلى إمام خطيب ، وستأتيكم الخطب على وجهها ،وتعلمون إن شاء الله تعالى .

وشخص يَزِيدُ بنُ عُمَرَ بْنِ هُبَيْرَةَ (١) إلى هِشام بن عبد الملك فتكلم ، فقال هِشام : مامات من خلف مثل هذا ! فقال الأبرش الكلبى : ليس هناك ، أما تراه يرشح جبينه لضيق صدره ؟ قال يزيد : مالذلك رشح ، ولكن لجلوسك فى هذا الموضع .

(١) هو يزيد بن عمر بن هبيرة الفزارى . كان اميراً جليلا وسيداً شريفاً وقائدا مدربا ، وكان شجاعا باسلا وجواداً كريماً واسع المروءة عظيم الخطر : كان يقسم على زواره فى كل شهر خمسمائة الف درهم ويعشى كل ليلة من شهر رمضان ثم يقضى للناس حوائجهم . ولاه مروان بن محمد العراقين فظل فيها خمس سنين . ولما ظهرت الدعوة العباسية صمد لها وحاول مقاومتها فهاجمه قحطبة بن شبيب الطائى بجموعه والجأه إلى التحصن بواسط فيمن بقى معه ، ولما تمت البيعة لأبى العباس السفاح وولى اخاه ابا جعفر على واسط حاصره بها تسعة اشهر ثم صالحه وافتتحها على عهد الامان ليزيد فخرج واهله إليه يزيد فى ركب من آل بيته فكان ابو جعفر يقول : لايعز ملك هذا فيه . وبعد مدة غدر به وقتله هو وولده داود بن يزيد سنة ١٣٢ هـ

وكان الأبرش ثلابة نسابة ، وكان مصاحبا لهشام بن عبد الملك فلما أفضت إليه الخلافة سجد وسجد من كان عنده من جلسائه ، والأبرش شاهد لم يسجد، فقال له هشام : مامنعك أن تسجد يا أبرش؟ قال : ولم أسجد وأنت اليوم معى ماشيا وغدا فوقى طائرا ! قال : فان طرت بك معى ؟ قال : أتراك فاعلا ! ؟ قال : نعم قال: فالآن طاب السجود .

ودخل يَزِيدُ بنُ عُمَرٍ على المنصور — وهو يومئذ أمير — فقال:أيها الامير، إن عهد الله لاينكث وعقده لايحل ، وإن إمارتكم بكر فأذيقوا الناس حلاوتها وجنبوهم مرارتها .

قال سهل بن هرون . دخل قُطْرُبٌ النحوى على المخلوع (١) فقال:ياأمير المؤمنين كانت عِدَتُكَ أرفع من جائزتك ! وهو يتبسم ، قال سهل : فاغتاظ الفضل بن الربيع فقلت له : إن هذا من الحصر والضعف وليس هذا من الجلد والقوة ، أماتراه يفتل أصابعه و يرشح جبينه ..!؟

وقال عبد الملك لخالد بن سلمة المخزومى . مَن أخطب الناس ؟ قال : أنا . قال : ثم مَن ؟ قال : سيد جُذام ، يعنى رَوْح بن زِنْباع (٢) قال : ثم من ؟ قال : أُخَيفِشُ ثقيف ، يعنى الحجاج . قال : ثم من ؟ قال : أمير المؤمنين ! ؟ قال: ويحك ! جعلتنى رابع أربعة ! قال : نعم هو ما سمعت . !

ومن خطباء الخوارج وعلمائهم ورؤسائهم فى الفُتيا وشعرائهم ورؤساء قعَدِهِمْ : عِمْرانُ بْنُ حِطَّان ومن علمائهم وشعرائهم وخطبائهم : حَبِيبُ بْنُ خُدْرَةَ الهِلالِيُّ ، وعداده فى بنى شيبان . وممن كان يرى رأي الخوارج : أَبُو عُبَيْدَةَ النحوى مَعْمَرُ

(١) المخلوع : محمد الأمين بن زبيدة

(٢) هو روح بن زنباع الجذامى ، كان من رجال الدولة الأموية ومن اكابر سراتها والمقدمين فيها ، وكان شجاعا باسلا وكريما جوادا مضيافا ، مع البلاغة والفصاحة واللسن وقوة العارضة ، وله فى شؤون الدولة رأى نافذ وبلاء حسن

ابن المثنى مولى تيم بن مرة ولم يكن في الأرض خارجي ولا جماعي أعلم بجميع العلم منه . وممن كان يرى رأى الخوارج : الهيثم بن عدى الطائى ثم البحترى .

وممن كان يرى رأى الخوارج : شُعَيْبُ بْنُ رَبَابٍ الحنفى أبو بكار صاحب أحمد ابن أبي خالد ومحمد بن حسان السكسكى . ومن الخوارج من علمائهم ورواتهم : مُسْلِمُ ابْنُ كَرْزِينٍ ، وكنيته أبا عبيدة ، وكان إباضيا . ومن علمائهم الصُّفْرِيَّةِ وممن كان مقنعا فى الأخبار لأصحاب الخوارج والجماعة جميعا : مُلَيْلٌ ، وأظنه من بنى ثعلبة . ومن أهل هذه الطبقة (١) : أَصْفَرُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمنِ ، من أخوال طوق بن مالك . ومن خطبائهم وفقهائهم وعلمائهم : الْمُقَعْطِلُ ، قاضى عسكر الأزارقة أيام قَطَرِيّ . ومن شعرائهم ورؤسائهم وخطبائهم : عُبَيْدَةُ بْنُ هِلَالٍ الْيَشْكُرِيُّ ، (٢) وكان فى بنى السمين ، ومن بنى شيبان خطباء العرب ، وكان فيهم ذاك فاشياً ، ولذلك قال الْأَخْطَلُ :

فَأَيْنَ السَّمِينُ لَا يَقُومُ خَطِيبُهَا ... وَأَيْنَ ابْنُ ذِي الجَدَّيْنِ لَا يَتَكَلَّمُ

وقال سُحَيْمُ بْنُ حَفْصٍ : كان يَزِيدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ رُؤْبَةَ الشيبانى من أخطب الناس عند يزيد بن الوليد ، فأمر للناس بعطاءين . ومن الخطباء : مَعْبَدُ بْنُ طَوْقٍ الْعَنْبَرِيُّ ، دخل على بعض الأمراء فتكلم وهو قائم فأحسن ، فلما جلس تَلَهْيَعَ (٣) فى كلامه ، فقال له : ما أظرفك قائما وأموقك قاعدا !؟ قال : إنى إذا قمت جددت وإذا قعدت هزلت ! قال : ما أحسن ما خرجت منها . ومن خطباء عبد القيس : مَصْقَلَةُ بن رَقَبة ، وكرب بن رقبة .

والعرب قد ذكروا من خطب العرب « العجوز » وهى خطبة لآل رقبة . ومتى تكلموا فلا بد لهم منها أو من بعضها . و « العذراء » وهى خطبة قَيْسِ بْنِ

(١) كان بالأصل : ومن أهل هذه الصفة . وهو خطأ ، والصواب ما أثبتناه

(٢) هو عبيدة بن هلال اليشكري ، كان من زعماء الخوارج وأبطالهم وأهل النجدة منهم ، وكان فاتكا لايبالي ماصنع . وكان مع هذا ذا رأي وحزم وتدبير . اراد الخوارج ان يولوه عليهم فابى واشار عليهم باختيار قطرى بن الفجاءة

(٣) تلهيع : تكلف الكلام

خارجة، لأنه كان أبا عُذْرِهَا. و« الشوهاء » وهى خطبة سَحْبَانَ بْنِ وَائِلٍ، وقيل لها ذلك من حسنها، وذلك أنه خطب بها عند معاوية فلم ينشد شاعر ولم يخطب خطيب

وكان ابنُ عَمَّارٍ الطائى خطيب مَذْحِجٍ كلها، فبلغ النعمان حسن حديثه فحمله على منادمته، وكان النعمان أحمر العينين أحمر الجلد أحمر الشعر، وكان شديد العربدة قتالا للندماء، فنهاه أبو قَرْدُودَةَ الطائى عن منادمته، فلما قتله رثاه فقال:(١)

إنى نَهَيْتُ ابْنَ عَمَّارٍ وَقُلْتُ لَهُ ... لاتَأْمَنَنْ أَحْمَرَ الْعَيْنَيْنِ وَالشَّعَرَهْ
إنَّ الْمُلُوكَ مَتَى تَنْزِلْ بِسَاحَتِهِمْ ... تَطِرْ بِنَارِكَ مِنْ نِيرَانِهِمْ شَرَرَهْ
يَاجَفْنَةً كَإِزَاءِ الْحَوْضِ قَدْ هَدَمُوا ... وَمَنْطِقاً مِثْلَ وَشْيِ الْيُمْنَةِ الْحِبَرَهْ

وقال الأصمعى: هو كقوله:

وَمَنْطِقٌ خُرِّقَ بِالْعَوَاسِلِ ... لَذٍّ كَوَشْيِ الْيُمْنَةِ الْمَرَاجِلِ.

وسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عَمْرَو بْنَ الْأَهْتَمِ عن الزِّبْرِقَانِ بن بدر فقال: إنه لمانع لحوزته مطاع فى أذينه!(٢) قال الزبرقان: يا رسول الله، إنه ليعلم منى أكثر مما قال ولكنه حسدنى يا رسول الله فى شرفى فقصر بى! فقال عمرو: هو والله زَمِرُ الْمُرُوءَةِ ضيق العطن لئيم الخال! فنظر النبى صلى الله عليه وسلم فى عينيه!؟ فقال: يا رسول الله، رضيت فقلت أحسن ما علمت وغضبت فقلت أقبح ما علمت، وما كذبت فى الأولى ولقد صدقت فى الآخرة. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْراً »

وتكلم رجل فى حاجة عند عمر بن عبد العزيز — وكانت حاجته فى قضائها مشقة — فتكلم الرجل بكلام رقيق موجز وتأتى لها، فقال عُمَرُ: والله إن هذا للسحر الحلال!

ومن أصحاب الأخبار والآثار: أَبُو بَكْرِ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِى سَبْرَةَ،

(١) راجع صفحة ١٨٩
(٢) اذينه: اذين الرجل قومه الذين يقوم عليهم زعيما

وكان القاضى قبل أبى يوسف . ومن أصحاب الأخبار والآثار : أبو هُنَيْدَةَ ، وأبو نعامَةَ العدويان . ومن الخطباء : أيُّوب بن القِرِّيَّةِ وهو الذى لما دخل على الحجاج قال له : ما أعددت لهذا الموقف ؟ قال : ثلاثة حروف كأنهن ركب وقوف دنيا وآخرة ومعروف . ثم قال له فى بعض ما يقول : أقلنى عثرتى وأسغنى ريقى فإنه لا بد للجواد من كبوة وللسيف من نبوة وللحليم من هفوة ؟ قال : كلا والله حتى أوردك جهنم ! ألست القائل برُستاقاباذ : تعدو الجدى قبل أن يتعشا كم . . ؟ !

ومن خطباء غطفان فى الجاهلية : خُوَيْلِدُ بْنُ عَمْرٍو ، والعشراء بن جابر ابن عقيل بن هلال بن سمى بن مازن بن فزارة وخويلد خطيب يوم الفِجار . ومن أصحاب الأخبار والنسب والخطب وأهل البيان : الْوَضَّاحُ بْنُ خَيْثَمَةَ . ومن أصحاب الأخبار والنسب والخطب والحكام عند أصحاب النفورات : بنو الكوَّاء ، وإياهم يعنى مِسْكِينُ بْنُ أُنَيْفٍ الدَّارِمىُّ حين ذكر أهل هذه الطبقة فقال :

كِلانَا شَاعِرٌ مِنْ حَىِّ صِدْقٍ ... وَلٰكِنَّ الرَّحَى فَوْقَ الثِّفَالِ (١)

وَحَكِّمْ دَغْفَلاً وَارْحَلْ إِلَيْهِ ... وَلاَ تَرْحِ المَطِىَّ مِنَ الكَلاَلِ

تَعَالَ إِلَى بَنِى الكَوَّاءِ يَقْضُوا ... بِعِلْمِهِمِ بِأَنْسَابِ الرِّجَالِ

تَعَالَ إِلَى ابْنِ مَذْعُورٍ شِهَابٍ ... يُنَبِّى بِالسَّوَافِلِ وَالعَوَالِى

وَعِنْدَ الكَيِّسِ النَّمَرِىِّ عِلْمٌ ... وَلَوْ أَضْحَى بِمُنْخَرَقِ الشَّمَالِ

ومن الخطباء القدماء : كَعْبُ بْنُ لُؤَىٍّ ، وكان يخطب على العرب عامة ، ويحض كنانة خاصة على البر ، فلما مات أكبروا موته فلم تزل كنانة تؤرخ بموت كعب بن لؤى إلى عام الفيل .

ومن الخطباء الأبيناء العلماء الذين جروا من الخطبة على أعراق قديمة : شَبِيبُ ابن شيبة ، وهو الذى يقول فى صالح بن أبى جعفر المنصور — وقد كان المنصور

(١) الثفال : رقعة من الجلد تفرش تحت الرحى

أقام صالحا فتكلم — فقال شبيب : ما رأيت كاليوم أبين بيانا ولا أجود لسانا ولا أربط جنانا ولا أبل ريقا ولا أحسن طريقا ولا اغمض عروقا ، من صالح ! وحق لمن كان أمير المؤمنين أباه والمهدى أخاه أن يكون كما قال زُهَيْرٌ :

يَطْلُبُ شَأْوَ امْرَأَيْنِ قَدَّمَا حَسَنًا ... نَالاَ الْمُلُوكَ وَبَذَّا هَذِهِ السُّوقَا(١)

هُوَ الْجَوَادُ فَإِنْ يَلْحَقْ بِشَأْوِهِمَا ... عَلَى تَكَالِيفِهِ فَمِثْلُهُ لَحِقَا

أَوْ يَسْبِقَاهُ عَلَى مَا كَانَ مِنْ مَهَلٍ ... فَمِثْلُ مَا قَدَّمَا مِنْ صَالِحٍ سَبَقَا

وخرج شبيب من دار الخلافة يوماً فقال له قائل : كيف رأيت الناس ؟ قال: رأيت الداخل راجيا والخارج راضيا . وقال خالد بن صفوان : إتقوا مجانيق الضعفاء ! يريد الدعاء . وقال شبيب : أطلب الأدب فانه دليل على المروءة وزيادة فى العقل وصاحب فى الغربة وصلة فى المجلس . وقال شبيب المهدى يوما : أراك الله فى بنيك ما أرى أباك فيك ، وأرى الله بنيك فيك ماأراك فى أبيك .

وقال أبو الحسن:قال زَيْدُ بْنُ عَلِيِّ بن الحسين : أطلب ما يعنيك وأترك مالا يعنيك ، فان فى طلب مالا يعنيك دركا لما يعنيك ، وإنما تقدم على ما قدمت ولست تقدم على ما أخرت ، فآثر ما تلقاه غدا على مالا تراه أبدا . أبو الحسن عن ابراهيم بن سعد قال : قال خَالِد بْنُ صَفوان : ما الانسان لولا اللسان إلا صورة ممثلة أو بهيمة مهمله . أبو الحسن قال : كان أبو بكر خطيبا ، وكان عُمرُ خطيبا ، وكان عثمان خطيبا ، وكان على خطيبا. وكان من الخطباء: معاوية ، ويزيد ، وعبد الملك، ومعاوية بن يزيد، ومروان، وسليمان، ويزيد بن الوليد ، والوليد بن عبد الملك، وعمر بن عبد العزيز . ومن خطباء بنى هاشم: زيد بن على، وعبد الله بن حسن، وعبد الله بن معاوية ، خطباء، لا يجارون . ومن خطباء النساك والعباد : الحسن بن أبى الحسن البصرى، ومُطَرِّفُ بنُ عبد الله الحرشى، ومؤرق العجلى، وبكر بن عبد الله المزنى ، ومحمد بن واسع الازدى(٢) ويزيد بن أبان الرقاشى، ومالك بن دينار السامى

(١) الشأو : الغاية

(٢) هو ابو بكر محمد بن واسع بن جابر الازدى . كان عالما زاهدا ناسكا مجاهدا غزاه، مات سنة ١٢٧ ه

وليس الأمر كما قال ، فى هؤلاء القاص المجيد والواعظ البليغ وذو المنطق الوجيز ، فأما الخطب فانا لا نعلم أحدا يتقدم الحسن البصرى فيها ، وهؤلاء وإن لم يسموا خطباء فان الخطيب لم يكن يشق غبارهم .

أبو الحسن قال : حدثنى أبو سليمان الحميرى قال : كان هشام بن عبد الملك يقول : إنى لأستصفق العمامة الرقيقة أن تكون على أذني إذا كان عبد الاعلى بن عبد الله بن عامر يتكلم مخافة أن يسقط عنى من حديثه شىء . ومن الخطباء من بنى عبد الله بن غطفان : أبو البلاد ، وكان راوية ناسبا . ومنهم : هاشم بن عبد الاعلى الفزارى . ومن الخطباء : حَفْصُ بنُ مُعاوية الغلابى ، وكان خطيبا وهو الذى قال — حين أشرك سليمان بن على بينه و بين مولى له على دارة القتب — : أشركت بينى و بين غير الكفى ووليتنى غير السنى ؟ ! ومن بنى هلال بن عامر : زُرْعَةُ بنُ ضَمْرَةَ ، وهو الذى قيل : لولا غلو فيه ما كان كلامه إلا الذهب ! وقام عند معاوية بالشام خطيبا فقال معاوية : ياأهل الشام ، هذا خالى فأتوني بخال مثله ؟ ! وكان ابنه النُّعمان بن زُرعة بن ضَمرة من أخطب الناس وهو أحد من كان تخلص من الحجاج من فَلِّ ابن الأشعث بالكلام اللطيف .

قال سُحَيمُ بنُ حَفْصٍ : ومن الخطباء : عاصم بن عبد الله بن يزيد الهلالى ، تكلم هو وعبد الله بن الاهتم عند عمر بن هبيرة يفضل عاصما عليه ، فقال قائل يومئذ الخل الحامض ما لم يكن ماء . ومن خطباء بنى تميم : عَمْرُو بن الاهتم ، وكان يدعى المُكَحَّلُ لجماله ، وهو الذى قيل فيه : انما شعره حُلل مُنشرة بين أيدى الملوك تأخذ منه ماشاءت ، ولم يكن فى بادية العرب فى زمانه أخطب منه . ومن بنى منقر : عبد الله بن الاهتم ، وكان خطيبا ذا مقامات ووفادات . ومن الخطباء : صفوان ابن عبد الله بن الاهتم ، وكان خطيبا رئيسا ، وابنه خالد بن صفوان ، وقد وفد إلى هشام وكان من سمار أبى العباس . ومنهم : عبد الله بن عبد الله بن الاهتم ، قد ولى خراسان ووفد على الخلفاء ، وخطب عند الملوك . ومن ولده : شبيب بن

شيبة بن عبد الله بن عبد الله بن الاهتم ، وعبد الله بن عبد الله بن عبد الله بن الاهتم ، وخاقان بن الاهتم وهو عبد الله بن عبد الله بن عبد الله بن الاهتم . ومن خطبائهم : محمد الاحول بن خاقان ، وكان خطيب بنى تميم ، وقد رأيته وسمعت كلامه . ومن خطبائهم : مُعَمَّرُ بْنُ خَاقَانٍ ، وقد وفد . ومن خطبائهم : مؤمل بن خاقان ، وقال أبو الزبير الثقفى : ما رأيت خطيبا من خطباء الامصار أشبه بخطباء البادية من المؤمَّل بن خاقان . ومن خطبائهم : خَاقَانُ بْنُ الْمُؤَمل بن خَاقَان . وكان صباح ابن خاقان ذا علم وبيان ومعرفة وشدة عارضة وكثرة رواية ، مع سخاء واحتمال وصبر على الحق ونصرة للصديق وقيام بحق الجار . ومن بنى منقر : الحكم بن النضر وهو أبو العلاء المنقرى ، وكان يصرف لسانه حيث شاء ، مع جهارة واقتدار . ومن خطباء بنى صُرَيم بن الحارث : الخزرج بن الصَّدي . ومن خطباء بنى تميم ثم من مقاعس : عمارة بن أبى سليمان . ومن ولد مالك بن سعيد : عبد الله وخير ابنا حبيب ، كانا ناسبين عالمين أديبين دينين . ومن وِلد مالك بن سعيد : عبد الله والعباس ابنا رؤبة ، وكان العباس علامة ناسبا راوية ، وكان عبد الله أرجز الناس وأفصحهم ، ويكنى أبا الشعثاء ، وهو العجاج .

ومن أصحاب الأخبار والنسب : أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، ثم جُبَيْرُ ابنُ مُطْعِمٍ ، ثم سَعيد بن المسيب ، ثم محمد بن سعيد بن المسيب ، ثم قتادة ، وعبيد الله ابن عبد الله بن عتبة المسعودى [1] الذى قال فى كلمة له فى عمر بن عبد العزيز وعبد الله ابن عثمان بن عفان رضى الله عنهما :

فَمِنَّا تُرَابَ الأَرْضِ مِنْهُ خُلِقْتُمَا ... وَفِيهِ المَعَادُ وَالمَصِيرُ إِلَى الحَشْرِ
وَلاَ تَأْنَفَا أَنْ تَرْجِعَا فَتُسَلِّمَا ... فَمَا حُشِيَ الإِنْسَانُ شَرًّا مِنَ الكِبْرِ
فَلَوْ شِئْتُ أَدْلَى فِيكُمَا غَيْرُ وَاحِدٍ ... عَلاَنِيَةً أَوْ قَالَ عِنْدِي فِي سِرِّ

(١) كان عالما فقيها محدثا شاعرا راوية ، وهو من شيوخ الزهرى فى الحديث والرواية ، وكان الزهرى يقوم له إذا خرج فلما ظن انه استنفد ما عنده لم يقم له ، فقال له : إنك فى العزاز فقم . والعزاز ما غلظ من الأرض . يقول له إنك ما زلت بعد فى الأطراف . مات سنة ٩٨ هـ

ضَحِكْتُ لهُ حَتَّى يَلِجَّ وَيَسْتَشْرِى ... فإنْ أنا لمْ آمرْ ولمْ أنهَ عنكُمَا

وهو الذى قيل له : كيف تقول الشعر مع النُّسك والفقه ؟ فقال : إن المصدور لا يملك أن ينفُث . وقد ذكر المصدور أبو زُبيدٍ الطائى فى صفة الأسد فقال :

كَأنَّمَا هُوَ مِنْ أحْشَاءِ مَصْدُورِ ... لِلصَّدْرِ مِنْهُ عَوِيلٌ فِيهِ حَشْرَجَةٌ

ومن خطباء هُذيل: أبو المليح الهُذلى أسامة بن عمير . ومنهم : أبُو بَكر الهذلى ، كان خطيبا قاصاً وعالما بينا وعالما بالأخبار والآثار ، وهو الذى لما فاخر أهل الكوفة قال : لنا السَّاج والعاج والديباج والخراج والنهر العجاج .

باب من أسماء الكهان والحكام والخطباء والعلماء من قحطان

قالوا : أكهن العرب وأسجعهم : سَلَمَةُ بن أُبى حَيَّة وهو الذى يقال له عُزى سلمة . ومنهم ومن خُطباء عُمان : مُرة بن فَهْم التَّلِيدِ ، وهو الخطيب الذى أوفده المهلب إلى الحجاج . ومن العَتِيك: بِشْرُ بنُ المُغيرَةَ بن أبى صُفرة ، وهو الذى قال لبنى المهلب : يابنى عمى ، إنى والله قد قصرت عن شَكاة العاتب وجاوزت شَكاة المُستعتب حتى كأنى لست موصولا ولا محروماً ، فعُدونى امرأ خفتم لسانه أورجوتم شكره ، وإنى وإن قلت هذا فلما أبلانى الله بكم أعظم مما أبلاكم بى .

ومن خطباء اليمن ثم من حِمْيَر: الصَّبَّاح بنُ شَفِى الحِمْيرىُّ ، كان أخطب العرب. ومنهم ثم من الأنصار : قَيْسُ بنُ الشَّماسِ ، ومنهم : ثابت بن قيس بن الشماس خطيب النبى صلى الله عليه وسلم.ومنهم : رَوْحُ بن زِنْبَاعٍ ، وهو الذى لما هم به معاوية قال: لا تُشمتن بى عدواً أنت وقمته ولا تسوءن بى صديقا أنت سررته ولا تهدمن منى ركنا أنت بنيته ، هلا أتى حلمك وإحسانك على جهلى وإساءتى..؟ ومن خطبائهم : الأسودُ الكذابُ بنُ كعب العَنْسِى . وكان طُلَيْحَةُ خطيبا وشاعرا وسجاعا كاهناناسبا . وكان مُسيلِمَةُ الكذاب بعيدا من ذلك كله . وثابتُ ابن قيس بن شماس هو الذى قال لِعَامِرٍ حين قال : أما والله لئن تعرضت لِعَنَّى وفَنِّى

وذكا. سني لتولين عني! فقال له ثابت: أما والله لئن تعرضت لِسِبابي وشبا أنيابي وسرعة جوابي لتكرهن جنابي، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «يكفيك الله وأبناء قَيْلة»(١). وأخذت هذا الحديث من رجل يصنع الكلام فأنا أتهمه. ومن خطباء الأنصار: بشرُ بنُ عمرو بن محصن، وهو أبو عمرة الخطيب. ومن خطباء الانصار: سعدُ بن الرَّبيع، وهو الذى اعترضت ابنته النبى صلى الله عليه وسلم فقال لها: من أنت؟ فقالت: ابنة الخطيب النقيب الشهيد؛ سعد بن الربيع. ومنهم: خال حسان بن ثابت، وفيه يقول حسان:

إنَّ خَالِي خَطِيبُ جَابِيَةَ الجوْ … لَانَ عِنْدَ النُّعْمَانِ حَيْثُ يَقُومُ

وإياه يعني حسان بقوله:

رُبَّ خَالٍ لِيَ لَوْ أَبْصَرْتَهُ … سَبِطِ المِشْيَةِ فِي اليَوْمِ الخَصِرْ

ومنهم من الرواة والنسابين والعلماء: شَرْقِيُّ بْنُ القَطَامِيِّ الكَلْبِيُّ، ومحمد بن السائب الكلبي، وعبدُ الله بن عياش الهَمْدَانِيُّ، وهِشَامُ بْنُ مُحمد بن السائب الكلبي، والهيثمَ بْنُ عدى الطائى، وأبو رَوق الهَمْدَانِي واسمه عطية بن الحارث، وأبو مِخْنَفٍ لُوطُ بْنُ يحيي الأزدى، ومحمد بن عمر الأسلمي الواقدى، وعوانة الكلبي، وابن عُيينة المهلبي، والخليل بن احمد الفراهيدى، وخلف بن حيان الأحمر الأشعرى.

قالوا: ومنا فى الجاهلية: عُبَيْدُ بْنُ شَرِيَّةَ(٢) ومنا: شِقُّ بن الصعب، ومنا: ربيع بن ربيعة السطيح الذئبي، ومنا: المأمور الحارثى، والديان بن عبد المدان الحارثى، الشريفان الكاهنان. ومنهم: عَمْرُو بْنُ حَنْظَلَةَ بن نَهْدِ الحكم، وله يقول القائل: حنظلة بن نهد، خير ناس من معد.

---

(١) ابناء قيلة: الاوس والخزرج.

(٢) هو عبيد بن شرية الجرهمي، ادرك عهد النبي ولم يلقه ولم يسمع منه شيئاً وزعم ابن الكلبي انه عاش ثلاثمائة سنة وادرك معاوية وانشده اشعارا وروى له اخبارا. استقدمه معاوية من صنعاء اليمن وسأله عن اخبار المتقدمين من ملوك العرب والعجم وسبب تبلبل الالسنة وتفرق الناس في البلاد. فلما اجابه امر معاوية بتدوين ماقال معزوا إليه. وعاش عبيد إلى عهد عبد الملك. وله كتب.

ومنهم : أبو الشَّطَّاح اللَّخمِيُّ ، وجمع مُعاويةُ بينه و بين دَغْفَلِ بن حنظلة البكري . ومنهم : أبو الكناس الكندي ، ومنهم : أبو مخوس الكندى ، وكانا ناسبين عالمين . ومن أصحاب الأخبار والآثار : عبدُ الله بن عُتْبة بن لهيعة ، ويكنى أبا عبد الرحمن .

ومن القدماء فى الحكمة والخطابة والرياسة : عُبَيْدُ بن شَرِيَّةَ الْجُرْهمِى ، وأسقف نجران ، وَأُكَيدِرُ صاحبُ دومة الجندل ، وَأَفْعَى نجران ، وذَرِبُ بن حَوْطٍ ، وَعُلَيْمُ بن جناب ، وعمرو بن ربيعة ، وهو لُحَيُّ بن حارثة بن عمرو مزيقيا ، وجذيمة بن مالك الأبرش ، وهو أول من أسرج الشمع ورمى بالمنجنيق .

باب ذكر النساك والزهاد من أهل البيان

عامر بن عبد قيس ، وَصِلَةُ بن أَشْيَمٍ ، وعثمان بن أدهم ، وصفوان بن محرز ، والأسود بن كلثوم ، والربيع بن خثيم ، وعمرو بن عتبة بن فرقد ، وهَرِمُ بْنُ حيان ، (١) ومؤرق العجلى (٢) و بكر بن عبد الله بن الشخير الحرشى . و بعد هؤلاء : مالك بن دينار ، وحبيب أبو محمد ، و يزيد الرقاشي ، وصالح المرى ، وأبو حازم الأعرج (٣) ، وزياد مولى عياش بن أبي ربيعة ، وعبد الواحد بن زياد (٤) وحيان أبو الأسود ، ودهثم أبو العلاء . ومن النساء : رَابِعَةُ القَيْسِيَّةُ ، ومعاذة العدوية

(١) هو هرم بن حيان من عبد القيس ، كان من خيار الناس وأماثلهم ، وكان من ولاة عمر بن الخطاب ، وكان يلى قيادة عبد القيس يوم فتح توج .

(٢) هو أبو المعتمر مورق بن المشمرج العجلى ، كان من العباد الزهاد ، وكان جوادا كريماً ، ربما دخل على بعض إخوانه فوضع عندهم الدراهم ويقول امسكوها حتى أعود إليكم فاذا خرج قال أنتم في حل منها ، توفى فى ولاية عمر بن هبيرة على العراق

(٣) هو سلمة بن دينار أبو حازم المدنى الأعرج ، كان عابداً صالحاً زاهدا ، وكان له حمار يركبه إلى مسجد المدينة حيث كان يقص فيه ، مات ١٤١ ه

(٤) هو عبد الواحد بن زياد الثقفى ، كان مولى لعبد القيس ، وكان على صلاح وتقوى وورع . مات سنة ١٩٧ ه

امرأة صِلَة بن أَشْيَم (١) ، وأم الدرداء . ومن نساء الخوارج : أَلْبَلْجاء ، وَغَزَالَة ، وَقطام ، وَحَمَّادَةُ ، وَكَحِيلَةُ (٢) . ومن نساء الغالية ليلَى الناعطية ، والصَّدوف ، وهند .

وممن كان من النساك ممن أدركناه : أبو الوليد وهو الحكم الكندى ، ومحمد بن محمد بن الحمرانى . ومن القدماء ممن كان يذكر بالقدر والرياسة والبيان والخطابة والحكمة والدهاء والنكراء : لقمان بن عاد ، ولقيم بن لقمان ، ومجاشع بن دارم ، وسليط بن كعب بن يربوع ، سموه بذلك لسلاطة لسانه ، وقال جرير : « إن سليطاً كاسمه سليطا » . ولؤى بن غالب ، وقس بن ساعدة ، وقصى بن كلاب . ومن الخطباء البلغاء الحكام الرؤساء : أَكْثَمُ بْنُ صَيْفِيٍّ ، وربيعة بن حُذار ، وهَرِمُ بن قُطبة ، وعامر ابن الظرب ، ولبيد بن ربيعة وكان من الشعراء . وأسماء الصوفية من النساك ممن يجيد الكلام : كلاب ، وكليب ، وهاشم الأوقص ، وأبو هاشم الصوفى ، وصالح ابن عبد الجليل . ومن القدماء العلماء بالنسب وبالغريب : أَلْخَطَفَى ، وهو جد جرير بن عطية بن الخطفى ، وهو حُذيفة بن بَدر بن سَلمة بن عُوف بن كُليب ابن يربوع ، وإنما سمي الخطفى لأبيات قالها :

يَرْفَعْنَ بِاللَّيْلِ إِذَا مَا أَسْدَفَا أَعْنَاقَ جِنَّانٍ وَهَاماً رُجَّفَا
وَعَنَقاً بَاقِيَ الرَّسِيمِ خَيْطَفَا (٣)

(١) اما رابعة القيسية فهى رابعة بنت اسماعيل العدوية ، كانت من افاضل الزهاد ، ولها كلام جيد يدور على السنة اهل الورع . ماتت سنة ١٣٥ واما معاذة فهى بنت عبد الله العدوى وكانت تكنى ام الصهباء . روت عن على وعائشة وروى عنها الشيوخ ، وكان ابن معين يوثقها . ماتت سنة ٨٣ ه

(٢) اما البلجاء فهى امراة من بنى حرام ، كانت من القانتات المجتهدات من نساء الخوارج اخرجت فى ولاية عبيد الله بن زياد على البصرة فاخذها وقطع يديها ورجليها ورمى بها فى السوق . واما غزالة فهى زوجة شبيب الخارجي وكانت من اشجع الناس وافرسهم . وردت الكوفة وهى غاصة بجيوش الدولة وطلبت الحجاج إلى المبارزة فاحتجب عنها فعير بذلك . قتلت فى احدي المعارك . واما قطام وكحيلة فهما من بابة البلجاء فى التمسك بالعقيدة والدفاع عنها ، خرجتا مع الخوارج فى ولاية ابن عامر البصرة ، فعير الناس الخوارج من اجلهما . وحمادة كذلك

(٣) قال الجاحظ : العنق ضرب من السير وهو المنبطر ، فاذا ارتفع عن العنق قليلا فهو التزيد ، فاذا ارتفع عن ذلك فهو التميل ، والرسيم فوق التميل . والخيطف السريع أى يخطف كما يختطف البرق ، وخيطف من الخطف والياء زائدة فى خيطف ، كما قالوا رجل صيرف من الصرف ، ورجل حيدر من الحدر وهو القصر ، وأصل الخطف الأخذ فى سرعة ثم استعير لكل سريع .

ذكر القصاص

قص الأسود بن سريع ، وهو الذى قال :

فإنْ تَنْجُ منْها تَنْجُ مِنْ ذِى عَظِيمَةٍ ... وَإلَّا فإنِّى لَا إخَالُكَ نَاجِيَا

وقص الحسن ، وسعيد بن الحسن . وكان جعفر بن الحسن أول من اتخذ فى مسجد البصرة حلقة وأقرأ القرآن [فيها] وقص إبراهيم التيمى ، وقص عبيد الله بن عمير الليثى وجلس إليه عبد الله بن عمر ، حدثنى بذلك عمرو بن قائد باسناد له . ومن القصاص : أبو بكر الهذلى وهو عبد الله بن أبى سليمان وكان خطيبا بينا صاحب أخبار وآثار . وقص ابنه مُطَرف بن عبد الله بن الشخير فى مكان أبيه . ومن كبار القصاص ثم من هذيل : مسلم بن جُندَب ، وكان قاص مسجد النبى صلى الله عليه وسلم بالمدينة وكان إمامهم وقارئهم ، وفيه يقول عمر بن عبد العزيز : من سره أن يسمع القرآن غضاً فليسمع قراءة مسلم بن جندب . ومن القصاص : عبد الله بن عرادة بن عبد الله بن الوَضين ، وله مسجد فى بنى شيبان . ومن القصاص : موسى الأسوارى ، وكان من أعاجيب الدنيا ، كانت فصاحته بالفارسية فى وزن فصاحته بالعربية ، وكان يجلس فى مجلسه المشهور به فيقعد العرب عن يمينه والفرس عن يساره ، فيقرأ الآية من كتاب الله ويفسرها للعرب بالعربية ثم يحول وجهه إلى الفرس فيفسرها لهم بالفارسية ، فلا يُدرَى بأى لسان هو أبين . واللغتان إذا التقتا فى اللسان الواحد أدخلت كل واحدة منهما الضيم على صاحبتها، إلا ما ذكروا من لسان موسى بن سيار الأسوارى ، ولم يكن فى هذه الأمة بعد أبى موسى الأشعرى أقرأ فى محراب من موسى بن سيار ، ثم عثمان بن سعيد بن أسعد ، ثم يونس النحوى ، ثم المعلى . ثم قص فى مسجده : أبو على الاسوارى وهو عمرو بن قائد ستا وثلاثين سنة ، فابتدأ لهم فى تفسير سورة البقرة فما ختم القرآن حتى مات ، لأنه كان حافظا للسير ولوجوه التأويلات فكان ربما يفسر آية واحدة فى عدة أسابيع ، كأن الآية ذكر فيها يوم بدر . وكان هو يحفظ مما يجوز أن يلحق

فى ذلك من الأحاديث الكثيرة، وكان يقص فى فنون كثيرة من القصص ويجعل للقرآن نصيبا من ذلك، وكان يونس بن حبيب يسمع منه كلام العرب ويحتج به، وخصاله المحمودة كثيرة. ثم قص من بعده: ألقاسم بن يحيى، وهو أبو العباس الضرير، لم يدرك فى القصاص مثله. وكان يقص معهما وبعدهما: مالك بن عبد الحميد المكفوف، ويزعمون أن أبا على لم يسمع منه كلمة غيبة قط ولا عارض أحدا من المخالفين والحساد والبغاة بشىء من المكافأة. فأما صالح المرى فإنه كان يكنى أبا بشر وكان صحيح الكلام رقيق المجلس، فذكر أصحابنا أن سفيان بن حبيب لما دخل البصرة وتوارى عند مرحوم العطار قال له مرحوم: هل لك أن تأتى قاصا عندنا فتتفرج بالخروج والنظر إلى الناس والاستماع منه؟ فأتاه على تكره كأنه ظنه كبعض من يبلغه شأنه، فلما أتاه وسمع منطقه وسمع تلاوته للقرآن وسمعه يقول: حدثنا سعيد عن قتادة، وحدثنا قتادة عن الحسن، رأى بيانا لم يحتسبه ومذهبا لم يكن يدانيه، فأقبل سفيان على مرحوم فقال: هذا ليس قاصا، هذا نذير.!

باب ما قيل فى المخاصر والعصى وغيرهما

كانت العرب تخطب بالمخاصر وتعتمد على الأرض بالقسى وتشير بالعصى والقنا نعم حتى كانت المخاصر لا تفارق أيدى الملوك فى مجالسها ولذلك قال الشاعر: (١)

(١) هذا الشاعر مختلف فيه وفى هذه الأبيات فمن الناس من يرويها للفرزدق فى على بن الحسين، ومنهم من يرويها لداود بن سلم فى قثم بن العباس، ومنهم من يرويها للحزين فى عبد الله بن عبد الملك وهو عند عبد العزيز بن مروان فى مصر، ومنهم من يرويها لخالد بن يزيد مولى قثم فيه. والذى صح عند أبى الفرج أن الحزين قال فى عبد الله بن عبد الملك:

الله يعلم أن قد جئت ذا يمن ... ثم العراقين لا يثنينى السأم
ثم الجزيرة أعلاها وأسفلها ... كذاك تسرى على الأهوال بى القدم
ثم المواسم قد أوطأتها زمنا ... وحيث تحلق عند الجمرة اللمم
قالوا دمشق ينبيك الخبير بها ... ثم ائت مصر فثم النائل العمم
لما وقفت عليه فى الجموع ضحى ... وقد تعرضت الحجاب والخدم
حييته بسلام وهو مرتفق ... وضجة القوم عند الباب تزدحم
فى كفه خيزران ريحها عبق ... من كف أروع فى عرنينه شمم

فى كفِّهِ خيزُرانٌ رِيحُها عبِقٌ بِكفِّ أَرْوَعَ فى عِرْنينِهِ شَمَمُ
يُغضِى حياءً ويُغضَى مِنْ مهابتِهِ فَمَا يُكَلَّمُ إلَّا حِينَ يَبْتَسِمُ
إنْ قالَ قالَ بما يهوَى جميعُهُمُ وإنْ تكلَّمَ يوْماساخَتِ الكَلِمُ
يكادُ يُمسِكُهُ عِرْفانُ راحتِهِ رُكْنُ الحطيمِ إذا ماجاءَ يستلِمُ
كَمْ هاتفٍ لكَ مِنْ داعٍ وداعيةٍ يدعُونَ يا قُثَمَ الخيْراتِ يا قُثَمُ

وقال الشاعر قولا فسر فيه ما قلنا قال :

مجالِسُهُمْ خفضُ الحديثِ وقولُهم إذا ماقضَوْا فى الأمْرِ وحْيُ المخاصِرِ

وقال الكُميْتُ بنُ زيْدٍ :

وَنَزُورُ مَسْلَمَةَ المهذَّ بَ بالمؤبَّدةِ السَّوائرْ[١]
بالمُذْهَباتِ المُعْجِبا تِ لِمُفْحَمٍ مِنَّا وشاعِرْ
أَهْلِ التَّجاوُبِ والمحا فِلِ والمقاوِلِ بالمخاصِرْ
فهُمُ كذلكَ فى المجا لِسِ والمحافِلِ والمشاعِرْ

وكما قال الأنصارى فى المجامع حيث يقول :

وسارَتْ بِنَا سيَّارةٌ ذاتُ سُورَةٍ بِكُومِ المطايا والخُيُولِ الجماهِرِ[٢]
يَؤُمُّونَ مُلْكَ الشَّامِ حَتَّى تمكَّنُوا مُلُوكًا بأرْضِ الشَّامِ فوْقَ المنابِرِ

يغضى حياء ويغضى من مهابته فما يكلم إلا حين يبتسم
ترى رؤس بنى مروان خاضعة يمشون حول ركابيه وما ظلموا
إن هش هشوا له واستبشروا جذلا وإن همو آنسوا إعراضه وجموا
كلتا يديه ربيع عند ذى خلف بحر يفيض وهذى عارض هزم

ويروون هذين البيتين لداود بن سلم في قثم بن العباس ، وهما :

يكاد يمسكه عرفان راحته ركن الحطيم إذا ماجاء يستلم
كم صارخ بك من راج وراجية في الناس : ياقثم الخيرات ياقثم

فأنت ترى أن رواية الجاحظ خليط من الروايات فى هذه الأبيات .

(١) هو مسلمة بن عبد الملك . كان بالاصل : بالمؤبده السرائر ، وهو خطأ ، والصواب ما أثبتناه . والمؤبدة السوائر : قصائد الشعر

(٢) الكوم جمع كوماء ، وهى الناقة العظيمة السنام

يُصِيبُونَ فَصْلَ الْقَوْلِ فِى كُلِّ خُطْبَةٍ إذا وَصَلُوا أيمانَهُمْ بالمَخَاصِرِ

وفى المخاصر والعصى ، وفى خدّ وجه الأرض بأطراف القِسِىّ ، قال الحطيئة :

أَمْ مَنْ لِخَصْمٍ مُضْجِعِينَ قِسِيَّهُمْ صُعْرٍ خُدُودُهُمُ عِظَامِ المَفْخَرِ

وقال لبيد بن ربيعة فى الإشارة :

غُلْبٌ تَشَذَّرُ بالذُّحُولِ كأنَّها جِنُّ البَدِىِّ رَوَاسِياً أقْدامُها

وقال فى خد وجه الأرض بالعصى والقسى :

يَشِينَ صِحَاحَ الْبِيدِ كُلَّ عَشِيَّةٍ بِعُوجِ السَّرَاءِ عِنْدَ بَابِ مُحَجَّبِ (١)

وفى مثله يقول الشاعر :

إذَا اقْتَسَمَ النَّاسُ فَضْلَ الْفَخَارِ أطَلْنَا عَلَى الأرْضِ مَيْلَ الْعَصَا

وقال الآخر :

كَتَبَتْ لَنَا فى الأرْضِ يَوْمَ مُحَرِّقٍ أيَّامُنَا فى الأرْضِ يَوْمًا فَيْصَلاَ

وقال لبيد بن ربيعة فى ذكر القسى :

مَا إنْ أهَابُ إذَا السُّرَادِقُ غَمَّهُ قَرْعُ القِسِىِّ وَأرْعَشَ الرِّعْدِيدُ

وقال مَعْنُ بن أوسٍ المزنى :

ألاَ مَنْ مُبْلِغٌ عَنِّى رَسُولاَ عُبَيْدَ اللهِ إذْ عَجِلَ الرِّسَالاَ

تَعَاقَلَ دُونَنَا أبْنَاءُ ثَوْرٍ وَنَحْنُ الأكْثَرُونَ حَصًى وَمَالاَ (٢)

إذَا اجْتَمَعَ الْقَبَائِلُ جِئْتَ رِدْفًا أمَامَ المَاسِحِينَ لَكَ السِّبَالاَ (٣)

فَلاَ تُعْطَى عَصَا الْخُطَبَاءِ فِيهِمْ وَقَدْ نُكْفَى المَقَادَةَ وَالمَقَالاَ

ومما قالوا فى حمل القناة قوله :

إلَى امْرِئٍ لاَ تَخَطَّاهُ الرِّقَابُ وَلاَ حُدْبُ الحَوانِ إذَا مَا اسْتُنْشِىَ العَرَقُ

صُلْبُ الحَيَازِيمِ لاَ هَذْرُ الكَلاَمِ إذَا هَزَّ القَنَاةَ وَلاَ مُسْتَعْجِلٌ زَهِقُ

(١) قال الجاحظ : عوج جمع عوجاء وهى ههنا القوس ، والسراء شجر يعمل منه القوس .

(٢) كان بالأصل : تغافل ، وهو خطأ ، والصواب ما أثبتناه . والتعاقل : الدية

(٣) ويروى : إذا اجتمعوا حضرت فجئت ردفا وراء الماسحين لك السبالا

وكما قال جرير الخطفى :

مَنْ لِلقَناةِ إذَا مَاعَىٌّ قَائِلُهَا أَمْ لِلأَعِنَّةِ يَاشَيْبُ بْنُ عَمَّارِ

قال : ومثل هذا قول أبى المجيب الرَّبَعِىِّ : ما تزال تحفظ أخاك حتى يأخذ القناة ، فعند ذلك يفضحك أو يسرك . يقول : إذا قام يخطب . وفى كتاب جبل ابن يزيد : إحفظ أخاك إلا من نفسه . وقال عبد الله بن رؤبة : سأل رجل رؤبة عن أخطب بنى تميم ! فقال : خَدَّاشُ بْنُ بِشْرِ بْنِ لَبِيدٍ — يعنى البَعِيث — وإنما قيل له البعيث لقوله :

تُبُعِّثُ مِنِّى مَا تُبُعِّثُ بَعْدَ مَا أُمِرَّتْ حِبَالِى كُلَّ مِرَّتِهَا شَزْرَا

وزعم سُحَيْمُ بْنُ حَفْصٍ أنه كان يقال : أخطب بنى تميم البعيث إذا أخذ القناة. وقال يونس : لعمرى لئن كان مغلبا فى الشعر لقد كان غَلَبَ فى الخطب . ومن الشعراء من يغلب شىء قاله فى شعره على اسمه وكنيته فيسمى به [وهم] كثير فمنهم « البعيث » هذا . ومنهم : عوف بن حصن[1] بن حذيفة بن بدر ، غلب عليه « عويف القوافى » لقوله :

سَأَكْذِبُ مَنْ قَدْ كَانَ يَزْعُمُ أَنَّنِى إذَا قُلْتُ شِعْرًا لَا أُجِيدُ القَوَافِيَا

فسمى « عويف القوافى » ومنهم : يزيد بن ضرار الغطفانى[2] غلب عليه « المزرد » لقوله :

فَقُلْتُ تَزَرَّدْهَا عُبَيْدُ فَإِنَّنِى لِدُرْدِ المَوَالِى فى السِّنِينَ مُزَرِّدُ

فسمى « المزرد » ومنهم : عمرو بن سعيد بن مالك ، غلب عليه « المرقش » وذلك لقوله :

الدَّارُ قَفْرٌ والرُّسُومُ كَمَا رَقَّشَ فى ظَهْرِ الأَدِيمِ قَلَمْ

---

(١) كان فى الأصل : عوف بن حصين ، وهو خطأ ، والصواب ماأثبتناه . وهو عوف بن معاوية ابن عقبة بن عيينة بن حصن الفزاري ، شاعر مقل من شعراء الدولة الاموية ، ومن ساكنى الكوفة . وهو من احد بيوت العرب المقدمة الفاخرة .

(٢) كان فى الاصل : الثعلبى ، وهو خطأ والصواب ماأثبتناه . وهو اخو الشماخ بن ضرار

فسمى « مرقشا » ومنهم : شاس بن نهار العبدى ، غلب عليه « الممزق » لقوله :

فإن كنتُ مأكولاً فكن خيرَ آكلٍ ... وإلاَّ فأدركني ولمَّا أُمزَّقِ

فسمى « الممزق » ومنهم : جرير بن عبد المسيح الضبعى ، غلب عليه « المتلمس » لقوله :

فهذا أوانُ العِرْضِ طنَّ ذُبابُهُ ... زنابيرُهُ والأزرقُ المُتلَمِّسُ

ومنهم : عمرو بن رباح بن عمرو السلمى أبو خنساء بنت عمرو ، غلب « الشريد » على اسمه لقوله :

تولَّى إخوتي وبقيتُ فرْدًا ... وحيداً في ديارِهمُ شريداً

فسمى « الشريد » وهذا كثير .

ودخل رجل من قيسِ عيلانَ على عبد الملك بن مروان ، فقال : زبيرى عُميرى ! والله لا يحبك قلبى أبدا ! قال : ياأمير المؤمنين ، انما يجزع من فِقدان الحب المرأة ، ولكن عدل وانصاف . ؟

قال عمرُ لأبى مريم الحنفى السلولى قاتل زيد بن الخطاب : لا يحبك قلبى أبدا حتى تحب الأرض الدم المسفوح . . ! ؟

وهذا مثل قول الحجاج : والله لأقلعنك قلع الصمغة. لأن الصمغة اليابسة إذا نزقت عن الشجرة انقلعت انقلاع الجلبة ، والارض لاتنشف الدم المسفوح ولا تمصه فتى جف الدم وتجلب لم تره أخذ من الأرض شيئا .

ومن الخطباء : الغضبان بن القبعثرى (١) وكان محبوسا فى سجن الحجاج فدعا به يوما فلما رآه قال : إنك لسمين ! قال : ألقيد والرُّتعةُ ومن يكن ضيفا للأمير يسمن !

وقال يزيد بن عياض . لما نقم الناس على عثمان خرج يتوكأ على مروان وهو يقول : لكل أمة آفة ولكل نعمة عاهة ، وإن آفة هذه الأمة عيابون طعانون يظهرون لكم ماتحبون ويسرون ماتكرهون ، طغام مثل النعام يتبعون أول ناعق ، لقد

(١) هو الغضبان بن القبعثرى الشيبانى . كان من سادات قومه وأهل الجاه فيهم ، وكان فارساً شجاعا وكريماً جواداً ، صاحب فصاحة وبلاغة وبيان ، والظاهر أنه كان فى صف الخارجين على الدولة فأسر ثم سجن فى سجن الحجاج

نقموا على مانقموه على عمر ، ولكن قمَعَهُمْ وَوَقَمَهُمْ [١] ، والله إنى لأقرب ناصرا وأعز نفرا ، فَضْلٌ من مالى ، فمالى لا أفعل فى الفضل ما أشاء . ! ؟ [٢]

ورأيت الناس يتداولون رسالة يحيى بن يعمر على لسان يزيد بن المهلب [٣] : إنا لقينا العدو فقتلنا طائفة وأسرنا طائفة ولحقت طائفة بعرائر الأودية وأهضام الغيطان وبتنا بعُرْعُرَةِ الجبل [٤] وبات العدو بحضيض ؟ فقال الحجاج : مايزيد بأبى عذرة هذا الكلام . . ! فقيل له : إن معه يحيى بن يعمر ؟ فحمل إليه فلما أتاه قال : أين ولدت ؟ قال : بالأهواز ! قال : فأنى لك هذه الفصاحة ؟ قال : أخذتها عن أبى . ورأيتهم يديرون فى كتبهم أن امرأة خاصمت زوجها إلى يحيى بن يعمر فانتهرها مرارا ، فقال له يحيى : إن سألتك ثمن شَكْرِهَا وَشَبْرِكَ أنشأت تطلها وتضهلها !؟ [٥] فان كانوا إنما رووا هذا الكلام لأنه يدل على فصاحة فقد باعده الله من صفة البلاغة والفصاحة ، وإن كانوا إنما دونوه فى الكتب وتذاكروه فى المجالس لأنه غريب فأبيات من شعر العجاج أو شعر الطرماح أو أشعار هذيل تأتى لهم مع حسن الوصف على أكثر مما ذكروا ، ولو خاطب بقوله : إن سألتك ثمن شكرها

(١) قمعهم : قهرهم . ووقمهم : أذلهم

(٢) يشير إلى المال الذى آثر به عثمان مروان بن الحكم وكان مما اوخذ عليه

(٣) هو يزيد بن المهلب بن ابى صفرة ، كان من اكابر الفرسان واماثل الشجعان وكان اميرا من امراء الدولة الأموية وقائدا من خيرة قوادها . ابلى مع ابيه المهلب في حروب الخوارج بلاء حسناً ، ولى خراسان بعد ابيه وسنه ثلاثون سنة ، وكان الحجاج له مبغضاً ومنه خائفاً فأشار على عبد الملك بعزله فعزله ثم حبسه الحجاج وعذبه فهرب من محبسه ومضي إلى الشام مستشفعاً بسليمان بن عبدالملك فشفع له إلى الوليد فأمنه وكف عنه ، ولما أفضت الخلافة إلى سليمان ولاه خراسان فافتتح جرجان ودهستان ثم أقبل بالغنائم يريد العراق فعلم بموت سليمان فمال إلى البصرة مستأثرا بما معه فخادعه عدى ابن أرطاة الوالي عليها من قبل عمر بن عبد العزيز ثم اوثقه وبعث به إلى عمر فحبسه فهرب من محبسه ، ثم جمع جموعا وخرج على يزيد بن عبد الملك فوجه إليه مسلمة بن عبد الملك والعباس بن الوليد فى جيش كثيف فقاتلوه قتالا شديداً ثم التقوا بالعقر من ارض بابل ونشبت بينهما حرب هائلة خر فيها يزيد صريعاً بالمعركة مختنقا بالتراب وذلك سنة ١٠٢ هـ

(٤) قال الجاحظ : عرائر الأودية أسافلها ، واهضام الغيطان مداخلها ، والغيطان جمع غائط وهو الحائط ذو الشجر ، وعراعر الجبال اعاليها ،

(٥) قال الجاحظ : قالوا : الضهل القليل ، ويقال بئر ضهول اى قليلة الماء ، والشكر الجماع ، والشبر البضع ، تطلها تذهب بحقها ، يقال : دم مطلول ،

وشبرك أنشأت تطلها وتضهلها الأصمعى لظننت أنه سيجهل بعض ذلك ، فهذا ليس من أخلاق الكتاب ولا من آدابهم .

أبو الحسن : كان غلام يقعر فى كلامه فأتى أبا الاسود الدؤلى يلتمس بعض ما عنده فقال أبو الاسود : ما فعل أبوك ؟ قال : أخذته الحمى فطبخته طبخا وفتختته فتخا وفضخته فضخا (١) فتركته فرخا ! فقال أبو الأسود : فما فعلت امرأته التى كانت تُشاره وتُماره وتُهاره وتُزاره ؟ قال : طلقها وتزوجت غيره فرضيت وحظيت وبَظِيَتْ ! قال أبو الأسود : قد علمنا : رضيت وحظيت ، فما بَظيت ؟ قال : بظيت حرف من الغريب لم يبلغك ! قال أبو الأسود : يابنى كل كلمة لايعرفها عمك فاسترها كما تستر السِّنَّوْرُ خُرْؤَها .

قال أبو الحسن : مر أبو عَلْقَمَة النَّحوى ببعض طرق البصرة وهاجت به مِرَّةٌ (٢) فوثب عليه قوم منهم فأقبلوا يعضون إبهامه ويؤذنون فى أذنه ، فأفلت من أيديهم فقال : ما لكم تتكأكأون علىَّ كأنكم تتكأكأون على ذى جِنَّةٍ ! إفرَنْقِعُوا عنى ؟ ! (٣) قالوا : دعوه فإن شيطانه يتكلم بالهندية. وقال أبو الحسن : هاج بأبى عَلْقَمَة الدم فأتى بحجام فقال للحجام : أشدُدْ قصب الملازم وأرهف ظُبات المشارط وأسرع الوضع وعجل النزع ، وليكن شرطك وَخْزا ومصك نَهْزا ولا تكرهن أبِيا ولا تردُدن أتيا ؟ فوضع الحجام محاجمه فى جُونته وانصرف .

فحديث أبى علقمة فيه غريب ، وفيه أنه لو كان حجاما مرة مازاد على ماقال. وليس فى كلام يحيى بن يعمر شىء من الدنيا إلا أنه غريب ، وهو أيضا من الغريب بغيض .

وذكروا عن محمد بن اسحق قال : لما جاء ابْنَ الزُّبير ـ وهو بمكة ـ قتلُ

(١) قال الجاحظ : فتختهاضفته والفتيخ الرخو الضعيف ، وفضخته دقته .

(٢) هاجت به مرة : صرعته المرة الصفراء او السوداء

(٣) تتكأكأون : تتجمعون . ذوجنة : المصاب بضرب من الجنون . افرنقعوا : تفرقوا

مروانٍ الضَّحَّاكَ (١) بمرج راهط قام فينا خطيبا فقال : إن ثعلب بن ثعلب حفر بالصحصحة فأخطأت استه الحفرة ، وآ لَهْفَ أُمٍّ لم تلدنى على رجل محارب كان يرعى فى جبل مكة فيأتى بالشربة من اللبن فيبيعها بالقبضة من الدقيق فيرى ذلك سِداداً من عيش ثم أنشأ يطلب الخلافة ووراثة النبوة .. ! ؟ (٢)

وأول هذا الكلام مستكره ، وهو موجود فى كل كتاب وجار على لسان كل صاحب خبر ، وقد سمعت لابن الزبير كلاماً كثيراً ليس هذا فى سبيله ولا يتعلق به

وقال أبو يَعْقُوبَ الْأَعْوَرِ الخريمى : (٣)

وَخَلْجَةِ ظَنٍّ يَسْبِقُ الطَّرْفَ حَزْمُهَا ... تُشِيفُ عَلَى غُنْمٍ وَتُمْكِنُ مِنْ زَحْلِ (٤)
صَدَعْتُ بِهَا وَالقَوْمُ فَوْضَى كَأَنَّهُمْ ... بَكَارَةُ مِرْبَاعٍ تُبَصْبِصُ لِلْفَحْلِ (٥)

والمرباع : ربع الغنيمة فى الجاهلية لصاحب الجيش . قال ابن عَنَمَةَ : (٦)

لَكَ الْمِرْبَاعُ مِنْهَا وَالصَّفَايَا ... وَحُكْمُكَ وَالنَّشِيطَةُ وَالفُضُولُ

وقال رجل من بنى يَرْبُوعٍ :

إِلَى اللهِ أَشْكُو ثُمَّ أَشْكُو إِلَيْكُمَا ... وَهَلْ تَنْفَعُ الشَّكْوَى إِلَى مَنْ يَزِيدُهَا
حَزَازَاتِ حُبٍّ فى الفُؤَادِ وَعَبْرَةً ... أَظَلُّ بِأَطْرَافِ البَنَانِ أَذُودُهَا (٧)
يَحِنُّ فُؤَادِى مِنْ مَخَافَةِ بَيْنِكُمْ ... حَنِينَ المُزَجَّى وِجْهَةً لَا يُرِيدُهَا (٨)

(١) هو الضحاك بن قيس الفهري ، كان من الشجعان الابطال والفرسان الامجاد ، وكان من اهل الثقة عند معاوية المخلصين له الدائبين عنه . ولاه معاوية على الكوفة بعد زياد ، فلما مات معاوية بن يزيد ابن معاوية وتوثب مروان بن الحكم على الملك والخلافة واخذ فى الاستعداد للتغلب على الدولة ثار فى وجهه الضحاك بن قيس وجمع له جموعا من قيس ودعا إلى عبد الله بن الزبير ، غير ان مروان قصد إليه فى رجالات بنى امية وعلى رأسهم عمرو بن سعيد الاشدق ، واعانته اليمانية فأصلاه حربا عوانا والتقى به فى مرج راهط وما زال به حتى قتله وفرق جموعه سنة ٦٥ هـ

(٢) في كلام ابن الزبير تعريض بمروان بن الحكم

(٣) كان فى الأصل : السلمى ، وهو خطأ ، والصواب ما أثبتناه .

(٤) قال الجاحظ : خلجة ظن أى ظن سريع . تشيف تشرف ، قلت : الزحل : الثأر .

(٥) قال الجاحظ : بكارة مرباع أى نوق صغار قد أذلت للفحل ، مرباع أى نوق ربيع .

(٦) كان بالأصل : ابن عثمة ، وهو خطأ ، والصواب ما أثبتناه . وهو عبد الله بن عنمة الضبي

(٧) أذودها : أدفعها

(٨) المزجي : المدفوع إلى وجهة لا يريدها

وقد أحسن الآخر حيث يقول :

وَأُكْرِمُ نَفْسِي عَنْ مَنَاكِحَ جَمَّةٍ   وَيَقْصُرُ مَالِي أَنْ أَنَالَ الغَوَالِيَا

وقال الآخر :

وَإِذَا العَبْدُ أَغْلَقَ البَابَ دُونِي   لَمْ يُحَرَّمْ عَلَيَّ مَتْنُ الطَّرِيقِ

وقال الخَلِيعُ العُطَارِدِيُّ : كنا بالبادية إذ نشأ عارض وما فى السماء قزعة معلقة [١] وجاء السيل فاكتسح أبياتاً من بنى سعد فقلت :

فَرِحْنَا بِوَسْمِيٍّ تَأَلَّقَ وَدْقُهُ   عِشَاءً فَأَبْكَانَا صَبَاحاً فَأَسْرَعَا [٢]

لَهُ ظُلَّةٌ كَأَنَّ رَيِّقَ وَبْلِهَا   عَجَاجَةُ صَيْفٍ أَوْ دُخَانٌ تَرَفَّعَا [٣]

فَكَانَ عَلَى قَوْمٍ سَلَاماً وَنِعْمَةً   وَأَلْحَقَ عَادًا آخَرِينَ وَتُبَّعَا [٤]

وقال أبو عطاء السِّنْدِي [٥] لعُبَيْدِ الله بن عباس الكِنْدِي :

إِلَى مَعْشَرٍ أَرْدَوْا أَخَاكَ وَكَفَّرُوا   أَبَاكَ فَمَاذَا بَعْدَ ذَاكَ تَقُولُ

وَقُلْ لِعُبَيْدِ اللهِ : لَوْ كَانَ جَعْفَرٌ   هُوَ الحَيَّ لَمْ يَرْبَحْ وَأَنْتَ قَتِيلُ

فقال عبيدالله : أقول ، عض أبو عطاء بِبَظْرِ أمه ! فغلب عليه . قال أبو عبيدة : قال أبو البصير فى أبى رُهْمٍ السَّدُوسِيِّ – وكان يلى الأعمال لأبى جعفر :

رَأَيْتُ أَبَا رُهْمٍ يُقَرِّبُ مُنْجِحاً   غُلَامَ أَبِي بِشْرٍ وَيَجْفُو أَبَا بِشْرِ

فَقُلْتُ لِيَحْيَى : كَيْفَ قَرَّبَ مُنْجِحاً   فَقَالَ لَهُ أَيْرٌ يَزِيدُ عَلَى شِبْرِ

***

(١) العارض : السحاب الحافل بالماء . قزعة : سحاب متقطع .

(٢) الوسمى : المطر الخفيف الذى يسم الأرض . تألق ودقه : لمع ماؤه

(٣) له ظلة : له غمام معلق كالظلة

(٤) يعنى أنه أحيا قوما وأهلك آخرين

(٥) هو أفلح بن يسار أبو عطاء السندى مولى بنى أسد ، كان شاعرا من شعراء الدولتين الأموية والعباسية ، وله فى رجال كل من الدولتين مدائح ، وكان ألثغ الكن لا يكاد يبين مع بديهة جيدة وعارضة قوية ، وكان له غلام فصيح سماه عطاء وتكنى به فكان يرويه الأشعار فينشدها بين يدى من ينتجعه . مات سنة ١٦٨ هـ

قال أبو عثمان : وقد طعنت الشُّعوبية على أخذ العرب المِخْصَرَة فى خطبها والقنا والقضيب والاتكاء والاعتماد على القوس والخد فى الارض والإشارة بالقضيب بكلام مستكره نذكره إن شاء الله تعالى فى الجزء الثالث . ولا بد من أن نذكر فيه بعض كلام مُعاوية ويزيد وعَبد الملك وابن الزبير وسليمان وعمر بن عبد العزيز والوليد بن يزيد ويزيد بن الوليد ، لأن الباقين من ملوكهم لم يذكر لهم من الكلام الذى يلحق بالخطب و بصناعة المنطق إلا اليسير . ولا بد من أن نذكر فيه أقسام تأليف جميع الكلام وكيف خالف القرآن جميع الكلام الموزون والمنثور ، وهو منثور غيرُ مقفى على مخارج الأشعار والأسجاع وكيف صار نظمه من أعظم البرهان وتأليفه من أكبر الحجج . ولا بد من أن يكون فيه ذكر شأن إسماعيل على نبينا وعليه السلام وانقلاب لغته و بيانه بعد أربع عشرة سنة،وكيف نسى لغته التى رُبى فيها وجرى على أعراقها وكيف لفظ بجميع حاجاته بالعربية عن غير تلقين ولا ترتيب وحتى لم تدخله عُجمة ولا لكنة ولا حُبسة ، ولا تعلق بلسانه شىء من تلك العادة . ولا بد من ذكر بعض كلام المأمون ومذاهبه و بعض ما يحضرنى من كلام آبائه وجلة رهطة . ولا بد أيضاً من ذكر من صعد المِنبر فحصر وخلط أو قال فأحسن ليكون الكتاب أكمل إن شاء الله تعالى . ولا بد من ذكر المنابر ولم اتخذت وكيف كانت الخطباء من العرب فى الجاهلية وفى صدور الاسلام وهل كانت المنابر لأمة غير أمتنا وكيف كانت الحال فى ذلك؟وقد ذكرنا أن الامم التى فيها الأخلاق والآداب والحكم والعلم أربع،وهى : العرب والهند وفارس والروم . وقال حَكِيمُ بْنُ عَيَّاشٍ الكلبى :

أَلَمْ يَكُ مُلْكُ أَرْضِ اللهِ طُرًّا ... لِأَرْبَعَةٍ لَهُ مُتَمَيِّزِينَا ؟
لِحِمْيَرَ وَالنَّجَاشِي وَابْنِ كِسْرَى ... وَقَيْصَرَ غَيْرَ قَوْلِ المُمْتَرِينَا

فما أدرى بأى سبب وضع الحبشة فى هذا الموضع ! وأما ذكره لحمير فإن كان ذهب إلى تُبَّعٍ نفسه فى الملوك فهذا له وجه ، وأما النَّجاشى فليس هو عند الملوك

فى هذا المكان ، ولو كان النجاشى فى نفسه فوق تُبَّع وكسرى وقيصر لما كان أهل مملكته من الحبش فى هذا الموضع ، وهو لم يفضل النجاشى لمكان إسلامه ، يدل على ذلك تفضيله لكسرى وقيصر ، وكان وضعُ كلامه على ذكر الممالك ثم ترك الممالك وأخذ فى ذكر الملوك .

والدليل على أن العرب أنطق وأن لغتها أوسع وأن لفظها أدل وأن أقسام تأليف كلامها أكثر والأمثال التى ضربت أجود وأسير . والدليل على أن البديهة مقصورة عليها وأن الارتجال والاقتضاب خاص فيها وما الفرق بين أشعارهم و بين الكلام الذى تسميه الفرس والروم شعراً ؟ وكيف صار النسيب فى أشعارهم وفى كلامهم الذى أدخلوه فى غُنائهم وفى ألحانهم إنما يقال على ألسنه نسائهم؟ وهذا لا يصاب فى العرب إلا القليل اليسير ، وكيف صارت العرب تقطع الألحان الموزونة على الأشعار الموزونة فتضع موزوناً على موزون ،والعجم تمطط الألفاظ فتقبض وتبسط حتى تدخل فى وزن اللحن فتضع موزونا على غير موزون .

وسنذكر فى الجزء الثانى من أبواب اللّحن والعِى والغلط والغفلة أبواباً ظريفة ونذكر فيه النَّوْكى من الوجوه ومجانين العرب ومن ضُرب به المثل منهم ونوادر من كلامهم ومجانين الشعراء ، لست أعنى مثل « مجنون بنى عامر » و « مجنون بنى جعدة » ! و إنما أعنى مثل « أبى حَيَّةَ » فى أهل البادية ومثل « جُعَيفِرَان » فى أهل الأمصار ومثل « أرسيموس » اليونانى . وسنذكر أيضاً بقية أسماء الخطباء والنساك وأسماء الظرفاء والملحاء إن شاء الله سبحانه وتعالى . وسنذكر من كلام الحجّاج وغيره ما أمكننا فى بقية هذا الجزء إن شاء الله تعالى .

* * *

وقال أبو الحسن المدائنى : قال الحجّاج لِأنسِ بن مالكٍ حين دخل عليه فى شأن ابنه عبد الله — وكان خرج مع ابن الأشعث — : لا مرحباً بك ولا أهلا لعنة الله عليك من شيخ جوّال فى الفتنة ، مرة مع أبى تراب[1] ومرة مع ابن

(١) ابو تراب : هو الامام على كرم الله وجهه

الأشعث ، والله لأقلعنك قلع الصمغة ولأعصبنك عصب السَّلمة(١) ولأجردنك تجريد الضب !(٢) قال أنس: من يعني الأمير أبقاه الله ؟ قال : إياك أعنى ، أَصَمَّ اللهُ صَدَاكَ..! قال : فكتب أنس بذلك إلى عبد الملك فكتب عبد الملك إلى الحجاج : بسم الله الرحمن الرحيم ، يا ابن المُسْتَفْرِمة بِعَجَم الزَّبيب ،والله لقد همت أن أركلك برجلى رَكْلة تهوى بها فى نار جهنم ! قاتلك الله أُخَيفِش العينين أصك الرِّجلين (٣) أسود الجاعرتين ، والسلام .

وكان الحجاج أخيفش مُسلق الأجفان ، ولذلك قال إمام بن أرقم النُّميرى- وكان الحجاج جعله على بعض شرط أبان بن مروان ثم حبسه فلما خرج قال :—

طَلِيقُ اللهِ لَمْ يَمْنُنْ عَلَيْهِ ... أَبُو دَاوُدَ وَابْنُ أَبِى كَثِيرِ
وَلاَ الْحَجَّاجُ عَيْنَىْ بِنْتِ مَاء ... تُقَلِّبُ طَرْفَها حَذَرَ الصُّقُورِ (٤)

وخطب الحجاج يوما فقال فى خطبته : والله ما بقى من الدنيا إلا مثل ما مضى ولهو أشبه به من الماء بالماء ، والله ما أحب أن ما مضى من الدنيا بعمامتى هذه .

المفضل بن محمد الضبي قال : كتب الحجاج إلى قُتَيْبَة بن مسلم(٥) أن ابعث

(١) قال الجاحظ : العصب ان تعصب الشجرة ذات الشوك بالعصاب ،

(٢) تجريد الضب : سلخه

(٣) قال الجاحظ : الخفش دون العمش ، واصك الرجلين تصك إحداهما الأخرى ،

(٤) بنت ماء ، قال الجاحظ : لأن طير الماء لايكون ابدا إلا منسلق الأجفان،

(٥) هو ابو حفص قتيبة بن مسلم الباهلى ، القائد العظيم صاحب الفتوحات الجليلة بالمشرق ، كان من اكابر القواد وافاضل الرؤساء ، وكان شجاعا باسلا وفارساً مغوارا وكريما جوادا ، مع الفصاحة والبلاغة والحكمة والسياسة والدهاء . ولاه عبد الملك على الرى ، ثم اشار عليه الحجاج فولاه خراسان واعمالها بعد أبناء المهلب . فما هو ان استقر بها حتى جمع إليه الجند وعرضهم فى اسلحتهم ونظم شأنهم وخطب فيهم يحثهم على الغزو والفتوح ونشر دعوة الاسلام وإعلاء كلمة الله وذكرهم ما اعد الله للمجاهدين من عظيم الثواب وما ادخره لهم من جليل الأجر ، ثم سار بهم فأدب العصاة ورد الخارجين وفتح خوارزم وبخارى وسمرقند وبيكند . وله فى فتح بخارى حديث : هو انه لما قصد فتح بخاري لقيته جموع كثيرة فقاتلهم وهزمهم ولما وصل إليها استعد ملكها للدفاع عنها فلم ينل منها مأرباً فكتب إلى الحجاج فى أمرها فكتب إليه الحجاج : أن صورها لى ؟ فبعث إليه بصورتها ، خارطتها ، الحربية فأرسل إليه الحجاج برأيه فقصد إليها ، وكان ملكها قد استنصر بالسند وبالترك وبكل من حولها من اهل القتال، غير ان قتيبة كان قد سبق إليها وحاصرها وفى اثناء الحصار جاءت الامداد لأهل بخارى من كل فج

إلى بالآدم الجعدى الذى يفهمنى ويفهم عنى . فبعث إليه غُدام بن شُتير . فقال الحجاج : لله دره ، ما كتبت إليه فى أمر قط إلا فهم عنى وعرف ما أريد !

قال أبو الحسن وغيره : أراد الحجاج الحج فخطب الناس فقال : أيها الناس إنى أريد الحج وقد استخلفت عليكم إبنى محمدا هذا ، وأوصيته فيكم بخلاف ما أوصى به رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الأنصار ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أوصى أن يقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم ، ألا وإنى قد أوصيته أن لا يقبل من محسنكم ولا يتجاوز عن مسيئكم ، ألا وإنكم ستقولون بعدى مقالة ما يمنعكم من إظهارها إلا مخافتى ؟ ألا وإنكم ستقولون بعدى : لا أحسن الله له الصحابة ، ألا وإنى معجل لكم الإجابة : لا أحسن الله الخلافة عليكم . ثم نزل . وكان يقول فى خطبته : أيها الناس إن الكف عن محارم الله أيسر من الصبر على عذاب الله.

وقال عَمْرُو بن عُبَيْد رحمه الله : كتب عبد الملك بن مروان وصية زياد بيده وأمر الناس بحفظها وتدبر معانيها : « إن الله عز وجل جعل لعباده عقولا عاقبهم بها على معصيته وأثابهم بها على طاعته ، فالناس بين محسن بنعمة الله عليه ، ومسيء بخذلان الله إياه ، ولله النعمة على المحسن والحجة على المسيء ، فما أولى من تمت عليه النعمة فى نفسه ورأى العبرة فى غيره بأن يضع الدنيا بحيث وضعها الله ، فيعطى ما عليه منها ويتكثّر بما ليس له منها ، فإن الدنيا دار فناء ولا سبيل إلى بقائها ، ولا بد من لقاء الله ؛ فأحذركم الله الذى حذّركم نفسه وأوصيكم بتعجيل ما أخرته

فقاتلوا المسلمين حتى هزموهم فثار نساء المسلمين فى وجوه الرجال وضربن وجوه الخيل وصرخن فى وجوههم فكر المسلمون وحملوا على الأعداء حملات صادقة حتى ردوهم إلى مواقفهم . فوقف الترك امامهم على نشز ، ثم إن قتيبة نادى : من يزيلهم لنا عن هذا الموضع ؟ فلم يجبه احد . فمشى إلى صفوف بنى تميم وقال : يوم كأيامكم يابنى تميم ابى لكم الفداء ! فاخذ وكيع بن ابى سود اللواء وقال : يابنى تميم ، اتسلموننى اليوم ؟ قالوا : لا . فدفع الراية إلى هريم بن ابى طحمة وكان على الخيل وقال له قدم خيلك ؟ ودب هو فى الرجال حتى اعترضهم النهر فاقحمه الخيل وعبر معه كل محب للموت فكانوا ٨٠٠ رجل ثم حمل بهم حملة الموت فاجلا الترك عن مواقفهم وهزمهم شر هزيمة فكان الفتح . ثم إن قتيبة فتح فتوحا اخرى إلى ان بلغ كاشغر من بلاد الصين ففتحها . وظل فى ولايته ثلاث عشرة سنة . ثم عزل وثار به وكيع بن ابى سود فى رجاله منتقماً منه لبعض الامر فخر صريعاً وهو ابن خمس واربعين سنة وذلك فى سنة ٩٧ ه

العَجَزَةُ قبل أن تصيروا إلى الدار التى صاروا إليها فلا تقدرون على توبة ، وليس لـكم منها أوبة ، وأنا أستخلف الله عليكم وأستخلفه منكم .

وقد رُوى هذا الـكلام عن الحجاج ، وزياد أحق به منه .

باب ما ذكروا فيه من أن أثر السيف يمحو أثر الكلام

قال جرير :

يُكَلِّفُنِى رَدَّ الْعَوَاقِبِ بَعْدَ مَا ... سَبَقْنَ كَسَبْقِ السَّيْفِ مَاقَالَ عَاذِلُهْ

وقال الـكُمَيْتُ بْنُ معروف :(١)

خُذُوا الْعَقْلَ إِنْ أَعْطَاكُمُ الْعَقْلَ قَوْمُكُمْ ... وَكُونُوا كَمَنْ سِيمَ الْهَوَانَ فَأَرْبَعَا(٢)

وَلَا تُكْثِرُوا فِيهِ الضَّجَاجَ فَإِنَّهُ ... مَحَا السَّيْفُ مَا قَالَ ابْنُ دَارَةَ أَجْمَعَا(٣)

والمثل السائر من قبل هذا : سَبَقَ السَّيْفُ العَذْلَ .

ومن أهل الأدب : زكريا بن دِرْهَمٍ مولى بنى سليم بن منصور صاحب سعيد ابن عمرو الحرشى ، وزكريا هو الذى يقول :

لا تُنْكِرُوا لِسَعِيدٍ فَضْلَ نِعْمَتِهِ ... لَا يَشْكُرُ اللهَ مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَا

ومن أهل الأدب ممن وجهه هشام إلى الحرشى : السرادق بن عبد الله السدوسى الفارسى . ولما ظفر مسلم بْن قتيبة بالأزد كان من الجند فى دور الأزد انتهاب وإحراق وآثار قبيحة ، فقام شبيب بن شيبة إلى مسلم بن قتيبة فقال : أيها الأمير ، إن هُرَيْم بْن عَدِى بن أبى طَحْمَة(٤) — وكان غير منطيق — قال ليزيد بن عبد الملك

---

(١) هو الكميت بن معروف الفقعسى الأسدى شاعر بدوى من شعراء الاسلام فى عهد بنى أمية ، وهو من أسرة معرقة فى الشعر من الآباء والأخوال

(٢) العقل : الدية . فأربع : تمكث وانتظر

(٣) ابن داره : هو سالم بن مسافع بن داره الجشمى شاعر مخضرم أدرك الجاهلية والاسلام

(٤) كان فى الأصل : طلحة . وهو خطأ ، والصواب ما أثبتناه . وهو هريم بن عدى بن أبى طحمة المجاشعى التميمى ، كان من الشجعان أهل النجدة والبسالة ، أبلى مع المهلب فى حروب الازارقة بلاء حسنا ، وكان فى صف عدى بن أرطاة فى قتال يزيد بن المهلب لما أظهر العصيان ، وفى هذه الوقعة أخذ هريم اللواء فى خمسة فوارس وحمل على يزيد حملة نكراء فانهزم يزيد عنه . وكان على خيل بنى تميم مع قتيبة بن مسلم فى حروب الترك يوم فتح بخارى . وكان لا يحسن القراءة ولا الكتابة فقيل له فى ذلك فقال : إن لا أكتب أ فاني محو الصحف . يعنى بالسيف .

فى شأن المهالبة : يا أمير المؤمنين ، إنّا والله ما رأينا أحدا ظُلم ظلمك ولا نُصر نصرك ، فافعل الثالثة نقلها[١] . قال الهيثم بن عدى : قام عبد الله بن الحجاج الثعلبى[٢] إلى عبد الملك بن مروان ، — وقد كان أراد الاتصال به ، وقد كان عبد الملك حنقا عليه ، فأقام ببابه حولا لا يصل [إليه] ثم ثار فى وجهه فى بعض ركباته فقال — :

أَدْنُو لِتَرْحَمَنِى وَتَرْتُقَ خَلَّتِى ... وأَرَاكَ تَدْفَعُنِى فَأَيْنَ الْمَدْفَعُ

فقال عبد الملك : إلى النار ! فقال :

وَلَقَدْ أَذَقْتَ بَنِى سَعِيدٍ حَرَّهَا ... وَابْنَ الزُّبَيْرِ فَرَأْسُهُ مُتَضَعْضِعُ

فقال عبد الملك : قد كان بعض ذاك ، وأنا أستغفر الله .

وقال أبو عبدة : كان بين الحجاج و بين العُدَيْلِ بنِ فَرْخ العجلى بعض الامر فتوعده الحجاج بالقتل فقال العُدَيْلُ :

أُخَوَّفُ بِالْحَجَّاجِ حَتَّى كَأَنَّمَا ... يُحَرَّكُ عَظْمٌ فى الْفُؤَادِ مَهِيضُ

وَدُونَ يَدَا الْحَجَّاجِ مِنْ أَنْ تَنَالَنِى ... بِسَاطٌ لِأَيْدِى الْيَعْمَلَاتِ عَرِيضُ

---

(١) فافعل الثالثة نقلها : يريد أن يعفو حتى يتم الكلام فيقال : ولا عفا عفوك .

(٢) كان بالأصل : الثعلبى ، وهو خطأ . وهو عبد الله بن الحجاج بن محصن ، كان شاعراً فاتكا شجاعا من فرسان مضر المعدودين فى ذوى النجدة والبأس . وكان ممن خرج مع عمرو بن سعيد على عبد الملك ، ثم خرج مع نجدة بن عامر الحنفي ، ثم كان مع ابن الزبير فلما انتهى امره جاء الى عبد الملك متنكراً وهو يطعم الناس فدخل حجرة فقال له عبد الملك : لم لا تاكل يا هذا ؟ فقال : لا استحل ان آكل حتى تاذن لى ؟ قال : انى قد اذنت للناس جميعا ! قال : لم اعلم فآكل بامرك . فقال له : كل . فجعل يا كل وعبد الملك ينظر إليه ويعجب من فعاله ، فلما جلس عبد الملك فى مجلسه وقف ابن حجاج بين يديه ثم استاذنه فى الانشاد فاذن له فقال :

ابلغ امير المؤمنين فانى ... مما لقيت من الحوادث موجع

منع القرار فجئت نحوك هاربا ... جيش يجر ومقنب يتلمع

فقال له عبد الملك : وما خوفك لا ام لك لولا انك مريب ! فاي الاخابيث انت ؟ فقال :

ان البلاد على وهى عريضة ... وعرت مذاهبها وسد المطلع

فقال عبد الملك : ذلك بما كسبت يداك وما الله بظلام للعبيد . فقال :

كنا تنحلنا البصائر مرة ... وإليك إذ عمى البصائر نرجع

إن الذي يعصيك منا بعدها ... من دينه وحياته متودع

ولقد وطئت بنى سعيد وطأة ... وابن الزبير فعرشه متضعضع

الى آخر ما قال . فقال له عبد الملك : اولى لك والله لقد طاولتك طمعاً في ان يقوم بعض هؤلاء فيقتلك فابي الله ذلك فلا تجاورنى فى بلد وانصرف آمنا حيث شئت

مَهَامِهُ أَشْبَاهٌ كَأَنَّ سَرَابَهَا مُلاءٌ بِأَيْدِى الغَاسِلَاتِ رَحِيضُ

ثم ظفر به الحجاج فقال له : ياعُدَيْلُ ، هل نجاك بساطك العريض ؟ فقال : أيها الأمير ، أنا الذى أقول فيك :

وَلَوْ كُنْتُ بِالعَنْقَاءِ أَوْ بِأَسُومِهَا لَكَانَ لِحَجَّاجٍ عَلَىَّ دَلِيلُ(١)

خَلِيلُ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ وَسَيْفُهُ لِكُلِّ إِمَامٍ مُصْطَفًى وَخَلِيلُ

بَنَى قُبَّةَ الإِسْلَامِ حَتَّى كَأَنَّمَا هَدَى النَّاسَ مِنْ بَعْدِ الضَّلَالِ رَسُولُ

فقال له الحجاج : إربح نفسك واحقن دمك و إياك واختها ، فقد كان الذى بينى و بين قتلك أقصر من إبهام الحُبارى .

قال أبو الحسن : وقام الوليدُ بنُ عتبة بن أبي سفيان خطيباً بالمدينة ، وكان واليها ، يعنى معاوية ويدعو إلى بيعة يزيد ، فلما رأى رَوحُ بنُ زِنباعٍ إبطاءهم قال : أيها الناس ، إنا لاندعوكم إلى لَخْمٍ وجُذامٍ وكلب ، ولكننا ندعوكم إلى قريش ، ومن جعل الله له هذا الامر واختصه به ، وهو يزيدُ بن معاوية ، ونحن أبناء الطعن والطاعون وفضلات الموت ، وعندنا إن أجبتم وأطعتم من المعونة والفائدة ما شئتم . فبايع الناس . قال : وخطب ابراهيم بن اسماعيل من وُلد المغيرة المخزومى فقال :

أَنَا ابْنُ الوَغَى مَنْ شَاءَ أَحْرَزَ نَفْسَهُ (صَقْرًا يَلُوذُ حَمَامُهُ بِالعَرْفَجِ)

ثم قال :

إِسْتَوْثِقِي أَحْمِرَةَ الوَجِينِ سَمِعْنَ حِسَّ أَسَدٍ حَرُونِ
فَهُنَّ يَضْرِطْنَ وَيَنْتَزِينَ

ثم قال : والله إنى لأبغض القرشى أن يكون فظا ، ياعجباً لقوم يقال لهم : من أبوكم ؟ فيقولون : أمنا من قُرَيش .. ! فتكلم رجل من عرض الناس وهو يخطب ، فقال له غيره : صهْ ، فإن الامام يخطب . فقال : إنما أمرنا بالإنصات عند قراءة القرآن لاعند ضراط أحمرة الوجين . . ؟ ! وقال آخر : سمعت ابنَ هُبَيْرَةَ على هذه

(١) العنقاء : هضبة ببلاد العرب

الأعواد وهو يقول فى دعائه : ألهم إنى أعوذ بك من عدوّ يَسري ومن جليس يَفري ومن صديق يطري .

قال أبو الحسن: كان نافع ُ بنُ عَلقمة بن نضلة بن صفوان بن محرث خال مروان ، واليا على مكة والمدينة ، وكان شاهراً سيفه لايغمده ، و بلغه أن فتى من سهم يذ كره بكلا قبيح فلما أُتى به وأمر بضرب عنقه قال له الفتى : لا تعجل علىّ ودعنى أتكلم ! قال : أوَبِكَ كلام ؟ قال : نعم وأزيد : يانافع وُليت الحرمين تحكم فى دمائنا وأموالنا وعندك أربع عقائل من العرب ، و بنيت ياقوتة بين الصفا والمروة ـ يعنى داره ـ وأنت نافع بن علقمة بن نضلة بن صفوان بن محرث أحسن الناس وجهاً وأ كرمهم حسبا ، وليس لنا من ذلك إلا التراب فلم نحسدك على شىء منه ولم نَنْفِسه عليك ، ونَفِسْتَ علينا أن نتكلم! فقال : تكلم حتى ينفك فكاك .

قال صَعصعة بن صُوحان : ما أعيانى جواب أحد ما أعيانى جواب عثمان ، دخلت عليه فقلت له : أُخرجنا من ديارنا وأموالنا أن قلنا ربنا الله ! قال : نحن الذين أخرجنا من ديارنا وأموالنا أن قلنا ربنا الله ! فمنا من مات بأرض الحبشة ومنا من مات بالمدينة ..؟!

وقال الحجاج على منبره : والله لَألْحُوَنَّكم لحو العصا(١) ولأعصبنكم عصب السلمة ولأضربنكم ضرب غرائب الابل،(٢) يا أهل العراق، ياأهل الشقاق والنفاق ومساوئ الأخلاق ، إنى سمعت تكبيرا ليس بالتكبير الذى يراد به الله فى الترغيب ، ولكنه التكبير الذى يراد به الترهيب ، وقد عرفت أنها عجاجة تحتها قَصْفُ فتنة ! أى بنى اللكيعة وعبيد العصا وبنى الاماء ، والله لئن قرعت عصا لأتركنكم كأمس الدابر .

مالك بن دينار قال : ربما سمعت الحجاج يخطب ويذكر ما صنع به أهل العراق وما صنع بهم ، فيقع فى نفسى أنهم يظلمونه وأنه صادق ، لبيانه وحسن تخلصه بالحجج . وقسم الحجاج مالا فأعطى منه مالكَ بنَ دينار فقبل وأراد أن

(١) لحو العصا : نزع قشرها عنها ، يهددهم بسلخ جلودهم عن اجسادهم

(٢) كان غدير الماء إذا كان لحى من احياء العرب خاصة ثم ورد عليه يوم السقي ابل غرائب من حي آخر قام الرعاة فى وجوه الابل يضربونها ضربا شديدا لردها عن الماء

يدفع منه إلى حبيب أبي محمد فأبى أن يقبل منه شيأ ، ثم مر حبيب بمالك واذا هو يقسم ذلك المال ، فقال له مالك : أبا محمد ، لهذا قبلناه ! فقال له حبيب : دعني مما هناك أسألك بالله : ألحجاج اليوم أحب اليك أم قبل اليوم ؟ قال : بل اليوم ! فقال حبيب : فلا خير فى شيء حبب اليك الحجاج .

ومر غَيْلَانُ بْنُ خَرَشَةَ الضبيُّ مع عبدِ الله بن عامر على نهر عبد الله الذى يشق البصرة فقال عبدُ الله : ما أصلح هذا النهر لأهل هذا المصر ! فقال غيلان : أجل أيها الأمير ، يُعلِّم القومُ فيه صِبيانهم السِّباحة ويكون لشفاههم ومسيل مياههم وتأتيهم فيه مِيرَتُهم. قالوا : ثم مر غيلان يُساير زِياداً على ذلك النهر ، وكان قد عادى ابن عامر فقال زيادٌ : ما أضر هذا النهر بأهل هذا المصر! فقال غيلان :أجل والله أيها الأمير ، تَنِزُّ منه دُورهم ويغرق فيه صبيانهم، ومن أجله تكثر بعوضهم !

فالذين كرهوا البيان إنما كرهوا مثل هذا المذهب ، فأما نفس حسن البيان فليس يذمه الا من عجز عنه ، ومن ذم البيان مدح العِيَّ وكفى بذلك جهلا وخبالا. وللخالد بن صفوان فى الجبن المأكول كلام ذهب فيه شبيها بهذا المذهب . ورجع طاوُس عن مجلس محمد بن يوسف[(١)] — وهو يومئذ والى اليمن — فقال : ماظننت أن قول « سُبْحَانَ اللهِ » يكون معصية لله حتى كان اليوم ، سمعت رجلا أبلغ ابنَ يوسف عن رجل كلاما فقال له رجل فى المجلس : « سبحان الله » ! كالمستعظم لذلك الكلام ، فغضب ابنُ يوسف .

قال أبو الحسن وغيره : دخل يزيدُ بْنُ أبى مُسْلِم على سُليمان بنِ عبد الملك — وكان دميما — فلما رآه قال : على رجل أجرَّكَ رَسَنَكَ[(٢)] وسَلَّطَكَ على المسلمين لعنةُ الله ! فقال . يا أمير المؤمنين ، إنك رأيتنى والأمر عنى مُدْبِرٌ ولو رأيتنى والأمر علىَّ مقبل لا استعظمتَ من أمرى ما استصغرت ! فقال سليمان : أفترى الحجاجَ بلغ قعر جهنم بعدُ ؟ فقال يزيد : يا أمير المؤمنين . يجئُ الحجاج يوم القيامة بين أبيك وأخيك قابضاً على يمين أبيك وشمال أخيك ، فضعه من النار حيث شئت !

---

(١) هو اخو الحجاج بن يوسف الثقفى

(٢) اجرك رسنك : اطلق لك من زمام الامر والنهى

قال : وذكر يزيدُ بنُ عبدِ الملك (١) يزيدَ بنَ أبي مسلم بالعفة عن الدينار والدرهم وهمَّ أنْ يستكفيه مُهماً من أمره . فقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله : ألا أدلك على من هو أزهد فى الدينار والدرهم منه ، وهو شر الخلق ؟ قال: بلى! قال . إبليس.

قال: وقال أُسَيْلِمُ بن الأحنف للوليد بن عبدالملك قبل أن يُستخلف : أصلح الله الأمير ، إذا ظننت ظناً فلا تحققه ، واذا سألت الرجال فسلهم عما تعلم فاذا رأوا سرعة فهمك لما تعلم ظنوا بك ذلك فيما لا تعلم ، ودُس من يسأل لك عما لا تعلم. وكان أُسَيْلِم بن الأحنف الأسدى ذا بيان وأدب وعقل وجاه . وهو الذى يقول فيه الشاعر .

أَلاَ أَيُّها الرَّكْبُ المُخِبُّونَ هَلْ لَكُمْ ... بِسَيِّدِ أَهْلِ الشَّامِ تُحْبَوْا وَتَرْجِعُوا (٢)

أُسَيْلِمُ ذَاكُمْ لاَ خَفَا بِمكَانِهِ ... لِعَيْنٍ تدجَّا أَوْ لِأُذْنٍ تَسمَعُ

مِنَ النَّفَرِ البِيضِ الَّذِينَ إِذَا انتموا ... وَهَابَ الرِّجَالُ حَلْقَةَ البَابِ قَعْقَعُوا (٣)

جَلاَ الأَذْفَرُ الأَحْوَى مِنَ المِسْكِ فَرْقَهُ ... وَطِيبُ الدِّهَانِ رَأْسَهُ فَهْوَ أَنْزَعُ (٤)

إِذَا النَّفَرُ السُّودُ اليَمَانُونَ حَاوَلُوا ... لهُ حَوْكَ بُرْدَيْهِ أَرَقُّوا وَأَوْسَعُوا (٥)

وهذا الشعر من أشعار الحفظ والمذاكرة .

الهيثم بن عدى قال: قدمت وُفود العراق على سُليمان بن عبد الملك بعد ما استُخلِف فأمرهم بشتم الحجاج فقاموا يشتمونه فقال بعضهم : إن عدوَّ الله الحجاج كان عبداً زبابا قنوَّر بن قنوَّر (٦) لا نسب له فى العرب . قال سليمان : أيُّ شتم هذا .!؟ إن عدو الله الحجاج كتب اليَّ : إنما أنت نقطةٌ من مِداد فان رأيت فيَّ ما رأى أبوك وأخوك كنتُ لك كما كنتُ لهما وإلا فأنا الحجاج وأنت النقطة

(١) كان بالاصل : بزيد بن المهلب ، وهو خطا ، والصواب ما اثبتناه . لأن عمر بن عبد العزيز لايجلس فى حضرة يزيد بن المهلب ولا يكون مستشاره .

(٢) تحبوا : تاخذون الحباء وهو للمال الذي يبذل جودا وكرماً

(٣) قعقعوا : دقوا ابواب الملوك على غير هيبة ولا وجل

(٤) فرقه : شعر ناصيته . انزع : منحسر شعر الجبهة

(٥) النفر اليمانون : لان الحياكة الجيدة كانت فى اهل اليمن

(٦) القنور : السيء الخلق الشديد الغضب

فان شئت محوتك وان شئت أثبتك . فالعنوه لعنه الله . فأقبل الناس يلعنونه ، فقام ابن أبي بُردة بن أبي موسى الأشعري فقال : يا أمير المؤمنين ، إنا نخبرك عن عدو الله بعلم ! قال : هاتِ ؟ قال : كان عدو الله يتزين تزين المومسة ويصعد المنبر فيتكلم بكلام الأخيار فإذا نزل عَمِلَ عَمَلَ الفراعنة ، وأكذب فى حديثه من الدجال . فقال سليمان لرجاء بن حيوة (١) : هذا وأبيك الشم ، لا ماتأتى به السَّفلة .

وعن عوانة قال : قطع ناس من عمرو بن تميم وحنظلة (٢) على الحجاج بن يوسف فكتب إليهم : من الحجاج بن يوسف ، أما بعد فإنكم استخلصتم الفتنة فلا عن حق تقاتلون ولا عن منكر تنهون ، وأيم الله إنى لأهم أن يكون أول ما يرد عليكم من قبلى خيل تنسف الطارف والتالد وتدع النساء أيامى والأبناء يتامى والديار خرابا والسواد بياضا ، فأيما رُفقة مرت بأهل ماء فأهل ذلك الماء ضامنون لها حتى تصير إلى الماء الذى يليه ، تَقدمة منى اليكم والسعيد من وعظ بغيره والسلام . مسلمة بن محارب قال : كان الحجاج يقول : أخطب الناس صاحب العمامة السوداء بين أخصاص البصرة ، إذا شاء خطب وإذا شاء سكت . يعنى الحسن ، يقول إنه لم ينصب نفسه للخطبة .

ولما اجتمعت الخطباء عند معاوية فى شأن يزيد ، وفيهم الأحنف ، قام رجل من حمير فقال : إنا لا نطيق أفواه الكمالِ — يريد الجمال — عليهم المقال وعلينا الفعال . وهذا من الحميرى يدل على تشادق خطباء نزار .

سفيان بن عيينة قال : قال ابن عباس : إذا ترك العالم قول : لا أدرى ، أصيبت مقاتله . وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله . من قال : لا أدرى ؟ فقد أحرز نصف العلم . لأن الذى له على نفسه هذه القوة فقد دلنا على جودة التثبت وكثرة الطلب وقوة المنة .

---

(١) هو رجاء بن حيوة الكندي ، كان من فضلاء التابعين حسن الكلام جيد المنطق خطيباً بليغاً ، وكان محبباً إلى بنى أمية فكانوا يقربون مجلسه منهم ، وكان أحمر الوجه أبيض اللحية ، مات سنة ١١٢ هـ

(٢) قطعوا : يعنى أنهم قطعوا الطريق على الناس وأخافوا السابلة

وقيل للمسيح بن مريم عليه السلام : من نُجالس ؟ قال : من يزيد فى علمكم منطقه وتذكركم الله رؤيته ويرغبكم فى الآخرة عمله ، ومر المسيح بقوم يبكون فقال : مالهؤلاء يبكون ؟ قالوا : يخافون ذنوبهم . قال : أتركوها يُغفر لكم.

قال الوصافى : دخل الهيثم بنُ الأسود بن العُريان — وكان شاعراً خطيباً — على عبد الملك بن مروان فقال له : كيف تجدك ؟ قال : أجدنى قد ابيض منى ما كنت أحب أن يَسودَّ، واسود منى ما كنت أحب أن يبيضَّ ، واشتد منى ما كنت أحب أن يلين ، ولانَ منى ما كنت أحب أن يشتد . ثم أنشد :

إسْمَعْ أُنَبِّئْكَ بِآيَاتِ الْكِبَرْ ... نَوْمُ الْعِشَاءِ وَسُعَالٌ بِالسَّحَرْ
وَقِلَّةُ النَّوْمِ إِذَا اللَّيْلُ اعْتَكَرْ ... وَقِلَّةُ الطُّعْمِ إِذَا الزَّادُ حَضَرْ (١)
وَسُرْعَةُ الطَّرْفِ وَتَحْمِيجُ النَّظَرْ ... وَحَذَرًا أَزْدَادُهُ إِلَى حَذَرْ
وَتَرْكِيَ الْحَسْنَاءَ فِى قُبْلِ الطُّهُرْ ... وَالنَّاسُ يَبْلَوْنَ كَمَا يَبْلَى الشَّجَرْ

وقالوا: مُرُوا الأحداثَ بالمراء والكهولَ بالفكر . وقال عبد الله بن الحسين : المراء رائد الغضب ، فأخزى الله عقلا يأتيك به الغضب . وقالوا : أربعة تشتد معاشرتهم : الرجل المتوانى والرجل العالم والفرس المَرِحُ والملك الشديد المملكة . وقال غاز أبو مجاهد يعارضه : أربعة تشتد مؤنتهم : النديم المُعَربد والجليس الأحمق والمغنى التائه والسَّفِلة إذا نفروا . وقال أبو شِمر الغسانى : أقبل على فلان باللحظ واللفظ ، وما الكلام إلا زجر أو وعيد . قال عُميرُ بن الحُباب — وروى ذلك عنه مِسعَرٌ — : ما أغرت على حى فى الجاهلية أحزم امرأة ولا أعجز رجلا من كلب، وأحزم رجلا وأعجز امرأة من تغلب . وقامت امرأة من تغلب إلى الجحّافِ بنِ حكيم — حين أوقع بالبِشرِ فقتل الرجال و بقر بطون النساء — فقالت له : فض الله فاك وأصمك وأعماك وأطال سُهادك وأقل رُقادك ، فوالله إن قتلت إلا نساء

---

(١) اعتكر : أظلم

أسافلهن دُمًى وأعاليهن ثُدى ! فقال الجحاف لمن حوله : لولا أن تَلِدَ مِثلها لخليت سبيلها . ! فبلغ ذلك الحسن فقال : إنما الجحَّاف جَذْوَة من نار جهنم . وكانَ عامر ابْنُ الظَّرِبِ العَدْوَانىُّ حكيما وكان خطيباً رئيساً وهو القائل : يامعشر عدوان ، إن الخير ألوف عزُوف ولن يفارق صاحبه حتى يفارقه ، وإنى لم أكن حكيما حتى اتبعتُ الحكماء ولم أك سيدكم حتى تعبدت لكم . وقال أعشى بنى شيبان (١) :

وَلاَ أَنَا فِى أَمْرِى وَلاَ فِى خَلِيقَتِى ... بِمُهْتَضَمٍ حَقِّى وَلاَ قَارِعٍ سِنِّى (٢)

وَلاَ مُسْلِمٍ مَوْلاَىَ مِنْ شَرِّ مَاجَنَى ... وَلاَ خَائِفٍ مَوْلاَىَ مِنْ شَرِّ مَاأَجْنِى (٣)

وَإِنَّ فُؤَاداً بَيْنَ جَنْبَىَّ عَالِمٌ ... بِمَا أَبْصَرَتْ عَيْنِى وَمَا سَمِعَتْ أُذْنِى

وَفَضَّلَنِى فِى القَوْلِ وَالشِّعْرِ أَنَّنِى ... أَقُولُ بِمَا أَهْوَى وَأَعْرِفُ مَاأَعْنِى (٤)

وقال رجل من بنى العباس : ليس ينبغى للقرشى أن يستغرق فى شىء من العلم إلا علم الأخبار ، فأما غير ذلك فالنُّتَف والشُّذَر من القول ، وقال آخر :

---

(١) هو عبد الله بن خارجة ، من ذهل بن شيبان . ويقال له : أعشى بنى ربيعة . دخل على عبد الملك وهو يتردد في الخروج لقتال ابن الزبير ولا يجد ، فقال له : ياأمير المؤمنين ، مالى أراك متلوما ينهضك الحزم ويقعدك العزم وتهم بالاقدام وتجنح إلى الاحجام ، انفذ لبصيرتك وأمض رأيك وتوجه إلى عدوك ، فجدك مقبل وجده مدبر ، وأصحابه له ماقتون ونحن لك محبون ، وكلمتهم متفرقة وكلمتنا عليك مجتمعة ، والله مانؤتى من ضعف جنان وقلة أعوان ، ولا يثبطك عنه ناصح ولا يحرضك عليه غاش ، وقد قلت فى ذلك أبياتاً ! فقال عبد الملك : هاتها فانك تنطق بلسان ودود وقلب ناصح . فقال :

آل الزبير من الخلافة كالتى ... عجل النتاج بحملها فأحالها

أو كالضعاف من الحمولة حملت ... مالا تطيق فضيعت احمالها

قوموا إليهم لا تناموا عنهم ... كم للغواة اطلتمو إمهالها

إن الخلافة فيكمو لا فيهم ... مازلتمو أركانها وثمالها

أمسوا على الخيرات قفلا مغلقا ... فانهض بيمنك فافتح أقفالها

فضحك عبد الملك وقال : صدقت ياأبا عبد الله ، إن أبا خبيب لقفل دون كل خير ولا نتأخر عن مناجزته إن شاء الله . وله حوادث وأخبار مع عبد الملك ومع الحجاج من اطرف مايروى .

(٢) ويروى : ولا فى خصومتى

(٣) ويروى : عند جناية

(٤) ويروى : والرأى . وبعد هذا :

وأصبحت إذ فضلت مروان وابنه ... على الناس قد فضلت خير اب وابن

وَصَافِيَةٍ تُعْشِي العُيُونَ رَقِيقَةٍ رَهِينَةِ عَامٍ فِي الدِّنَانِ وَعَامِ
أَدَرْنَا بِهَا الكَأْسَ الرَّوِيَّةَ بَيْنَنَا مِنَ اللَّيْلِ حَتَّى انْجَابَ كُلُّ ظَلَامِ
فَمَا ذَرَّ قَرْنُ الشَّمْسِ حَتَّى كَأَنَّنَا مِنَ العِيِّ نَحْكِي أَحْمَدَ بْنَ هِشَامِ (١)

ومر رجل من قريش بفتى من ولد عتَّاب بن أسيد وهو يقرأ كتاب سيبويه فقال : أف لكم ! علم المؤدبين وهمة المحتاجين ؟ وقال ابن عتاب : يكون الرجل نحويا عروضيًّا وقساما فرضيًّا وحسنَ الكتابة جيدَ الحساب حافظا للقرآن راوية للشعر وهو يرضى أن يعلم أولادنا بستين درهمًا ، ولو أن رجلا كان حسن البيان حسن التخريج للمعاني ليس عنده غير ذلك ، لم يرض بألف درهم .

لأن النحوى، الذى لا إمتاع عنده كالنجار الذى يُدعى ليعلق بابا وهو أحذق الناس ثم يفرغ من تعليقه ذلك الباب فيقال له : انصرف . وصاحب الامتاع يراد فى الحالات كلها .

وقال عبدُ الله بن يَزيد السُّفيانى : عَوِّد نفسك الصبر على جليس السوء

(١) كان احمد بن هشام من سراة الدولة العباسية ووجوهها ، دخل عليه محمد بن وهيب يوماً وقد مدحه فرأى بين يديه غلمانا روقة مردا وخدما بيضا فرهة فى نهاية الحسن والكمال والنظافة فدهش لما رأى وبقى متبلدا لاينطق حرفا ، فضحك احمد منه وقال له : مالك ويحك ! تكلم بما تريد ؟ فقال :

قد كانت الأصنام وهى قديمة كسرت وجدعهن إبراهيم
ولديك اصنام سلمن من الأذى وصفت لمن غضارة ونعيم
وبنا إلى صنم نلوذ بركنه فقر وانت إذا هززت كريم

فقال له : اختر من شئت ؟ فاختار واحدا منهم فأعطاه إياه فقال يمدحه :

فضلت مكارمه على الأقوام وعلا فحاز مكارم الأيام
وعلته أبهة الجلال كأنه قمر بدا لك من خلال غمام
إن الأمير على البرية كلها بعد الخليفة احمد بن هشام

وبعث احمد بن هشام إلى اسحاق الموصلى بزعفران رطب وكتب إليه :

إشرب على الزعفران الرطب متكئاً وأنعم نعمت بطول اللهو والطرب
فحرمة الكأس بين الناس واجبة كحرمة الود والأرحام والأدب

فكتب إليه اسحاق :

أذكر أبا جعفر حقا أمت به وإياك مشغوفان بالأدب
وأننا قد رضعنا الكأس درتها والكأس حرمتها اولى النسب

فليس بعد هذا سبيل إلى وصف ابن هشام بالعى إلا ان يكون الشاعر اراد التعريض به لأمر فى نفسه

فانه لا يكاد يخطئك . وقال سهل بن عبد العزيز : من ثقل عليك بنفسه وغمك فى سؤاله فألزمه أذنا صماء وعينا عمياء . سهيل بن أبى صالح عن أبيه قال : كان أبو هريرة إذا استثقل رجلا قال : اللهم اغفر له وارحنا منه . وقال ابنُ أبى أُمية شهدت الرَّقاشىَّ فى مجلس وكان إلىَّ بغيضا مقيتا:

فَقَالَ اقْتَرِحْ كُلَّ مَاتَشْتَهِى   فَقُلْتُ اقْتَرَحْتُ عَلَيْكَ السُّكُوتَا

وقال ابن عباس : ألعلم أكثر من أن يحصى فخذوا من كل شىء أحسنه .

المدائنى عن العباس بن عامر قال : خطب محمد بن الوليد بن عتبة إلى عُمر ابن عبد العزيز رحمه الله أخته فقال : الحمد لله رب العزة والكبرياء ، وصلى الله على سيدنا محمد خاتم الأنبياء ، أما بعد فقد أحسن بك ظنا من أودعك حرمته واختارك ولم يختر عليك ، وقد زوجناك على ما فى كتاب الله : إمساك بمعروف أو تسريح باحسان .

وخطب اعرابى وأعجله القول وكره أن تكون خطبته بلا تحميد ولا تمجيد فقال : الحمد لله غير ملال لذكر الله ولا إيثار غيره عليه . ثم ابتدأ القول فى حاجته. وسأل أعرابى ناساً فقال : جعل الله حظكم فى الخير ولا جعل حظ السائل منكم عُذرة صادقة .

وكتب إبراهيم بن سَبَّابة إلى صديق له كثير المال كثير الدخل كثير النض، إما مستسلفا وإما سائلا ، فكتب اليه الرجل : العيال كثير والدين ثقيل والدخل قليل والمال مكذوب عليه ! فكتب إليه إبراهيم : إن كنت كاذبا فجعلك الله صادقا وإن كنت محجوجا فجعلك الله معذورا . وقال الشاعر :

لَعَلَّ مُفِيدَاتِ الزَّمَانِ يُفِدْنَنِى   بَنِى صَامِتٍ فِى غَيْرِ شَىْءٍ يَضِيرُهَا

وقال أعرابى : ألهم لا تُنزلنى ماء سوء فأكون امرأ سوء . وقال أعرابى : ألهم قنا عثرات الكرام . وسمع مجاشع الربعى رجلا يقول : الشحيح أعذر من الظالم ! فقال : أخزى الله شيئين خيرهما الشح . وأنشدنا أبو فروة :

إنّى مدحتُك كاذبا فأثبتنى لما مدحتُك ما يُثاب الكاذبُ

وأنشد على بن مَعاذ:

ثالبنى عمرو وثالبته فأثم المثلوب والثالب
قلتُ له خيراً وقال الخنا كلٌّ على صاحبه كاذبْ

أبو معشر قال : لما بلغ عبد الله بن الزبير قتل عبدِ الملك بن مروان عمرو ابن سعيد قام خطيبا فقال : إن أبا ذِبّان قتل لطيم الشيطان « كذلك نُولّى بعضَ الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون »

ولما جلس عثمان بن عفان رضى الله عنه على المنبر قال : ياأيها الناس ، إن الله قد فتح عليكم أفريقية وقد بعث اليكم ابن أبى سرح عبدَ الله بن الزُّبير بالفتح، قم يا ابن الزُّبير ؟ قال : فقمت وخطبت ، فلما نزلت قال: ياأيها الناس ، أنكحوا النساء على آبائهن وأخواتهن ، فإني لم أر لأبى بكر الصديق ولداً أشبه بهمن هذا.

وقال الخريمى : (١)

وأعددته ذخراً لكلّ ملمّةٍ وسهمُ المنايا بالذخائر مُولعُ

وذكر أبو العيزار (٢) جماعة من الخوارج بالأدب والخطب :

ومسوّمٍ للموت يركب ردعه بين القواضب والقنا الخطّار (٣)
يدنو وترفعه الرماح كأنّه شلوٌ تنشّب فى مخالب ضار (٤)
فثوى صريعاً والرماح تنوشه إنّ الشراة قصيرة الأعمار (٥)
أدباء إمّا جئتهم خطباء ضُمناء كلّ كتيبة جرّار

(١) راجع صفحة ١٠٥ و ٢٤٢
(٢) يؤخذ من سياق عبارة المبرد أن قائل هذا الشعر هو عبيدة بن هلال اليشكرى احد زعماء الخوارج
(٣) كان بالأصول : يركب درعه ، وهو خطأ والصواب ما اثبتناه . ويركب ردعه معناه يخر بوجهه على دمه
(٤) ويروى : يهوى بدل يدنو . والشلو : العضو والقطعة من اللحم
(٥) فثوى : خر إلى الارض . تنوشه : تأخذه وتتناوله من كل جانب . والشراة : الخوارج

ولما خطب سفيان بن الأبرد الأصم الكلبي، فبلغ فى الترغيب والترهيب المبالغ، ورأى عبيدة بن هلال اليشكرى (١) أن ذلك قدفت فى أعضاد أصحابه (٢) أنشأ يقول:

لَعَمْرِى لَقَدْ قَامَ الأَصَمُّ بِخُطْبَةٍ ... لَهَا فِى صُدُورِ الْمُسْلِمِينَ غَلِيلُ
لَعَمْرِى لَئِنْ أَعْطَيْتُ سُفْيَانَ بَيْعَتِى ... وَفَارَقْتُ دِينِى إِنَّنِى لَجَهُولُ

وقال أحد الخطباء الذين تكلموا عند الإسكندر ميتا: كان أمس أنطق منه اليوم، وهو اليوم أوعظ منه أمس (٣) فأخذ أبو العتاهية هذا المعنى بعينه فقال:

بَكَيْتُكَ يَا عَلِيُّ بِدَرِّ عَيْنِى ... فَلَمْ يُغْنِ الْبُكَاءُ عَلَيْكَ شَيَّا
طَوَتْكَ خُطُوبُ دَهْرِكَ بَعْدَ نَشْرٍ ... كَذَاكَ خُطُوبُهُ نَشْراً وَطَيَّا
كَفَى حُزْناً بِدَفْنِكَ ثُمَّ أَنِّى ... نَفَضْتُ تُرَابَ قَبْرِكَ مِنْ يَدَيَّا
وَكَانَتْ فِى حَيَاتِكَ لِى عِظَاتٌ ... وَأَنْتَ الْيَوْمَ أَوْعَظُ مِنْكَ حَيَّا

ومن الأسجاع الحسنة قول الأعرابية لابنها حين خاصمته إلى عامل الماء: أما كان بطنى لك وعاء، أما كان حجرى لك فناء، أما كان ثديى لك سقاء؟ فقال ابنها: أصبحت خطيبة، رضى الله تعالى عنك. لأنها قد أتت على حاجتها بالكلام الوجيز المتخير كما يبلغ ذلك الخطيب بخطبته. وقال النَّمر بن تولب:

وَقَالَتْ أَلاَ فَاسْمَعْ لِلَفْظِى وَخُطْبَتِى ... فَقُلْتُ سَمِعْنَا فَانْطِقِى وَأَصِيبِى
فَلَمْ تَنْطِقِى حَقًّا وَلَسْتِ بِأَهْلِهِ ... فَقُبِّحْتِ مِنْ قَائِلٍ وَخَطِيبِ

وقال أبو عباد كاتب أبى خالد: ما جلس أحد قط بين يدىَّ إلا تمثل لى أنى سأجلس بين يديه.

قال الله عز وجل: « وَقُلْ لَهُمْ فِى أَنْفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً » ليس يريد بلاغة

(١) كان بالاصول: عبد الله، والصواب ما اثبتناه

(٢) قال الجاحظ: فت فى عضدى اى غرنى وخوفنى.

(٣) راجع صفحة ٨٢

اللسان وإن كان اللسان لايبلغ من القلوب حيث يريد إلا بالبلاغة .

وكانت خِطبة قريش فى الجاهلية ـ يعنى خطبة النساء ـ : باسمك اللهم ، ذكرت فلانة وفلان بها مشغوف ، باسمك اللهم لك ما سألت ولنا ما أعطيت .

ولما مات عبد الملك بن مروان صعد المنبر الوليدُ ابنه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : لم أر مثلها مصيبة ولم أر مثلها ثوابا ؛ موت أمير المؤمنين والخلافة بعده ، إنا لله وإنا اليه راجعون على المصيبة ، والحمد لله على النعمة ، إنهضوا فبايعوا على بركة الله رحمكم الله . فقام إليه عَبْدُ اللهِ بنُ هَمَّامٍ (١) فقال :

أَللهُ أَعْطَاكَ الَّتِى لَا فَوْقَهَا ... وَقَدْ أَرَادَ الْمُلْحِدُونَ عَوْقَهَا

عَنْكَ وَيَأْبَى اللهُ إِلَّا سَوْقَهَا ... إِلَيْكَ حَتَّى قَلَّدُوكَ طَوْقَهَا

فبايع الناس

وقيلَ لِعمرو بنِ العاص فى مرضه الذى مات فيه ـ : كيف تجدك ؟ قال أجدنى أذوب ولا أثوب وأجد نجوى (٢) أكثر من رُزئى ، فما بقاء الشيخ على ذلك ؟

وقيل لأعرابى كانت به أمراض عدة : كيف تجدك ؟ قال : أما الذى يعمدنى فحَصَرٌ وأُسْرٌ .

وقال مقاتل : سمعت يزيد بنَ المهلب يخطب بواسط فقال : يا أهل العراق يا أهل السبق والسباق ومكارم الأخلاق ، إن أهل الشام فى أفواههم لُقمة دسمة قد رتبت (٣) لها الأشداق وقاموا لها على ساق ، وهم غير تاركيها لكم بالمراء والجدال فالبسوا لهم جلود النمور (٤)

(١) هو عبد الله بن همام المري السلولى ، كان شاعرا من اكابر الشعراء الذين لهم قول فى سياسة الدولة ، وكان مباينا لسياسة آل الزبير ومؤيدا لسياسة بنى مروان ، وعداده فى اهل الكوفة

(٢) النجو : مايقذف به الانسان من جوفه

(٣) رتبت لها الاشداق : اعدت لازدرادها

(٤) البسوا جلود النمور : غاضبوهم وثوروا بهم وخذوهم بالشدة واشربوا دماءهم فهي لكم سائغة .

(انتهى الجزء الأول ويتلوه الجزء الثانى إن شاء الله تعالى)

فهرس الجزء الاول

من كتاب البيان والتبيين وشرحه

تصحيح لا بد منه

وقعت بعض أغلاط مطبعية فى أثناء الكتاب لايعتد بها ، ولكن رجائى إلى القارىء الكريم أن ينظر فى الصفحة ٨١ سطر ٧ ويضبط بقلمه فيها هذه الآيه هكذا :

« الرَّحْمنُ عَلَّمَ القُرْآنَ خَلَقَ الإنْسَانَ عَلَّمَهُ البَيَانَ »

البيان والتبيين

حققه وشرحه

حسن السندوبي